

ول
وايرل ديورانت

قصة الحضارة

عصر
لويس الرابع عشر



قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر لويس الرابع عشر

تاريخ الحضارة الأوروبية
في عصر

بسكال وموليير وكروموك وملتن
وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا

١٦٤٨ - ١٧١٥

مراجعة
عنايب أدهم

ترجمة
محمد علي أبودرة



تونس

الجزء الثاني من المجلد الثامن

٣٢



بيروت

الكتاب الثاني

انجلترا

١٦٤٩ — ١٧١٤

الفصل السابع

كرومول

١٦٤٩ — ١٦٦٠

١ - الثورة الاشتراكية

بعد أن أطاح البيوريتانيون (المتطهرون) برأس الملك شارل الأول ، في ٣٠ يناير ١٦٤٩ ، واجهوا مشاكل إقامة حكومة جديدة وإستعادة أمن الناس على حياتهم وممتلكاتهم ، في إنجلترا التي أشاعت فيها الفوضى والاضطرابات الحرب الأهلية التي دامت سبع سنين . ونادى « البرلمان المبتور » Rump. p — وهم الأعضاء الستة والخمسون النشطون الذين بقوا من البرلمان الطويل بعد « حركة تطهير برايد » (١٦٤٨) — بأن لمجلس العموم السيادة والمقام الأول ، وأن فيه السكفاية ، وألغى مجلس اللوردات (٦ فبراير ١٦٤٩) ، كما ألغى الملكية ، وعين بمثابة جهاز تنفيذ له « مجلسا للدولة » يتألف من ثلاثة لواءات وثلاثة نبلاء وثلاثة قضاة وثلاثين من أعضاء مجلس العموم ، كلهم مستقلون — أى بيوريتانيون جمهوريون . وفي ١٩ مايو أقيم مجلس العموم ، بصفة رسمية ، الجمهورية الإنجليزية : « ولسوف يتولى الحكم في إنجلترا منذ الآن ، بوصفها جمهورية أو دولة حرة ، السلطة العليا للأمة ، وهم ممثلو الشعب في البرلمان ، ومن يعينونهم إلى جانبهم من وزراء ، نظير الشعب » (١) . ولم تكن الجمهورية ديموقراطية . فقد طالب البرلمان بإقامة أساس ديموقراطى ، ولكن طرد الأعضاء الملكيين أثناء الحرب ، والمشيخين (البرسبترىان) في حركة التطهير ، كان كما قال كرومول ، « قد شئت البرلمان وغربله واخذه إلى مجرد حفنة من الرجال » (٢) .

إن للملاك وحدهم هم الذين كانوا ينتخبون البرلمان في الأصل ، أما الآن فإن مقاطعات برمتها باتت وليس لها ممثلون في «البرلمان للبثور» ولم تستند سلطة هذا البرلمان للبثور إلى الشعب بل إلى الجيش . فإن الجيش وحده هو الذي استطاع أن يحميه من الثوار للملكيين في إنجلترا ، والثوار الكاثوليك في إيرلنده ، والثوار للشيخيين في اسكتلنده ، والثوار للمتطرفين في الجيش نفسه .

ولمواجهة نفقات الحكومة ومتأخرات رواتب الجند اشتط هذا البرلمان في فرض الضرائب قدر ما فعل الملك الراحل . واقتراح مصادرة أملاك كل من حمل السلاح دفاعا عن شارل ، ولكنه في معظم الحالات أرتضى تسوية الأمر بحمل وسط ، هو تقاضى غرامة تماثل جزءا يتراوح بين العشر والنصف من القيمة الأساسية للضيعة . من أجل هذا حمد كثير من صغار النبلاء الذين طأوا الفقر والعوز في إنجلترا إلى الهجرة إلى أمريكا حيث كونوا أسرات أرستقراطية ، مثل آل : وشنجنطن ، وآل راندولف ، وآل ماديسون وآل لي (*) . وأعدم بعض زعماء الملكيين ، وأودع بعضهم السجن . ومع ذلك بقيت حركة الملكيين تقض مضاجع الحكومة ، لأن روح التعاطف مع الملكية سيطرت على الشعب ، فإن إعدام الملك حوله من جانب ضرائب إلى شهيد . وبعد عشرة أيام من موت شارل ظهر كتاب عنوانه « صورة ملكية » لمؤلفه القسيس للشيخى جون جودن ، ولكنه يوهم بأنه أفسكار ومشاعر شارل كما دونها هو بيده قبل موته بزمان وجيز . وربما صيغ بعض هذا الكتاب من مذكرات تركها الملك (٢) . ومهما يكن من أمره ، فإن الصورة التي عرضها الكتاب هي صورة حاكم طيب القلب كان في واقع الأمر يدافع عن إنجلترا ضد طغيان أقلية حاكمية (أوليجاركية) غليظة القلب

(*) جددت الحرب الأهلية الأمريكية الحرب الأهلية الإنجليزية حيث سرشت أبناء الارستقراطيين الانجليز في الجنوب إلى أبناء البيوريتانيين الانجليز في الشمال .

لا ترجم . وطبع الكتاب ستا وثلاثين مرة وترجم إلى خمس لغات في سنة واحدة ، ولم تفلح الضجة التي أثارها كتاب ملتون «تخطيم النور للقدسة» (١٦٤٩) في محو أثر كتاب جون جودن هذا ، وأسهم الكتاب في إثارة الرأي العام ضد الحكومة الجديدة . وشجع وكلاء الملاكين الذين شرعوا لغورهم في كل مقاطعة في إنجلترا يبيعون الشعور العام لاطاعة أمرة ستيوارت . وقابل مجلس الدولة هذه الحركة ببث العيون والأرصاء على أوسع نطاق ، والاسراع في القبض على الرعماء الذين يحتمل أنهم كانوا يقومون بتنظيم ثورة .

وفي الناحية الأخرى كانت هناك أقلية من الأهالي وقدم كبير من الجيش ، يطالبون بديموقراطية شاملة بشكل ما في الكلامه من معنى . كما طأطأ بعضهم بديموقراطية اشتراكية . وأمطرت السماء نشرات متطرفة . وأصدر الكولونيل جون للبيرن وحده مائة منها . ولم يكن ملتون في تلك الحقبة شاعراً بل مؤلف نشرات وكتيبات . وهاجم للبيرن كرومول على أنه طاغية مرتد مناقق . وشكا أحد الكتاب من « أنك قلما نحدث إلى كرومول في أي موضوع إلا وضع يده على صدره ورفع عينيه وقال اللهم فاشهد . أنه سوف يبكي ويصرخ ويبدي الندم ، حتى وهو يسدد إليك ضربة تصيب منك مقتلاً (٤) » . وفي إحدى النشرات تساءل كاتب آخر : « كان يحكمنا من قبل الملك والوردات والنواب ، أما الآن فيتولى الحكم فينا قائد الجيش والمحكمة العسكرية والنواب ، فقل لنا بربك ، ما هو الفرق ؟ » (٥) وأحست الحكومة الجديدة بأنها مضطرة إلى تشديد الرقابة على الصحف والمنابر . وفي أبريل ١٦٤٩ قبض على للبيرن وثلاثة آخرين لاصدارهم نشرتين تصفان إنجلترا وهي « مكبله في أغلال جديدة » . وهاج الجيش مطالباً بالافراج عنهم . وتوعد نساؤهم كرومول بالويل والثبور إذا مس للمعتقلون بأذى . وأرسل للبيرن من سجنه إلى طابع نشراته ، متحدثاً ، إتماماً بالخيانة العظمى « موجهاً ضد كرومول وأبرتون » . وفي أكتوبر قدم الكتاب الأربعة إلى المحاكمة في قضية أثار اهتمام الرأي

العام وشدت الآلاف من الناس إلى المحكمة . وتحدى للبيران القضية ، وطالب بمرض القضية على هيئة المخلفين . فلما صدر الحكم ببراءة الكتاب الأربعة جميعهم انطلقت من الجمع الحاشد صيحة مدوية جماعية ، يعتقد أنه لم يسمع مثلها قط في دار البلدية ، استمرت نحو نصف ساعة بلا انقطاع ، حتى علا الشحوب وجوه القضاة من شدة الفزع (٦) وظل للبيران لمدة طامن بطل الجيش . ونفى في ١٦٥٢ ثم عاد في ١٦٥٣ فقبض عليه ثانية ، ثم برىء (أغسطس ١٦٥٣) ، ولكنه ظل مع ذلك سجيناً . وفي ١٦٥٥ أفرج عنه وقضى نحبه ١٦٥٧ ، وهو في الثالثة والأربعين من العمر .

وذهب بعض « أنصار المساواة » (حزب نشأ في البرلمان الطويل ١٦٤٧ يدعو إلى إزالة الفوارق بين الناس) إلى أبعد مما ذهب إليه للبيران والديمقراطية ، فدعوا إلى توزيع السلع توزيعاً أقرب إلى المساواة . أنهم تنساءوا : لم يكون هناك أغنياء وفقراء ؟ لماذا يتضور بعض الناس جوعاً على حين يحتكر الأغنياء الأرض ؟ . وفي أبريل ١٦٤٩ ظهر « نبي » يدعى ولیم إفرارد Everard ، وقاد أربعة من الرجال إلى تل سان جورج في سرى . ووضعوا أيديهم على بعض الأرض غير المشغولة ، وفلجوها ، ونثروا فيها البذور ، ودعوا الناس إليها . فانضم إليهم ثلاثون آخرون من جماعة « الحفارين » (وهو اسم أطلق عليهم) . وأنهم ساء كما جاء في تقرير إلى مجلس الدولة ، ليهددون الجيران بأنهم سيعملون الجماعة كلها على القدوم وشيكاً إلى التلال للعمل فيها (٧) . « ولما سبق إفرارد للمشول أمام نقيب الجيش سيرتوماس هيرفاكس ، أوضح له أن أتباعه قد اعتزموا احترام الأملاك الخاصة ، « وأنهم لن يقربوا إلا الأراضي العامة غير المفلوحة ليعملوا فيها حتى تؤتي ثمارها ، « وأنهم يأملون » في أن يحين لجأة الوقت الذي يأتي فيه كل الناس طائعين مختارين وينزلون عن أراضيهم وضياعهم ويذعنون لجماعة الأخيار هذه (٨) » . فما كان من هيرفاكس إلا أن أخلى سبيل الرجال على أنهم أفراد متمسبون لا يخشى منهم أي أذى . وتابع أحدهم — وهو

جيرارد ونستابل - الحركة ببيان أصدره في ٢٦ أبريل ١٩٤٩ ، تحت عنوان « لواء نصير المساواة الصادق يتقدم إلى الامام » : « في البدء جعل العقل (الخالق العظيم) الأرض ملكا عاما مشتركا للحيوان والإنسان ، ولكن الإنسان فيما بعد عميت بصيرته فأصبح عبدا أكثر خضوعا لبنى جنسه من خضوع حيوانات الحقل لشخصه هو ، وجرى التصرف في الأرض بالبيع والشراء ، وأحاطها الحسكام بالحواجز والأسياج ، وبقيت في حوزة فئة قليلة من الناس . وكل ملاك الأرض لصوص ولن تنقطع الجريمة والكراهية والبهضاء ما لم تسترد الملكية العامة المشتركة (٩) . وفي « قانون الحرية » (١٦٥٢) توسل ونستابل إلى الجمهورية أن تقيم مجتمعا لا يوجد فيه بيع ولا شراء ، ولا محامون ، ولا أغنياء ولا فقراء ، يجبر فيه الجميع على العمل حتى سن الأربعين ، وبعد ذلك يعفون من السكدح . ويباح حق الانتخاب لكل البالغين من الذكور ، ويكون الزواج إجراء مدنيا ، والطلاق حرا مباحا (١٠) . وتخلّى « الحمارون » عن مشروعهم ، ولكن دعايتهم نفذت إلى عقول الفقراء الإنجليز ، وربما عبرت القنال إلى فرنسا ، وعبرت المحيط إلى أمريكا .

أن كرومول نفسه ، وهو من ملاك الأرض ، وهو الشديد الخبرة بطبيعة الإنسان ، لم يثق في هذه المثل العليا في الملكية العامة ، بل لم يثق حتى في حق الاقتراع للبالغين . وفي فترة الفوضى التي لامعدى عنها ، عقب قلب أية حكومة ، تدعو الحاجة إلى شيء من سلطة مركزة في بعض الأيدي ، وقد تمثلت في كرومول ، وأن كثير ممن أوغر صدورهم منه اعدام الملك ، رحبوا لبيع بعض الوقت بدكتاتورية بدت البديل الوحيد للإحلال الاقتصادي والسياسي بل أن الجيش نفسه ، حين ترامت إليه أرباب النورة المضادة التي تدبر في أيرلنده واسكتلنده ، غمره الفرح إذ أيقن أن يد كرومول الحديدية على أتم استعداد لقيادته ضد المعصاة والثوار القديين

لم يسعوا وراء « يوتوبيا » أو دينا مثالية ديمقراطية ، بل وراء عودة ملكية تثار وتنتقم .

٢ — ثورة أيرلنده

في أيرلنده وحذر الفحل ضد الثورة الكبرى ، بشكل عابر ، بين البروتستانت في اقليم (The Pale) في شرق أيرلنده حول دبلن والكاثوليك فيه وفيما وراءه . فقد حدث حتى قبل اعدام شارل الأول ، أن وقع أرل أورموند جيمس بتلر ، بوصفه نائب الحاكم في أيرلنده ، مع اتحاد الكاثوليك في كلكني Kilkenny (١٧ يناير ١٦٤٩) وافقوا بمقتضاها ، وفي مقابل الحرية الدينية وبرلمان أيرلندي مستقل ، على تزويده بخمسة عشر ألفا من المشاة وخمسمائة من الجياد . وبعث أورموند برسالة إلى أمير ويلز ، الذي اعترف أورموند لفوره بأنه شارل الثاني ، يدعوهم فيها للقدوم إلى أيرلنده ليقود جيشا مشتركا من البروتستانت والكاثوليك . وآثر شارل الذهاب إلى اسكتلنده ، ولكن كرومول اعتزم أن يواجه تهديدات أيرلنده أولا .

وحين حط كرومول رحاله في أيرلنده في أغسطس ، كانت القوات الموالية للجمهورية قد هزمت بالفعل أورموند في رانمينز ، وتراجع هو مع ما تبقى من قواته (٢٣٠٠ جندي) إلى مدينة دروجيدا المحصنة ، الواقعة على نهر بوين . فحاصرها كرومول بعشرة آلاف جندي وافتحمها واستولى عليها عنوة (١٠ سبتمبر ١٦٤٩) وأمر بقتل من من بقى حاميتها على قيد الحياة (١١) . ولم يفلت من المذبحة بعض المدينين ، وقتل كل قسيس في المدينة (١٢) ، حتى بلغ عدد ضحايا المذبحة المنتصرة نحو ٢٣٠٠ . واشترك كرومول في شرف النصر مع الله : « أرجو أن تنسب انقلاوب الطاهرة هذا المجد إلى الله الذي يرجع إليه الفضل في هذه الرحمة حقاً (١٣) » . وتحنى «

أن تساعد هذه المحنة كثيرا على حقن الدماء بفضل كرم الله (١٤) .
وإنا لنشاركه رجاءه المخلص في أن تضع مثل هذه الضربة الواحدة من
الإرهاب حدا لثورة ، وتنقذ حياة الكثيرين من الجانبين .

ولكن الحرب استمرت ثلاثة أعوام آخر ، فان كرومول تقدم من
دروجيدا لحصار وكسفورد ، واستولى عليها ، واتى ١٥٠٠ من المدافعين
عنها ومن سكانها مصرعهم . وقال كرومول « أن الله ، بشيء من عناية
إلهية غير متوقعة ، في هدله القويم ، قد أنزل بهم حكما عادلا حيث
كفروا بدمائهم عن أعمال القسوة الوحشية التي اقترفوها ضد حياة الكثيرين
من البروتستانت المساكين (١٥) » . ولكن سياسة المذابح أخفقت فان
مدينتي دنكانون ووترفورد تمحدا حصار كرومول . واستسلمت كلكني
لمجرد أنها تلقت شروطا كانت مرفوضة في أى مكان آخر ، وتم الاستيلاء
على كلونمل ولكن بعد فقد ألني رجل . وما أن ترمى إلى كرومول بأ
وصول شار الثاني إلى اسكتلنده حتى ترك مواصلة الحرب في إيرلنده لعهده
هنري أيرتون ، وأبحر هو إلى انجلترا (٢٤ مايو ١٦٥٠) .

وكان أيرتون قائدا قديرا ، ولكنه مات بالطاعون في ٢٦ نوفمبر ١٦٥١ .
وبذلت سياسة المذابح ، وصدر العفو عن الثوار ، وبمقتضى معاهدة
كلنكني (١٢ مايو ١٦٥٢) استسلموا جميعا تقريبا ، شريطة السماح لهم
بالهجرة دون طائق . وفي ١٢ أغسطس صدر « قانون التسوية في أيرلنده » ،
الذي ينص على مصادرة كل ممتلكات الأيرلنديين أو بعضها — أيا كان
مذهبهم — ممن يعجزون عن اثبات أنهم كانوا موالين للجمهورية ، وبهذه
الطريقة انتقلت ملكية نحو مليونين وخمسمائة ألف فدان (أيسكر) من
أراضي أيرلنده إلى جنود أو مدنيين إنجليز أو أيرلنديين كانوا يناصرون
كرومول في أيرلنده . وبهذا انتقل ثلثا أرض أيرلنده إلى أيدي
الإنجليز (١٦) . وانضمت مقاطعات كلدار ودبلن وكارلو وكلو وكسفورد

لثفـسـكـل « Pale » أو إقليـمـا إنـجـلـزـيـاً جـديـداً في أيرلندة ، وبذلت محاولات لإقصاء كل ملاك الأرض الأيرلنديين أياً كانوا ، ثم المواطنين الأيرلنديين عن هذه المقاطعات . وجردت آلاف الأسرات الأيرلندية من أملاكها ، وأعطوا مهلة نهايتها أول مارس ١٦٥٥ ليجدوا لأنفسهم وطناً آخر . وشحن المئات منهم على ظهور السفن إلى بربادوس ، (جزر الهند الغربية) أو أما كن أخرى بهمة التشرد .

وقدر سير وليم ريتي أنه من بين سكان أيرلندة البالغ عددهم ١٠٠٠٠٠ ر ١٦٦٤ ، في ١٦٤١ ، كان قد هلك حتى ١٦٥٢ نحو ٦١٦٠٠٠ بسبب الحرب أو للوت جوعاً أو الطاعون ، وقال أحد الضباط الانجليز : في بعض المقاطعات « قد يسير للمرء عشرين أو ثلاثين ميلاً دون أن يجد مخلوقاً على قيد الحياة ، إنساناً أو حيواناً أو طائراً » وقال آخر : « إن الشمس لم تشرق قط على أمة أشد تعاسة من هذه (١٧) » . وحرّم المذهب الكاثوليكي بحكم القانون وصدرت الأوامر إلى رجال الدين الكاثوليك بمغادرة أيرلندة في بحر عشرين يوماً ، وكان الموت عقوبة من يخفى أياً منهم ، وفرضت عقوبات صارمة على التخلف عن حضور الطقوس البروتستانتية يوم الأحد . ومنح القضاء والحكام سلطة جمع أطفال الكاثوليك وإرسالهم إلى إنجلترا لتلقى أصول المذهب البروتستانتى (١٨) . إن كل الوحشية التي لقيها البروتستانت على يد الكاثوليك في فرنسا بين ١٦٨٠ — ١٨٩٠ ، صيها البروتستانت على رؤوس الكاثوليك في أيرلندة بين ١٦٥٠ — ١٦٦٠ . وأصبحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من الروح الوطنية الإيرلندية ، لأن الكنيسة والشعب قذف بهما في بحران من المعاناة والشقاء . وعلقت هذه السنين المريعة بذكرة أيرلندة وكأنها تراث من البغضاء لا يفنى .

٣ — ثورة اسكتلندة

صعد الاسكتلنديون باعدام شارل الأول الذى كانوا هم أنفسهم قد أسلموه إلى البرلمان الانجليزى ، وماد إلى ذاكرتهم فجأة أن والده كان اسكتلنديا . ورأوا فى «تطهير برايد» الذى أخرج المشيخين (البرسبتريناز : كنيسة بروتستانية يدير شئونها شيوخ منتخبون يتمتعون جميعاً بمنزلة متساوية) من البرلمان الطويل ، نقضا « للعصبة المقدسة والميثاق المقدس » الذى أقسم فيه ذلك البرلمان يمين الإخلاص لاسكتلندة وللمذهب المشيخى ، وأوجسوا خيفة من أن يحاول البيوريتانيون المنتصرون فرض مذهبهم البروتستانتى على اسكتلندة كما فرضوه على انجلترا . وفى ٥ فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد مضى أقل من أسبوع على أعدام شارل الأول ، نادى البرلمان الاسكتلندى (مجلس الطبقات) بأبنة شارل الثانى ، الذى كان آنذاك فى الأراضى الوطيئة ، ليكون الملك الشرعى على بريطانيا العظمى وفرنسا وأيرلندة .

وقبل أن يجيز الاسكتلنديون لشارل الثانى الدخول إلى اسكتلندة طلبوا إليه أن يوقع للميثاق الوطنى وعهد العصبة المقدسة والميثاق للقدس ، ويقسم يمين الحفاظ على المذهب للمشيخى أو إقامته فى كل أرجاء ملكه وفى بيته . على أن شارل الذى كان يدين بالفعل بمزيج من الكاثوليكية والتشكك ، لم يكن يروقه مذهب المشيخية ، فى الوقت الذى كان يتوق فيه أيما توق إلى العرش ، فوقع على كره منه ، كل هذه المطالب فى « بريدا » فى أول مايو ١٦٥٠ . وقاد مونتروز ، أنبل الاسكتلنديين فى ذاك العصر - قوة صغيرة من جزر أوركنى إلى اسكتلندة ، أملا فى أن يجمع لشارل جيشا مستقلا عن الميثاقين المشيخين ، ولكنه هزم وأسر وأعدم شنقا (١١ مايو ١٦٥٠) . وفى ٢٣ يونيه حط شارل رحاله فى اسكتلندة ، وهو يتألف على أن يكون على رأس جيش يغزو به الجمهورية البيوريتانية التى أطاحت برأس

آييه . وقبل أن يهب الاسكتلنديون لنجدته ، استحثوه على إصدار بيان يرغب فيه « أن يركع في ذلة وخشوع أمام الله تكفيرا عن معارضة آييه المحسبة المقدسة والميثاق المقدس ، ومن أجل خطيئة أمه بسبب عقيدتها الوثنية (أى اعتناقها الكلدكية) (١٩١) » . وللتكفير عن خطيئات شارل الأول والثانى فرض رجال الكنيسة الاسكتلندية على الجيش والشعب صوما جادا رهيبا ، وأكثروا للجيش أنه لن يقهر ، (٢٠) لأن الملك الشاب قد أرضى السماء . وتحت إلحاح القساوسة طهر الجيش من الضباط الذين وضعوا ولاعهم لملك فوق ولائهم للميثاق والكنيسة الاسكتلندية ، وبهذه الطريقة طرد ثمانون من أقدر القواد .

واقترح كرومول على البرلمان الانجليزى غزو اسكتلنده فى الحال ، دون إنتظار هجوم من جانبها . واعتزل فيرفا كس آنذاك القيادة العليا لجيوش الجمهورية . وكان قدر فض الاشتراك فى محاكمة شارل الأول ، وعين كرومول خلفا له ، فنظم قواته بمزيمته وعجلته للمهودتين ، وعبر إلى اسكتلنده (٢٢ يولييه ١٦٥٠) ، على رأس ١٦ ألف رجل . وفى ٣ أغسطس أرسل إلى لجنة الجمعية العامة للكنيسة الاسكتلندية رسالة زاخرة بالشجاعة والثبات والقدرة على الاحتمال : « هل كل ما تقولون يلتئم إلتناما لاشبهة فيه مع كلمة الله ؟ أتوسل إليكم ، بحق أحشاء المسيح ، أن تفكروا فى أمكم قد تكونون مخطئين (٢١) » . وفى دنبار (٣ سبتمبر) أوقع بالجيوش الاسكتلندية الرئيسية هزيمة منكرة وأسر عشرة آلاف رجل ، وسرطان ما استولى على أدبره وليث . وانهارت مكانة الوفاة الاسكتلنديين ، وتبدد زعمهم بأنهم معصومون من الخطأ . واستدعى الضباط المطرودون على عجل ، وتوج شارل الثانى رسميا فى « سكون Scone » . أما كرومول فقد إلتابه المرض فى أدبره ، وتوقف القتال بضعة شهور .

ثم تقدم الجيش الاسكتلندى بعد إعادته تنظيمه ، وعلى رأسه شارل ،

إلى إنجلترا ، أملا في أن ينضم إلى لواء الشرعية والحق ، كل الملكيين والمشيخيين المخلصين . فتمتعهم كرومول ، حيث كان يحشد أثناء مروره بالمدن الإنجليزية كل قوات الطوارئ ، والمواطنين الصالحين للجندي ، وفي ووتر ، في ٣ سبتمبر ١٦٥١ ، دارت رحى للمركة التي أبطت على الجمهورية ، وحكمت على شارل بأن يلوذ بالمنفى مرة أخرى . وفيها ، بفضل الاستراتيجية الفائقة والبسالة ، استطاعت قوات كرومول الأقل عددا ، أن تهزم ثلاثين ألفا من الاسكتلنديين . وكان شارل شجاعا ولكنه لم يكن قائدا . أنه بذل أقصى الجهد في أن يستحث ويلم شعث جنوده الذين اختل نظامهم ، ولكن يبدو أنهم ذهروا وارتعدوا فزعا من ممعة كرومول محاربا لم يخسر قط معركة ، فألقى كثير منهم السلاح ولاذ بالفرار . وتوسل شارل إلى ضباطه أن يطلقوا عليه الرصاص فأبوا . واقتاده نفر من أشد أتباعه اخلاصا إلى مكان آمن مؤقت في مقر أحد الملكيين . وهناك تجرد من شعر رأسه إلى حد كبير ، وغير لون يديه ووجهه واستبدل بملابسه ثياب أحد العمال ، وبدأ مسيرة طويلة ، على ظهر جواد ، وعلى قدميه ، متسللا من مخبأ إلى مخبأ . ينام تحت سطوح المنازل أو في الحظائر والغابات . ونام مرة في إحدى أشجار « رويال أولك » في بوسكويل ، على حين كان جنود الجمهورية يفتشون عنه تحتها . وكثيرا ما عرفه الناس ، ولكنهم لم يغدروا به أو يكشفوا أمره . وبعد أربعين يوما من الفرار ، وجد هو ومرافقوه ، في شورهام في سسكس ، قاربا ارتضى رباه ، غاطرا بحياته ، أن ينقلهم إلى فرنسا (١٥ أكتوبر) .

وعهد كرومول إلى القائد جورج مونك بالضرب على أيدي الثوار الاسكتلنديين بصفة نهائية ، وتم هذا في فبراير ١٦٥٢ . وأخضعت اسكتلنده لإنجلترا ، وحل برلمانها المستقل ، ولكن أجاز لها إرسال ثلاثين نائبا عنها إلى برلمان لندن . وعوقبت الكنيسة الاسكتلندية بحظر

انعقاد جمعياتها العامة ، وافرار التسامح الدينى مع كل الشيع البروتستانتية المسالمة . ومن الناحية الاقتصادية أفادت اسكتلنده من الحرية الجديدة في الإتجار مع إنجلترا . أما من الناحية السياحية فقد ظلت ترقب دودة أبرة ستيوارت وتدعو الله أن يحقق هذا الرجاء .

٤ — أوليفر حاكماً مطلقاً

عاد كرومول إلى إنجلترا منتصراً انتصاراً يسكله التواضع . وإذ رأى الجموع التي احتشدت لتشهد مقدمه ، فقد جال بخاطره أن جمهوراً أكبر من هذا كان يمكن أن يحتشد ليشهد مصرعه على جبل المشقة (٢٢) . ومنحه البرلمان المبتور راتباً سنوياً قدره أربعة آلاف جنيه ، وخصص له قصرًا كان يوماً ملكياً في هامبتون كورت . واعتقد البرلمان أنه سيقنع بالبقاء في منصب القيادة العامة . كما اقترح إجراء انتخابات جديدة ، لزيادة عدد أعضائه إلى ٤٠٠ ، على أن يحتفظ الأعضاء الحاليون بمقاعدهم دون الدخول في الانتخابات الجديدة ، وكان عليهم أن يحددوا شروط حق الانتخاب . وصحة الأصوات . وحمى البرلمان نفسه ضد حملات النقد بالحد من حرية الصحافة والخطابة بشكل صارم : « لن يسمح باسم حرية الخطابة أو حرية الوعظ ، بأى شئ يعكس صفو الحكومة أو يسيء إلى كرامتها (٢٣) » . وحرّم رجال الكنيسة الأنجليكانية الرسمية من أرزاقهم وحكم بمصادرة ثائى ممتلكات من يعتنقون المذهب الكاثوليكي ، بصفة غرامة . وقدمت الجوائز لمن يقبضون على القساوسة الكاثوليك (٢٤) .

أن كرومول ، على الرغم من بطئه في اتخاذ قرار ، كان حازماً متأهباً لسرعة التصرف إذا اعتزم أمراً . وقد احتمل في صبر نافذ المناقشات التي أفستت السياسة في البرلمان وعوقت الإدارة . أنه اتفق مع شارل الأول على أن تكون السلطة التنفيذية متميزة ومستقلة عن السلطة التشريعية .

ثم بدأ يتساءل : ألم يكن خيرا وبركة أن يكون كرومول ملكا . ولمح بهذه الفكرة (ديسمبر ١٦٥٢) إلى صديقه هوايتلوك الذى فقد صداقته باعتراضه عليها (٢٥) . وفى صبيحة يوم ٢٠ أبريل ١٦٥٣ ، عندما علم أن البرلمان المبتور كان على وشك أن ينصب نفسه سيدا غير منتخب على البرلمان الجديد ، جمع حفنة من الجنود اتخذوا مواقعهم على باب مجلس العموم ، ودخل هو إليه ، وإلى جانبه اللواء توماس هاريسون ، وأصغى لبعض الوقت إلى المناقشة فى صمت رهيب . وعندما بدأ أخذ الأصوات على موضوع البحث ، نهض كرومول ، وتحدث أول الأمر فى اعتدال ، ومالبت حتى تحدث فى عنف ، فنعى على البرلمان المبتور أن يكون أوليجاركية (أقلية حاكمة) تخلد نفسها بنفسها ، لاتصلح لحكم إنجلترا . ثم صاح : « أيها السكارى » متجها إلى عضو بعينه ، ثم صرخ فى عضو آخر « أيها الداعر الفاجر » « أنتم لستم برلمانا . أقول إنكم لستم برلمانا . ولسوف أضع حدا لاجتماعاتكم » . ثم التفت إلى هاريسون وأمره : « استدع الجنود ، استدعهم إلى هنا » . ودخل الجنود إلى القاعة . وأسرهم كرومول باخلائها ، وغادرها الأعضاء محتجين قائلين :

« ليس هذا من الأمانة فى شئ » . ووضعت الأقفال على القاعة الخالية ، وفى اليوم التالى وجد معلقا عليها لافتة « بيت للابحار » غير مؤث للآن (٢٦) . ثم ذهب كرومول بصحبة اثنين من القواد إلى حيث يجتمع مجلس الدولة ، وقال لأعضائه « إذا كنتم تجتمعون الآن بصفقتكم الشخصية فلا بأس ، ولا يزعجنكم أحد — أما إذا كنتم تجتمعون كمجلس للدولة ، فلا مسكان لـكم هنا ... وأرجو أن تعلموا أن البرلمان قد حل (٢٧) » . وهكذا كانت كانت النهاية المخرية المزرية للبرلمان الطويل الذى كان قد اجتمع فى وستمنستر بكامل هيئته أو بشكله المبتور ، منذ ١٦٤٠ ، والذى كان قد حول دستور إنجلترا وحكومتها . ولم يمد هناك الآن دستور ، بل جيش وملك غير ذى لقب أو ملك غير متوج .

وكان الشعب بصفة عامة فرحا بالتخلص من برلمان كان قد جر إنجائرا إلى حافة الهاوية . وعلى حد قول كرومول ، لم يكن هناك « مجرد نباح كلب ، ولا تدمير ظاهر لحله (٢٨) » . وتقبل البيوريتانيون الغيورون المتحمسون حل البرلمان على أنه إفساح الطريق « للملكية الخامسة » أي مجيء المسيح المنتظر وحكمه وتشجيع الملكيون وتهامسوا بأن كرومول سوف يستدعى الآن شارل الثاني ، ويقنع هو بدوقية أو بمنصب نائب الملك في أيرلنده . ولكن أوليفر لم يكن بالرجل الذي يرتضى أن يكون رهن مشيئته رجل آخر . فأصدر توجيهاته إلى معاويه العسكريين أن يختاروا - بصفة أساسية من المجامع البيوريتانية في إنجلترا - ١٤٠ رجلا ، من بينهم خمسة من اسكتلنده وستة من أيرلنده ، ليجتمعوا على هيئة « برلمان معين » . ولما إنعقد هذا البرلمان في هويتهول في ٤ يولييه ١٦٥٣ أعترف كرومول بأن الجيش هو الذي إختارهم ، ولكنه رجب بهم باعتبار أنهم يبدؤون فترة يحكم فيها القديسون حكما صحيحا تحت رياسة يسوع المسيح (٢٩) ، وإقتراح أن يخوّلهم السلطة العليا ، ويكل إليهم مهمة وضع دستور جديد - وظل هذا البرلمان طيلة خمسة أشهر يبذل أقصى الجهد في إنجاز هذه المهمة ، ولكنه ضل الطريق في متاهات المناقشة ، الطويلة . وإنشق الأعضاء على أنفسهم ، يأسا وعجزا ، في موضوعات الدين والتسامح الديني . وأطلق ظرفاء لندن عليه اسم « برلمان باريون » ، نسبة إلى أحد أعضائه Barbone ، وهو أحد القديسين في « الملكية الخامسة » سائلة الذكر .

وضاق الجيش ذرعا بهؤلاء الأعضاء ، كما ضاق من قبل ذرعا بمن طردهم في أبريل . وعرض الضباط - وهم يمثلون دور أنطونيوس - على كرومول أن ينصب نفسه ملكا ، وتردد قيصر وإعترض في رفق ، ولكن ثمانية من أعضاء البرلمان ، بإيحاء محدود من الجيش ، أعلنوا إلى كرومول في ١٢ ديسمبر أن الجمعية الجديدة لم تصل إلى اتفاق ، وأنها تقترح على حلها . وعرضت « وثيقة حكومية » أعدها زعماء الجيش ، على كرومول أن يكون « حامي

جمهورية إنجلترا واسكتلنده وايرلنده ، وأن ينتخب برلمان جديد على أساس نصاب من الثروة يخول حق الاقتراع ، مع استبعاد الملاكين والسكاوليك ، وأن تكون السلطة التنفيذية في يد مجلس من ثمانية من المدنيين وسبعة من ضباط الجيش ، يختارون لدى الحياة ، على أن يعمل هذا المجلس عناية هيئة استشارية « لحامى حمى الجمهورية » ولبرلمان ، كليهما . ووافق كرومول ووقع هذه الوثيقة ، وهى « أول وآخر دستور انجليزى مسطور (٣٠) » ، وفى ١٦ ديسمبر ١٦٥٣ أقسم اليمين بوصفه « حامى الحمى » . وبذلك انتهت الجمهورية ، وبدأت الحماية — اسمان لأوليفر كرومول .

هل كان كرومول طاغية مستبدًا ؟ من الواضح أنه استساغ السيطرة والسلطان . ولكن تلك نزعة عامة ، وهى أمر طبيعى إلى أبعد حد فى الموهبة الواعية . لقد فكر من قبل فى تنصيب نفسه ملكا ، وتأسيس اسرة ملكية جديدة (٣١) . ويبدو أنه كان مخلصا حين عرض أن ينزل عن سلطته « للبرلمان المعين » . ولكن عجز هذا البرلمان أقنعه بأن سلطته التنفيذية هو نفسه هى آنذاك البديل الوحيد عن القوضى فإذا تخلى هو ، فقد كان يبدو أنه ليس ثمة رجل آخر يحظى بتأييد كاف للمحافظة على النظام . واستنكر المتطرفون فى الجيش هذه « الحماية » باعتبارها مجرد « ملكية أخرى » . واتهموا كرومول بأنه « وغد منافق كذاب » وتوعدوه « بعصير أسوأ من المصير الذى لقيه الطاغية السابق (٣٢) » . وأرسل كرومول بعض هؤلاء المتمردين إلى السجن « برج لندن » ومن بينهم اللواء هاريسون الذى تولى قيادة الجنود عند طرد أعضاء البرلمان المبتور . أن خوف كرومول على سلامته هو نفسه أدى به شيئا فشيئا إلى اللزيد من الاستبداد ، لأنه أدرك أن نصف الأمة كان يمكن أن يهمل لقتله . إنه أحس ، مثل سائر الحكام ، بالحاجة إلى احاطة نفسه بمظاهر الفخامة والوقار التى تثير الرهبة فى النفوس ، فانتقل إلى قصر هويتبول (١٦٥٤) وأعاد تأثيثه بأفخر

الرياش ، واتخذ لشخصه كل الجلال وكل العظمة الملكية (٣٢) . ولكن بما لا ريب فيه أن كثيرا من هذه المظاهر كان لابد أن يخلق انطبعا قويا في نفس السمرام ، ويشير الفزع في نفوس الأهل .

وفيما يتعلق بحياة كرومول الخاصة ، فإنه كان رجلا غير ميال إلى المظاهر والأبهة ، يعيش عيشة طابعا البساطة والإخلاص مع أمه وزوجته وأولاده . وأحبته أمه حبدا مزوجا بالخوف عليه ، ترتد فرقا على حياته لكل طلاقة نسعها ، وعند وفاتها في الثالثة والتسعين (١٦٥٤) قالت : « ولدى العزيز إلى أترك قلبي منك (٣٤) » . أنه هو نفسه ، في أواسط الخمسينات من عمره ، كان يدب إليه الهرم بسرعة ، أن ما واجهه من أزمة تلوا أزمة كان يهد من أعصابه التي قيل أنها حديدية . أن حملات إيرلنده واسكتلنده زادت الحمى على داء النقرس ، ولم يمر عليه يوم دون نصب أو قلق ورسم له المصور إلى في ١٦٥٠ لوحة مشهورة . وأن كل انسان ليعرف تحذير كرومول للمصور حيث قال له : « مستر إلى ، بودى أن تستغل كل ما أوتيت من مهارة في رسم صورة حقيقية مثل شخصي تماما ، ولا تملقني على الإطلاق ، بل يجب أن تبرز هذه الخشونة والبثور والتواءات وكل شيء ، وإلا ، قلن أنك فلسا واحدا (٣٥) » . وقبض إلى أجره ، ورسم « حامى الحمى » في صورة مصقولة إلى حد بعيد ، ومع ذلك أبرز الوجه الصارم القوى ، والإرادة الحديدية كما أبرز روحا عصبية متوترة إلى حد الانفجار .

ووجه النقد إلى كرومول من أجل البساطة السكتية في لباسه العاذي — سترة وبنطة بسيطتان سوداوان — ، ولكنه كان في المناسبات الرسمية يرتدى سترة موشاة بالذهب . أنه بين الناس كان يحتفظ بوقار لا أثر فيه لتكلف أو التظاهر ، ولكن في حياته الخاصة كان ينصرف إلى ألوان التسلية والدهاية والمزاح ، بل إلى مزحات عملية وهزل ماجن طاري (٣٦) .

وأحب الموسيقى وعزف على الأرغن عزفا جيدا (٣٧). وواضح أنه كان ، حسب ما يبديه ، مخلصا في ورعه وتقواه (٣٨) ، ولكنه كثيرا ما استخدم اسم الله (لا عبثا) لتدعيم أهدافه ، إلى حد أنهم معه الكثيرون بالنفاق . ويحتمل أنه كان ثمة بعض الرياء في تقواه العلنية ، وقليل منه في تقواه الخاصة ، مما شهد به كل من عرفوه . وكانت رسائله وخطبه نصف مواعظ ، ولا نزاع في أنه اعتبر ، بكل طيب خاطر أن الله هو ساعده الأيمن .. ولم تكن أخلاقياته الخاصة تشوبها شائبة ، على حين أن أخلاقياته العامة لم تكن تفضل أخلاقيات الحكام الآخرين ، فاستخدم الخداع أو القوة حينما رأهما ضروريين لأهدافه الكبرى . أن أحدا لم يوفق بعد بين المسيحية والحكم .

أن كرومول من الناحية الفنية ، لم يكن حاكما مطلقا . فإنه تنفيذاً ، لوثيقة الحكومة ، التي أسلفنا ذكرها شكل « مجلس الدولة » وانتخب برلمانا . وعلى الرغم من كل مساعي حامى الحمى والجيش لضمان عودة النواب الذين تميزوا بالسياسة ولين العريكة ، ضم مجلس العموم الذى اجتمع فى ٣ سبتمبر ١٦٥٤ بعض الجمهوريين المزعجين ، بل كذلك بعض الملكيين . وثار النزاع حول من يسيطر على الجيش : حامى الحمى أو البرلمان . وإقترح البرلمان إنقاص عدد الجنود وأعطيتهم ، فتمردوا وحرضوا كرومول على حله (٢٢ يناير ١٦٥٥) . والواقع أن حكومة إنجلترا أصبحت دكتاتورية عسكرية منذ طهر برايد البرلمان فى ١٦٤٨ .

وسيق كرومول آنذاك إلى الحكم طبقا للأحكام العرفية وحدها دون سواها ، وفى صيف ١٦٥٥ قسم إنجلترا إلى خمسة أقسام عسكرية . ووضع على رأس كل منها هيئة من الجنود يرأسها ضابط برتبة لواء وللوفاء بنفقات هذه التجهيزات فرض ضريبة قدرها ١٠٪ على ضياع الملكيين . واحتج الناس ، وانتشر النفد والتمرد ، وسمعت أصوات تمادى بعودة شارل الثانى . وأجاب كرومول على هذا كله بتشديد الرقابة والتوسع فى أعمال التجسس

والإعتقالات التعسفية وإجراءات قاعة النجم التي أغفلت المحلفين وقانونية الإعتقال . وكان « سيرهارى فين Vano » من الثوريين السابقين الذين اقتيدوا إلى السجن . إن الثورات تأكل آباءها .

ولما كان كرومول في حاجة إلى مزيد من المال أكثر مما استطاع تحصيله عن طريق ما فرض من ضرائب أخرى مباشرة ، فإنه دعا برلمانا آخر . ولما التأم عقده في ١٧ سبتمبر ١٦٥٦ ، وضع مجلس الدولة على باب مجلس العموم بعضا من ضباط الجيش ، ومنع دخول ١٥٣ من الأعضاء الذين إنتخبوا إنتخابا صحيحا ، ولكن يشته في أن لهم ميولا جمهورية أو ملكية أو مشيخية أو كاثوليكية . فقدم الأعضاء المبعدون احتجاجا استنكروا فيه إبعادهم بأنه انتهاك صارخ لإرادة ناخبهم التي عدروا عنها ، ودمغوا بأشد النفاق « تصرف الطاغية وإستخدامه اسم الله والدين والصوم والصلوات العكسية ليسترقا تمام الحقيقة الواقعة ومرارتها (١٠) » . ومن بين الأعضاء البالغ عددهم ٣٥٢ الذين إجتازوا تمحيص المجلس ودقته كان هناك ١٧٥ عضوا من رجال الجيش أو من المعينين أو من أقرباء كرومول . وفي ٣١ مارس ١٦٥٧ قدم البرلمان المختزل المنتقوص الخاضع المذعن إلى « حامى الحمى » توسلا ونصيحة بتواضعين « يطلب إليه فيها أن يتخذ لنفسه لقب « ملك » . ولكنه كان يشمر رائحة المعارضة من جانب الجيش لهذا العمل ، فأبى . ولكن ثمة حل وسط أعطاه الحق في تعيين خلفه « حامى الحمى » . وفي يناير ١٦٥٨ وافق على إعادة الأعضاء المبعدين إلى مقاعدهم في مجلس العموم . وفي نفس الوقت اختار تسعة من النبلاء و٦١ من العامة ليشكلوا المجلس الثانى (مجلس الثوردات) . ورفض كثير من ضباط الجيش تأييد هذه الحركة . وعندما عقدوا إتفاقا مع الجمهوريين في مجلس العموم لأحد من سلطات المجلس الثانى ، غضب كرومول غضبا شديدا وأقتحم قصر وستمنستر وطرد البرلمان (في فبراير ١٦٥٧) . وأبداك من الوجهة القانونية ، ومن حيث الأمر الواقع ، انتهت الجمهورية الأنجليزية وأعيدت الملكية . وكان التاريخ

بهذا قد ضرب مثلاً جديداً للتعاقب التهكمى الساخر الذى ذكره أفلاطون ، وهو تعاقب الملكية ، فالارستقراطية ، فالديموقراطية ، فالديكتاتورية ، فالملكية (٤١) .

٥ — ذروة البيوريتانية

لقد إنطوى إنتصار البيوريتانية على ثورة دينية • وتحطمت الكنيسة الإنجليكانية فى ١٦٤٣ بالغاء الحكومة الأسقفية فى الكنيسة ، وصاحرومذهب البروتستانتية المشيخية (البرسبترىان) حيث كان يحكم مجامع الكنيسة قساوسة يوجههم مجلس (سنودس) فى كل قسم ، وتخضع مجالس السنودس هذه للجمعية العمومية — نقول أن مذهب الكنيسة المشيخية هذا جعل المذهب الرسمى للدولة فى ١٦٤٦ ، ولكن سيطرة مذهب المشيخية انتهت بعد طامين اثنين ، حين طهر « برايد » البرلمان من أتباع هذا المذهب • وبدأ لبعض الوقت أن الديانة يجدر تركها حرة طليقة من أية رقابة أو إعانه مالية من جانب الدولة • ولكن كرومول (الذى حدث أنه اتفق فى كل شىء تقريباً مع الملك الذى كان قد أودى بحياته) آمن بأن كنيسة معانة من قبل الدولة أمر لاغنى عنه من أجل التربية والتعليم والأخلاق • وفى ١٦٥٤ شكل « لجنة من الفاحصين » لتختبر صلاحية رجال الدين للتعيين فى رتب كنيسية والحصول على روائى • ولم يكن أهلاً لذلك سوى المستقلين (البيوريتانيين) وأنصار التعميد والبرسبترىانز • وأجيز لكل أبرشية أن تختار بين التنظيم المشيخى أو نظام الكنيسة المستقلة — وفيه يحكم كل مجمع نفسه • وإختار البيوريتانيون نظام الكنيسة المستقلة • أما التنظيم المشيخى الذى ساد فى اسكتلنده ، فقد اقتصر فى إنجلترا إلى حد بعيد ، على لندن ولنكشير • أما رجال الدين الأنجليكانيون • الذين بلغوا يوماً حداً كبيراً من القوة ، فقد حرموا من روائهم ، وباتوا يخدمون أتباعهم أى يقومون لهم بالمراسم فى أماكن خفية ، مثل الكهنة السكاثوليك • وفى ١٦٥٧ أعتقل جون أفلين بسبب

حضوره الصلوات الأنجليكانية (٤٢) . وكانت الكاثوليكية لاتزال خروجا على القانون . وأعدم قسيسان شنقا (١٦٥٠ — ١٦٥٤) بتهمة « تضليل الشعب » ، وفي ١٦٥٧ أصدر برلمان البيوريتانيين ، بموافقة كرومول ، قانونا يقضى بمصادرة ثلثي ممتلكات أى فرد جاوز السادسة عشرة ، لم يتصل من الكاثوليكية ويبرأ منها (٤٣) . وفي ١٦٥٠ كانت العقيدة الدينية قد أصبحت أساساً لوضع اجتماعى طبقى : فكان الفقراء يتحيزون للمذاهب المعارضة — أنصار المهاد ، الكويكرز ، أصحاب فكرة الملكية الخامسة ، وغيرها ، أو الكاثوليك . أما الطبقات الوسطى فكانت البيوريتانية غالبية فيها . على حين أن الأرستقراطية ومعظم ذوى الحسب والنسب (ملاك الأرض الذين لا ألقاب لهم) كانوا يشايعون الكنيسة الأنجليكانية التى لم تمد الدولة تعترف بها .

وإنعكس التعصب الدينى رأسا على عقب ، أكثر مما تناقص أو خفت حدته . ذلك أنه بدلا من اضطهاد الأنجليكانيين للكاثوليك المنشقين والبيوريتانيين الذين اتهموا بصيحاتهم من قبل طلبا للتسامح ، باتوا الآن يضطهدون الكاثوليك والمنشقين والأنجليكانيين . وحرموا استعمال « كتاب الصلوات العامة » ولو سرا فى المنازل . وقصر برلمان البيوريتانيين التسامح على أولئك البريطانيين الذين ارتضوا التثليث والإصلاح الدينى والكتاب المقدس باعتباره كلمة الله ، كما ارتضوا نبذ الأساقفة . أما أتباع سوسينوس أو التوحيديون فلم يشملهم التسامح بناء على ذلك . وفرضت عقوبات صارمة على أى نقديوجه إلى العقيدة أو الطقوس الكالفنية (٤٤) . وكان كرومول أكثر تسامحا من برلماناته ، فتعاضى عن بعض الصلوات الأنجليكانية ، ورخص لجماعة صغيرة من اليهود بالإقامة فى لندن ، يل وبناء معبد لهم ، واتهمه إثنان من الوعاظ من أنصار عدم تجديد المهاد بأنه « وحش سقر الرؤيا » (النجى الكذاب) ، ولكنه احتمل هجومهما صبرا (٤٥) .

واستخدم نفوذه في وقف اضطهاد الهيجونوت في فرنسا وأتباع والدوني بيد موت . ولكنه عندما طالبه مازاران ، في مقابل ذلك ، بمزيد في التسامح مع الكاثوليك في إنجلترا ، تذرع بمجزة عن الحسد من حماسة البيوريتانيين (٤٦) .

ومن الجائز القول بأن الدين لعب دورا هاما وتغلغل في الحياة اليومية عند اليهود وحدهم ، كما فعل عند البيوريتانيين . والحق أن البيوريتانية اتفقت مع اليهود في كل شيء تقريبا ، فيما عدا ألوهية المسيح . وشجعت معرفة القراءة والكتابة حتى يقبل الجميع على قراءة الكتاب للقدس . وكان ثمة ولع شديد بالتوراة (العهد القديم) لأنه يقدم نموذجا لمجتمع تسيطر عليه الديانة . وكان الشغل الشاغل في الحياة هو الخلاص من نار جهنم . والشيطان موجود حقا وفي كل مكان . وبمنعمة الله وحدها يمكن لفئة قليلة مختارة أن تفوز بالخلاص . وتضمن كلام البيوريتانيين وأفوالهم عبارات من الكتاب للقدس ومجازاته . وأشرق في عقولهم التفكير في الله وفي المسيح أو تجلياتها لهم ، وملأتهم خشية ورهبة ولكن لم يفكروا قط في السيدة مريم . واتسمت ملابسهم بالبساطة والسكابة ، وخلت من أية زينة أو زخرف ، كما اتسم كلامهم بالوقار والرزانة مع البطء . وكان منتظر منهم أن ينأوا بأنفسهم عن اللهو والدنس واللذة الحسية . وكانت للسارح قد أغلقت في ١٦٤٢ بسبب الحرب ، فظلت مغلقة حتى ١٦٥٦ بسبب شجب البيوريتانز واستنكارهم لها . وحرم سباق الخيل ومصارعة الديكية ومباريات المصارعة ، ومطاردة الدبة أو الثيران ، إلى حد أن الضابط (الكولونيل) البيوريتاني نيو سن قتل كل الدبة في لندن ليتأكد أنها لن تطارد بعد الآن (٤٧) . واقتلعت كل أعمدة مايو (كانت تزدان بالأشرطة والزهور وتقام في أول مايو) . وكان الجلال شبهة ، واحترموا النساء بوصفهن زوجات مخلصات وأمهات صالحات ، وفيما عدا ذلك لم يتمتعن بحسن السمعة لدى البيوريتانيين لأنهن مصدر غواية وإغراء ، وأنهن سبب طرد الإنسان من الجنة . ونفروا من الموسيقى ، ما عدا في التراتيل الدينيه .

وقضوا على الفن في السكنائس ولم يسمحوا باخراج جديد منه ، اللهم إلا بعض اللوحات الممتازة من عمل صمويل كوبر ، وبيتر لى ، وكان هولنديا .

وربما كانت محاولة البيوريتانز تقنين الأخلاق أجل عمل منذ شريعة موسى . واعترفوا بصلاحيية الزواج المدني ، وأبيح الطلاق ، لكن الزنى كان جريمه عقوبتها الإعدام . على أنه بعد تنفيذ حكم الإعدام مرتين عقابا على هذه الجريمة ، لم يكن المحلفون يحكمون بالإدانة . وكانت عقوبة الأيمان تشدرج وفقا لاسلم الإجتماعى ، فكان اليمين يكلف الدوق ضعف ما يكلف البارون ، وثلاثة أمثال ما يكلف المالك الذى لا يحمل لقباً ، وعشرة أمثال ما يدفع الرجل العادى ، بصفة غرامة ، ودفع رجل واحد الغرامة لأنه قال : « الله شهيد على (٤٨) » . وكان الأربعاء يوم صوم إجبارى عن اللحم حتى ولو وقع فيه عيد الميلاد المجيد . وكان من حق الجنود إقتحام البيوت لتأكد من صوم الأهالى . ولم يكن مسموحا بفتح الحوانيت يوم الأحد ، كذلك كانت الألعاب والرياضة والأعمال الدنيوية محظورة فيه . ولم يسمح فيه بأية رحلة أو سفر يمكن إجتنابه ، كما كان محظورا « التسكع أو المشى الداس بلا هدف (٤٩) » . وعلى الرغم من عودة الملكية وما صحبها من انتكاس فى الأخلاق ، ظل يوم الأحد قاسيا منزها حتى أيامنا هذه .

أن كثيرا من هذه المحرمات القانونية أو الإجتماعية أثبت أنه أقسى مما تحتمل طبيعته البشرية ، وقيل أن نسبة كبيرة من السكان لجأت إلى النفاق ، فكانوا يفترقون الآثام كما هى العادة ، ويجرون وراء المال والنساء والسلطة ، ولكن دائما تمر بهم الكآبة ويخرجون أصواتا من أنوفهم وتنساب من أفواههم العبارات الدينية . ومع ذلك يبدو أن عددا كبيرا من البيوريتانيين التزموا بأخيلهم فى إخلاص وشجاعة . ولسوف نرى ألقين من الوعاظ البيوريتانيين بعد عودة الملكية يؤثرون العوز والفاقة على التخطى على مبادئهم . إن نظام البيوريتانية ضيق العقل ولكنه قوى الإرادة.

والخلق . أنه ساعد الإنجليز على حكم أنفسهم . وإذا كان الفزع من نار جهنم والطقوس البيوريتانية قد أشاعت في البيت الكاثبة والظلمة ، فإن حياة الأسرة عند طامة الناس قد أسبغ عليها نظام ونقاوة بقيتا بعد الإحلال الذي تميزت به صفوة المجتمع في عهد شارل الثاني .

وجملة القول أن النظام البيوريتاني ربما أحدث أصلاحا خلقيا جديدة ودعمته حركة المنهجية في القرن الثامن عشر (الميثودية حركة إصلاح ديني قادها شارلز وجون ويزلي في أ كسفود ١٧٩٢ لإحياء كنيسة إنجلترا) - وإليه يرجع أكبر الفضل في الأخلاقيات العالية نسبيا التي تميز بها الأمة البريطانية اليوم .

٦ - الكويكرز

تألفت في الكويكرز كل فضائل البيوريتانيين ، وهم فرع منهم ، ولو أخفاها لبعض الوقت الخيال الجريح والتمصب الأعمى . وكانت خشية الله والخوف من الشيطان قوين جداً فيهم إلى حد يصيب أجسامهم برعدة . وقال واحد منهم هو روبرت باركلي ١٦٧٩ .

أن قوة الله سوف تفتحهم الاجتماع الشامل ، ومن ثم سوف يكون هناك جهد باطني ، حين يحاول كل فرد أن يقهر قوى الشر في النفوس ، إلى حد أنه بأعمال هاتين القوتين المتعارضتين ، وكأنهما تياران متضادان ، يجهد الإنسان نفسه وكأنه في يوم المعركة ، ومن هذا يكون اهتزاز الجسم وحركته في معظم الناس إن لم يكن كلهم وهي هزات وحركات ، تنتهي بعد أن تسود قوة الحق ، من الوخزات والأثاث ، بصوت رخيم من الشكر والحمد . ومن هنا أطلق اسم الكويكرز ، أي المهتزين ، علينا ، وكان هذا من باب اللوم والتأنيب والسخرية في بدايه الأمر (٥٠) .

وتفسير مؤسس الطائفة جورج فوكس يختلف إختلافا يسيرا عن هذا .

« إن القاضى بنت من درجى هو أول من أطلق علينا هذا الاسم ، لأننا كنا نأمرهم بالاهتزاز عند ذكر كلمة الله . وهذا كان فى فى ١٦٥٠ (٥١) » أما الاسم الذى أطلقوه هم أنفسهم على طائفتهم فكان « أنصار الحق » . وبعد ذلك أكثر تواضعا ، فقالوا « مجتمع الأصحاب » .

وواضح أنهم كانوا فى بداية الأمر بيوريتانيين ، مع اقتناع شديد بصفة خاصة بأن ترددهم بين الفضيلة والخطيئة لم يكن إلا صراعا ، فى عقولهم وأجسامهم ، بين قوتين روحيتين ، قوة الخير وقوة الشر ، تحاول كل منهما أن تسيطر عليهم هنا ، وإلى مالا نهاية . إنهم تقبلوا المبادئ الأساسية عند البيوريتانيين : نزول الأسفار المقدسة عن طريق الوحي الإلهى ، خطيئة آدم وحواء ، كون الإنسان خطاء بطبيعته ، موت المسيح بن الله لتخليص البشر ، إمكان نزول الروح القدس من السماء لتنوير نفس الإنسان وتشريعها . أن إدراك هذا « النور الباطن » ، والإحساس به والترحيب بإرشاده وتوجيهه ، كان جوهر الدين عند الكويسكرز . وإذا نهج الإنسان سبيل ذاك « النور » لم تعد به حاجة إلى واعظ أو كنيسة . فان هذا « النور » أسمى من العقل البشرى ، بل من الكتاب المقدس نفسه ، لأنه صوت مباشر من عند الله إلى النفس .

لم يتلق جورج فوكس من التعليم إلا أيسره . ولكن « مذكراته » التى دمجها كانت من الآثار الأدبية فى الإنجليزية ، التى تكشف عن القوة الأدبية فى الكلام غير الأدبى ، إذا كان بسيطا جادا مخلصا . وكان جورج ابن أحد النساجين ، والتحق للعمل بمصنع أحذية ، ثم ترك سيده وأقرباءه ، « بأمر من الله » ، وبدأ فى سن الثالثة والعشرين (١٦٤٧) ، الوعظ المتجول الذى لم يتوقف إلا بوفاته (١٦٩١) . وفى سنيه الأولى حيرته وأقضت مضجعه المغربات غراح يلتمس البصيح والمشورة لدى رجال الدين ، فأشار عليه أحدهم بالدواء وغصد الدم ، وأوصاه آخر بالتدخين وتلاوة اترانيم

الدينية (٥٢). وفقد جورج ثقته بالقساوسة، ولكنه وجد السوى والعزاء حيثما فتح الكتاب المقدس .

غالبا ما حملت الكتاب المقدس وقصدت لأخذ مكافى فى احدى الأشجار المجوفة فى مكان منعزل حتى يرخى الليل سدوله ، وكثيرا ما سرت فى الليل محزونا وحدى ، لأنى كنت رجلا منقلا بالأحران فى أيام أعمال الله الأولى فى نفسى ثم وجهنى الله إلى الطريق ، ويسر لى إدراك حبه ، وهو حب خالد لانهاية له ، يفوق كل معرفة تتيسر للناس فى حالتهم الطبيعية أو يمكنهم الحصول عليها من صفحات من التاريخ أو من بطون الكتب (٥٣) .

وسرطان ما أحس بأن الحب الإلهى قد اختاره ليُبشر الجميع بالنور الباطن ويعظمهم . وفى اجتماع الأنصار العماد فى لبسترشير « حل الله عقدة لسائى فأعلنت لهم جميعا الحقيقة الخالدة ، وظللتهم جميعا قوة الله (٥٤) » وذاع عنه أنه يتمتع « بروح بصيرة » ، ومن ثم جاء الناس أفواجا ليستمعوا إليه . « حلت قوة الله وكان لها إيماءات وإلهامات وتنبؤات عظيمة (٥٥) » . بينما كنت أسير فى الحقول قال لى الله : املك مكتوب فى سجل الحياة لدى المسيح ، الذى وجد قبل خلق العالم (٥٦) . أى أن جورج قر الآن عينا بما قر فى نفسه من أنه بين القلة التى اختارها الله قبل الخليقة ، لتلقى نعمته ورحمته وبركته الأبدية . وأحس آنذاك أنه مساو لآى إنسان . ومنعه زهو بهذا الاصطفاء الإلهى من « أن أخلع قبعتى لآى من كان : حقيرا أو أميرا ، وأنتم فى حاجة إلى ، أبها الرجال والنساء ، دون اعتبار لغنى أو فقير ، وعظيم أو حقير (٥٧) » .

وإذ اقتنع بأن الدين الحق لا يوجد فى الكنائس بل فى القلب المستنير ، فإياه دلف إلى كنيسة فى نوتنجهام وقاطع الموعظة صائحا بأن الاختبار الحق ليس فى الأشعار للقدسة بل فى « النور الباطن » . وقبض عليه فى

١٦٤٩ ، ولكن عمدة البلدة أطلق سراحه ، وصارت زوجة هذه العمدة من أول الممتنقين لمذهبه . واستأنف فوكس جولانته التبشيرية ودخل كنيسة أخرى وهناك كما قال « دفعت لأعلن الحق للسكان والناس ، ولكنهم انهمالوا على » في غضب شديد وطرحوني على الأرض . وضربوني ضربا مبرحا وأذوني ايداء شديدا بأيديهم وكتبهم المقدسة وعصيمهم « فاعتقل مرة ثانية ، وأخلى الحاكم سبيله ، ولكن الأهالي قذفوه بالحجارة إلى خارج البلدة (٥٨) . وفي دربي تحدث مهاجما الكنائس والأسرار المقدسة على أنها تقرب لاغناء فيه إلى الله . فحكم عليه بالإقامة في الإصلاحية لمدة ستة شهور (١٦٥٠) ، وعرضوا عليه اخلاء سبيله شريطة الالتحاق بخدمة الجيش ، فكان جوابه مهاجمة فكرة الحرب . عند ذلك أودعه سجاووه ممتقلا قدرا كربه الرائحة غائرا في الأرض ، ليس فيه فراش ، مع ثلاثين من المجرمين ، « حيث قضيت قرابة نصف عام (٥٩) . ومن سجنه كتب إلى القضاة والحكام معترضا على عقوبة الاعدام . وربما ساعدت شفاعته على انقاذ امرأة شابة محكوم عليها بالاعدام بتهمة السرقة من حبل المشنقة .

وبعد عام قضاه في السجن استأنف التجوال لنشر تعاليمه . وفي ويكفيلد حول جيمس نايلر ، وفي بفرلي دخل كنيسة ، وجلس منصتا حتى انتهت اللوحظة ثم سأل الواعظ : هل لم يشعر بالوجل « حين يتقاضى لثمائة جنيه سنويا ليبشر بالأسفار المقدسة (٦٠) ؟ » وفي بلدة أخرى دعاه القسيس لالقاء عظة في الكنيسة فأبى ، ولكنه تحدث في فئتها إلى جمع من الناس .

أعلنت إلى الناس أنني لم أنحضر لأعترض سبيل معابدهم الوثنية ولا قساوستهم . ولا عتورم ٠٠٠ ولا احتفالاتهم وتقاليدهم اليهودية الوثنية لأنني أنكرت هذا كله . وقلت لهم أن هذا المكان ليس أكثر قدسية من أي مكان آخر ٠٠٠ لذلك فصحت الناس أن يبنذوا كل هذه

الأشياء ، وأرشدتهم إلى روح الله واعمته فيهم ، وأنفسهم ، وإلى نور المسيح في قلوبهم (٦١) .

وفي سوورنمور في يور كثير حول إلى مذهبه مرجريت فل ، ثم زوجها القاضي توماس فل ، وأصبحت دارهما ، قاعة سوورنمور ، أول مركز أساسي لا جتماع الكويكرز ، وهو إلى يومنا هذا مزار يحج إليه الأصحاب وليس علينا أن نتبع قصة فوكس إلى أبعد من هذا . وكانت أساليبه لجة غير فاضحة ولكنه عوض بما تذرعه به من صبر وجلد في ملاقاته سلسلة الاعتقالات والصدمات العنيفة ، وهاجسه البيوريتانيون والمشيخيون والانجليكانيون ، لأنه نبذ الأسرار المقدسة والكنائس والقساوسة . وأرسل الحكام الكويكرز إلى السجون ، لأنهم انتهكوا حرمة العبادات العامة وأغروا الجنود بالكف عن الاشتراك في الحرب ، لحسب ، بل كذلك لأنهم رفضوا تأدية يمين الولاء للحكومة . واحتج الكويكرز بأن الفمين أيا كانت عمل غير أخلاقي ، ويكفي القول (بنعم) أو (لا) . وتعاطف كرومول مع الكويكرز ، واجتمع مع فوكس في لقاء ودي (١٦٥٤) وقال له عند انصرافه : « تعال إلى ثمانية أننا ، أنت وأنا ، لو اجتمعنا ساعة من نهار ، لاقترب الواحد منا من الآخر » (٦٢) . وفي ١٦٥٧ أصدر (حامى الحى) توجيهاته بالافراج عن المسجونين من الكويكرز ، كما أصدر تعليماته إلى القضاء بأن يعاملوا هؤلاء الوعاظ الذين لا كنائس لهم على أنهم (أشخاص واقمون تحت تأثير وهم شديد) (٦٣) .

إن أسوأ اضطهاد وأشده هو ما أصاب شيعة جيمس نايلز الذي بلغ به الإيمان بنظرية النور الباطن ، حد الاعتقاد أو الإدعاء بأنه هو المسيح مجسدا من جديد ، وأنه فوكس ، على هذا ولكن بعض أتباعه المخلصين الفيورين عبده ، وأكذبت إحدى النسوة أنه أعادها إلى الحياة بعد أن ظلت يومين في عداد الموتى ، ومنسدا ركب نايلز إلى بريستول ، ألت

النسوة بأوشحتهن أمام جواده وألشدن : « مقدس ، مقدس ، مقدس رب
القربان المقدس » وقبض عليه بتهمة التجديف . ولما سألوه عن دعاواه أو
الدعاوى التي نسبوها إليه ، لم يكن جوابه سوى جواب المسيح « أنت قلت »
وعرض البرلمان إذ ذاك ، وكان البيوريتانيون يسيطرون عليه لقضية نايلز
(١٦٥٦) وظل أحد عشر يوما يناقش موضوع إعدامه . وسقط القرار
بأغلبية ٩٦ ضد ٨٢ صوتا . ولكن سادت روح تنادى بحل وسط إنسانى
فحكم عليه بأن يقف ساعتين كاملتين وعنقه فى آلة التعذيب (المشهرة) ،
ويجلد ١٣٠ جلدة ، وتدمغ جبهته بالحرف الأول من لفظة مجدف (B فى
الانجليزية) ، وأن يثقب لسانه بقضيب من الحديد المحمى ، واحتمل هذه
الفظائع بشجاعة . وحياء أتباعه على أنه شهيد ، وقبلوا جراحه وامتصوها
واحتجزوه وحيدا فى معتقل لا قلم ولا ورق ولا تدفئة ولا ضوء فيه ،
وانهارت روحه المعنوية يوما بعد يوم ، فاعترف بأنه غرر به ، فأفرج عنه
فى ١٦٥٩ ، وقضى نحبه فقيرا معدما فى ١٦٦٠ (٦٢) .

ولقد تميز الكويكرز بما بدا لبعض معاصريهم بأنه أشياء غريبة تثير
المتاعب . إنهم لم يجيزوا أى أثر للزخرف والتبرج فى ملابسهم . وأبوا أن
يظلموا قبعاتهم لأى إنسان مهما كانت مكانته ، حتى فى الكنيسة أو القصر
أو المحكمة . ولم يخاطبوا أى فرد بغير ضمير المفرد (أنت) بدلا من ضمير
الجمع (أتم) الذى يوحى أصلا بالتشريف والتسكريم . ونبذوا الأسماء
الوثنية لأيام الأسبوع وشهور السنة ، فكانوا يقولون على سبيل المثال :
« اليوم الأول من الشهر السادس » وأقاموا الصلوات فى العراء أو بين
الجدران بنفس السهولة واليسر وطيب النفس ، وكان كل فرد من المصلين
يدعى ليخبر بما أوحى به إليه الروح القدس أن يقول ، ثم يروج الجميع
بعد ذلك فى صمت رهيب يكتله الجلال والوقار ، وكأنا هذا الصمت عقار
مهدىء مسكن بعد نوبة الحماس والغيرة — وهو صمت يعنى فى أسامه
عندهم « إحساس بروح خيرة فى أفعالهم » . ورخص للنساء فى الصلاة

الزوجية فوق أى لوم أو أية شائبة . وحد من تكاثرهم ما تواضعوا عليه من الزواج بعضهم من بعض ، وعلى الرغم من ذلك بلغ عدد الكويكرز فى ١٦٦٠ فى إنجلترا ستين ألف « صاحب » إذ ما اشتهروا به من أمانة وكياسة وجد وبعد عن الإسراف ، اوتفع بهم من للراتب الوضيعة التى ظهروا فيها أول ما ظهروا إلى الطبقات الوسطى التى ينتسب معظمهم الآن إليها .

٧ - الموت والضرائب

أن الطبقات الوسطى هى التى تمتعت بأعظم الازدهار، فى عهد كرومول . وفوق كل شىء انصرف التجار إلى التجارة الخارجية ، وضم البرلمان آنذاك أفرادا يمثلون للمصالح الاقتصادية أو يمتلكونها . ومن أجلهم قضى قانون الملاحة الصادر فى ١٦٥١ بنقل الواردات من المستعمرات إلى بريطانيا على مراكب إنجليزية — ومن الواضح أن هذا إجراء موجه إلى الهولنديين . وراودت كرومول فى بعض الأحيان فكرة التحالف مع المقاطعات المتحدة ، ابتغاء حماية البروتستانتية وتعزيزها ، ولكن تجار لندن آثروا الربح على التقوى والورع . وسرطان ما وجد كرومول نفسه (١٦٥٢) متورطاً فى الحرب الهولندية الأولى . وكانت النتائج مشجعة كما رأينا .

واستعرت حمى الإمبريالية بنى والبحرية . وأوحت ذكرى هو كثر ودريك إلى التجار وإلى كرومول نفسه بإسكان كمبر شوكة الأسبان وسيطرتهم فى الأمريكتين ، واستيلاء إنجلترا على تجارة الرقيق الراجحة وتوجيه المعادن النفيسة من الدنيا الجديدة إلى لندن ، وفوق ذلك كله ، كما أوضح كرومول ، فإن غزو جزر الهند الغربية يمكن المبشرين والوعاظ الإنجليز من تحويل هذه الجزر من الكاثوليكية إلى البروتستانتية (٦٥) .

وفي • أغسطس ١٦٥٤ بمث كرومول إلى فيليب الرابع ملكه أسبانيا بتوكيدات الصداقة بينهما . وفي ٦ أكتوبر أرسل إلى البحر المتوسط أسطولاً بقيادة بليك . وفي ديسمبر أتبعه بأسطول آخر تحت امره وليم بن (والد أحد أعضاء السكويكرز) وروبرت فينابل ، للاستيلاء على جزيرة هسبانيولا (أحدى جزر الهند الغربية) من أسبانيا وأخفقت هذه المحاولة الأخيرة ، ولكن بن استولى على جامايكا لـانجلترا (١٦٥٥) .

وفي ٣٠ نوفمبر ١٦٥٥ وقع كرومول ومازاران « وكلاهما يخضع الدين للسياسة » تحالفاً إنجليزياً فرنسياً ضد أسبانيا . إن الحرب التي كانت أسبانيا قد استمرت تشنها على فرنسا بعد معاهدة وستغاليا ١٦٤٨ كانت قد شغلت هاتين الدولتين أيما شغل عن التدخل في شأن كرومول واستيلائه على مقاليد الحكم في إنجلترا ، أما الآن فإنها هيأت لسياسته الخارجية نجاحاً رائماً ، وإن كان طاراً . وتربس بليك لوقت غير قصير ، لأسطول الفضة القادم من أمريكا ، حتى عثر عليه في ميناء سانتا كروز في جزر كاناري ، ودمره عن آخره (٢٠ أبريل ١٦٥٧) . وأخذ الجنود الإنجليز زمام المبادرة في هزيمة الجيش الأسباني في معركة تلال الدونز (بالقرب من دنسرك) في ٤ يونيو ١٦٥٨ . ولما انتهت الحرب بصالح البرانس (١٦٥٩) تخلت فرنسا عن دنسرك لـانجلترا ، وبدا كرومول وكأنه عوض عن فقدان ماري تيودور لثغر كاليه قبل ذلك بقرن من الزمان . أنه فسكر في أن يضفي على اسم الإنجليز من العظمة ما كان للرومان من قبل ، وكان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفه ، فقد أصبح لـانجلترا السيادة على البحار ، ومن ثم كانت المسألة مسألة وقت حتى تسيطر على أمريكا الشمالية ، وتمسك حكمها وسلطانها في آسيا . ونظرت أوروبا كلها بعين الفزع إلى البيوريتاني الذي كان يسبح الله ولكنه ابتنى بحرية ، وألقى المواعظ ولكنه كسب معركة ، والذي أسس الإمبراطورية البريطانية بالقوة العسكرية وهو يردد اسم المسيح . أن الرؤوس التي تعلموها

التيجان ، والتي حسبته محدث نعمة دعيا مفرورا ، بدأت الآن تخطب وده وتلتبس التحالف معه دون أن تغير اللاهوت اهتماما .

ولكن جون نورلو سكرتير مجلس الدولة أنذر كرومول بأنه كان من الخطأ أن يساعد فرنسا ضد أسبانيا ، لأن فرنسا آخذة في الصمود على حين أن أسبانيا كانت آيلة للإضمحلال ، وأن سياسة انجلترا في تدعيم توازن القوى في القارة ، إن لم تتطلب مساعدة أسبانيا ، تقتضى بقينا عدم مساعدة فرنسا . والآن في ١٦٥٩ كان لفرنسا السيادة في البر ، وكان الطريق أمامها مفتوحا للتوسع في الأراضي الوطيدة وفرانش كونتيه والورين . وكمن رجل إنجليزي كان يجرد بحياته لوقف أطماع لويس الرابع عشر العدوانية .

وفي نفس الوقت ازدهرت أحوال أمراء التجارة بسبب الحروب ، وأعيد في ١٦٥٧ تنظيم شركة الهند الشرقية بوصفها مشروطا برأس مال مشترك ، « وأقرضت » كرومول ستين ألف جنيه ، حتى تتجنب تدقيق الحكومة في شخص شؤونها (٦٦) . وكانت هذه الشركة الآن من أقوى العوامل في اقتصاد إنجلترا وفي سياستها . وواجهت الحكومة نفقات الحرب برفع الضرائب إلى حد لم تبلغه في عهد شارل الأول وشارل الثاني . وباعت معظم أراضي التاج وأراضي الكنيسة الأنجليكانية ، وضياع كثير من الملكيين ، ونصف أراضي أيرلنده ، وبرغم ذلك كله بلغ متوسط المعجز السنوى ٤٥٠ ألف جنيه بعد ١٦٥٤ . ولم ينتفع المواطن العادى إلا قليلا . وطرحت جانبا كل الأهداف التي ناضلت من أجلها الثورة الكبرى فيما بين ١٦٤٢ — ١٦٤٩ . ولم يقل فظاعة عن ذى قبل فرض الضرائب دون موافقة البرلمان ، والاعتقال غير القانونى ، والمحكمة دون محلفين ، وبات حكم الجيش وحكم القوة دون تستر أشد ازماجا وظلما عن ذى قبل ، مذ أضفوا عليه مسحة من الدين . وأضحى حكم كرومول بغیضا بغضا ليس له مثيل ، لا من قبل ، ولا من بعد (٦٢) .

وكانت انجلترا ترقب موت حامي الحمى بصبر نافذ . وكم من مؤامرة دبرت لاغتياه ، وكان عليه دوما أن يأخذ حذره ، وزاد الآن عدد حرسه إلى ١٦٠ رجلا ، واستخدم ضابط متطرف سابق (برتبة مقدم) يدعى سكسبي Sexby ، أحد السفاحين لقتله . وكشفت المؤامرة (يناير ١٦٥٧) ، واعتقل السفاح ومات في السجن . وفي شهر مايو نشر سكسبي كتيباً بعنوان « قتل ليس يقتل » ، كان دعوة صريحة للاطاحة برأس كرومول ، وعثر على سكسبي ومات هو أيضاً في السجن . ودبرت للواصمات في الجيش وفي دوائر الملكيين ، حيث ازداد أملهم بشكل جنوني في عودة أسرة ستيوارث إلى الحكم . واعتنقت ابنة كرومول الكبرى ، زوجة اللواء المتطرف شارل فليتيوود المبادي . الجهم — ورية ، ونعت على والدها دكتاتوريته (٦٨) .

وحطمت الهموم والخاوف وفقدان الأهل والولد روح الرجل الحديدي . إنه مثل كثير من بلغوا ذروة السيطرة والسلطان ، استشعر الأسف أحيانا لأنه تخلى عن حياة الدعة والهدوء في أيامه الأولى يوم كان من مالكي الأرض في الريف . « إنني أقول ، وأشهد الله على ما أقول » لو أنني عشت في ظل تمريرة ورعيت قطيعاً من الغنم ، لكان خيراً من أن أتولى حكومة مثل هذه (٦٩) ، وفي أغسطس ١٦٥٨ ماتت الزبائث أحب بناته إليه ، بعد مرض طويل أليم ، وبعد تشييع جنازتها بفترة وجيزة لزم كرومول فراشه وقد انتابه حى متقطعة ، وربما أقاد الكينين في شفائه ، ولكن طبيبه أبى أن يستخدمه لأنه علاج حديث أتى به الجزويت الوثنيون إلى أوروبا (٧٠) . وبدأ أن كرومول أبل من مرضه ، وتحدث في جرأة وشجاعة إلى زوجته قائلاً : « لا تظني أنني سأطرق الحياة ، أنني واثق من عكس هذا (٧١) » . وطلب إليه مجلسه أن يمين من يخلفه فأجاب « ريتشارد » أنه ابنه الأكبر . وفي الثاني من سبتمبر أصيب بفسكة ، وأحس باقتراب

منيته . ودعا الله أن يغفر له خطاياه ويحفظ البيوريتانيين . وبعد ظهر اليوم التالي فارق الحياة . وكتب السكرتير ثورلو : « لقد صعد إلى المباء مضمعنا بدموع شعبة ، على أجنحة صلوات القديسين ودهواتهم (٧٢) » ولما وصلت أنباء موت كرومول إلى أمستردام « أضيئت المدينة أيماءا ضاءة ، وكأنا نطلقت من عقابها ، ومضى الأطفال في القنوات هاتفين متهللين فرحا لموت الشيطان (٧٢) » .

٨ - طريق العودة

١٦٥٨ - ١٦٦٠

لم يمتلك الشيطان نفس ريتشارد بن كرومول . كما أنه لم يكن لديه من الصلابة والإرادة الحديدية ما يمكن أن يقيد به انجلترا في الأغلال التي صنعتها القوة والتقوى . وكان ريتشارد يشارك أخته ، رقة للعقل مما جعلهما ينظران في فزع خفي إلى سياسة الدم والحديد التي انتهجها والدهما . لقد جثا ريتشارد من قبل على ركبتيه أمام أبيه ، ضارعا إليه أن يبقى على حياة شارل الأول . وطيلة عهد الجمهورية والحماية ، طاش في هدوء وسلام في الريف على الضيعة التي حصل عليها بائزواج ولم يسكن به من طموح في أن يصبح في ٤ سبتمبر ١٦٥٨ ، بناء على وصية والده ، « حامى الحمي » انجلترا ووصفته لوسى هتشنسون بأنه « وديع مهذب فاضل ، ولكنه فلاح بطبيعته » ولم تسكن تليق له العظمة (٧٢) .

وأفلتت الآن ، في جراءة أكثر ، كل العناصر التي كان أوليفر قد كبح جراحها ، عندما أدركت وهن نسيج ريتشارد . من ذلك أن الجيش الذي كره فيه خلفيته المدنية ، والذي رغب في أن يحتفظ بالسلطة التي كانت على عهد والده عسكرية بشكل صريح ، تقول إن هذا الجيش ألهم منه أن يتخلى عن إدارة الجيش إلى فليتوود ، فأبى ، ولكنه هدا من روج زوج أخته

بتميينه قائدا . ولما كانت الخزانة خاوية مثقلة بالديون ، فإنه دعا برلمانا اجتمع في ٢٧ يناير ١٩٥٩ ، وراجت الشائعات بأنه يدبر عودة أسرة ستوارث إلى العرش . فجاء ضباط الجيش تتبهم زسمرن الجنود إلى ريتشارد وطلبوا إليه فض البرلمان ، فأرسل إلى حرسه ليتولوا حمايته فتجاهلوا أوامره . واستسلم ريتشارد للقوة ووقع أمرا بحل البرلمان (٢٢ أبريل) ، وأصبح الآن تحت رحمة الجيش . ودعا الجمهوريون المتحمسون في الجيش يترجمهم اللواء جون لمبرت ، أعضاء البرلمان الطويل الباقين على قيد الحياة للاجتماع من جديد ، وممارسة السلطة التي كانت لهم ، كما كانت للبرلمان المبتور ، حتى مجيء كرومول ، وطرده إيام بمعونة الجمهوريين المتحمسين في الجيش ١٩٥٣ . والتأم عقد هذا البرلمان المبتور الجديد في وستمنستر في مايو ١٩٥٩ . ولكن ريتشارد الذي لقي من السياسة نصبا ، أرسل استقالته إلى هذا البرلمان في ٢٥ مايو . واعتزل الحياة العامة ، وفي ١٩٦٠ آوى إلى فرنسا حيث عاش في عزلة تحت اسم مستعار هو جون كلارك . وعاد إلى إنجلترا في ١٩٨٠ ، حيث وافته منيته في ١٧١٢ وهو في السادسة والثمانين من العمر .

وكتب أحد الملكيين في ٣ يونيو ١٩٥٩ يقول : « أن الفوضى كانت تعتبر كالا ، إذاقيست إلى نظامنا الراهن وحكومتنا الحاضرة (١٥) » ، واستمر الصراع على السلطة بين الجيش والبرلمان ، ولكن قطاعاته المقيمة في اسكتلنده وايرلنده أيدت البرلمان . وكان ثمة حزب ملكي قوى في البرلمان الذي كانت غالبية من الجمهوريين . وفي ١٣ أكتوبر حشد لمبرت جنوده عند مدخل قصر وستمنستر وطرده البرلمان ، وأعلن أن الجيش سيتولى مقاليد الحكومة . وبدأ أن تعاقب الأحداث التي بدأت بحركة برايد في التطهير ، سوف تتكرر : مع كرومول آخر هو لمبرت .

وقال ملتون من « انقلاب » لمبرت « أنه عمل أبعد ما يكون عن

الشرعية ، ومن أشد الأهمال خزيا وطارا ٠٠٠٠ إلى لأخشى أن أكون واحدا في مجتمع همجي متبربر ٠٠٠ والا فكيف يجرؤ جيش مأجور أن يخضع لسلطانه هو السلطة العليا التي أقامته ، على هذا النحو (٧٦) «ولسكن الشاعر كان عاجزا لاحول له ولا قوة . إن القوة الوحيدة في بريطانيا ، التي كان في مقدورها أن تقف في وجه الدكتاتورية العسكرية هي جيش آخر ، أو العشرة آلاف جندي الذين خصصهم البرلمان من قبل للجنرال جورج مونك لإقرار سيادته في اسكتلنده . ولسنا ندرى إذا كانت ثمة أطماع شخصية خفية وراء اعتزام مونك تمهيد الجيش في لندن ومقاومة اغتصابه السلطة . فأعلن مونك : « أن الضمير والشرف يقضيان على بأن أحرر انجلترا من حكومة اسيف التي كبلتها في أغلال العبودية التي لا تحتل » . وأثار بيانه الحماسة والحمة في عناصر مختلفة معارضة للحكم العسكري . ورفض الأهالي دفع الضرائب وأعلن الجيش في أيرلنده والأسطول وصبيان الحرفيين ، انضمامهم إلى البرلمان . ورفض صرافو لندن أن يدفعوا للقادة المغتصبين القروض التي اعتمدوا عليها في دفع الرواتب للجند . وأحست الآن طبقات التجار والصناع الذين كانوا قد أقروا من قبل خلع شارل الأول ، أن القوضى التي تنتشر ويتفاقم خطرها ، تهدد الحياة الاقتصادية في انجلترا ، وبدأوا يعجبون ويتساءلون : هل من المستطاع استعادة الاستقرار السياسى أو الاقتصادى دون ملك ، تهديء شرعية مركزة من روع الناس ، وتوفير الضرائب وتسكن العاصفة ؟ . وفي ٥ ديسمبر قاد مونك قواته إلى انجلترا . وأرسل قادة الجيش قوات لاعتراض طريقه ، ولكنها رفضت القتال ضد مونك ، وسلم الضباط المغتصبون بالهزيمة وأعادوا البرلمان ، واستسلموا له ، وصاروا تحت رحمته (١٤ ديسمبر) .

وكان عدد أعضاء البرلمان المنتصر ٣٦ عضوا ، ولا يزال يميل إلى النظام الجمهورى . وكان من أول القرارات التي اتخذها ، قرار يتطلب من الأعضاء

الحاضرين وعمن ينضمون إليهم في المستقبل ، أن يتعهدوا بالتخلي عن أسرة ستيفارت . كما رفض هذا البرلمان عودة المشيخيين الذين بقوا على قيد الحياة من أعضاء البرلمان للبنتور السابق ، على أساس أنهم يحبذون عودة شارل الثاني . وازدري الناس هذا البرلمان على أنه مجرد أحياء لبركان مبتور لا يمثل إنجلترا ، وعبروا عن مشاعر الاحتقار « بشواء ردف البقرة » على هيئة تمثال يلقي به في النسيان السكينة للمشكلة في الهواء الطلق ، حتى بلغ عدد هذه الحرائق ٣١ في شارع واحد في لندن . وأما الجنرال موناك الذي كان جيشه قد وصل إلى لندن في ٣ فبراير ١٦٦٠ فقد أُنذر البرلمان القائم بأنه إذا لم يدع إلى انتخابات جديدة موسعة ، ويحل نفسه في موعدايتها ٦ مايو ، فإنه — أي موناك — لن يتولى حمايته بعد ذلك . كما أشار إلى البرلمان بإعادة الأعضاء للمشيخيين الذين سبق إبعادهم ، ففعل . وأعاد مجلس العموم للوسع (ازداد عدده أعضاءه) إقرار مذهب المشيخية (البرسبترين) في إنجلترا ، وأصدر الدعوة إلى انتخابات جديدة ، وأعلن حل نفسه . وعند ذلك كانت النهاية الرسمية الشرعية للبرلمان الطويل (١٦ مارس ١٦٦٠) .

وفي اليوم نفسه محا أحد العمال ؛ أو لطح بالطلاء ، عبارات « أخرج أيها الطاغية ، هذا آخر ملك » التي كانت الجمهورية قد علقتها في « بورصة لندن » . ثم ألقى العامل بقبعته وهتف « فليبارك الله الملك شارل الثاني » وعندئذ ، كما يروى ، « انضم كل من كان في للسكان يهتفون بأصوات مدوية (٧٨) » . وفي اليوم التالي التقى موناك سرا برسول شارل ، سيرجون جرينفل ، الذي أسرع في الذهاب إلى بروكسل يحمل رسالة موناك إلى الملك غير ذي العرش .

٩ - ويعود الملك ١٦٦٠

منذ غادر شارل الثاني إنجلترا في ١٦٥٠ هارباً لاقى في هربه عنقا ومشتقة ، طاش متشرداً قلقاً في القارة . واستقبلته أمه هنريتا ماري في باريس ، ولكن الفرنسيون كانوا قد أفقروها . وقضى شارل وحاشيته بعض الوقت في أشد العوز ، طالة على الإطانات ، حتى أن مستشاره المخلص ، فيما بعد ، ادوارد هايد كان يعيش على وجبة واحدة في اليوم . أما شارل نفسه الذي لم يكن لديه ما يسد الرمق في البيت ، فكان يتناول الطعام في الحانات في معظم الأحوال فسيئة ، على حساب تطلعاته . ولما عاد لويس الرابع عشر إلى أيام الوفرة والرخاء أجرى شارل معاشاً سنوياً قدره ستة آلاف فرنك ، ومن ثم بدأ شارل يستمتع بحياة رغدة طليقة إلى أبعد حد ، حتى يدخل السرور على قلب أمه .

وتعلم في أيام باريس هذه كيف يحب أخته هنريتا أن أعق حب وأخلصه وجهدت الأم والأخت كلتاهما في ضمه إلى الكاثوليكية ، كما أن الكاثوليك الإنجليز المهاجرين إلى فرنسا لم يألوا جهداً في تذكيره ، حتى لا ينسى ، ما فعلوه من قبل لنصرة أبيه . ووعدوه بمبعوثو المهاجرين المشيخيين بالمساعدة على عودته إذا ارتضى حماية مذهبهم . واستمع لكلا الجانبين في لطف وكياسة ، ولكنه عبر عن تصميمه على التزام مذهب الكنيسة الأنجليكانية الذي قاسى أبوه من أجله ما قاسى (٦٩) ، وربما نزع به الجدل الذي حاصروه به ، إلى الشك في الدين كله . ولكن يبدو أن العبادة الكاثوليكية التي رآها حوله في فرنسا ، كان لها أثر قوي عليه ، وبات سرّاً مكتوماً في حاشيته الصغيرة أنه لو أطلقت يداه لانحاز إلى الكنيسة الكاثوليكية (٨٠) وفي ١٦٥١ كتب إلى البابا انوسنت العاشر يعده بأنه لو طاد إلى عرش إنجلترا فلسوف يبطل كل القوانين التي صدرت ضد الكاثوليك . ولم يجب البابا بشيء . ولكن جماعة الجزويت أبلغوا شارل أن الفاتيكان لا يمكن أن يؤيد أميراً هرطيقاً (٨١) .

وعندما شريع مازاران في التفاوض لعقد تحالف مع كرومول أقنع شارل مستشاروه بعبادة فرنسا . ووافق الكاردينال مازاران على الاستمرار في صرف المعاش لشارل ، فانتقل إلى كولون ومنها إلى بروكسل . وهناك في ٢٦ مارس ١٦٦٠ حمل إليه جرينفيل رسالة مارك : إذا وعد شارل بعفو عام ، باستثناء مالا يزيد عن أربعة أشخاص ، ومنح ، حرية الفكر ، وثبت الملاك الحاليين للممتلكات المصادرة ، فإن مارك يلتزم بمساعدته . وفي نفس الوقت ، حيث أن انجلترا مازالت في حرب مع أسبانيا ، فيحسن بشارل أن يترك الأراضي الوطنية الأسبانية . فانتقل شارل إلى بريدا في إقليم برامانت الهولندي ، وهناك في ١٤ إبريل وقع اتفاقا قبل فيه شروط مارك من حيث المبدأ ، تاركا التفاصيل الدقيقة للبرلمان الجديد .

وجاءت الانتخابات لمجلس عموم ذي أغلبية ساحقة من للمسيكين ، واتخذ اثنان وأربعون من صغار النبلاء مقاعدهم في مجلس اللوردات الجديد وفي أول مايو تليت في المجلسين كليهما الرسائل التي حملها جرينفيل من شارل وفي « إعلان بريدا » قدم الملك الشاب عفوا عاما فيما عدا الأفراد الذين يستثنىهم البرلمان فيما بعد » ، وترك للبرلمان تسوية موضوع الأملاك المصادرة ووعد « بالأيزعج شخصا أو يستدعيه لمساءلته لخلاف في الرأي في أمور العقيدة » ، وألا يعسكر صفو الأمن في المملكة » . ثم أضاف بيانا حكيما أعده له المستشار هايد :

أنا تؤكد لكم ، تحت كلمتنا الملكية أن بعض أسلافنا كانوا يقدرون البرلمان أكثر مما نقدره نحن . وإنا لنؤمن بأن هذا كله جزء حيوي من دستور المملكة ، ضروري لحكومتها ، إلى حد أننا ندرك تمام الإدراك أنه ليس نعمة شعب أو أمير يمكن أن يحيا حياة سعيدة إلى درجة مقبولة بدونه . ولسوف ننظر دوما إلى نصائحهم على أنها أفضل تراث منهم ، ولسوف نكون معترين بآثرهم مهمين بالمحافظة

عليها وحمايتها ، قدسنا اعتزازنا واهتمامنا بأقرب شيء إلى
أنفسنا ، وأقوم شيء لصيانتنا والحفاظ علينا .

وسر البرلمان لهذا ، وفي ٨ مايو نادى بشارل الثانى ملسكا على انجلترا ،
مؤرخا لقبه من يوم وفاة والده ، غير مستند فى ذلك إلى أى قرار برلمانى ،
بل إلى حق المولد الوراثى . كما أقر إرسال مبلغ خمسين ألفاً من الجنيهات إلى
شارل مع دعوته إلى القدوم فوراً لاعتلاء عرشه .

وابتهجت انجلترا كلها تقريبا بانتهاء عقدين من السنين سادهما العنف ،
بعودة النظام دون إراقة قطرة من الدماء . ودقت النواقيس فى طول البلاد
وعرضها . وفى لندن جثا الناس فى الشوارع وشربوا نخب الملك (٨٢) .
وهلت كل الرؤوس المتوجسة فى أوروبا لانتصار الشرعية ، حتى اللقاطعات
المتحدة ، وهى جمهورية بشكل قوى ، كرمت شارل طرال رحلته من ريدا
إلى لاهاي ، وقدمت له الجمعية التشريعية التى كانت قد تجاهلته حتى الآن ،
مبلغ ثلاثين ألف جنيهه لشفاائه ، عربونا للنيات الطيبة فى المستقبل . وجاء
إلى لاهاي أسطول انجليزى توفرف عليه الأعلام مزدانة بالحروف الأولى
من « الملك شارل » وحمله إلى انجلترا فى ٢٣ مايو .

وفى ٢٥ مايو وصل الأسطول إلى دوفر ، واحتشد على الشاطئ دشرون
ألفا لاستقبال الملك ، ولما اقتربت السفينة من الشاطئ سجد الجميع ، كما
سجد الملك عندما وطئت قدماه الأرض ، شكرا لله . وكتب فولثير :
« أنبأنى العجائز الذين كانوا هناك أن معظم العيون أغرورقت بالدموع » .
وربما لم يحدث من قبل مشهد مؤثر إلى هذا الحد (٨٣) . وعلى طول الطريق
الذى احتشدت فيه الجوع السعيدة على مسافات قريبة ، ركب شارل
ومرافقوه ، تتبعهم مئات الناس ، إلى كنتربرى ، ثم روشستر ومنها إلى
لندن . وهناك خرج (١٢٠) ألفا للترحيب به ، حتى الجيش الذى حارب ضده ،
انضم الآن إلى قوات مونك ، فى هذا العرض . وانتظرو أعضاء مجلس

البرلمان في قصر هو يتحول . وقال رئيس مجلس اللوردات : « أيها الملك
الطيب ، أنت مناط رغبة ثلاث ممالك ، وقوة لثلاث طبقات الشعب وسند
لها ، في تخفيف الانفعالات والآلام ، وتسوية الخلافات واستعادة
شرف هذه الأمم المنهار ^(٨٤) . » وتقبل شارل كل هذه التحية والإطراء
في لطف وتملكه شعور خاص ، وعندما آوى إلى شيء من الراحة بعد أن
أرهقه الانتصار ، قال لأحد أصدقائه : « لا بد أنه كان من الخطأ أني لم
أحضر من قبل ، فإني لم ألتق اليوم بفرد واحد لم يحتج بأنه كان دوما
راغباً في عودتي ^(٨٥) . »

الفصل الثامن

ملتون

١٦٠٨ - ١٦٧٤

١ - جون بنيان : ١٦٢٨ - ١٦٨٨

في غمرة التعمس للدين والأخلاق لم يحس البيوريتانيون بالحاجة إلى أدب دنيوى . وكان في أنجيل الملك جيمس الأول (أى الذى ترجم إلى الإنجليزية فى عهده) زاد كاف لهم من الأدب . وبدأ كل شىء فجا عدا ، تقريبا ، نافها أو خبثا آنما . وفى ١٦٥٣ اقترح أحد أعضاء البرلمان ألا يدرس فى الجامعات سوى الأسفار المقدسة و « كتاب يوم ومايمانه (١) » . وقد يبدو هذا الأمر مزعجا محزنا ، ولكن يجدر أن نلاحظ أنه فى ذروة هيمنة البيوريتانيين (١٦٥٣) نشر سير توماس اركهارت ترجمته الرائعة لرايليه (*) ، مؤثرا الأدب الداعر المكشوف على الإيمان بالبعث والحساب . وفى العام نفسه أخرج إيزاك والتون كتابه صياد السمك المثالى Compleat Angler كشف فيه مما فى الماء من أُممائك ، وحتى فى أيامنا هذه التى نقفز فيها قفزات حكيمة من نوع من السمك إلى آخر ، نحمد هذا الكتاب ممتعا فى بساطته وعذوبة أسلوبه ، كما أنه يذكرنا بأنه على حين كانت انجلترا تمر بشورة لا تقل عنقا عن ثورة ١٧٨٩ ، فإن الناس كانوا يستطيعون أن يقصدوا فى هدوء إلى القنوات فى الريف ليصيدوا ويوقموا فى شراكهم مخلوقا حذرا يقطا .

(*) للكتابان الأول والثانى ١٦٥٣ ، والثالث ١٦٦٣ . واكمل بييردوتيه- الترجمة فى ١٧٠٨ .

انحرف قليلا عن الطريق أيها العالم الجليل ، أخرج بنا عن الطريق قليلا حيث يمكن أن نجلس ونغنى عند هذا السياج من الشجيرات الغنية برحيق الأزهار ، حتى تفرغ هذه السحابة ماءها على الأرض التي تنبت الزرع (٢) .

وحافظ أندرو مارفل على حياته بحكمة وتعقل ، طيلة التعديل المستمر في الحكومات من يوم مولده في ١٦٢١ إلى يوم وفاته في ١٦٧٨ ، ورحب بعودة كرومول من أيرلنده في قصيدة غنائية قوية عذبة ، ولكنه تجرأ فيها على التعاطف مع الملك القتيل شارل الأول : —

إنه لم يأت يأمر مبتذل أو ذئب ، في هذا المنظر المشهود ، يل تفحص ببصره الحاد نصل البلطة ، كما أنه ما أهاب بالآلهة في حق بندي لتدافع عن حقه اليائس ، ولكنه حتى رأسه الوسيم ، وكأنه يحنيه على الفراش (٣) .

وأصبح مارفل مساعدا للثون في وظيفة سكرتير لكرومول للغة اللاتينية . وانتخب عضوا في برلمان ١٦٥٩ ، وساعد على انقاذ ملتون من انتقام الملاكين المنتصرين ، وعاش ١٨ عاما في ظل الملكية العائدة ، واستنكر مبادئها وفسادها وعجزها ، في قصائد هجاء أحجم في حرص شديد عن نشرها .

وكتبت روائع جون بنيان ، مثلها في ذلك مثل ملاحم ملتون ، بعد عودة الملكية . ولكن الرجلين كليهما تشكلا في ظل النظام البيوريتاني . وهو يقول : « كان منبتي وضيما حقيرا ، وكان بيت ألي من أحط البيوت مكانة ، وكان موضع أشد الازدراء من الأسرات ممن حولنا (٤) » . وكان أبوه (ممكريا) يصلح القدور والغلايات في قرية الستو بالقرب من بدفورد . وحصل الوالد ، توماس بنيان ، من مهنته على ما يكفي لإرسال ابنه جوب إلى مدرسة بدفورد حيث تعلم من القراءة والكتابة قدرا كافيا على الأقل « ليتفحص الأسفار المقدسة » ، ويسكتب أشهر الكتب الإنجليزية .

وفي القرية اشتغل صبيا لوالده الذي لقنه تعليما شغويا بطريقة السؤال والجواب في أمسيات أيام الأحد . وعن أولاد المدينة تعلم الكذب والتجديف في الدين . وهو يؤكد لنا « أنه لم يضارعه إلا القليل في هذه الأمانين » (٥) . وأكثر من هذا أنه أدين بالرقص وممارسة الألعاب وتناول قدح من الجمعة في إححدى الحانات . وكلها أمور يحاسب عليها البيوريتانيون الذين لم يكونوا قد استولوا بعد على مقاليد الأمور ، في سني شبابه (١٦٢٨ — ١٦٤٨) . وهو يقول عن نفسه « كنت أتزعم أعمال الرذيلة والشر والفسوق » (٦) . ومثل هذه الاعترافات بالخطايا الجسيمة كانت أمرا شائعا مألوفا بين البيوريتانيين ، حيث عملوا على جذب أشد الانتباه إلى اصلاحهم الديني ، وأظهروا قدرة الله على أن يهبهم نعمة الخلاص . ولما انتشرت التعاليم البيوريتانية من حوله ، أغض مضجعه وحد من نزعة الشر عنده ، تفكيكه في الموت وفي يوم الحساب وفي الجحيم . ورأى مرة فيما يرى النائم أن السماء كلها فوقه تضطرم بالنيران وأن الأرض نحته تزولت ، فنهض من نومه مذعورا ، وأزعج الأسرة بصرخاته : « يا إلهي ، أسألك الرحمة بي ، وقعت الواقعة ، ولم أعد نفسي ليوم الحساب » (٧) .

وفي سن السادسة عشرة سيق إلى جيش البرلمان حيث خدم لمدة ثلاثين شهرا في الحرب الأهلية . وهو يقول عن فترة الجندية « لم أكف عن الخطيئة والإثم ، وإزداد تمردي على الله ، وعدم اكتراثي بالخلاص » (٨) . وبعد تسريحه من الجيش تزوج من فتاة يتيمة (١٦٤٨) كان كل صداقها اثنين من الكتب الدينية ، وذكرياتها التي لا تنفتأ ترددها عن تقى أبيها وورعه . ومذ خلف جون أباه في الحانوت ، فإنه استطاع أن يعولها « بالسكرة » . وازدهرت أحواله ، وتردد على الكنيسة بانتظام ، وتخلّى عن نزوات شبابه شيئا فشيئا . وكان يقرأ الكتاب المقدس كل يوم تقريبا ، حتى صارت لغته الإنجليزية البسيطة هي لغة بنيان نفسه . وتحدثت قرية الستو عنه على أنه مواطن نموذجي .

ولكن الشكوك اللاهوتية أرهاقته ، كما يقول . ولم يكن على ثقة من أن رحمة الله قد وسعته ، وبدون هذه الرحمة سيلاقى أشد العذاب . وارتاب في أن معظم أهل الستو وبدفورد سيكون مصيرهم بالفعل إلى نار الجحيم . وأزعجه تفكيره في أن معتقداته للمسيحية كانت مجرد حدث جغرافى . وتساءل فيما بينه وبين نفسه : « ماذا نقول إلا أن الأتراك لديهم كتاب مقدس عظيم ، مثل كتابنا ، يثبت أن رسولهم (محمداً) سوف يكون شفيعاً لهم ، كما يجب أن تثبت نحن أن المسيح مخلصنا (٩) ؟ » « لقد غرقت روحى في بحر من التجديف على الله والمسيح والأسفار المقدسة ٠٠٠ وثار في نفسى التساؤلات عن حقيقة وجود الله وابنه الوحيد الحبيب . وهل يوجد حقاً إله أو مسيح ؟ ؟ » وهل كانت الأسفار المقدسة إلا خرافة أو قصة بارعة أكثر منها كلمة الله للمقدسة الخالصة ؟ (١٠) وانتهى إلى أن هذه الشكوك أثارها شيطان يسكن بين جنبيه . « إنى لحظت الكلب والضفدعة وحسبت ما أعد الله لهما مما جعلهما في حالة أفضل من حالى بكثير . . . لأنهما ليس لهما نفس ترزح تحت وطأة عذاب النار أو الخطيئة ، كما هو محتمل أن تفعل نفسى (١١) » .

وبينما كان يوماً في طريقه إلى الريف مستغرقاً في التأمل في شرور قايه تذكر كلمات القديس بولس : « صنع السلام بما سفك من الدم على صليبه (١٢)

» وقويت في ذهنه فكرة أن للمسيح مات من أجله ومن أجل الآخرين ، حتى كنت مستعداً أن أغرق في نشوة . . . من الحبور والهدوء الحقيقيين (١٣) . وانضم إلى كنيسة معمدانية (١٦٥٣) في بدفورد ، وعمد ، وقضى طامناً في حياة تسودها السعادة والهدوء الروحانيين ، وفى ١٦٥٥ انتقل إلى بدفورد وعين شماساً فى هذه الكنيسة ، وفى ١٦٥٧ كاف بالوعظ ، وكان موضوعه هو رسالة لوتر : ما لم يؤمن المرء إيماناً راسخاً بأنه قد تخلص من جنوحه إلى الإثم بالطبيعة ، بسبب موت المسيح بن الله ،

فإنه لا بد بصرف النظر عن فضائله — لاحق بالأكثرية العظمى من البشر الذين يحشرون في نار جهنم . إن تضحية المسيح المقدسة بنفسه ، هي وحدها التي يمكن أن تعدل جسامة خطيئات الإنسان . وكان من رأيه أن يلحق الأطفال هذا الأمر في وضوح تام : —

في اعتقادي أن الناس يسلكون طريقا خاطئا في تعليم أبنائهم العبادة ويبعدون أنه من الأفضل أن ينمي الناس أطفالهم ، في وقت مبكر ، وقبل فوات الأوان ، أية مخلوقات بغيضة لعينة هم ، وكيف أنهم يبوؤون بغضب من الله ، بسبب الخطيئة الأولى الأصلية العقلية ، كما يظهرونهم على طبيعة غضب الله ، وخلود البؤس والشقاء (١٤) .

ووسط هذه النصائح والتحذيرات ، ضمت مواعظ بنيان كثيرآ من الآراء الحكيمة في تنشئة الأطفال ومعاملة المستخدمين ، وكان مثل غيره من الوعاظ ، عرضة لتحديات الكويكرز ، الذين قالوا إنه ليست الأسفار المقدسة ، بل النور الداخلي هو الذي يهيء المعرفة والخلاص . وفي ١٦٥٦ وضع كتابين هاجم فيهما الطائفة الجديدة المزعجة . فكان جوابهم أنهم اتهموه بأنه يسوعي ، قاطع طريق ، زان ساحر (١٥) . أما أسوأ الشدائد فقد حلت عليه بعودة الملكية ، فقد جدد القانون القديم الذي صدر في عهد إليزابث والذي قضى بمحضور كل الانجليز الصلوات الانجليكانية دون غيرها ، وأذن بنيان إلى حد إغلاق مكان اجتماعاته الخاص في بدفورد ، وإلتقى بجمهور المصلين في أما كن خفية وألقى عليهم مواعظه ، فاعتقل ، وعرض عليه إطلاق سراحه إذا وعد ألا يعظ علانية . فرفض وأودع سجن بدفورد (نوفمبر ١٦٦٠) ، وهناك قضى اثني عشر عاما ، مع بعض فترات تمتع فيها بحرية محدودة . وتجدد في أوقات متفرقة عرض الإفراج عنه ، بنفس الشروط ، مشيراً نفس الرد : « إذا أطلقتم سراحى اليوم فسأشرع في الوعظ غداً » (١٦) .

وربما أصبحت حياة الأسرة عبثاً ثقيلاً ، لقد توفيت زوجته الأولى في ١٦٥٨ تاركة له أربعة أطفال أحدهم أعمى ، وكانت الثانية حاملاً . وعاون الجيران في إقامة أود الأسرة ، وأسهم بنيان في نفقاتها بصنع بعض المحرمات في السجن وتدير أمر بيها ، وأجيز زوجته وأولاده أن يزوروه كل يوم كما أجيز له أن يعظ رفاق السجن ، وأن يغادر السجن متى شاء ، حتى للسفر إلى لندن (١٧) . ولكنه استأنف الوعظ سرّاً فضيقوا عليه الخناق في السجن . وفي المعتقل قرأ الكتاب المقدس المرة تلو المرة ، كما قرأ كتاب فوكس « سجل الشهداء » ، وأذكى حرارة الإيمان عنده بمحارق الأبطال البروتستانت ، ووجد متعة عظيمة في رؤية سفر الرؤيا ، ولا بد أنه كان مزوداً بالقلم والقرطاس ، لأنه في السنوات الست الأولى من احتجازه كتب ست قطع دينية ، كما وضع مؤلفه العظيم « الرحمة تتسع لسكبير الخطائين » . وهو سيرة حياته الروحية ، وهو رؤيا تسكاد تكون مفزعة من رؤية العقل البيوريتاني .

وفي ١٦٦٦ . وفي ظل « الإعلان الأول للتسامح » الذي أصدره شارل الثاني ، أطلق سراح بنيان فعاود الوعظ فأعيد إلى السجن . وفي ١٦٧٢ أجاز « الإعلان الثاني للتسامح » الذي أصدره شارل الثاني ، للقساوسة المنشقين أن يلقوا المواعظ ، فأفرج عن بنيان ، وانتخب على الفور راعياً للكنيسة القديمة . وفي ١٦٧٣ أبطل العمل بإعلان التسامح ، وتجدد تحريم الوعظ على المنشقين ، فلم يمثل بنيان له ، وأعيد إلى السجن (١٦٧٥) ، ولكن سرعان ما أخلى سبيله .

وفي هذه المرحلة الثالثة والأخيرة كتب بنيان الجزء الأول من « انطلاق الحجاج من هذه الدنيا إلى العالم الثاني » ، وقد نشر هذا الجزء في ١٦٧٨ وأعقبه الجزء الثاني في ١٦٨٤ . (في مقدمة شعرية مضحكة رديئة غير معقولة زعم بنيان أنه كان قد وضع هذا الكتاب ملهاة وآساية لنفسه دون أن يفكر في نشره) وعرض القصة ، في لطف ، في صيغة وم أو

خيال جامع .

« بينما كنت أضرب في فيافي هذا العالم ، جئت إلى مكان معين حيث كانت نمة « خلوة » فتمددت في هذا المكان لأنام ، وإذ غلبني النعاس رأيت فيما يرى النائم حلما (١٨) . »

إن كريستيان استبد به في هذه الرؤيا . التفكير في أنه يجب عليه أن يتخلى عن كل شيء وينسى كل شيء ، وألا يلتمس سوى المسيح والجنة . فيهجر زوجته وأولاده ، ويبدأ رحلته إلى « المدينة السماوية » . ويأخذ به « اللوحى بالأمل Hopaful » الذى يعبر عن العقيدة البيوريتانية في أحكام بارع :

كنت يوما في حزن شديد ، أحسب أنه أشد ما لقيت في حياتي . واتبعت هذا الحزن عن رؤية صادقة لجسامة آكامي وفظاعتها ، ولما كنت آنذاك لا أفكر في شيء إلا الجحيم والعذاب المقيم . فإني فجأة ، وأنا غارق في التفكير ، رأيت يسوع المسيح ينظر إلى من علياء السماء ، قائلا : « آه ن يسوع المسيح وسيكتب لك الخلاص (١٩) » . ولكنى أجبتة : « إني خطاء كبير خطاء كبير جداً ، فأجاب « رحمتى تتسع لك » ... وهنا غمرنى الفرح (٢٠) وبعد شيء كثير من المحنة والنزاع يصل الحبيبيج إلى « المدينة السماوية » . فنندرك هذا الذى كانوا يأملون فيه فى حماسة بالغة :

ومن عجب أنهم حين دخلوا ، تغيرت هيئتهم وأحاطت بهم حالة من الجلال ، وارتدوا ملابس بدت وكأنها من ذهب . كما كان هناك من قابلهم بالقيثارات والتيجان وأعطاهم إياها - القيثارات - لترتيل آيات المدح والثناء والتيجان رمز للتسكريم والتشريف ، وانظر ، ان « المدينة السماوية » يتألق نورها وكأنه ضياء الشمس ، والشوارع مكسوة أرضها بالذهب ، وفيها سار خلق كثير تملو رؤومهم التيجان ويمسكون بأغصان الغار في أيديهم ، ومعهم قيثارات من الذهب ينشدون عليها ترانيم الثناء والشكر (٢١) .

أما « الجهل للسكين » الذى تبعهم ، متمثرا فى عرجه ، دون أن يتزود بالإيمان الصادق ، فإنه يأتى إلى أبواب « المدينة السماوية » ، ويطلقها ، فيسأل عن جواز مروره فلا يجده ، فيلقى به فى الجحيم (٢٢) — إن القصة تروى بشكل جذاب ، ولكننا نعطف أحيانا على « العنيد » الذى يقول عن المسيح ورفاقه ، « هناك فئة من هؤلاء المخبولين المغرورين الذين ، حين يمسكون بطرف من الخيال ، يظنون أنهم أعقل حتى من يستطيعون تحكيم عقولهم (٢٣) » .

أن فكرة حج النفس من نطاق المغريات الدنيوية إلى نعيم الآخرة ، فكرة قديمة ، وتلك كانت صفتها المجازية فى العصور الوسطى ، ويحتمل أن بنيان كان قد قرأ بعضا من هذه الكتب (٢٤) . وجر النسيان ذبوله الآن عليها فى صمرة النجاح الخارق الذى لاقته القصة الجديدة ، حيث صدر منها تسع وخمسون طبعة فى المائة العام الأولى من ظهورها ، وبيع منها مائة ألف نسخة قبل وفاة بنيان . وبيع منها ملايين من النسخ منذ هذا الوقت ، وترجمت إلى ١٠٨ من لغات أمريكا البيوريتانية . وكانت تفتنى فى كل بيت تقريبا . ودخلت منها إلى الحديث الدارج عبارات كثيرة — (سأخ) — التخلص من الجزع ، غرور الدنيا رجل الدنيا الحكيم . وفى القرن العشرين فقد الكتاب شعبيته بسرعة ، حيث لم يعد للخلق البيوريتانى وجود ، ولم يعد هناك إيمان بما جاء فى الكتب ولم يعد يفتنى ، ولكنه لا يزال فيضا من اللغة الإنجليزىة البسيطة العذبة الواضحة .

وضع بنيان نحو ستين كتابا ، وليس ثمة ما يدعو اليوم إلى قراءتها . وبعد إطلاق سراحه للمرة الأخيرة ١٩٧٥ أصبح واحداً من ألمع الوعاظ فى عصره ، والزعيم المعترف به لطائفة المومنين فى إنجلترا . وأبدى إعجابه بشارل الثانى . وأمر أتباعه بالولاء والإخلاص لملك أسرة ستيوارت بوصفه درع إنجلترا وحاميها ضد البابا (٢٥) . وبعد انقضاء ثلاث سنوات على إعلان شارل الثانى اعتناقه الكاثوليكية وهو على فراش الموت ، أنهى

بنيان رسالته ، ومن الغريب أن نهايته كانت مثل نهاية لوتر . ذلك أنه حدث في ريدنج (مدينة في وسط انجلترا) نزاع باعدين والد ولد كان بنيان حرلعا بهما ، فسافر إليهما على ظهر جواد من بدفورد . فأصلح بين الفريقين المتخاصمين ، ولكنه عندما قفل راجعا على ظهر جواده ، فاجأته العاصفة وبللته قبل أن يعثر على مأوى يعصمه منها ، وانتابته حتى لم يبيل منها قط . ووري التراب في مقبرة للمنشقين في بنهل فيلدز (Bunhill Fields) حيث يرقد حتى اليوم مع شاهد حجري على قبره .

الشاعر الشاب ١٦٠٨ - ١٦٤٠

كان جد ملتون كاثوليكيًا حكم عليه في ١٦٠١ بدفع غرامة قدرها ستون جنيهًا لتغيبه عن الصلوات الأنجليكانية ، وحرّم ابنه من الميراث لأنه تخلى عن الكنيسة الرومانية . أما جون ملتون ، الذي تدرأوا منه وأنكروه ، فقد حصل على قدر لا بأس به من المال بوصفه كاتبًا عمومياً في لندن ، صاحب قلم برع في كتابة أو نسخ المخطوطات والوثائق والمستندات القانونية . وأولع بالموسيقى ، ونظم القصائد الغزلية القصيرة ، واحتفظ خفي داره بكثير من الآلات الموسيقية ومن بينها أرغن ، وانتقل هذا الانعطاف نحو الموسيقى إلى الشاعر الذي ربما أقر بأن المرء لكي يجيد الكتابة ، لا بد أن تتغلغل الموسيقى في نفسه ، وأن تكون له أذن موسيقية واعية . أما الأم ، ساره جفري ، فكانت ابنة خياط تاجر ، أنجبت لزوجها ستة أبناء كان صاحبنا جون ثالثهم . أما أخوه الأصغر فأصبح ملكياً يدين بالولاء لأسرة ستيوارت ، وواحداً من رجال الكنيسة التقليدية . على حين أن جون أصبح جمهورياً بيوريتانياً من أنصار كرومول . وكان البيت في « برد ستريت » مؤسسة بيوريتانية تقية مغلصة ، ولكن غير متزمتة ، فان حب الجمال الذي ساد عصر النهضة ، امتزج هنا بالذوق إلى الخير والفضيلة ، الذي أتى به الإصلاح الديني .

واشتري جون الأكبر عقارا ، وأنزى ، واستخدم معلمين (يوريثانين) من أجل جون الأصغر ، وأرسله في سن الحادية عشر إلى مدرسة سانت بول . وهناك تعلم الصبي اللاتينية واليونانية والفرنسية والإيطالية وبعض العبرية ، وقرأ شكسبير ولكنه أثر عليه سبنسر . وأنا لاحظت ، طبرين ، أنه تأثر كثيرا بالترجمة الإنجليزية لكتاب « الأسبوع » لمؤلفه دى بارتاس (١٥٧٨) ، وهو عبارة عن ملحمة تصف خلق الدنيا في سبعة أيام :

كان بي نهم شديد إلى العلم والمعرفة ، إلى حد أنى ، منذ بلغت الثانية عشرة كدت لا أترك الكتاب أبداً ، ولا آوى إلى النوم قبل منتصف الليل . وهذا أدى في الأساس إلى فقد بصرى . وكانت عيناى (مثل عيني أمه) ضعيفتين بطبيعتهما ، وكنت عرضة للإصابة بالصداع كثيرا ، ولكن هذا على أية حال لم ينقص من حبى للاطلاع ، ولم يعوق تقدمى فى التحصيل (٢٦) .

وفى سن السادسة عشرة انتقل إلى كريست كوليج فى كمبريدج . وهناك أدى نزاعه مع أحد المدرسين إلى التضارب والتلاكم بالأيدي . وأحس صمويل جونسون « بالتجمل حين أروى ما أخشى أن يسكون حقيقة ، وهى أن ملتون كان من أواخر من وقعت عليهم العقوبة البدنية من طلبة الجامعات ، ككتيها » (٢٧) . وطردهمسة فصل دراسى واحد ثم سمح له بالعودة ، وكان بالفعل ينظم شعرا جيدا . وفى ١٦٢٩ ، وهو فى الحادية والعشرين ، نظم قصيدة غنائية رائعة فى الاحتفال « بصبيحة عيد الميلاد » . وبعد ذلك بعام واحد ، نظم قصيدة من ستة عشر بيتا ، احياء لذكرى شكسبير ولتنقش على قبره ، وقد ووفق بعد ذلك على نشرها فى الطبعة الثانية لأعمال شكسبير : —

ما حاجة شكسبير العزيز إلى جهد جيل فى إقامة أحجار مكمونة لنظامه .
المكرمة ، أو لإخفاء رفاقته المقدسة تحت هرم يشير إلى النجوم ؟
أيها العزيز الذى لا يغيب عن الذاكرة ، أيها العظيم سايل الشهرة ، ماذا

يريد من شاهد هزيل على اسمك الرنان (*) .

وقضى ملتون في كبردج ثمان سنوات ، وحصل على درجة البكالوريوس في ١٩٢٨ ، والماجستير في ١٩٣٢ . ثم تركها دون أن يحس بالولع الممهود في المتخرجين بحضور يوم السكلية التي تخرجوا فيها . وكان أبوه يتوقع أن ينخرط في سلك الخدمة السكينية . ولكن الشاب المغرور أبى أن يقسم بعين الولاء للمذهب الأنجليكاني وطقوسه الدينية : —

ومذ رأيت كيف غزا الطغيان الكنيسة — بمعنى أن الذي يرسم قسيسا يجب أن يتعهد بأن يكون عبدا رقيقا ، وفوق ذلك يقسم اليمين الذي لو لم يلتزم به إلزاما بيعت على الضجر فإنه أما أن يحنث في يمينه أو يرأى في إيمانه — فأنى وجدت من الأفضل ايشار الصمت البريء أمام الوظيفة المقدسة ، وظيفة الكلام والوعظ ، التي تشتري بالعبودية والقسم الكاذب (٢٩) .

وآوى ملتون إلى بيت والده الربنى في هورتون بالقرب من وندسور ، ومن الواضح أن والده تولى الاتفاق عليه هناك ، وتابع هو دراساته ، القديمة بصفة أساسية ، إلى أن ألم حتى بأصغر المؤلفين اللاتينيين شأنا . وكتب قصائد باللغة اللاتينية ، أنشأ عليها كاردينال كاثوليكي . وسرطان ماجمل دفاعه باللاتينية عن سياسة كروموليرن صدام في أنحاء أوروبا . وحتى حين كتب نثرا بالإنجليزية ، فأنا كتب باللاتينية حيث كان يخضع الإنجليزية لتقديم وتأخير وتعقيدات والتواءات كلاسيكية ، واسكنه كان يكتب في لغة غريبة ساحرة رنانة .

ويحتمل أنه في هورتون وسط الحقول المورقة والخضرة في الريف الإنجليزي ، كتب القطع المزروجة ، التي خلدت ذكرى الابتهاج الخلى من

(*) يؤسفنا أن نضيف أنه لما وكل إلى ملتون مهمة الدفاع عن اهدام شارل الأول ، ذكر من بين المساوىء التي تلتطخ ذكرى هذا الملك اعترازه وواجهه بشكبير (٢٨) .

ألمهم ، ونوبات الكتابة في شبابه العابر ، سواء بسواء . إن كل سطر من « Allegro » يطالب بأن يتغنى به الناس . و « اللجرو » هي « الإبنة الجميلة » . للمثلة الجسم ، المرحاة اللطيفة ، المولودة من « زفير » الريح الغربية العملية وهي تداعب أورورا الفجر « أن كل شيء في مشهد الريف يدخل الآن البهجة على قلب الشاعر : القنبرة تشق سكون الليل ، الديك يختال في مشيته أمام دجاجاته ، الكلاب تقفز عند سماعها بوق الصياد ، شروق الشمس « في أشعة وضاعة في لون الكهرمان » (أصفر ضارب للحمرة) ، بائمة الابل التي تغنى والقطعان التي تلوك غذاءها ، ورقص الشبان والشابات على الحشائش ، والأمسيات بجوار المدفأة أو في المسرح :

إذا مثل بن جونسون احدى تمثيلياته الراقية أو صدى شكسبير الشاعر العذب القوى الخيال بألحان الغابة الشعبية الفطرية الموسيقى .

وتفك الأغلال التي تقيد روح التألف والانسجام الخفية ، إنك إذا استطعت أيها المرح أن توفر لى هذه المباحج كلها ، فإنى أود أن أحياء مملك .

وحتى الآن لم يسكن ثمة إيوريتانى متجههم عبوس مكتئب ، بل شاب إنجليزي مفعم بالصحة يجرى في عروقه بعض دم شعراء عصر اليزابث .

ولسكن طراً بين الحين والحين مزاج آخر ، حتى بدت هذه المسرات نافهة للعقل المفكر ، حين يتذكر المأساة (التراجيديا) ، ويفتش عن مغزى ، ولا يجدها في الفلسفة إجابات ، بل تساؤلات لم يحس بها من قبل . عندئذ يأتى « Penseroso » المفكر : يسير دون أن يراه أحد :

حيث يرى القمر المتجول ، راكبها قرب الظهيرة ، وكأنه رجل ضل الطريق ، عبر السموات المتزامية الأرجاء الخالية من المسالك .

أو يجلس وحيدا إلى جانب المدفأة :

حيث الجرات المتوهجة في الغرفة تعلم الضوء كيف يسكتسى بالظلمة بعيدا عن أى مصدر للاهتمام والفرح ، اللهم إلا صرار الليل على الموقد .

أو أنه تابع « في برج طال بمنزل » ، تغلبت عليه النجوم ، يقلب
سممحات أفلاطون ، ويتساءل أين المساء .

آية عوالم وآية أقطار شاسعة تتسع لهذا العقل الخالد الذي تخلى عن
قصره في زاوية من جسده .

أو هو يتذكر مآسى العشاق والميثاث الحزينة للملوك . وخير من هذه
الفلسفة الصارمة هناك « صحن الدير الذى يعج بالجهد والجِد في العمل
والدرس » في السكائدرائية الكبرى ، ونوافذها التى تروى مشاهد التاريخ
وضوئها المظلل :

فليمزف الأرغن المجلجل ، للمرتلين ذوى الأصوات الممتلئة أدناء ، في
أصوات طالية وترنيمات صافية ، فلربما غمرتنى عذوبة الأنغام في أذنى بنشوة ،
وأبرزت كل السموات أمام ناظرى » .

تلك هى المتعة والمسرات التى يجدها « الرجل المنسكر » ، وإذا بدت
مرتبطة بالكسابة ، فان الشاعر سيقضى حياته مع الكسابة . ففى هاتين
القصيدتين البهيجتين ، يكشف ملتون عن ذاته وهو فى الرابعة والعشرين ،
شابا تتحرك مشاعره لكل مافى الحياة من جمال ، ولا يجد حرجا فى
المسرات والملذات ، كما وجد التفكير المحير فى الحياة والموت طريقه إلى
نفسه فتأثر به ، كما أحس بالصراع بين الدين والفلسفة يحتدم بين جوانحه .

وحات أول فرصة ليبرز فيها الشاعر ويذيع صيته فى ١٦٣٤ حين كلف
بكتابة مسرحية ريفية يمثلها ممثلون مقنعون فى الاحتفالات بتولية ارل
رد جووتر رئيسا « لمجلس الغرب » . ولحن هنرى لاوس الموسيقى التصويرية .
أما شعر ملتون فكان مجهولا اسم مؤلفه تواضعا . وكان موضع ثناء واطراء
إلى حد أنه حمل على الاعتراف بأنه مؤلفه . واطراء سير هنرى وتون
قائلا : فى أغانيك وقصائدك رفة دورية (نسبة إلى الدوربن الذين غزوا
بلاد الأغر يق فى القرن ١٢ ق . م) لم أر لها مثيلا فى لغتنا حتى اليوم (٣٠)

« وكان عنوان القطعة في الأصل » مسرحية في قصر لدلو (في ثروباشير) ، أما اليوم فهي تسمى « كومس Comus » (المسرحية) وقد مثلها اثنان من صغار النبلاء مع شقيقتيهما ، وكانت فتاة في ربيعها السابع عشر ، من وصيقات الملكة هنريتا ماريا . وعلى الرغم من أن معظم المسرحية كان شعرا مرسلًا غير مقفى ، محشوا بالأساطير ، فقد كانت زاخرة بالغناء العاطفي المرح والأناقة الرائعة الشجية : وتميزت ببراعة لم تتكرر في شعر ملتون فيما بعد وكانت الفكرة الرئيسية فكرة تقليدية : عذراء فائقة ، تتجول في الغابات على غير هدى ، وهي تشدو : « بأغنيات ربما خلقت نفسها من تحت برائن الموت » .

ويدنو منها الساحر « كودس » ويقرأ عليها تعويذة حتى تتخلى عن عفتها ، ويتوسل إليها أن تلهو معه ، وقد تألقت نضارة وشبابا ، فتدافع الفتاة ، في فصاحة بالغة عن الفضيلة وضبط النفس و « انفسا السجاوية » ، وجرت كل الأبيات على خير وجه . فيما عدا قطعة ربما كانت مشعومة ، أشارت إلى « الجمهورية » ، كان من المحتمل أن تؤدي بهذا الجمع الحاشد . المسرف النفور والاستياء :

إذا كان لكل رجل منصف ، يصيبه الآن الهزال والنحول تحت وطأة العوز قدر متواضع يليق به ، من هذا الترف الفاجر الذي تنعم به الآن . فئة قليلة في إسراف بالغ ، لتوزعت كل خيرات الطبيعة توزيعا طافلا في أنصبة متساوية غير زائدة عن الحاجة ، ولما اختزلت الطبيعة مثقال ذرة . هذه الخيرات (٣١) .

وفي ١٦٣٧ اعتل مزاج الشاعر وتكدر صفو حياته بغرق صديقه الشاب ورفيقه الشاعر إدوارد كنج . وأهمهم ملتون في كتاب تذكاري عن كنج ، بقصيدة رثاء « ليسيداس Lycidas » منظومة في شكل رعوى مصطنع محشوة بالآلهة الموتي ، ولكنها غنية بالأبيات التي لاتزال نحات فيهم .
الذكرى الحبيبة .

وا أسفاه ماذا يحملنا على أن نرهق أنفسنا بهذا الهم المقيم ، في النهوض بصنعة الراعى (نظم الشعر) البسيطة المحتقرة ، وللتأمل بكل ما أوتينا من قوة في ربة الشعر الجحود ؟ . أما كان من الخير ، كما يفعل الآخرون ، أن يلهو ويلعب مع الراعية أما ويلبس في الظل ، أو يعبت بخصلات شعر « نيرا » . أن الشهرة هي الحافز الذى يثير الروح العنصرية وهي آخر الوهن فى العقل الرفيع) ، ليزدرى بالمباهج ، ويكد ويشقى طوال أيامه . ولكن حين نأمل فى الحصول على الجزاء الوفاق . وتفكر فى الانطلاق إلى الوهج الخاطف تأتى « الروح العمياء » (ملك الموت) بآلاتها البغيضة ، لتنفذ على الحياة الواهنة الخيوط .

ويبدو أن جون ملتون الأكبر (الوالد) أحس بأن ست سنوات من الإنصراف إلى العمل فى روية وأناة فى هورتون كانت جزاء وفاقا للموهبة التى أبدعت مثل هذه القطع الغنائية . وليكمل حسن صنيعة أرسل ابنه ليمتجول فى أنحاء القارة مع دفع كل النفقات . وغادر ملتون إنجلترا فى أبريل ١٦٣٢ يرافقه خادم . وقضى بضعة أيام فى باريس (وكانت آنذاك تحت قبضة ريشليو العسكرية) ، وأمرع إلى إيطاليا ، حيث أقام شهرين فى فلورنسة ، زار خلالها جاليليو الكفيف نصف السجين ، وألقى برجال الأدب ، وجاس إلى الجامعيين ، وتبادل معهم التحية فى شعر باللاتينية ، ونظم بالإيطالية قصائد السونيت ، وكأنه نشأ وترعرع على ضفاف نهر أرنوا أو نهر بو . وفى نابلى استقبله ورحب به وكرمه نفس المركيز مانسو الذى صادق وناصر تاسو ومارينى من قبل وقضى فى رومه أربعة أشهر ألتقى فيها ببعض الكاردينالات للثقفيين وأحبههم ، ولكنه أعلن بصراحة مذهبه البروتستانتي . ثم عاد إلى فلورنسة ، ثم قصد إلى البندقية عبر بولونيا وفيرارا ، ثم ذهب إلى فينيس عبورا بمدينة فيرونا وميلان ثم قفل راجعا إلى لندن سرورا بمجنيف وليون . وياريس (أغسطس ١٦٣٩) .

وفى كتاباته الأخيرة دون قطعتين مشهورتين عن رحلته فى إيطاليا .

وكتب ردا على تعريض أحد الخصوم به : « أشهد الله أنه في كل تلك
الأمكن التي لا تلقى فيها الرذيلة إلا أيسر الاستنكار والتثبيط ، وترتكب
في أقل خجل وأيسره ، لم أحد أنا فقط عن جادة الفضيلة والتزاهة (٣٢) » .
ويتذكر كيف امتدح النقاد الايطاليون شعره :

وهكذا بدأت أوافق كل الموافقة على ما ذكره هؤلاء النقاد الايطاليون
أو يقول نهرمن أصدقائي هنا في بلدي ، كما استمع بنفس القوة إلى استحضات
داخلي بنمو بين جوانحي كل يوم ، من أنه بالعمل الجاد والانكباب على
الدرس (وهذا ما اعتبره قدرى في هذه الحياة) بالإضافة إلى الميل الطبيعي ،
بهذا كله يمكن أن أخلف شيئا مكتوبا للأجيال القادمة ، قد لا يراضون أن
ينفى (بل يبقى ويخلد على الزمن) (٣٣) .

وبدأ ملتون الآن يخطط للمهمة تخلص ذكر وطنه وعقيدته ، وتخلصه
على مر القرون . وكان لزاما أن تمضى الآن عشرون سنة قبل أن يتمكن من
البدء فيها ، وتسع وعشرون سنة قبل أن يتمكن من نشرها . وفيما بين فترتي
نظمه الشعر : الفترة الأولى (١٦٣٠ - ١٦٤٠) والثانية (١٦٥٨ - ١٦٦٨) ،
لعب دورا في الثورة الكبرى ، وسخر قلبه للحرب والنشر .

٣ — المصالح : ١٦٤٠ — ١٦٤٢

في ١٦٣٩ استأجر ملتون مسكنا لرجل أعزب في « سانت بريد تشير
شيارد » في لندن ، حيث تولى التدريس لأبناء أخته . وبعد سنة واحدة
انتقل معهم إلى أولد رزجيت ستريت « ، وهناك (١٦٤٣) استقبل عددا
آخر من التلاميذ بين سن العاشرة إلى سن السادسة عشرة آواهم وعلمهم ،
وحصل من ذلك على دخل متواضع يكفل به المبلغ الذي خصصه له والده .
وفي كتاب إلى « مستر هارتلب (١٦٤٤) صاغ ملتون آراؤه في التعليم .
فأتى لهذه اللفظة بتعريف قوى رائع : « أقول أن التعليم التام الواسع هو
الذي يعد الانسان لينهض ، بحق ومهارة ورعاية صدر ، بكل مهامه الخاصة

والعامة ، في السلم والحرب ، سواء بسواء (٣٤) ، وأول واجب على المعلم هو أن يغرس الخلق القويم في نفس التلميذ ، « ويصلح ما أفسده آبائنا الأولون » — أى أن يقهر نزعة الشر الطبيعية في الإنسان (الخطيئة الأولى) — أو (كما يجدر بنا أن نذكر الآن) أن يعيد تكييف الخلق القويم الذى سبق تشكيله وفقا لحاجات مرحلة الصيد ، نقول تكييفه تبعاً لمتطلبات حياة المدنية الحالية . وأحس ملتون أن هذا يمكن تحقيقه على خير وجه بأن يغرس في ذهن الناشئ إيماناً قوياً بالله واحد بصير ، وأن نعوذه على ضبط النفس وفقاً لنظام رواقى (التحرر من الانفعال ، عدم التأثر بالفرح أو الحزن ، الخضوع دون تذمر لحكم الضرورة) وضرب لتلاميذه مثلاً يحتذونه : « الدراسة الشاقة والطعام اليسير » . فقلنا أجاز لنفسه يوماً « للهو والمتعة » (٣٥) وبعد الدين والأخلاق ، يجب أن تأتى الدراسات اللاتينية والأغريقية القديمة ، والتي لم يستخدمها ملتون مجرد نماذج للأدب ، بل وسائل لدراسة العلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ والقانون والأخلاق والفسيولوجيا والطب والزراعة وهندسة العمارة ، والخطابة والشعر والفلسفة واللاهوت . وإذا كان هذا التوفيق الفريد بين العلم والانسانيات قد افترض أن النزر اليسير قد أضيف إلى العلم منذ سقوط رومه ، فيجب أن نلاحظ أن هذا حقيقى فعلاً ، اللهم إلا بالنسبة لجاليليو ، بل أن كوبرنيكس نفسه كان له سلفه الأغريقى فى شخص أرسطارخوس . وفوق ذلك ، اقترح ملتون تعريف لتلاميذه كذلك ببعض النصوص الحديثة فى العلوم والتاريخ ، لحتى ببعض النماذج الحية فى الفنون العملية ، وكان يأمل فى أن يستقدم إلى حجرات الدراسة صيادين وبحارين وبستانيين ومشتغلين بالتشريح وصيادلين ومهندسين ومعماريين ، لينقلوا إلى التلاميذ أحدث ألوان المعرفة فى هذه المجالات (٣٦) وخصص وقتاً كافياً للموسيقى والتمثيل ، وساعة ونصف الساعة يومياً للرياضة البدنية والتدريب العسكرى . ويمكن أن يطوف طلابه أرجاء البلاد فى جماعات على صهوات الجياد ، يرافقهم أدلاء معروفون

بالرزانة والحصافة ، ليتعلموا ويلاحظوا ، « أو » يلتحقون بالبحرية بعض الوقت ليتعلموا الملاحة ومصارعة البحر ، وأخيراً وبعد بلوغهم سن الثالثة والعشرين ، يمكنهم أن يسيحوا خارج إنجلترا . وهذا برنامج شاق ، ليس لدينا دليل على تطبيقه تطبيقاً كاملاً في مدرسة ملتون ، وربما كان في حينه .

وراوده أحياناً حلم إنشاء أكاديمية تنافس أكاديمية أوكسفورد وأرسطو . ولكنه افتتن بأحداث العصر البارزة وانشغل بها . من ذلك أن التثام البرلمان الطويل (١٦٤٠) كان نقطة تحول في حياته ، بل يكاد يكون تحولاً عنيفاً غير طبيعي عن الشعر والتعاليم إلى السياسة والإصلاح . وفي ١١ ديسمبر قدم حزب « الجذر والفرع » البيوريتاني الذي انتسب إليه بعض أصدقائه . قدم إلى البرلمان عريضة صارخة متهورة بخمسة عشر ألف توقيع (يحتمل أن يكون من بينهم ملتون) يلتمسون فيها إقصاء الأساقفة عن الكنيسة الإنجليزية . ورد جوزيف هول أسقف أكستر على العريضة « باحتجاج متواضع إلى المحكمة العليا في البرلمان » (يناير ١٦٤١) ، دافع فيه عن النظام الأسقي بأنه مأخوذ عن « عصر الرسل الأبرار بلا انقطاع ٠٠٠ حتى العصر الحاضر (٣٨) » فاستل خمسة من السكينة للشيخين أقلامهم في « الرد على الاحتجاج المتواضع » (مارس ١٦٤١) وقعه باسم مستعار مكون من الأحرف الأولى من أسمائهم (*) . ورد الأسقف هول وبعض الأساقفة الآخرين ، وأقر مجلس العموم الاقتراح ، ورفضه اللوردات . واشتد الجدل على اللنابر وفي الصحف وفي البرلمان ، وانظم ملتون إلى للجمعية بكتيب من تسعين صفحة « إصلاح عيس نظام الكنيسة في إنجلترا » (يونيو ١٦٤١) .

وفي عبارات قوية لاهثة ، استوعب بعضها نصف صفحة ، عزا ملتون تدهور الكنيسة الرسمية إلى سببين : الإبقاء على الطقوس السكائوية السكية ،

(*) هم ستيفن مارشال ، ادموند كلاكسي ، توماس بنج ، ماتيو نيوكومن ،
يواليد ميرستو .

سواحتكار الأساقفة لسلطة تعيين القساوسة . وهزأ ملتون « بهذه الطقوس الفارغة التي لا معنى لها ، والتي تحتفظ بها الكنيسة مجرد أنها علامة خطيرة للإنزلاق نحو رومه ، والتي لا تستخدم إلا كمجرد مسرحية تعرض أبهة الأساقفة » (٢٩) . إن الأساقفة — كانوا يتسللون خلسة إلى الكاثوليكية في طقوسهم — وتلك طعنة صريحة لرئيس الأساقفة لود الذي كان قد قدم له قبعة الكاردينالية . وأنكر ملتون مازحه جيمس الأول وشارل الأول من أن الأساقفة ضرورة لازمة لحكومة الكنيسة وللنظم للمساكية . وأهاب بالاسكتلنديين المشيخيين أن يواصلوا حربهم القديمة ضد النظام الأسقي ، وتضرع إلى الثالوث الأقدس أن يرعى المصلحة العامة :

يا الهى : أول عنايتك لـكنيستك البائسة التي كادت تنهار وتلفظ أنقامها الأخيرة ، لا تتركها هكذا فريسة لتلك الذئاب للزعجاء التي نهرس وتفكر طويلا لتلتهم قطيعك الوديع ، تلك الخنازير البرية التي سعلت على كرمك ، وتركت بصمات حوافرها للندسة على نفوس عبادك . لا تدعهم ينفذون خططهم اللعينة التي تقف الآن على مدخل الهاوية غير ذات القرار ، مترفة أن يفتح الحارس ويطلق الجراد والمقارب الفتاة ، لتحتويننا في ظلام جهنم الدامس ، حيث لن تشرق علينا بعده شمس حقيقتك ، ولن نعود نأمل في بزوغ الفجر البهيج ، أو نسمع زقزقة العصافير في الصباح (٤٠) .

واختتم هذه العبارة بإلقاء جماعه الطقوس التقليدية في الجحيم : ولكن أولئك الذين يتوقون إلى مناصب الحكم الرفيعه والارتقاء هنا في هذه الدنيا ، على حساب إفساد عقيدتهم الحقه والانتقاص منها ، وعلى حساب كروب بدم واستعباده ، لا بد أنهم ، بعد خاتمه مزرية في هذه الحياة (التي وهبهم الله إياها) ، سيأقونهم في الدرك الأسفل من النار ، وهناك يتلقاها من سبقهم من المحكوم عليهم بالهلاك الأبدي ، فيتجهكون فيهم في حقد وحسد ، ويطأونهم بأقدامهم ويزدرونهم ، وفي حماة تمذيبهم ، لن يجدوا الراحة إلا في ممارسة أشد ألوان الطغيان عسفاً ووحشية ، معهم

بوصفهم أرقاء وعبيداً لهم ، وسيقون على هذه الحال إلى الأبد ، مخلدين في أحط وأسفل مهاوى الهلاك الأبدى وأشدّها كآبة واحتقاراً واضطهاداً (٤١) .

وعندما رد الأسقف هول على القساوسة الخمسة للشيخين وهاجهم بعنف ، انبرى ملتون لنصرتهم في بيان طائف لا بد أنه أخرج الأسقف وهو في الخامسة والستين من رده الكهنوتى : « لقد لاذع لدفاع المحتج على بيان الشيخين » ، ظهر ، مجهولاً كاتبه ، في يولييه ١٦٤١ . واعتذر ملتون في المقدمة عن عنفه فقال :

في الكشف عن إنسان سىء السمعة عدو للحق ، ولسلام بلاده وإداته وبخاذه إذا اغتر بأن له لساناً ذريعاً منطلقاً مؤثراً ، فإنه لا يتنافى مع اعتدال المسيحية وتواضعها أن ترد على مثل هذا الرجل بأسلوب أعنف وأشد من أسلوبه ، وأن تشيع غطرسته إلى مثواها مضيقه بمائه المقدس (٤٢) .

وأعاد الأسقف وابنه السكره ببيان عنوانه « حججه داحضه متواضعه جديدة » (يناير ١٦٤٢) هاجم فيه كاتب « النقد اللاذع » بحجة تميز بها هذا العصر المغيظ المحقق (٤٣) . فرد ملتون كيد الأسقف في نحره ببيان عنوانه « دفاع ضد الحججه الداحضه المتواضعه » (أبريل) اعتذر فيه مرة أخرى عن سوء معاملته للأسقف هول ، وشجب القرية العريضة « التى أوردتها هول » وهى اتهام ملتون بأنه طرد من كمبردج ، وأكمد ملتون للعالم بأسره بأن زملاءه فى « كريست كوليدج » دعوه ، بعد تخرجه ، للإقامة معهم ، وأكمد من جديد طهارته التى لا مطعن فيها :

على الرغم من أنى لم ألقن إلا قدراً يسيراً من المسيحية ، فإن شيئاً من التحفظ والنزعة الطبيعية والقواعد الخلقية ، استقيمت من أنبل فاسفة ، كان كافياً ليجعلنى أحتقر من ألوان الفجور ما هو أقل كثيراً مما يجورى فى المواقير . ولكنى قد عرفت ، بمبدأ الأسفار المقدسة التى تكشف عن الأسرار السامية الطاهرة ... التى تقول بأن « الجسد الرب ، والرب للجسد »

فإنى كذلك سألت نفسى : إذا كان التجرد عن العفة فى المرأة التى ينعمتها القديس بولس بأنها فخر الرجل ، فضيحة وخزيا وعاراً ، فالأمر يقيناً كذلك فى الرجل الذى هو صورة الله وفخره معاً ، فإنه لا بد أن يكون أشد فساداً وعاراً ، لأنه يقترب الإنم ضد جسده ، وهو الجنس الأكمل ، وضد فخره الذى يمكن فى المرأة ، والأنكى من ذلك ضد صورة الرب وفخره ماثلين فى شخصه هو (٤٤) .

ومن ثم نجد ملتون يرنى لأحلاق كثير من الشعراء القدامى ، ويؤثر عليهم داتى وبترارك ، اللذين لم يكتبوا قط إلا تسكريماً وتشريقاً منهما لأولئك الذين نذروا لهم أشعارهما التى عرضا فيها أفسكاراً سامية نقيمة ، دون تأنيب وانتهاك للحرمت . ولم ألث إلا قليلاً حتى تأكد عندى هذا الرأى : إن هذا الذى لا يمكن أن يخبى أمله فى أن يكتب كتابة جيدة ، بمجرد أن يكون هو نفسه قصيدة صادقة ، أى مركباً مكوفاً من أفضل لأشياء وأشرفها ، لا يقدم على أن يكون قصيدة عقود مدح وثناء للرجال البطولين أو المداين المشهورة ، إلا إذا أوتى من التجربة والخبرة والمران على كل ما هو أهل للثناء والاطراء (٤٥) .

وبعد هذا المثال الذى اقتبسناه ، انتقل ملتون إلى الحديث عن قديمى الأسقف وجوربه الذى يبعث « برأئحه منتنه إلى السماء » ، وإذا بدت هذه اللغة غير لائقة باللاهوت فإنها دافع عنها « بقواعد أعظم الباطن » وبأنه يحذو حذو لوتر ، وذكر قراءه بأن « المسيح نفسه وهو يتحدث عن التقاليد البغيضة لا يتردد فى استعمال ألفاظ مثل الغائط والمرحاض » (٤٦) .

والآن نكتفى بهذا القدر من النزاع السكريب ، الذى سقناه لأنه يلقى ضوءاً على شخصية ملتون وعلى آداب السلوك فى ذلك العصر ، ولأنه وسط هذا الطراء القاسى وفوضى الأجرومية والجل الطويلة ، كانت هناك قطع ثرية ذات جرس موسيقى ، مشرقة تميز المشاعر مثل شعر ملتون

٥ — قصيدة المختارة

وفي نفس الوقت (مارس ١٦٤٢) ، كان قد نشر باسمه كتيباً أكثر موضوعية : « اثاره تفكير حكومة الكنيسة في حظر السلطة الأسقفية » : « هذا النير البغيض الذي لا يمكن أن يزدهر أى عقل حر أو موهبه متمتزة تحت وطأة ما يفرضه من غباء وعداء تعسفى وطفيان » (٤٧) . وسلم بالحاجة إلى نظام أخلاقى واجتماعى . والحق أن ملتون أدرك أن فى نهوض النظام وسقوطه مفتاح ارتقاء الدول وانهيارها :

ليس فى هذا العالم شىء أعظم أهمية وأشد إلحاحاً وخطراً فى كل حياة الإنسان بأسرها من النظام . وهل أنا فى حاجة إلى ضرب مثل على ما أقول ؟ إن كل من قرأ فى تبصر وتدبر عن الأمم والدول . . . لابد أن يقر على الفور بأن ازدهار المجتمعات المتحضرة واضمحلالها ، وكل تحركات الأحداث البشرية وتحولاتها ، إنما تروح وتجيء ، وكأنها على محور عجلة النظام . وأنه ليس ثمة كمال اجتماعى فى هذه الحياة ، مدنى أو دينى ، يمكن أن يسمو فوق النظام وقواعد الانضباط . لأن النظام هو الذى ، بفضل أوتاره الموسيقية يحافظ على كل أجزاء الحياة ويمسك بها متضامنة بعضها إلى بعض (٤٨) .

ومثل هذا النظام ، على أية حال يجب ألا يستغنى من أية هيئة كهنوتية متسلسلة فى رتب كنسية ، بل من ادراك أن كل إنسان بذاته يمكن ان يكون كاهناً .

وفى كل المراحل كان ملتون يعى ويدرك كل قدراته ومواهبه . أنه قدم للجزء الثانى من رسالته بقطعة عن سيرة حياته ، أبدى فيها حزنه لأن النزاع قد باعد بينه وبين إخراج عمل عظيم شغل باله طويلاً : إن هذا الذى أداء أعظم العباقرة وصفوتهم فى أثينا ورومه أو ايطاليا الحديثة ، والمبرايون القدامى : لبلادهم ، يمكن أن أقوم به أنا بلدى ، بدورى ، ويقدر حظى من الحياة والعمل ، هذا بالإضافة إلى أنى فوق كل شىء مسيحي (٤٩) . « وروى ملتون كيف أنه كان بالفعل يعد الموضوعات التى يضمها مثل هذا

الكتاب . ولكنه أرادَه صملا يستطيع من خلاله « أن يصور تصويرا نابضا بالحياة وبصف . . . سجل الطهر والفضيلة بأسره » ، و « كل ما هو سام ومقدس في العقيدة الدينية (٥٠) » ، وكتابتها كان يتنبأ بأن الأعوام الستة عشر قد تنقض قبل أن تدع له الثورة الكبرى فرصة للشروع في الكتابة : فقال يعتذر عن تأخره :

لست أخجل من الاتفاق مع قارى فطن ذى دراية ، على أنه في بضع سنين يتعهد بدفع ديونى الحالية ، لأنه عمل ليس تناجا لزوة الشباب أو لعب الخمر بالعقل ، مثل هذا الذى يسيل به « قلم عاشق شرس » بذى فى أوقات الضياع ، أو شاعر متطفل فى فورة حقهده . كما أنه عمل لا يمكن إنجازه بالتضرع وقراءة التعاويذ للذاكرة وبناتها المغويات (بنات الأفكار) ، بل بالدعوات والصلوات المخلصة الخاشعة « للروح الأبدى الخالد الذى يستطيع ائراءنا بالتعبير والمعرفة ، ويبعث إلينا بأحد ملائكتة (وحارس عرشه) ساروفيم ، مع نار مذبحة المقدسة ، ليمس ويطهر شفقتى من يشاء . ويجدر أن يضاف إلى هذا ، دأب على القراءة الجادة المنتقاة ، ومثابرة على الملاحظة الدقيقة ، وتبصير بالفنون والمسائل العامة الجذابة والواسعة ، حتى إذا تم العمل ، إلى حد ما تحت مسؤوليتى وبجهدى الخاص ، فإنى عندئذ لا أرفض أن أركب هذا الأمل المنشود عند كثير ممن لا ينفرون من اللغامة بالوثوق إلى هذا الحد بما أقطع على نفسى لهم من تعهدات أو وعود (٥١) .

٤ - زواج وطلاق ١٦٣٤ - ١٦٤٨

فى « الحجة الداحضة المتواضعة » كان الأسقف هول قد اتهم ملتون بأنه يسمى لشهرة أدبية ، ويملن عن مواهبه وقدراته وتجاربه وثقافته وبيئته السابقة ، أملا فى الفوز « بأرملة ذات ثراء » أو أية جائزة أخرى . وفى « الرد » عليه حمد ملتون إلى تسفيه هذه الفسكرة والتنديد بها ، وقال أنه على التقيض من ذلك ، « نشأ فى محبوبحة من العيش » . واتفق فى الرأى مع « أولئك الذين يؤمنون فى حكمة بتبصير وروح طيبة إلى غير ذاتهم » .

نراء عريض ، وذات أصل كريم ، على أغني الأرامل ، (٥٧) . وبينما انماقت انجلترا إلى الحرب الأهلية (١٦٤٢) ، انطلق ملتون إلى الزواج (١٦٤٣) .

لم ينضم ملتون إلى جيش البرلمان ، وعندما اقتربت القوات الملكية من لندن (١٢ نوفمبر ١٦٤٢) نظم قصيدة (سونيت) يشير فيها على قادتها أن يحموا بيت الشاعر وشخصه ، كما فعل الاسكندر الأكبر مع الشاعر بندار من قبل ، واعداد إياهم بأن ينشر على الملأ شعرا « حسن صنيعهم (٥٣) » . على أن القوات الملكية ردت على أعقابها . ولم يمس بيت ملتون بأذى ، وبقي ليستقبل زوجته .

وكان ملتون قد التقى بماري باول Powell في فورست هل في اكسفوردشير ، حيث كان والدها قاض المصلح . وهذا الوالد ، ريتشارد باول كان قد اعترف من قبل ، في ١٦٢٧ ، بأنه مدين لملتون ، وكان آنذاك في كبردج ، بمبلغ ٥٠٠ جنيه ، خفف فيما بعد إلى ٣١٢ ، ولكن لم يسدد بعد . والظاهر أن الشاعر قضى عند أسرة باول شهراً (مايو - يونيو ١٦٤٣) ولسنا ندري ليسترد الدين أو يحظى بزوجة . وربما أحس جون وهو في الرابعة والثلاثين ، بأنه قد آن الأوان للزواج والنسل ، وواضح أن ماري كانت تتخلى بالمعذرية التي ينشدها . وفاجأ أبناء أخته بعودته إلى لندن متأبط ذراع زوجته .

ولم تدم السعادة طويلاً لأحد . فقد كرم أبناء الأخت ماري كدخيلة عليهم ، وكرهت هي كتب ملتون ، وافترقت أمها و « القدر الكبير من المسحبة والآنس والبهجة والرفص . . » الذي كانت تنعم به في فورست هل . ويقول أوبري « كثيراً ما كانت تسمع أبناء الأخت هؤلاء يضربون فيتمالي صراخهم (٥٤) مذرأى ملتون أن ماري محسودة التفكير ضيقة الأفق ليس فيها سوى النذر اليسير من الأفكار ، التي هي في جملتها ملكية » فلاه انصرف ثانية إلى كتبه . وتحدث فيما بعد عن « شريكة حياة يسقام

جامدة كثيية لا روح فيها » ، ورثى « للإنسان الذى يجسد نفسه مرتبطاً بأوثق رباط بهيكل من طين وبلغم ، كان يأمل منه أن يكون شريكاً مجتمعاً تلقؤه السمادة والبهجة والسرور (٥٥) » ويعتقد بعض الباحثين فى الزواج غير المتسكاف أن مارى أثبت عليه البناء بها (٥٦) . وبعد شهر طلبت السماح لهما بزيارة والديها ، فوافق ملتون ، مع التفاهم بينهما على عودتها . ولكنها ذهبت ولم ترجع . وبعث إليها برسائل تحببها لها ، ولما لم يجسد أى متفلس آخر لمشاعره ، كتب ونشر دون توقيع « مبدأ الطلاق ونظامه » (أغسطس ١٩٤٣) ، وأهداه إلى « برلمان إنجلترا والجمعية » أى جمعية وستمنستر التى كانت تصوغ آنذاك اعترافاً بالمذهب المشيخى . وتقدم إلى البرلمان بـرجاء أن يتحلل من أغلال التقاليد ، ويسير بالإصلاح قدماً ، باقرار أسس أو شروط أخرى للطلاق ، غير الرثى ، وعرض أن يوضح : —

أن التصور ، وعدم الأهلية أو تنافر العقول الناشئ عن سبب طبيعى لا يتسنى تغييره ، مما عوق ، والأرجح أنه كثيراً ما يعوق إلى الأبد ، مزاي الحياة الزوجية ، وهى السلى والبهجة والهدوء والطمأنينة ، نقول أن هذا سبب للطلاق أقوى من البرودة الزوجية الطبيعية ، لا سيما إذا لم يكن هناك أطفال ، وكانت هناك موافقة من الطرفين (٥٧) .

واقترح ملتون القانون اليهودى القديم الذى ورد فى التوراة (سفر التثنية ٢٤ - ١) « إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها ، فإن لم تحببها بعينه لآله وجد فيها عيب شئ . وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته » . ووضح أن السيد المسيح رفض هذا الجزء من شريعة موسى . فقد جاء فى إنجيل متى (٥ - ٣٢) « وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا فأقول لكم أن من طلق امرأته إلا لعله الذى يجعلها تزنى » ، واحتج ماتون بأنه « المسيح لم يقصد أن يؤخذ بكلامه بمعناه الحرفى ، كلمة بكلمة » (٥٨) ، وكثيراً ما أعلن أنه لم يأت ليغير مقدار ذرة من شريعة موسى . وكافح ملتون حتى يجهل تفسيره الواسع يشمل

قضيته الشخصية ، حتى أنه ذهب إلى حد تبرير الطلاق لعدم القدرة على الإسهام . « في حديث مناسب معقول . » « لأن عدم الصلاحية والتخلف في العقلية التي تنفر من الزواج » يمكن أن تهبط بالزواج إلى « حالة أسوأ من حياة الوحدة الموحشة » . حيث تكون النفس النابضة بالحياة مربوطة إلى مجرد جثة (٥٩) .

ونقد الكتاب الصغير بسرعة ، لأنه قوبل باستنكار تام . وفي فبراير ١٦٤٤ نشر ملتون طبعة مزيدة منقحة ظهر عليها اسمه في جرأة وشجاعة . ورد على ناقديه في أسلوب العالم المتفقه ، في « Tetrochordon » ثم في أسلوب أخف في Colasterion (صدر كلاهما في ٤ مارس ١٦٤٥) ، تناولهم فيهما بأقصى القدح والألفاظ المقذعة — كتلة من الطين ، خنزير ، خنزير برى ، ذو أنف بشع ، محام له مخ الديك ، حارس فيق ، بغيض ، كرية الرأثمة (٦٠) لقد استطاع ملتون في الصحيفة الواحدة أن يقفز من مرتفعات بارناموس إلى أحط مهاوى السفاهة والبذاءة .

وحيث أخفق في أن يحصل من البرلمان على تعديل في قانون الطلاق ، اعتزم أن يتحدى القانون ، ويتخذ زوجة ثانية ، وكان يفضل مس دافيز التي لا تعرف عنها شيئاً إلا أنها رفضته . ولما ترامت شائعات هذه الخطبة إلى مسامع ماري باول قررت أن تستعيد زوجها ، على أي الأحوال ، حلوها أو مرها ، قبل فوات الأوان . وذات يوم بينما كان ملتون في زيارة لصديق فاجأته ماري وجئت بين يديه وتوسلت إليه أن يعيدها إلى مخدعه وبيته . وتردد هو ، ولكن أصدقاءه ناصروا قضيتها ، فقبل عودتها إليه . وانتقل الآن إلى بيت أوسع في بارميكان ستريت ، ضمها كما ضم أباه وتلاميذه . وسرعان ما جاء أبواها للقامة أيضاً مع الشاعر ، بعد أن تدهورت حالهما بهزيمة الملكية ، مما جعل هذا البيت أقرب ما يكون إلى دار للمجانين ، أو للفلسفة . وزاد الأمر ضخماً على أبالة في ١٦٤٦ ، مولد طاملة ملتون الأولى آن . وخفف من هذه الفوضى موت « يتشارد باول في يولية » كما أن جون

ملتون الأكبر (الوالد) اختتم حياته المديدة الكريمة فى مارس التالى . ومن ثم أصبح الشاعر وريثا لمنزلين أو ثلاثة فى لندن ، ولبعض المال ، وربما لبعض العقارات فى الريف . وفى ١٦٤٧ فاض ملتون مدرسته وانتقل مع زوجته وابنته واثنتين من أبناء أخته إلى « هاى هلبورن ستريت » وفى ١٦٤٨ ولدت له ابنته الثانية ماري .

٥ — حرية الصحافة ١٦٤٣ - ١٦٤٩

فى ١٣ أغسطس ١٦٤٤ ، تحدث الكاهن المشيخى هربرت بالمر أمام مجلس البرلمان ، واقترح أن تحرق علنا رسالة ملتون عن الطلاق . ولم تحرق الرسالة ، ولكن شكوى بالمر ربما أدت « بشركة المكتبات » التى تضم كل باعة الكتب الإنجليز ، إلى لفت نظر مجلس العموم (٢٤ أغسطس) إلى أن الكتب والنشرات تخالف القانون الذى يتطلب تسجيلها واجازتها بمعرفة الشركة . وكان هذا القانون قد صدر فى عهد إليزابث ، كما أن البرلمان كان قد جدد العمل به فى ١٤ يونيه ١٦٤٣ ، بإصداره أمرا ينص على : أنه لا يطبع كتاب أو نشرة أو ورقة ، أو أى جزء من شىء من هذا القبيل ، أو يعرض للبيع ، قبل التصديق على نسخة منه واجازته ، من أشخاص يعينهم لهذا الغرض أحد المجلسين أو كلاهما معا ، وقبل أن يسجل فى السجل للمعد لذلك فى شركة المكتبات ، طبقا لما جرى عليه العرف من زمن بعيد (٦١) .

ويماقب أى خرق لهذا القانون بالقبض على من تولوا التأليف والطبع . وكان ملتون يهمل دوما تسجيل ما ينشره ثرا . وعلى الرغم من أن كتابه « مبدأ الطلاق ونظامه » ظهر بعد صدور الأسر سائف الذكر بشهرين ، فإنه تجاهل ما يقضى به . وربما كان شاعرا ذا حظوة لدى البرلمان لأنه ناصره فى صراعه مع الملك . على أن البرلمان على أية حال ، تغاضى عنه وحده . ولكن الأمر ظل سييفا مصلتا على رأسه وعلى رؤوس سائر اللوثافين فى بريطانيا . وبدا ملتون ضربا من الحال أن يزدهر الأدب فى ظل

مثل هذه الرقابة . فإذا يجدى خلع ملك وتحطيم نظام أستقنى استبدادى قاس ، إذا استمر البرلمان والكنيسة على التدقيق والتحقيق فى كل كلمة يتفوه بها الإنجليز ؟ . وفى ٢٤ نوفمبر ١٦٤٣ أخرج درن تسجيل أو إجازة أروع أعماله النثرية « أريوباجيتيكا : حديث من جون ماتون عن حرية للطبوعات دون أجازة ، إلى برلمان انجلترا »^(١) وليس فى هذا الحديث قذف ولا طعن ولا نقد لاذع ، بل كان على مستوى عال من اللغة والفكر وفيه يطلب إلى البرلمان بكل اجلال واحترام ، أن يعيد النظر فى قانون الرقابة ، من حيث أنه ينزع إلى « تثبيط الهمم فى سبيل العلم والمعرفة ، ويعوق بل يقضى على أى ابداع واكتشاف يمكن أن يخرج فى المستقبل إلى حيز الوجود فى مجال الحكمة الدينية والمدنية كليهما . » ثم يستطرد فى قطعة مشهورة قيمة :

لست أنكر أنه من أعظم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب حين يقطعة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ، ومن ثم نحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ما تقضى به العدالة على عوامل الشر لأن الكتب ليست أشياء ممتدة اطلاقاً ، بل أن فيها من الفعالية والحيوية ما يجعلها نشيطة فى مثل نشاط النفس التى أنتجتها . ليس هذا لحسب ، بل أنها كذلك ، تحفظ ، وكأنا تحفظ فى قنينة ، أبقى عصارة وقوة ومؤثرة للفكر الحى الذى نماها وأبدعها . وإنى لأدرك أنها نشيطة قوية الإنتاج مثل أسنان التنين الخرافية إذا نثرت على الأرض هنا وهناك انبعث منها رجال مسلحون (هكذا تقول الخرافة) . ومن جهة أخرى ، فإنه إذا لم يكن همه حيطه وحذر ، فإن قتل الإنسان يعدل تقريباً قتل الكتاب الجيد . إن من يقتل رجلاً يقتل مخلوقاً طافلاً صورة الله ، على حين أن من يدمر الكتاب الجيد ، يقتل العقل نفسه ، بل يقتل صورة الله ، فى صميمها . وكمن من إنسان

(١) Areopagitica — بقصد منها المسائل المتعلقة بالحكمة العليا فى أئتنا ، واسمها أريوباجوس ، نسبة إلى الجبل الذى كانت تجتمع عليه . واقتبس ملتون هذا العنوان من رسالة وجهها آيزو قراط ٣٥٥ ق . م . إلى هذه الحكمة .

يعيش حملا ثقيلًا على الأرض ، ولكن الكتاب الجيد هو دم الحياة الغالي للروح السامية يسان ويخزن ، قصدا لحياة وراء الحياة . حقا أن أى عصر لن يستطيع استعادة الحياة ، وقد لا يكون فى هذا خسارة ، ولا تعوض ثورات العصور فى الغالب عن فقدان حقيقة منبوذة ، ساءت حال امم بأكلها من أجل افتقارها إليها .

وينبغى لذلك أن نكون حذرين بفظين لأى اضطهاد نصبه على الأعمال الحية لمشاهير الرجال البارزين ، وكيف نبدد حياة الرجل الناضجة المحفوظة المخزنة فى كتاب . فإذا رأينا عملا من أعمال القتل يرتكب على هذه الصورة ، وهو فى بعض الأحيان استشهاد ، وإذا امتد هذا إلى كل الإنتاج ، حتى ينتهى الأمر إلى مذبحه ، فمن ثم لا ينتهى الإعدام عند خلق الحياة الفطرية ، بل ينفذ إلى الجوهر السامى الخامس البالغ الرقة ، أى روح العقل ذاته ، فيقضى على الخلود أكثر ما يقضى على مجرد حياة (٦٢) .

ويستشهد ملتون بالنشاط الفكرى فى أثينا القديمة ، حيث لم تفرض الرقابة إلا على الكتابات التى تتضمن إلحادا أو قذفا ، وهكذا حكم قضاة محكمة أريوبا جوس العليا بإحراق كتب بروتاجوراس ، وبنفيه خارج البلاد ، لمقالة بدأها بالاعتراف بأنه لا يدري « إذا كان هناك آلهة أم لا » . ويمتدح ملتون حكومة رومة القديمة لإتاحتها قدرا كبيرا من الحرية للكتاب ، ثم يصف نمو الرقابة فى رومة الإمبراطورية والكنيسة الكاثوليكية . ويحس ملتون بأن قانون الرقابة هذا أشتم منه رائحة « البابوية » وما فائدة أن تكون رجلا : لا مجرد تلميذ فى مدرسة ، إذا كنا فقط هربنا عن الدرة أو العصا « انقـع تحت نير الرخصة (للطباعة) (٦٣) » ؟ أن الحكومات ومراقبيها ليسوا معصومين من الخطأ ، فليس لهم أن يفرضوا ما يروق لهم أو ما يفضلونه من آراء ومبادئ على الناس ، والأولى بهم أن يتركوا الناس ليختاروا ويتعلموا ، حتى ولو كلفتهم التجربة والخطأ أبغظ الثمن :

إني لا أستطيع أن أمتدح فضيلة مفروضة عليها الحماية والرقابة ، لا يمارسها أحد ولا ينشق غيرها أحد ، لا تنطلق قط لترى خصومها ، بل تتسلل بمعزل عن الناس (٦٤) . أعطى الحرية لأعرف وأحدث وأناقش ، بلا قيد ، وفقاً لما عليه الضمير ، فوق كل الحريات (٦٥) . . . ومع أن كل رواج للذاهب واللبادى أطلقت لتهب على الأرض ، حتى إذا دخلت الحقيقة إلى الليدان ، أسأنا إليها بالرقابة والحظر ، لنشكك في قوتها ، فلنتركها مع البهتان يتصارطان ، فن ذا الذى رأى يوماً أن الحقيقة تنهزم في معركة حرة مفتوحة (٦٦) ؟ .

ومهما يكن من أمر فإن ملتون لا يطالب بالحرية المطلقة للمطبوعات ، فهو يؤمن بأن الإلحاد والتشهير والفحش يجب أن يحرمها القانون ، ويرفض التسامح مع الكاثوليكية لأنها عدو للدولة ، ولأنها هى نفسها موصومة بالتعصب (٦٧) . وفيما عدا ذلك ، فإن الدولة التى تسود فيها حرية الفكر والكلام لا بد أن ترقى وتنمو فيها سائر الأشياء سواء بسواء .

يخيل إلى أنى أرى بعين البصيرة أمة كريمة قوية تستيقظ وتنفض النوم عن جفونها ، مثل رجل قوى يفيق من سباته ، وتهز عضلات شعرها . ويبدو لى أنى أراها مثل نسر ، يجسد شبابه ويفتح غينيه الحادتين (٦٨) ، فى وقدة الظهيرة .

ولم يلتفت البرلمان لدفع ملتون أو حجته ، بل على النقيض من ذلك ، سن قوانين تصاعدت صرامتها (١٦٤٧ ، ١٦٤٩ ، ١٦٥٣) ضد اصدار مطبوعات غير مرخصة . وشكا أعضاء شركة المكتبات من أن ملتون لم يكن قد سجل « الأريو باجيتيكا » . وعين مجلس اللوردات اثنين من رجال القضاء لمساعدته ، ولسنا نعرف النتيجة . ولكن من الواضح أنهم لم يزعجوه ، لأنه كان صوتاً ذا نفع وقيمة للبيوريتانيين المنتصرين .

وفى فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد اعدام شارل الأول بأربعة وعشرين اثنى ، نشر ملتون رسالة عن « ولاية الملوك والحكام » ، ارتفعى فيها نظرية العقد

الاجتماعى التى تقول بأن سلطة الحكومة مستمدة من سيادة الشعب ، وأنه من حق من يملكون السيادة أن يحاسبوا أى طاغية أو ملك شرير ، وعزله وإعدامه ، بعد إدانته إدانة عادلة (٦٩) . وبعد شهر واحد داهى مجلس الدولة فى الحكومة الثورية ليكون « سكرتير المجلس للغات الأجنبية » . فنسجى ملحنته جانباً ، ليتفرغ لمدة أحد عشر طاماً ، لخدمة جمهورية البيوريتانيين وحكومة « الحماية » على عهد كرومول .

٦ - سكرتير اللغة اللاتينية ١٦٤٩ - ١٦٥٩

كان النظام الجديد فى حاجة إلى من يتقن اللغة اللاتينية ، ليحرر للراسلات الأجنبية ، وكان ملتون البارز لهذا العمل . حيث كان يستطيع الكتابة باللغات اللاتينية والابطالية والفرنسية كأحد أبناء رومة القديمة أو فلورنسة أو باريس ، كما أنه كان قد أثبت فى أشد أوقات الحرج أنه مخلص لقضية البرلمان فى نزاعه ضد الأساقفة والملك . وكان مجلس الدولة لا « كرومول » هو الذى استخدمه لهذا العمل . ولم يكن له صلة وثيقة بالحاكم الجديد ، ولكنه لا بد أن يكون قد رآه كثيراً ، وأنه قد أحس فى تفكيره وفى كتاباته ، بالتقارب مع هذه الشخصية المربعة . ولم يستخدم المجلس ملتون لمجرد ترجمة رسائله الأجنبية إلى اللاتينية ، بل كذلك ، ليزر للحكومات الأجنبية ، فى نشرات لاتينية ، وجه العدالة والحق فى السياسة الداخلية التى ينتهجها المجلس ، كما يبرز ، فوق ذلك كيف كان من الحكمة وسداد رأى الاطاحة برأس الملك .

وفى أبريل ١٦٤٩ ، فور تقلده منصبه ، انضم ملتون إلى موظفين آخرين فى المجلس فى وقف نشرات الملكيين وأنعصار المساواة ضد نظام الحكم الجديد (٧٠) . وكانت الرقابة على المطبوعات آنذاك أشد صرامة منها فى أى وقت مضى فى تاريخ إنجلترا ، متبعة فى ذلك القاعدة العامة التى تقول بأن الرقابة تشدد بترزع مركز الحكومة . إن الرجل الذى كان قد دبج بأفصح بيان النداء الذى لم يكن له نظير من قبل ، من أجل حرية الصحافة

بات الآن ينظر إلى الرقابة من وجهة نظر السلطة الحاكمة ، على أنه . يجدر بنا أن نلاحظ أن ملتون قال من قبل الأريوبا جيتيكا : إنه من أهم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ما تقضى به العدالة على عوامل الشر » (٧١) .

ومذ كان جون للبرين بصيغة خاصة كاتباً مزعجاً من أنصار المساواة ، فإن المجلس أصدر تعليماته إلى ملتون ليتولى الرد على كتابه المتطرف « اكتشاف أغلال جديدة » . ولسنا ندري هل قام ملتون بهذه المهمة أو لم يتم . ولكنه يروي هو نفسه (٧٢) أنه « أمر » أن يرد على « صورة ملك » وامتثل لهذا الأمر فنشر في ٦ أكتوبر ١٦٤٩ كتاباً من ٢٤٢ صفحة تحت عنوان « محطم الصورة » . وارتياحاً ، ولكن انتراضاً منه بأن « صورة الملك » هو ما أوهم بأنه من تأليف شارل الأول نفسه ، فإنه — أى ملتون تناول حجة الملكية فقرة فقرة ، وانبرى لتنفيذها بكل ما أوتى من قوة ومن خلال ذلك دافع عن سياسة كرومول ، وبرر إعدام الملك ، وأبدى احتقاره « لتلك الشرذمة من الغوغاء المتقلبين الذين يعوزهم النفس الكبير الباهيم المولعين بالصور ، ، ، ، قطع ساذج تربي على الدل والخنوع ، ، ، ، يفتن بالطغيان » (٧٣) .

واستبد الغيظ والحنق بشارل الثانى ، وهو يتجول فى القارة ، فاستأجر أعظم علماء أوربا كلود سومير ليتولى الدفاع عن الملك الميت ، وسرطان ما أصدر « سالماسيوس » « دفاعه عن الملك السابق شارل الأول » ، فى ليدن (نوفمبر ١٦٤٩) ، نعم فيه كرومول وأتباعه بأنهم « أوفاد متعصبون ، ، ، وأنهم العدو المشترك للبشرية » وأهاب بكل الملوك ، من أجلهم هم أنفسهم : أن يجهزوا الجيوش للقضاء على هذا الوباء ، ، ، يقينا أن دم الملك العظيم يستصرخ كل الملوك والأمراء فى العالم للمسيحى للتأثر له . ولا يمكن أن يقوموا بعمل فيه هدوء وروحه وسكونها خيرا من أن يعيدوا لوربته

الشرعى كل حقوقه كاملة ، ويستردوا له عرش أبيه ٠٠٠٠ وأن يذبحوا ، كضحايا على جثث الميت المقدس ، هذه الوحوش البالغة الضراوة ، الذين تأمروا على قتل مثل هذا الملك العظيم (٧٤) .

وخشى كرومول أن — تزيد حملات مثل هذا العالم الذائع الصيت فى أوربا من الاستياء السائد فى القسرة ضد حكومته ، فطاب إلى ملتون الرد على سالماسيوس . وجهد السكرتير اللاتينى فى انجاز هذه المهمة قرابة عام كامل ، فى ضوء الشموع ، على الرغم من تحذير طبيبه له بأنه يفقد بصره تدريجاً ، وأنه مهدد بالعمى . وكانت إحدى العينين طالقة بالفعل ، وفى ٣١ ديسمبر ظهر « دفاع الشعب الإنجليزى عن نفسه ضد دفاع سالماسيوس عن الملكية — لجون ملتون » ، بدأ بالسخرية من سالماسيوس لبيعته خدماته لشارل الثانى ، واستطرد ليظهر أن سالماسيوس قبل أربع سنوات فقط كتب يهاجم النظام الأسقى الذى يدافع عنه الآن :

أيها العميل الفاسد المرتضى المـ أجور ٠٠٠ أيها الجبان المحقر المرتد الخارج على مبادئك ٠٠٠ يا أشد الحمقى سذاجة وبلاهة ٠٠٠٠ أنت جدير بمسكازة المهرج ، حين تظن أنك تغرى الملوك والأمراء بالحرب ، بمثل هذه الحجج الصبائية الواهية ٠٠٠ هل تتخيل إذن ، أيها المتعلمن المحامى الصغير الحقير ، الذى لم يولد إلا لينسخ ويقلد كبار الكتتاب ، الذى لم يؤت أية موهبة أو ذكاء أو عبقرية ، أنك ستنتج شيئاً تكتب به الحياة من عندياتك ؟ صدقنى أنك وكتاباتك العقيمة معا ، ستلقى فى زوايا النسيان فى الجليل القادم . لولا أن « دفاعك عن الملك » سيدين ببعض الفضل لارد عليه ، ببعض الصدفة ، وعلى الرغم من أنه قد أغفل وطرح جانباً لبعض الوقت ، فإنه لذلك سيبعث من جديد (٧٥) .

وهذا هو ما حدث على وجه الدقة . أن سالماسيوس كان قد أضنى على شارل الأول صورة مثالية . ولكن ملتون يحط من قدره . ويشتهه فى أن شارل عرض دوق بكنجهام على دس النعم لوالده جيمس الأول ، ويتم

الملك الميت بكل « ضروب الفساد الخلقى والإثم » مع الدوق المذكور ، ويتم شارل بتقبيل اللسوة فى المسرح ، وبمداعبته أئداء العذارى والعقيلات علنا (٧٦) . « وكان سالماسيوس قد أطلق على ملتون أسماء كثيرة ، فثأر ملتون بأن نعت سالماسيوس بأنه ، غبي ، خنفساء ، حمار ، كذاب ، قذاف مغتر ، مرتد ، معتوه ، جهول ، متشرد ، عبد ذليل ، ويسخر من سالماسيوس لسيطرة زوجته عليه ، ويعنفه على أخطائه اللاتينية . ويدعوه إلى أن يشنق نفسه ، ويضمن له الدخول إلى الجحيم (٧٧) . ونظر توماس هوين إلى هذه الكتب المتنافسة من علباء فلسفته ، فأعلن أنه عاجز عن أن يقرر أى الفريقين أقوى لغة وأيهما أضعف حجة (٧٨) . على أن مجلس الدولة قدم الشكر لملتون .

تلقى سالماسيوس نسخة من « دفاع » ملتون أثناء وجوده فى بلاط الملكة كريستينا فى ستكهلم ، ووعد بالرد عليه ، ولكنه أبطأ . وفى الوقت نفسه انصرف ملتون عن الشؤون الخارجية إلى شئون بيته . فى ١٦٤٩ انتقل إلى دار فى « شيريج كروس » ليكون قريبا من صله . وهناك وضعت زوجته ولدا ، لم يلبث أن مات ، وفى ١٦٥٢ وضعت بلتا ، « ديبورا » كلفته ولادتها حياة أمها . وفى تلك السنة فقد ملتون بصره تماما . وعندئذ نظم قصيدة من أروع قصائده (السويت) « عندما أتدبر كيف فقدت نور عيني » . وأبقى عليه المجلس سكرتيرا لاتينيا ، وخصص له كاتباً ليدون له ما عليه عليه .

ومنى ، وهو رهن العمى ، بخسارة أخرى ، فى ١٦٥٣ انهارت الجمهورية التى طالما هلل لها ورحب بها ، إلى « ملكية عسكرية » وأصبح فيها « حامي الحى » كرومول ، فى واقع الأمر ملكا . وراض ملتون نفسه على هذه التطورات بقوله : « أن أساليب العناية الإلهية يحوطها الغموض والإبهام (٧٩) . وظل على إعجابه بكرمول وامتدحه بأنه « أعظم بنى الوهم وأكثرهم تألقا وامتيازاً » . أنه « أبو البلاد » . وأكسبته « أبنى فى التلايف .

المجتمتع الإنساني ليس شئ أحب إلى الله ، أو أكثر إلتهاما مع العقل من أن يتولى أمضى المقول السلطة العليا (٢٨) .

وسرعان ما طلب إليه أن يتولى الدفاع عن « حامى الحق » فى المهام خطير . ذلك أنه فى ١٦٥٢ ظهر كتاب يشكل عنوانه نفسه صيحة الحرب « صرخة الدم الملوكى إلى السموات ضد الإنجليز الذين قتلوا أبائهم » وبدأ الكتاب بأن نعت ملتون بأنه « حيوان شرير يشع ، قبيح المظهر ، ضخيم الجسم ، مكفوف البصر ٠٠٠٠ جلاذ ٠٠٠ يستحق الشنق » . وقرن الكتاب اعدام شارل الأول بصلب المسيح ، واعتبر قتل الملك كبرى الجرائم (٨١) وسخر من جهر « الغاصبين » بإيمانهم بالدين :

أن لغة وثائقهم العامة محشوة بالتقى والورع وكان لزاما أن يجاريها أسلوب كرومول ومن يدافعون عنه ، وأنه لهما يثير الاشتزاز ، كما يثير السخرية للريرة ، إلى أى حد من الوقاحة والصفقة يخفى هؤلاء الأوغاد الخفيون والاصوص الظاهرون حقيقة ضرورهم بذريعة أوستار من الدين (٨٢) .

وكما فعل سالماسيوس ، آهاب للؤلؤف المجهول بدول القارة أن تغزو انجلترا وتميد آل ستوارث إلى العرش . وختم الكتاب بتوجيهه إلى الحارس القدر للتوحش ، جون ملتون ، المدافع عن قتل الآباء وقتلتهم ، مع الأمل فى أن يلتقى وشيكا شر الجزاء فيضرب بالسياط :

حول هذا الرأس الحاث سدد الضربات جيدا ، وشوه كل بوصة فيه بأثار العصا ، إلى أن تصبح الجثة كثلة هلامية واحدة . هل توقفت ؟ اضرب حتى تتفجر الصغراء من كبده من خلال عينيه الداميتين (٨٣) .

واستحث مجلس الدولة ملتون للرد على هذا العنف ، ولكنه تمهل توقعا لحلة من سالماسيوس ، أملا فى أن يرد على الخصمين فى رسالة واحدة . ولكن سالماسيوس قضى نحبه (١٦٥٣) دون أن يتم زده . وخدع ملتون فى المعتقد أنه كاتب « صرخة الدم الملوكى » هو الكسالىدز مورس —

Morus ، وهو قسيس عالم في مدلبرج فطلب إلى مراسليه في المقاطعات للتحقق من موافقة بيانات عن حياة مورس العامة والخاصة (٨٤) . وكتب أوريان أولاك ، طابع الكتاب ، إلى هارتاب ، صديق ملتون ، مؤكدا أن مورس ليس هو المؤلف (٨٥) . ولكن ملتون أبي أن يصدق هذا ، وأيده في هذا ، ما ينشأه الناس في امستردام . وفي أبريل ١٦٥٤ كتب جون دروري إلى ملتون ، محذرا إياه بأنه غطى في نسبة « صرخة الدم الملكي » إلى مورس ، ولكن ملتون تجاهل هذا التحذير ، وفي ٣٠ مايو كتب الدفاع الثاني للشعب الإنجليزى « - جون ملتون .

وكان سحر البيان في هذا الكتاب الذى بلغ عدد صفحاته ١٧٣ ، أمرا مشهودا ، حيث أملاه باللاتينية رجل كف بصره تماما . وعزا أعداؤه ما أصابه من عمى إلى العقاب الإلهى جزاء خطاياه الفادحة . وأجاب ملتون على هذا بأنه لا يمكن أن يكون ، لأن حياته كانت مثالية ، وهو يشعر بالفرح والابتهاج لأن الدفاع الأول :

هكذا أصاب غريمى بهزيمة ساحقة ٥٥٥٥ إلى حد أنه استسلم من فوره وقد تحطمت روحه وانهارت سمعته ، وعلى مدى السنوات الثلاث التالية من حياته ، ولو أنه كان يهدد ويرغى ويزيد كثيرا ، فإنه لم يعد يزعجنا ، فيما عدا أنه استعان بالجهد التافه لشخص جدير بكل الازدراء ، حرصه بما لست أدري من المللق القبيح المسرف ، على أن يرقم قدر الإمكان يمدحهما ، ماحل بشخصه مؤخرآ من دمار غير متوقع (٨٦) .

ثم يعرج ملتون على عدوه الجديد ، فيذكر أن « مورس » تعنى بالأغريقية « مغفل » ، ويتمهم بالهرطقة والتهمك والزنى ، وبأن خادمة سالما سالما سيوس حملت منه سفاحا ، ثم هجرها . بل أن طابع « صرخة الدم الملكي » . نفسه يجلد بالسوط ، وكل إنسان يعرف أنه غشاش مفلس سىء السمعة (٨٧) . وفي ظرف وصرح أكثر ، يستعرض ملتون أعمال كرومول ، ويدافع عن حملاته في أيرلنده ، وعن حل البرلمان ، وعن استيلائه على السلطة .

ويوجه الحديث إلى « حامي الحمى » :

إننا جميعاً نقدرك حق قدرك ونقر بفضلك الذي لا يدانيه فضل ، فاهض في طريقك القويم ، يا كرومول ، ٠٠٠ يا محرر بلادك ، ويا من أرسى دعائم الحرية فيها ، ويا من تفوقت بأعمالك المجيدة ، لا على انجازات الملوك فحسب ، بل على مغامرات أبطالنا الأسطورية أيضاً (٨٨) .

ولكن بعد عبارات الإجلال والإكبار هذه ، لم يتردد ملتون في أن يحض كرومول النصيح في أمر السياسة . فأشار عليه بأن يحيط نفسه برجال من أمثال فليتيوود ولبرت (وهما من المتطرفين) ، وأن يدعم حرية الصحافة وأن يترك الدين منفصلاً تمام الانفصال عن الدولة . كما ينبغي ألا تجمع أية عشور لرجال الدين ، فانهم بالفعل متخمون ، (وكل ما فيهم سمين ، حتى عقولهم دون استثناء ٨٩) . ويسترسل ملتون فيحذر كرومول من أنه « ونحن نعدده ، دوننا جميعاً ، أعدل وأقدس وأفضل رجل » إذا أقدم على قمع الحرية التي دافع عنها ، فلن تكون النتيجة إلا وبالا ودماراً ، لا لشخصه فحسب ، بل كذلك لكل متطلبات الفضيلة والتقوى (٩٠) . ويوضح ملتون بأجلى بيان أنه لا يقصد « بالحرية » الديمقراطية ، وهو يسأل الناس :

لماذا يؤكد لكم أي إنسان حقكم في الاقتراع العام ، أو قدرتكم على انتخاب من تريدون للبرلمان ؟ هل من أجل أن تتمكنوا من انتخاب رجال من حزبكم في المدن ، وفي الأقاليم ، تنتخبون الرجل الذي مد لكم اللوائد في بذخ بالغ ، أو أسرف في تقديم الشراب لرجال الريف والفلاحين السذج ، سواء كان جديراً أو غير جدير بالانتخاب ؟ ومن ثم لا يجتمع لنا في البرلمان أعضاء اتسموا بالخصافة والحسكة والخبرة والنقمة ، بل أعضاء صنعتهم الحزبية وموائد الطعام !! وبعبارة أخرى تحصل على أعضاء من تجار الخمر والباعة للتجولين ، من الخائبات في المدن ، ومن الرعاة ومرابي للماشية في الريف ، فهل يجدر بأي إنسان أن يكل أمور الجمهورية لأمثال هؤلاء الذين لا يثق أحد في أن يعهد إليهم بشأن من شئونه الخاصة (٩١) ؟ .

كلا ، إن مثل هذا الاقتراع العام لا يعتبر حرية :
فلأن أن تكون حراً ، هو بالضبط أن تكون تقياً ما قلنا عادلاً معتدلاً
مكتفياً بذاتك ، لا تمد يديك إلى ما بأيدي الناس ، وقصارى القول ، أن
تكون شهماً رحب الصدر شجاعاً . أما إذا تجردت من هذا كله أو كنت
على نقيضه ، فإنك لن تعدو أن تكون عبداً رقيقاً . وقد حكم الله على
الامة التي لا تستطيع أن تحكم نفسها وتدبر أمورها بنفسها ، والتي
استعبدها شهواتها ، بأنها لا بد أن تستسلم لسلطان غيرها ، فتقع في ذل
العبودية بإرادتها وضد إرادتها معاً (٩٢) .

وفي أكتوبر ١٦٥٤ أعاد أولاك طبع « الدفاع الثانى » لملتون ، في
لاهاى ، مع رد عليه بقلم مورس بعنوان « دليل دامنغ » . وفي المقدمة
أكد الطابع أن مورس ليس مؤلف « صرخة الدم للمسكى » ، وأنه ، أى
أولاك ، تسلم مخطوطته من سالما سيوس الذى أى أن يميظ اللثام عن إسم
المؤلف . وأنكر مورس إنكاراً تاماً أنه المؤلف ، وأكد أن ملتون قد
أبلغ بهذا مراراً وتكراراً ، واتهمه بأنه قد رفض من قبل تغيير « دفاعه » ،
لأنه لن يتبقى منه شئ يذكر إذا حذف منه السباب الذى وجهه إلى مورس .
وفي أغسطس ١٦٥٥ أصدر ملتون كتاباً من مائتين وأربع صفحات « دفاع
عن النفس » ورفض أن يصدق إنكار مورس ، وأورد من جديد فعلته
الشائنة مع خادمه سالما سيوس ، وأضاف أنها ، في شجار مشروع أوسعت
مورس ضرباً وطرحته أرضاً ، وكادت أن تفقأ عينيه (٩٣) . واسكن تين في
خاتمة اللطاف أن أحد رجال اللاهوت البروتستانت ، واسمه بيير دى مولان ،
هو الذى كتب « صرخة الدم للمسكى » ، وأن مورس هو الذى نشره
وكتب إهداءه (٩٤) . ولما دعى مورس ليكون راعياً لإحدى كنائس
الإصلاح قرب باريس ، أرسل شاعرنا عدة نسخ من « الدفاع الثانى » إلى
الأبرشية لمنع تعيينه (٩٥) . واسكن مجلس الأبرشية عينه على الرغم من ذلك
كله ، وختم مورس سيرته التى اكتنفها للمضايقات (١٦٧٠) وهو أنصح

اللوفاظ البروتستانت ييماناً في باريس أوفياً حولها .

ويبدو ملتون في مظهر أرق في قصيدة السونيت « مذبحة بيد مونت » (١٦٥٥) ^(١٥) . ويحتمل أنه هو الذي دون الرسائل التي أهاب فيها كرومول بدوق سافوى ليضع حداً لاضطهاد « الفدوا Vaudois » (أتباع بيتر هالدو — بيوريتانيون منشقون في جنوب فرنسا) ، وإلى مزران وحكام السويد والدنرك والمقاطعات المتحدة ومقاطعات سويسرا ، ليتوسطوا لدى الدوق .

وفي ١٦٥٦ ، بعد أربع سنوات من حياة العزوبة ، تزوج ملتون من كآرين وودكوك التي لم تسكتحل عيناه بمرآها ، بطبيعة الحال ولكنها أثبتت أنها بركة ونعمة عليه ، فكانت ممرضة صابرة متجلفة لزوج مكفوف عفيف ، وأما لبنتاته الثلاث ، ولكنها قضت نحبها (١٦٥٨) ، أثناء وضع طفل لم يعمر . وكانت تلك سنة عصبية على ملتون ، حيث رحل عن الوجود . وكرومول أيضاً ، فكان لزاماً على السكرتير اللاتيني أن يحافظ على منصبه ، بقدر طاقته ، في غمرة فوضى الأحزاب التي انحدرت بريتشارد كرومول إلى مجرد رجل عاجز تافه محب للخير . وعلى الرغم من أن ملتون لابد كان يدرك أن انجلترا سائرة في طريق استعادة ملكية آل سنيوارث ، فإنه أصدر في أكتوبر ١٦٥٨ طبعة جديدة من « دفاع الشعب الانجليزي عن نفسه » في أسلوب يغري بالاستشهاد . وفي مقدمة رائعة وصف ملتون « الدفاع الأول » بأنه « أثر ... تنعذر إزالته بسهولة » ، وزعم أنه من وحى السماء ، ووضعه في المرتبة التالية لما آثر كرومول ، الذي ألقذ حرية انجلترا (٩٦) .

وقاوم في شجاعة صمياء حركة إعادة شارل الثاني ، وعندما وصل جيش مونك إلى لندن ، وتردد البرلمان بين الجمهورية والملكية ، نشر ملتون في فبراير ١٦٦٠ رساله موجهة إلى البرلمان ، تقع في ١٨ صحيفة ، « الطريق للمهد السهل لإقامة جمهورية حرة ، ومزاياه المرتقبة بالمقارنة إلى مساوئ ومخاطر

* انظر الفصل السادس عشر — الفقرة الأولى .

إعادة الملكية في هذه الأمة . ومهرها في جرأة وإسالة باسمه (بقلم جون ملتون) وفيها ناشد البرلمان :

ألا يلوث ويهزأ بدم آلاف الانجليز المخلصين البواسل الذين خلفوا لنا هذه الحرية ، التي اشتريت بحياتنا نحن . وماذا عسى أن يقول خير اننا عنا وعن اسم انجلترا طامة ، إلا أنهم على أحسن الفروض ، سيسخرون منا ، قدر السخرية بهذا الرجل النبي ، الذي أورد (مخلصنا) ذكره ، والذي بدأ يبني صرحاً وعجز عن إتمام البناء ؟ أين صرح الجمهورية الشامخ الذي تباهى الانجليز بأنهم سيقومونه ليتقلص ظل الملوك ، وتصبح انجلترا رومة أخرى في الغرب ؟ ٠٠٠٠ ما هذا الجنون الذي اعتري هؤلاء الذين يستطيعون في شرف وكرامة أن يدبروا شئونهم بأنفسهم ، حتى يحولوا كل هذه السلطات إلى شخص رجل واحد ياللجبين والنذالة أن نحسب أن مثل هذا الفرد هو مناط حياتنا ، وتعلق عليه كل سعادتنا وأمتنا وسلامتنا وخيرنا ، وبدونه لا يكون لنا وجود ، أو نكون مجرد أفراد كسالى بلداء أو أطفال ! إنه ليجدر بنا أن نعتمد على الله وحده ، وعلى أنفسنا نحن ، وعلى فضائلنا العملية ومعلمنا الجاد (١٩٧) .

وتنبأ ملتون بأن كل (الاعتداءات القديمة) التي ارتكبتها الملكية ضد حرية الشعب سوف تعود وشيكا بعودة الملكية . وافتتح أن يحل محل البرلمان (مجلس عام) يضم أقدر الرجال الذين ينتخبهم الشعب للعمل حتى للموت ، ولا يخفضون للعزل إلا عند الإذانة بإحدى الجرائم ، ويجدد المجلس بانتخابات دورية . وعلى هذا المجلس ، على أية حال أن يوفر أكبر قدر ممكن من حرية الكلام والعبادة والحكم المحلي . واختتم ملتون رسالته بقوله : « أرجو أن أكون تحدثت إلى حد الإقناع إلى مجموعة كبيرة من الرجال الواعين المخلصين ، أو إلى بعض من قد يقيمهم الله من هذه المقاعد الحجرية ليصبحوا « أبناء الحرية » ، ويوفقهم ويجمعهم على قرارات حكيمة تقيم ما أعوج من أمورنا ، وتصلح ما فسد من أحوالنا ، وتعالج هذا الخلل العام

الانتفاضة في الجمهور الذي أسىء استغلاله وأعوزه من يوجهه ويرشده (١٩٨) .
وتجاهل البرلمان هذا الالتباس الذي ينطوى على القضاء عليه . وظهرت
النشرات المطبوعة التي تهاجم ملتون ، وحيدت إحداها شنتقه وأصدر مجلس
الدولة ، وهو آئذ ملكي النزعة ، أمرا بالقبض على طابع رسالة ملتون ،
وفصله من منصبه (السكرتير اللاتيني للمجلس) فكان جوابه على ذلك إنه
أصدر طبعة ثائية مزيدة من الرسالة « الطريق للمهد السهل » (أبريل ١٦٦٠)
وحذر البرلمان من أن الوعود التي يقطعها الآن شارل من اليسير أن تنقض
بمجرد تثبيت دعام السلطنة الملكية الجديدة . وسلم بأن غالبية الشعب ترغب
في عودة شارل الثاني ، ولكنه دفع بأن الأغلبية ليس لها الحق في استعباد
الأقلية أو التحكم فيها . إنه لمن الأعدل ٠٠٠٠ إذا وصل الأمر إلى حد
الفرض بالقوة ، أن ترغب الأقلية مجموعة أكبر منها على أن تعيد إليها حريتها .
من أن تفرض الأغلبية على أقلية من الناس من بني وطنهم أن يكونوا عبيدا
أرقاء لهم ، بشكل يسمى إليهم أبلغ إساءة (١٩٩) . وتكاثر الهجمات والجملات
على ملتون وناشدت إحداها الملك شارل الثاني ، وكان آنذاك في بريدا
أن يتذكر جيدا الإهانات التي وجهها ملتون من قبل في رسالته « محطام
الصور » وغيرها ، إلى والده شارل الأول . واقترحت أن يضم ملتون إلى
قائمة قتلة الملك الفعليين ، لأنه يستحق الإعدام (١٠٠) .

وقبل أن تصل هذه النشرة إلى شارل الثاني ، كان قد أبحر هو بالفعل
إلى إنجلترا ، وفي ٧ مايو ، ودع ملتون أولاده وآوى إلى مخبأ مع أحد
الأصدقاء . ولكن كشف أمره وأودع السجن وبات مصيره لمدة ثلاثة
أشهر مرهونا بما يقرره البرلمان الملكي ورأى كثير من الأعضاء أنه إذا كان
ثمة من يستحق الإعدام ، فهو ملتون . وكان هذا متوقعا . ولكن مارفل
دافينانت وبعض الأعضاء الآخرين توصلوا إلى البرلمان أن يرحم شيخوخته
وبصره المكفوف . فاكتمنى البرلمان بالأمر بإحراق بعض كتب بعينها
من مؤلفاته ، حينما وجدت . وأطلق سراحه في ١٥ ديسمبر ، فالتخذ دارا

في هلبورن ، انتقل إليها هو وأولاده ، حيث انصرف — بعد أحد عشر طاعة —
صاخبا غصيبا مضطربا ، عن النشر ، إلى الفترة الثانية من نظام الهرم ، وهي
فترة بالغة الروعة والعظمة .

٧ — الشاعر المعجوز : ١٦٦٠ — ١٦٦٧

وجد ملتون بعض السلوى والعزاء في العزف على الأرغن وفي الغناء ،
ويقول أوبري « كان صورته رخيما رقيقة » (١٠١) « وفي ١٦٦١ انتقل إلى
دار أخرى ، وفي ١٦٦٤ استقر به للمقام نهائيا في بيت في Artillery Wolk ،
فيه حديقة صغيرة استطاع أن يتمشى فيها دون أن يقوده أحد سوى يديه
وقدميه . وكثيرا ما قدم إليه أبناء أخته لزيارته ومعاوته ، وقد نسوا
ما كمال لهم من ضرب في سابق الأيام ، كما جاء إليه الأصدقاء ليقروا له ،
أو يكتبوا ما يعليه عليهم . وتولى بناته الثلاث خدمته بصبر نافذ وجهد
جهد . وكانت كبراهن — آن — عرجاء شوهاة لكتناء . وكانت ديבורا
تتولى له الكتابة ، وتعلمت هي وأختها ماري قراءة اللاتينية واليونانية
والعبرية والفرنسية والإيطالية والأسبانية ولو أنهما لم تكونا تفهمان
ما تقرأن (١٠٢) . والحق أن أيامهن لم تذهب قط إلى مدرسة ، ولكنهن
تلقين بعض الدروس الخاصة . ولكن لم يحظين من التعليم إلا بأقل نصيب ،
على أحسن الفروض وباع ملتون معظم مكتبته قبل وفاته ، لأن بناته لم تعين
بالكتب إلا قليلا . وشكا من أنهن يعن الكتب خفية ، وأنهن أهملن شأنه
في وقت الحاجة والشدة ، وأنهن تأمرن مع الخدم على مخالطته وسلبه عند
شراء حاجيات المنزل (١٠٣) ، ولم يشعر البنات بالسعادة في هذا البيت
الكئيب ، مع والد قاس كثير المطالب سريع الغضب . ولما سمعت ابنته ماري
بأنه يرقب لزواج جديد قالت : « ليس نمة أبناء تستحق أن تسمع عن زفافه ،
واسكن النبأ الجدير بالاستماع هو نبأ وفاته » (١٠٤) . واتخذ ملتون في
١٦٦٣ ، وهو آنذاك في الخامسة والخمسين ، زوجة ثالثة ، هي إليزابث
منشول M nsull ، وكانت في الرابعة والعشرين من العمر . وتولت خدمته

بإخلاص وأمانة حتى آخر أيام حياته . وبعد سبع سنوات مع زوجة الأب التي وصفها أوبري بأنها « وديعة مسالمة مرحلة مقبولة » (١٠٥) هجر البنات الثلاث منزل والدهن ، ليتعلمن ، على نفقة ملتون بعض الحرف .

وكانت عودة الملك قد كلفته كثيراً ، وكادت أن تسكفه حياته ، ولكنها مهدت الطريق لنظم « الفردوس المفقود » . فلولاها ربما أفنى ملتون نفسه في التراسق بالنشر في المعركة ، لأن « المقاتل » كان في مثل قون « الشاعر » في شخصه . وبرغم هذا كله ، لم يودع ملتون قط الأمل في أن يكتب لآنجلترا شيئاً تنغني به لقرون قادمة . وفي ١٦٤٠ أعد بياناً بموضوعات يمكن أن تكون ملحمة أو دراما ، كان من بينها موضوع خطيئة آدم (خروجه من الجنة) ، وأساطير الملك آرثر (ملك بريطانيا الذي يفترض أنه عاش في القرن السادس ق . م ، وبطل المائدة المستديرة) وتأرجح بين اللاتينية والإنجليزية ، بأيتهما يكتب ، وحتى حين قرقراره على « الفردوس المفقود » ، موضوعاته ، فكر في أن يكتبه على شكل مأساة إغريقية ، أو رواية دينية ، على غرار روايات المصور الوسطى ، وفي أوقات مختلفة نظم بعض أبيات أو مقطوعات أدخلت فيما بعد في القصيدة . ولم يتسن له إلا بعد وفاة كرومول ، أن يجد فسحة من الوقت بوميا ، ليكتب الملحمة ، وفي ١٦٥٨ فقد بصره تماماً .

في الأيام السود ، والسنة السود ، ولو أنها ولت ، فقد لفنا الظلام واكتشفنا الأخطار من كل جانب (١٠٦) .

وتواردت على ذهنه الأبيات ، حين كان يرقد طاجراً أرقاً ، ويكاد ينفجر بها . فينادى على من يكتب له قائلاً : « إنه يحتاج إلى من يحلبه (١٠٧) » . وكانت تلتابه حتى الشعر ، فيملي أربعين بيتاً « في نفس واحد » ، ثم يجد في تصحيحها عندما تماد تلاوتها عليه . ويحتمل ألا تكون ثمة قصيدة نظمت بمثل هذا الجذ والسكد والشجاعة والجراءة . وداخل ماتون شعور قوي بأنه يمثل لآنجلترا هوميروس واشعيا معا ، حيث اعتقد بأن الشاعر

صوت الله ، وأنه نبي أوحى إليه أن يعلم الناس .

وفي ١٦٦٥ ، حين انتشر الطاعون بلندن ، اتخذ التدابير صديق سجين من السكويكرز ، هو توماس الود ، لنقل ملتون ليقوم في « كوخه المكون من عشر حجرات في « كالفوت سانت شيل في بكنجهامشير » . وهناك في هذه « المقصورة الجميلة » أكل الشاعر « الفردوس المفقود » ولكن من ذا الذي يقدم على نشرها ؟ لقد كانت لندن في اضطراب بالغ في ١٦٦٥ - ١٦٦٦ بسبب الحريق الذي جاء في أعقاب الطاعون ، وإذا كان ثمة شيء من الفرح والمرح باق ، فهو عودة الملكية في صخبها وعربدتها . وفي حالة نفسية ليس معها مجال للمحمة من ١٠٥٥٨ بيتا عن الخطيئة الأولى . لقد حصل ملتون من قبل على ألف من الجنيهات عن رسالته « دفاع الشعب الإنجليزى » أما الآن ، في ٢٧ أبريل ١٦٦٧ ، فقد باع كل حقوقه في « الفردوس المفقود » إلى الناشر صمويل سيمونز لقاء خمسة جنيهات نقداً ، مع الاتفاق على دفعات أخرى قيمة كل منها خمسة جنيهات ، يتوقف تسديدها على ما يباع من الكتاب ، فكان كل ما حصل عليه هو ١٨ جنيها (١٠٨) . ونشرت القصيدة في أغسطس ١٦٦٧ . وبيع منها في العامين الأولين ١٣٠٠ نسخة ، وفي الأحد عشر عاماً الأولى بيع ٣٠٠٠ نسخة . وربما لا يقبل على قراءة القصيدة بأكملها مثل هذا العدد من القراء في أية سنة في أيامنا هذه ، فليس لدينا فراغ كبير ، حتى لقد اخترعنا كثيراً من الأدوات التي توفر الجهد .

وتشارك « الفردوس المفقود » مع « انيادة فرجيل » ، فيما أصاب كليهما من نكسة وتعويق ، انظروهما بعد الياذة هوميروس ، فإن مشاهد المعركة والمحاربين المحارقين للطبيعة يفقدون قوتهم وسحرهم ، اسكونهم تقليدياً ومحاكاة . ولا ريب في أن هوميروس قد نماذج قديمة ، واسكننا أسيناهما ولم نعد نذكرها ، وذهب جونسون إلى أن « الفردوس المفقود » ، بطبيعة موضوعها ، تتنازع على ما عداها ، بأنها ممتعة مشوقة للجميع دائماً « ولكنه

اعترف بأن « أحدا لم تساوره الرغبة في أن تكون أطول مما هي (١٠٩) .
أن موضوع « الخطيئة الأولى للإنسان . وثمار الشجرة المحرمة التي جلب
مذاقها القاتل الموت والقضاء على العالم ، وجلب علينا كل الكروب
والويلات » ، كان موضوعا مناسباً إلى حد كبير ، لأيام شباب ملتون ،
حين كان يتلقى سفر التكوين على أنه تاريخ ، وحين كانت الجنة والنار ،
والملائكة والشياطين ، هي نسيج التفكير اليومي . أما اليوم فإن موضوع
القصيدة أكبر عائق في سبيلها ، إنها قصة خرافية تروى للشبان في أحد عشر
قسماً ، وأن الاستمرار في مشاهدة مثل هذا العرض الطويل اللاهوت من
البداية حتى النهاية جاف قاس عتيق ، ليتطلب اليوم جهداً شاقاً متسللاً .
وما كان الهراء ليسبغ عليه يوماً مثل السحر والرفعة قط . إن عظمة المشهد
وجلاله ، ومعانقة الجنة والنار والأرض ، والأنسياب الفخم المهيّب للشعر
المرسل ، ومعالجة الموضوع المسمد ببراعة فائقة ، والوصف الرقيق الجديد
للطبيعة ، والمحاولة الموفقة لأسباع الوقعية والشخصية على آدم وحواء ،
وكثرة القطع الشعرية البالغة الروعة والقوة ، كل أولئك بعض الأسباب التي
جعلت من « الفردوس المفقود » أعظم قصيدة في اللغة الإنجليزية .

وتبدأ القصه في جهنم حيث الشيطان على هيئة طائر « ضخّم الجسم » ،
ذي جناحين مبسوطين ، ينصح ملائكته الهايطين بالأيأسوا :

لم يضع كل شيء ، فإن الإرادة التي لا تقهر ، وتدبر الأخذ بالنار
والكراهية التي لا يخبوا أوارها أبداً ، والشجاعة التي لا تخضع ولا تستسلم ،
أما أن تلثني متوسلة للرحمة ، على ركبتيين ضارعتين ، وتعظم من سلطانه ...
فهذا أمر دنيء حقا هذا خزي وعار أنسكى من هذا السقوط ويبقى العقل
والروح ولا سبيل إلى قهرهما (١١٠) ...

وكأنى بهذه الأبيات تردد صدى كرومول وهو يتحدى شارل الأول ،
وصدى ملتون وهو يتحدى شارل الثاني ؛ ونعم عدة قطع في وصف
الشيطان تذكرنا بملتون :

عقل لا يغير منه زمان أو مكان ، فالمقل راسخ في مكانه ، يستطيع في نفسه أن يجعل من الجنه جحيماً ، ومن الجحيم جنه (١١١) .

وفي الأجزاء القديمة من القصيدة نجد أن فصاحه ملتون أفرته بأن يرسم لابلis صورة تسكاد تنسم بالود والعطف ، وكأنه زعيم ثورة ضد الساطة الرسمية الاستبدادية . ونخلص الشاعر من أن يجعل الشيطان بطل الملحمة بتصويره ، فيما بعد ، بأنه « أبو الأكاذيب » الذي « يجنم مثل ضفدع الطين » . أو كالأفعى التي تنزلق ملتوية فوق الوحل (١١٢) . ولكن في هذا القسم من الملحمة نفسه ينهض الشيطان مدافعاً عن المعرفة :

المعرفة محرمه محظورة ؟ لماذا ينفس عليهما ربهما ذلك ؟ هل تكون للمعرفة انما ؟ أو تكون فاه ؟ هل يعيشان (آدم وحواء) على الجهل وحده ؟ أو أن حالتها السعيدة هي دليل طاعتها وإيمانها ؟ سأثير في عقليهما مزيداً من الرغبة في المعرفة (١١٣) . . .

ومن ثم يحاور حواء وكأن كنيسة عقلائية تحمل على كنيسة جامدة تعيش في ظلام الجهل ، تقف عقبه كأداة في طريق انتشار المعرفة :

لماذا إذن كان هذا التحريم ؟ . لماذا كان ، إلا ليرهب عباده ويبقيهم على حالة من الإنحطاط والجهل ، إنه يعلم أنه في اليوم الذي تأكلان من تلك الشجرة ، فإن أعينكما التي تبدو الآن صافية ولكنها كائلة ، سوف تنفتح وتصفو تمام الانفتاح والصفاء ، ومن ثم تكونان مثل الآلهة (١١٤) .

ويأمر روفائيل ، وهو أحد الملائكة ، آدم ، بأن يسكب من حبه لاستطلاع الكون ، فليس من الحكمة أن يتطلع الإنسان إلى معرفة ما وراء نطاقه الفاني (١١٥) فالإيمان أعقل من المعرفة .

وكان لنا أن نتوقع ألا يفسر ملتون « الخطيئة الأولى » بأنها رغبة في المعرفة ، بل أنها علاقة جنسية . أنه على النقيض من ذلك ، يلشد تسبيحة غير بيوربتاينه اطلاقاً ، من أجل مشروعيه اللذة الجنسية ، في حدود الزواج ، ويصور آدم وحواء منغمسين في مثل هذه القيم المادية ، مع

بقائهما على « حالة البراءة » (١١٦) ، ولكن بعد « الخطيئة » أي أكل
الفاكهة المحرمة من شجرة المعرفة — بدأ يستشعران الخزي والعار في
الاتصال الجنسي (١١٧) . وهنا ينظر آدم إلى حواء على أنها مصدر كل
الشر ، « ضلع أعوج بالطبيعة » ويرثي لأن الله خلق المرأة :

لماذا خلق الله في النهاية هذه البدعة على الأرض ، هذه العلة الجميلة
في الطبيعة ، ولم يملأ العالم على الفور ، رجال مثل الملائكة ، دون إناث ،
أو يجد طريقة أخرى لتوالد بني البشر (١١٨) ؟ .

ومن ثم فإن الإنسان الأول ، في تاريخ الزواج في الكتاب للقدس ،
سرعان ما اصطنع ذريعة ليطلق الرجل زوجته في سهولة ويسر ، وهنا نجد
ملتون ينسى آدم ، ويكرر شعرا ما سبق أن ذكره نثرا ، عن خضوع
للرأة خضوعا حقيقيا تاما للرجل (١١٩) . وسيعود إلى هذه اللازمة في قصيدة
« Samson Agonistes » (١٢٠) . فهي حمله الأثير الحبيب إلى نفسه . وفي
رسالته السرية « العقيدة المسيحية » دافع عن إعادة « تعدد الزوجات ،
ألم يحزه العهد القديم . ألم يترك العهد الجديد هذا القانون الحكيم الشجاع
دون إلغاء أو تعطيل ؟ (١٢١) .

ومهما فسرت « مخالفة الإنسان الأول لأمر ربه » (الخطيئة الأولى) ،
فقد ثبت أنها موضوع أصغر من أن يملأ اثني عشر قسما ، لأن لللحمة تتطلب
سلسلة من الأحداث والأعمال ، ولكن حيث أن ثورة الملائكة انتهت حين
بدأت القصة . فإن المسرحية لا تدخل إلى القصيدة إلا عن طريق الذكريات
أو العودة إلى الماضي ، وهو صدى آخذ في الذبول والثروال . ومشهد المعركة
موصوفة وصفا جيدا ، بما في ذلك التصارع المناسب بالسلاح ، وشج
الرؤوس وتقطيع الأوصال ، ولكن من العسير أن تشعر بالألم أو بنشوة
الابتهاج لهذه الضربات الخيالية . وعلى غرار الكتاب المسرحيين الفرنسيين
يطلق ملتون لنفسه العنان للخطابة ، فالجميع ابتداء من « الله » إلى حواء
يخطبون ، ولم يجد الشيطان في سمير جهنم ما يحول بينه وبين البلاغة وأنه

سطن المزعج حقا أن نعلم أنه حتى في الجحيم سنكون مضطرين إلى الاستماع إلى محاضرات .

« والرب » في هذه القصيدة ليس هو التألق الذي يحل عن الوصف الذي تحس به في « جنة دانتي » فهو في القصيدة فيلسوف سكولاس (فيلسوف نصراني من العصور الوسطى) ، يدلى بأسباب مطولة غير مقنعة ، لأنه وهو القادر على كل شيء ، يجيز للشيطان أن يوجد ، وأن يغوى الإنسان ، متنبئا ، طوال الوقت ، بأن هذا الإنسان سيذل ويخضع ، ويحلب على البشرية بأسرها قرونا من الخطيئة والشقاء والتماسة . ويحاج بأنه بدون حرية الإنم لانكون الفضيلة ، وبدون التجربة لاتوجد الحكمة والتعقل ، ويرى أنه من الأفضل أن يواجه الإنسان الإغراء ويقاوم ، من عدم التعرض للإغراء اطلاقا ، دون أن يتوقع أبدا أن الصلوات سوف تتوسل إلى الله ألا يقود الإنسان إلى الغواية والإغراء . ومن ذا الذي يطبق التعاطف مع تمرد الشيطان على هذا السادي الذي لا يصدق ؟ (السادية : الابتهاج بالقسوة المفرطة) .

وهل كان ملتون يؤمن حقا بهذا الهول الجبري المقدر ؟ . من الواضح أنه كان كذلك ، لأنه بسط الكلام فيه ، لافي « الفردوس المفقود » فحسب ، بل في رسالته المرية « العقيدة المسيحية » كذلك (١٢٢) . أى أن الله ، قبل خلق الإنسان بزمن طويل ، قدر أى الأرواح يسكتب لها الخلاص ، وأياها قدر عليها العذاب المقيم . وانطوت هذه الرسالة ، على أية حال ، على شيء من الهرطقة . ولم ينشرها ملتون قط ، ولم يكشف أمرها إلا في ١٨٢٣ ، ولم تصل إلى المطبعة إلا في ١٨٢٥ .

إن هذه الرسالة وثيقة جديدة بالذكر ، فهي تبدأ في إطار من النقوى ، وبدون جدل أو لجة ، بافتراض أن كل كلمة في الكتاب المقدس هي وحي من عند الله . وسلم ملتون بأن نصوص الكتاب المقدس قد طرأ عليها « التزييف والتشويه والتبديل » ولكنها حتى في صيغتها الراهنة ، من صانع

الله . وهو لا يميز غير التفسير الحرفي الأمين . فلماذا جاءت الأسفار بأن « الرب » ، إستراح ، أو خاف ، أو ندم ، أو كان غاضبا ، أو حزيناً ، فإنه ينبغي أن تؤخذ هذه الألفاظ بمعناها الظاهري ، وألا تخفف على أنها مجازات ، بل كذلك أجزاء الجسم والصفات الجسدية التي تنسب إلى « الله » يجب قبولها على أنها حقيقية من الوجهة المادية (١٢٣) . ولكن « الله » بالإضافة إلى هذا الكشف الظاهري الذي جاءت به الأسفار المقدسة والذي يكشف به عن كنهه فإنه ، زدنا بوحى داخلى ، هو الروح القدس الذى يتحدث فى داخل قلوبنا . وهذا الوعى الداخلى « الملك الخاص لكل مؤمن ، أسمى بكثير ... ومرشد أصدق ، من الأسفار المقدسة (١٢٤) . ومهما يكن من أمر ، فإن ملتون يقتبس من الكتاب المقدس ، ما يؤيد ما يسوق من حجج ، على أنه البرهان الحاسم الدامغ .

وعلى أساس من الأسفار المقدسة ، ينبذ ملتون نظرية الثالوث الأقدس التقليدية ، ويؤثر عليها هرطقة آريوس (الذى يقول بأن المسيح ليس من مادة الله ، بل هو خير خلقه فقط) ، فالمسيح بكل معنى الكلمة ، ابن الله ، ولكن الأب ولده فى زمن ما ، ومن ثم فهو غير معاصر للأب وليس متساوياً معه أبداً . فالمسيح هو الوسيط الذى خلقه الله على أنه « الوجود أى الكلمة » الذى سيخلق منها كل من عداه . ولا يسلم ملتون « بالخلق من العدم » ، فعالم المادة ، مثل عالم الروح ؛ إبتثاق أو فيض سرمدى من المادة الآلهية . وحتى الروح نفسها ، فهى مادة رقيقة جداً أثرية ، ولا يجوز تمييزها تمييزاً حاداً عن المادة . وفى النهاية ، المادة والروح ، والجسم والنفس فى الإنسان ، شئ واحد (١٢٥) . ونعمة شبه كبير يستحق الملاحظة بين هذه الآراء ، وآراء هوبز (١٥٨٨ — ١٦٨٩) وسبينوزا (١٦٣٢ — ١٦٧٧) ، وقد نرى أنهما فارقاً الحياة فى نفس العقد من السنين الذى مات فيه ملتون (١٦٠٨ — ١٦٧٤) . وربما اطلع ملتون على مؤلفات هوبز التى كان لها دوى ملحوظ فى بلاط شارل الثانى .

وظات عقيدة ملتون خليطا غريبا من التوحيد والمادية ، ومن مذهب
حرية الإرادة عند جاكوب أرمينيوس (لاهوتى برتستانى هولندى
(١٥٦٠ - ١٦٠٩) ، ومن مذهب الجبرية أو القضاء والقدر عند كلفن .
ويبدو فى كتاباته أنه كان رجلا متعمقا فى أمور الدين . ومع ذلك لم يذهب
قط إلى الكنيسة حتى قبل فقد بصره ، ولم يقيم الشعائر الدينية فى
بيته (١٢٦) . وكتب دكتور جونسون : « فى توزيع ساعاته لم يخص وقتا
للصلاة ، وحده ، أو مع أهل بيته . وحذف الصلوات العامة ، لقد حذف
الصلوات جميعا (١٢٧) » . وازدري رجال الدين ، ونمى على كرومول احتفاظه
بعدد من رجال الدين تدفع الدولة رواتبهم ، على أنه لون من « عبادة
الأوثان » ، يؤذى الدولة والكنيسة معا (١٢٨) . وفى أحد بياناته الأخيرة
« بحث فى العقيدة الحققة ، والهرطقة والإلشقاق عن الكنيسة والتسامح ،
وأمثل الطرق للحيلولة دون نمو البابوية » (١٦٣٣) طرض بطريق مباشر
الاعلان الثانى الذى أصدره شارل الثانى عن التسامح (١٦٧٢) ، يحذرا
انجلترا من التسامح مع الكاثوليك وأنصار التوحيد ، أو أية شيعة أخرى
لا تعترف بالكتاب المقدس أساسا وحيدا لمذهبها .

أن هذا الرجل الذى تفوح منه رائحة الهرطقة ، عرف عنه مقاومة رجال
الدين وتدخلهم فى الشؤون العامة والخروج على الكنيسة ، هو نفس الرجل
الذى أخرج للعقيدة المسيحية أكرم شرح حديث لها .

٨ — السنوات الأخيرة : ١٦٦٧ - ١٦٧٤

احتفظ ملتون مع دخوله فى العقد السابع من العمر ، فيما خلا فقد
البصر ، بصحة جسمه وإعتداده بنفسه ، وهما اللذان دماهما وسانداه فى كل
الصراعات الدينية والسياسة التى خاضها . ويصفه أوبرى بأنه « نحيل ٠٠٠
متوسط القامة » ٠٠٠ فهو جسم جميل متناسب الأجزاء ، وبشرته فوق
المتوسطه ٠٠٠ صحيح الجسم ، لا يشكو علة ، قلما يتناول الدواء ، وكل ما فى
الامر أن النقرس انتابه فى أخريات أيامه (١٢٩) . وكان شعره الذى فرق

في الوسط يتدلى على كتفيه في حليقات أو عقصات • ولم تنبئ عيناه عن فقد بصره • وظلت مشيته ثابتة منتصبه • وكان إذا غادر بيته بدا على زيه شدة الحساسه والكلف بملايسه ، وتمنطق بسيف ، لأنه كان فخورا ببراعته في المبارزة واللعب بالسيف (١٣٠) • وأضفت عليه الثقة الزائدة عن الحد وقارا ، وعزوا عن المرح • ولكنه كان مع ذلك حلو الحديث إلا إذا لقي معارضة • ولم يكن بيوريتانيا بكل معنى الكلمة : كان عنده شعور البيوريتانيين بالإثم ، والجحيم والإصطفاء والأسفار المقدسه التي لا تخطئ • ولكنه استساغ الجمال واستمتع بالموسيقى ، وألف روايه ، واحتاج إلى عدة زوجات ، وتخلفت أثارة من حيويه عصر الزبابت وسط رزائته الخاليه من المرح • وكان أنانيا ، أو أنه كشف عن أنانيته الطبيعيه إلى حد الإفراط غير المألوف • إنه كما قال أنطوني رود : « لم يكن يجهد مواهبه (١٣١) » ، وكما قال جونسون « قل من الرجال من كتب كثيرا وامتدح قليلا من الناس ، مثله (١٣٢) » ، وربما تطلبت العبقرية أنانيه يدعها اعتمادا داخليا بالنفس ، حتى تقف في ثبات في وجه الجمهور • إن أثقل ما يمكن قبوله في ملتون هو طاقه الكراهيه والبغضاء عنده ، وإساءته المفرطه لمن اختلفوا عنه • وذهب إلى أنه ينبغي علينا أن نصلي من أجل أعدائنا ، ولكن ينبغي أيضا أن نستنزل اللعنات جهاراً على أعداء الله وأعداء الكنيسه ، وكذلك على الأخوان المضللين الزائفين ، أو من يقتربون الآثام الفظيحه ضد الله ، أو حتى ضد أنفسهم (١٣٣) • أما الوجه الآخر لهذه العاطفه المشبوهه ، فهو شجاعه النبي في استنكار زمانه ، فإنه بدلا من أن يكتم فاه ما اقترن بعودة الملكيه من شعب وصخب ، هاجم في عنف ، غراميات البلاط « في عهد شارل الثاني » ، « والشهوات والاعتصاب » في القصور ، و « البساتين المشتراة على شفاه بنات الهوى » و « المسرحيات الخليعه أو حقلات الرقص في منتصف الليل (١٣٤) » •

وكأنما كان ملتون يقذف ، بآخر سهم في جعبته تحديا للعصر المظلم ،

حين نشر في يوم واحد (٢٠ سبتمبر ١٦٧٠) في غير ماشفته ولا رحمة ،
اثنين من أعماله : « الفردوس المستعاد » و « شمشون الجبار » . في ١٦٦٥
بعد أن انتهى توماس الوود من قراءة ملحة ملتون الأولى تحداه قائلا :
« لقد تحدثت هنا كثيرا عن الفردوس المفقود ، فإذا عساك تقول الآن عن
الفردوس الذي وجد ؟ » (١٣٥) ، وطرقت الفكرة ذهنه بشدة ، ولكنه
تساءل : كيف يعرض استعادة الفردوس في أية مرحلة في التاريخ ، فإن
موت المسيح نفسه لم يطهر الإنسان من الجريمة والشهوة والحرب ولكنه
فسكر أنه رأى في مقاومة المسيح لاغراء الشيطان ، وعدا بأن جانب الله
في الإنسان لا بد يوما أن يقهر جانب الشيطان في الإنسان نفسه ، وبهيمته
للحياة تحت حكم المسيح والعدالة على الأرض .

ومن ثم فإن ملتون في الأقسام الأربعة من « الفردوس المسترد » ، لم
يركز في حياة المسيح على الصلب ، بل على « تجربة الاغراء في البرية » ،
حيث يقدم الشيطان للمسيح « ولدانا ... أجل من سقاة الآلهة » ، ثم
« الحور والعذارى الغائبات » ، وسيدات من حدائق التفاح الذهبي ، ثم
يعرض عليه المال والثراء — ولكن أولئك دون جدوى . ثم يريه الشيطان
رومه الإمبراطورية تحت حكم تيبيريوس المنهوك المسكروه الذي لم يعقب ،
فهلا يريد المسيح أن يقود ثورة بعون من الشيطان ، وينصب نفسه امبراطور
على العالم ؟ . ولما لم يرق هذا في عيني يسوع ، ولم يستهو قلبه فإن الشيطان ،
أراه أثينا بلد أرسطو وأفلاطون ، فهلا رغب في اللحاق بهما ليكون
فيلسوبا ؟ ثم يدخل المسيح والشيطان في حوار غريب حول مزايا الأدب
اليوناني والعبري . فينحاز المسيح إلى جانب أنبياء وشعراء بني إسرائيل على
أنهم أممي بكثير من اليونانيين :

أخذت اليونان عنا هذه الفنون ، ولم تحسن تقليدها (١٣٧) .

وبعد قسمين من الملحة استغرقهما الحوار ، أقر الشيطان بهيمته ،
وبسط جناحيه وطار ، على حين تتجمع فرقة من الملائكة حول المسيح

المنتصر ، وتلشد :

الآن انتقمت لآدم المغدور به ، وبالتغلب على الإغراء استعدت
الفردوس المفقود (١٣٨) .

ولم يرو ملتون لنا القصة بمثل الروعة الفياضة الرائعة التي تجلت في الملحمة
الأولى الكبرى ، ولكن بمثل براعته في الشعر ، وميله إلى المحاجة ، وهما
أمران معهودان فيه ، كما كشف في القصة طوال الوقت عن سعة معلوماته
في الجغرافية والتاريخ . ولم يستمر في القصة حتى حادث صلب المسيح ، وربما
كان مرد ذلك إلى أنه لم يتفق مع القائلين بأن موت المسيح هو الذي فتح
أبواب الجنة من جديد . فالفضيلة وضبط النفس وحدهما اللذان يجلبان
السعادة . ولم يدرك ملتون قط لما رفضت إنجلترا أن تأخذ بأخذ الجسد ، إعادة
كتابة الأناجيل على هذا الشكل المضحك ، وذهب إلى القول بأن الملحمة
الثانية ليست أقل من الملحمة الأولى ، اللهم إلا من حيث مداها (١٣٩) .
وكان لا يطيق أن يسمع أن « الفردوس المفقود » تفضل « الفردوس
المسترد » (١٤٠) .

وتألفت عبقرية ملتون لآخر مرة في « شمشون أجونست — الجبار » .
إنه بعد أن تحدى هوميروس وفرجيل ودانتى ، بملحمته ، نراه الآن يتحدى
أخيلس وسوفوكليس برواية ارتضت كل قيود المأساة (التراجيديا)
اليونانية . وهو في المقدمة يطلب إلى القارئ أن يلاحظ أن المسرحية
(الدراما) تخضع للوحدات التقليدية القديمة ، وتتجنب « خطأ الشاعر
في خلط المادة الهزلية (الكوميديا) بأحزان المأساة ووقارها ورهبتها ،
أو في إدخال شخوص تافهين متبذلين ، وهنا نجد ملتون يولى ظهره لعصر
الزباث ، ويشق طريقه إلى اليونان ولا يبعد كثيراً عن النماذج اليونانية .
إن شمشون الذي فارقه قوته بعد أن حلقت دليّة سبع خصلات من شعر
رأسه ، وقلع من أوثقوه من الفلسطينيين عينيه ، نقول أن شمشون هذا
لا يحكى فقط ، أوديب المكفوف في كولونس ، بل أنه يحكى ملتون
نفسه يعيش في عالم بغيبض لا يرى منه أثراً — م ٧ — قصة الحضارة

« ضربيين أعداء ، أواء هذا شيء أسوأ من الأغلال أو الزنازة أو التسول ، أو العجز بفعل الهرم ، فالغنياء ، وهو فاتحة صنع الله ، منطقي ، أماي ، ولا أملك من مباحجه شيئاً . ربما كان يهدي من آلامى وأحزاني ، آه ، أنه ظلام والقتام والحلiske وسط وهيج النور عند الظهيرة ، ينشر كسوفاً كلياً لا خلاص منه ، دون أى أمل في بزوغ النهار (١٤١) » .

والحق أن الرواية كلها يمكن تفسيرها بأنها قصة رمزية متناغمة متماسكة : فملتون هو شمشون يناضل ويتعذب في محنته ، وبنو إسرائيل المقهورون هم البيوريتانيون ، أى الشعب المختار حطمت عودته الملكية ، والفلسطينيون هم الملكيون الوثنيون المنتصرون ، وهدم هيكلهم يسكاد يسكون تنبؤاً « بالثورة الجليلية » التي أطاحت بآل ستيورات « الوثنيين » في ١٦٨٨ . أما دليلة فهي المرأة الخائنة ماري باول ، Powell . وتكرر فرقة الموسيقي (الكورس) حجج ملتون ومناقشاته من أجل الطلاق (١٤٢) . ويسكاد ملتون يسكون قد تخلص من غضبه وحقده بترديد تلك الحجج والمناقشات على لسان شمشون الذي يتقبل نهايته التي لا بد آتية :

« سوف تمضى سلالة المجد ، أما سلالة الحزى والعار التي ستبقى فسلأتى بها وشيكاً (١٤٣) » .

وفي يولييه ١٦٧٤ أحس ملتون بأنه يضعف وتنهط قواه ، ولأسباب لا نعلمها أهمل تدوين وصيته . وبدلاً من ذلك ، وجه إلى أخيه كريستوفر وصية « شفوية » تسكاد تسكون غير مسطورة ، نقلها كريستوفر على الوجه الآتى :

« أخى ، إنى أترك نصيبى من تركه مستر باول Powell والد زوجتى السابقة ، لأولادى العاقين ، ولكنى لم أتسلم شيئاً منه ووصيتى ومقصدى ألا يستولوا على أى جزء آخر من ضيعتى أكثر من الجزء المذكور ، وبما ضيعت من أجلهم ، غيره ، لأنهم قصرُوا أشد التقصير في القيام بواجبهم نحوى ، أما بقية ضيعتى فأنى أضعها تحت تصرف زوجتى الحبيبة إليزابث (١٤٤) وأطاد ملتون هذه الوصية الشفوية على أسماع زوجته وأناس غيرها في أوقات مختلفة .

وتشبت ملتون بالحياة في عزيمة قوية . ولكن آلام النقرس اشتدت عليه يوما بعد يوم حتى شلت يدها وقدماه . وفي ٨ نوفمبر ١٦٧٤ أنهكت الحمى قواه ، وفارق الحياة في تلك الليلة . وحاش ملتون خمسا وستين سنة وسبعة أشهر . ودفن في مقبرة كنيسة الأبرشية ، في سانت جيل كربولجيت ، بجوار والده . وكان القانون الإنجليزي يعترف بالوصايا الشفوية حتى ١٦٧٧ ، ولكن المحاكم كانت تدقق فيها تدقيقاً شديداً . واعترض البنات على وصية أبهيم ، ورفضها القاضي ، وأعطى ثلثي المال للزوجة ، والثلث الباقي ، وقدره ٣٠٠ جنيه للبنات . أما الحصة في أموال باول فلم يدفع منها شيء قط .

وأنا نلعم عن ملتون أكثر كثيراً مما نعلم عن شكسبير ، ولا بد من تدوين الكثير عنه حتى نخرج له صورة حقيقية أو نصفه وصفا كاملاً . ولكننا لا نزال نجهل ما يكفي للحكم عليه — إذا كان هذا ممكناً بالنسبة لأي رجل . فنحن لا نعلم ، بشكل كاف ، لماذا أثار بناته إستيائه إلى هذا الحد ، ولا كيف عاملن زوجته الثالثة التي واسته وأراحتة في سنى شيخوخته ، ولكننا نستطيع فقط أن نبدي الأسف على أنه عجز عن كسب حبهم . ولسنا ندرى بالتفصيل لماذا ارتضى أن يسكون رقيقاً على الصحافة أيام كرومول ، بعد دفاعه المجيد عن « حرية المطبوعات » . ويمكن أن نعزو كثيراً من تعسفه وبذاءته في المخصوصة إلى أحوال العصر ومعاييره . وقد نغتم غروره وأنانيته باعتبارهما الركيزة التي تستند إليها العبقرية إذا لم تجد إلا القليل من ثناء الدنيا واطرائها . ولسنا بحاجة إلى الاستمتاع به رجلاً ، والإعجاب به شاعراً ، وواحداً من أعظم الناشرين الإنجليز .

إن الذين يعتزمون قراءة الفردوس المفقود من البداية إلى النهاية ، سيمتولاهم الدهش إذ يجدون أنها غالباً ما تخلق في آفاق عالية من الخيال والبيان ، حتى ليغتمفرون أن عاجلاً أو آجلاً ، الصفحات المملة المحشوة بالنقاش أو العلوم أو الجغرافيا ، وكأنها بمثابة فترات لالتقاط الأنفاس من فرط التأثر والتحليق . وأنه لمن الحق أن نتوقع أن تبقى هذه التحقيقات

المتحرطة في التناغم والعاطفة بصنعة مستمرة ، فقد يكون هذا في القصائد القصيرة . وهناك في نثر ملتون وبخاصة في « الأريوباجيتيكا » ، قطع ، لا يسمو عليها ، في قوتها وروعها ، وفسكرها وموسيقاها ، شيء من سلسلة الأدب الديوي في العالم .

وأضنى عليه معاصروه شهرة يشوبها الحسد والتذمر ، وفي الفترة التي صعد فيها حزبه إلى منصة الحكم ، كان مناضلا نائرا ، ونسيت قصائده الغنائية الأولى . ونشر ملتون قصائده الكبرى في عهد عودة الملكية ، ذلك العهد الذي احتقر شيعة ، ورضى له البقاء على قيد الحياة ، على كره منه . وعندما طلب لويس الرابع عشر من سفيره في لندن أن يعدد له أحسن الكتاب الإنجليز الأحياء ، كان جواب السفير : لا يوجد منهم من يستحق الذكر إلا ملتون الذي دافع من قبل ، من سوء الحظ ، عن قتل الملوك الذين كانوا آنذاك يشنقون أحياء أو أمواتا . وحتى في هذا العصر المستهتر المشاغب ، على أيه حال ، نجد أن أشهر شعرائه ، جون دريدن ، الذي قال عنه ملتون من قبل أنه « ناظم قواف جيد ، وليس بشاعر (١٤٥) » . نقول ان دريدن هذا ، اعتبر « الفروس المفقود » من أعظم وأروع وأسمى ما أبدع هذا العصر وهذه الأمة من قصائد (١٤٦) . وبعد أن دالت دولة أسرة ستيورات عاد إلى ملتون مجده ومكانته الرفيعة . وأطنب أديسون في إمتداحه في مجلة « سبكتاتور » . ومنذ ذلك الوقت ازدادت صورة ملتون رفعة وقداسة في ضمير بريطانيا (١٤٧) حتى ناهج وردزورث في ١٨٠٢ :

« أي ملتون ، ما كان أجدرك أن تكون حيا بيننا في هذه الساعة . . . أن روحك مثل نجم رحل عنا بعيدا ، لقد كان لك صوت يهدير كالبحر ، صاف مثل السموات المكشوفة ، صوت كريم حر » .

أن نفسه كانت مثل أثر باق ، قام بعيدا عن أقرب الناس إليه ، ولكن عقله خلق مثل السموات العلى ، فوق كل هموم البشر ، وصوته يدوي في الأسماع مثل « البحر المتلاطم الأمواج » عند هوميروس .

الفصل التاسع

عودة الملكية

١٦٦٠ - ١٦٨٥

١ - الملك السعيد

دخل الملك شارل الثاني لندن في اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٦٦٠ ،
أى بعد ثلاثين سنة كاملة من مولده ، وسط مظاهر فرح وابتهاج ، تفوق
كل ماتعبيه ذاكرة انجلترا من مثلها ، يواكبها عشرون ألفا من حرس المدينة ،
توفر أعلامهم استرازا وزهوا ، ويلوحون بأسيافهم وسط شوارع
انتشرت فيها الأزهار ، تقدى فيها البسط المزدانة بالرسوم والصور ، تدوى فيها
الطبول والنواقيس وهتافات الترحيب ، وتكتظ بنصف سكان المدينة .
وكتب ايفلين : « وقفت على « الشاطئ » ، ورأيت هذا المشهد « وجدت
الله (١) » . وهو مشهد كشف عن مزاج انجلترا ، وخيبة البيوريتانيين
واخفاقهم ، فقد اقتضى خلع شارل الأول ست سنوات من الحروب
والاضطرابات ، على حين لم ترق نقطة دم واحدة في سبيل عودة ابنه إلى
العرش . وتقاطر الإنجليز على قصر هويت هول لتحية الملك ، طوال هذا
الصيف الذى غمرته الهجة . وقال أحد شهود العيان : « كان تلهف الرجال
والنساء والأطفال على رؤية جلالته وتقبيل يديه ، شديدا إلى حد أنه لم
يسكد يجدفسحة من الوقت لتناول الطعام لمدة أيام ٠٠٠ ولما كان الملك
راغبا كل ارغبة فى ارضاء نفوسهم ، فإنه لم يرد عنه أحدا ، ولم يغاق
الأبواب دون أى من الناس (٢) » وصرح بأنه يريد أن يكون كل شعبه
سعيدا مثله .

ولو أن الملك أخذ أية مشكلة مأخذ الجد فى أيام الظفر هذه ، لحلت

العدائد والمصاعب التي ورثها شهر العسل بالسواد والقتام . فقد بلغ رصيد الخزانة ١١ جنيهًا و ٢٨ شلنًا و ١٠ بنسات ، وكانت الحكومة مدينة بليونى جنيه . ولم تسدد رواتب الجيش والبحرية لعدة سنوات ، وكانت إنجلترا في حرب مع أسبانيا . وأخذت ميناء دنسرك ، بشكل غير مستقر ، لقاء مائة ألف جنيه سنويًا ، وطالب بالتعويض عشرة آلاف من الفرسان الذين حاربوا من قبل في صفوف شارل فسلمهم كرومول أموالهم . ثم أن عشرات الآلاف من الرجال الوطنيين قدموا ظلمات يلتمسون فيها إلحاقهم بالوظائف ذوات الرواتب الكبيرة والعمل اليسير ، وأجاب شارل على كل هذا بالإيجاب ، في غير اكتراث ، تراوده الثقة في أن يوفر البرلمان الاعتمادات .

وكان البرلمان ، بدوره ، سعيدًا ، سيطرت عليه الموهلة الأولى ، نزع الامتثال الموسوم بالابتهاج للملك العائد : إنشا وأبناءنا من بعدنا نضع أنفسنا تحت تصرف جلالتهكم وقلتم بطاعتكم إلى الأبد^(٣) » وقرر مجلس العموم « أن أعضاءه أنفسهم وشعب إنجلترا بأسره لن يبرأوا من الجريمة البشعة ، جريمة الثورة الأخيرة غير الطبيعية ، ولن ينجو من العقوبات المترتبة على هذه الجريمة إلا إذا حظوا بصفتح صاحب الجلالة وعفو وبناء على ذلك قصد إليه البرلمان بكامل هيئته وجثوا أمام الملك الضاحك المبتهج ، لينالوا غفرانه^(٤) . وأحس مجلس العموم بمزيد من الإثم لأنه اجتمع دون دعوة من الملك ؛ أو دون موافقته ، ولذلك أطلق المجلس على نفسه بواضعا اسم « اجتماع أو مؤتمر » ، حتى تطيب نفس الملك ، فيعلن أنه برلمان شرعي^(٥) . وبعد انتهاء هذه المراسم ، ألغى البرلمان كل التشريعات التي أصدرها البرلمان ولم يكن قد وافق عليها شارل الأول ، ولكنه أكد على الامتيازات التي كان ذلك المجلس قد منحها للبرلمان ، بما في ذلك سيادة البرلمان في كل ما يتعلق بالضرائب ، وثبت شارل الثاني هذه الامتيازات . وشارك البرلمان الملك الانتصار الخامس الذي أحرزته السلطة المدنية على

السلطة العسكرية ، فدفعت الرواتب المتأخرة للجيش الذي حكم إنجلترا لمدة عقد من السنين ، وصرح الجنود البالغ عددهم أربعين ألفا ، وانصرفوا إلى بيوتهم .

وكان شارل قد وافق على الصفح عن كل أعدائه ، فيما عدا من يستثنىهم البرلمان من العفو العام . وقضى البرلمان عدة أسابيع في جدل حول من يسلمهم إلى يد الجلاد ، ومن يبقى على حياتهم . وفي ٢٧ يولية ١٦٦٠ ، شخص الملك إلى مجلس اللوردات ، مناشدا إياهم أن يصدروا قرارا سريعا حكما :

« أيها اللوردات ، إنكم إذا لم تشاركوني في القضاء على الخوف الذي استولى على قلوب الناس وأرقهم ، ٠٠٠ فإنكم بذلك تحولون بيني وبين الوفاء بالوعد الذي قطعته على نفسي ، وأنا مقتنع بأنه لولا لما كنا ، لا أنا ولا أنتم هنا الآن ٠٠٠ ولقد أدركت جيدا أن هناك أناسا لا يمكن أن يغفروا لأنفسهم ما اقترفوه ، ولا أن تغفر لهم نحن ذلك ٠٠٠ وإنى لأشكر لكم عدايتكم مع هؤلاء - القتلة المباثرون لوالدي - ، ولكني - وسأكون صادقا معكم - لم أفسر قط في استثناء أحد غيرهم من العفو العام . أن هذه الرحمة ، وهذا التسامح هما خير وسيلة تجعل الناس يستشعرون خالص الندم . وتجعلهم رعايا صالحين مخلصين ، كما تجعلهم أصدقاء وجيرانا صالحين لكم أنتم (٦) » .

ورغب البرلمان في التوسع في عملية الانتقام ، ولكن شارل أمر على ألا يستثنى من العفو إلا من وافقوا الحكم بإعدام والده (٧) . وكان ثلاث هؤلاء قد فارقوا الحياة ، كما لاذ الثلث الثانی بالهروب ، وقبض على ٢٨ وحوكموا ، وحكم على ١٥ بالسجن مدى الحياة ، وشنق ١٣ ثم مزقوا أربا (١٣ ، ١٧ أكتوبر ١٦٦٠) . ويقول شاهد العيان بينز : أن توماص هاريسون ، وهو أول من نفذ فيه الحكم ، « كان يبدو مرعبا ، كما يمكن أن يفعل أي رجل في مثل هذا الموقف » ، وتحدث بفجاعة من فوق المشنقة

قائلاً أن دوره في الاقتراع على إعدام شارل الأول أملاه الله عليه (٨) .
ويضيف بيتر « وفي الحال مزق أرباباً ، وعرض رأسه وقلبه على الجمهور ،
فتعالت صيحات الفرح (٩) » ، وفي ٨ ديسمبر أصدر البرلمان أمراً بإخراج
جثث كرومول وأيرتون وجون برادشو من كنيسة وستمنستر ، وتعليقها
على أعواد المشاق . وتم ذلك بالفعل في ٣٠ يناير ١٦٦١ ، وكأنما كان هذا
لونا من الاحتفال بذكرى موت شارل الأول ، وعرضت رؤوسهم طيلة
يوم كامل في أعلى قاعة وستمنستر (حيث اجتمع البرلمان) ، ودفنت الأشلاء
في حفرة تحت مشنقة تبيرن ، كل أولئك جعل جون ايفلين يبتج ويهال
« لحسكم الله » وهو حكم هائل تحار فيه الألباب (١٠) . وثمة ضحية
أخرى ، هاري فين ، الذي كان يوماً محافظاً لمستعمرة خليج ماساشوست ،
فقد شنق في ١٦٦٢ ، لأنه كان أداة فعالة في تدبير إعدام سترافورد .
وفي هذه القضية أغضبت رحمة الملك جفونها ، فقد وعد من قبل بالإبقاء
على « سير هاري » الرجل الشعبي المحبوب ، ولكن جراءة السجين وشجاعته
أثناء المحاكمة أوغرت صدر الملك فتحجر قلبه .

وفي ٢٩ ديسمبر ١٦٦٠ حل « المؤتمر » (البرلمان) نفسه ، حتى يمهّد
الطريق لانتخاب أعضاء أكثر تمثيلاً للشعب . وفي غضون ذلك واجهت
الحكومة أول مظاهر عدائية تنازع في شعبيتها في العاصمة . أن هذه
الحكومة لم تفعل شيئاً لاسكات الشيع الدينية التي ظلت تأمل في نظام
جمهوري : فكان المشيخيون وأنصار تجديد العباد والمستقلون وأصحاب
مذهب الملكية الخامسة يخطبون ضد الملكية ، وتلبأوا بأن الانتقام الإلهي
سيمحل بها سريعاً ، فيرسل الزلازل والدم والصفادع تنقض على بيوت موظفي
الملك . وفي ٦ يناير ١٦٦١ ، وبينما كان الملك في توريسوث يودع أخته
الحبيبة هنريتا وهي في طريقها إلى فرنسا ، نادى بالتمرد والعصيان أحسد
للمتغلين بصناعة دنان النبيذ في مجمع « لقديسى الملكية الخامسة » ، وعندئذ
نسلح سامعوه للمهاجرون أنفسهم ، وأسرعوا إلى الشوارع يرددون أن المسيح

وحده هو الذى ينبغى أن يكون ملكا ، ويعملون القتل فى كل من اعترض سبيلهم ، وعاشت المدينة فى ظل الإرهاب طيلة نهارين وليلتين ، وانتشر « القديسون » فى كل مكان يقتلون الناس فى حماسة بالغة ، حتى تمسكت آخر الأمر فرقه صغيرة من الحراس كانت الحكومة الوائقة من نفسها تعتمد عليها فى حفظ الأمن ، من تطويق للشاغبين وإقنيادهم إلى حبل المشنقة . وعاد شارل مسرعا إلى العاصمة ، ونظم فرقا جديدة من الشرطة للمحافظة على الأمن فيها .

وفى ٢٣ أبريل ، فى يوم عيد سانت جورج راعى إنجلترا وحاميها ، توج الملك السعيد فى كنيسة وستمنستر ، فى كل مظاهر العظمة والجلال ، ذات القيمة الكبرى لدى الملوك والتي يعتز بها الشعب ، وحرص رجال الكنيسة الأنجليكانية التي استعادت مكانتها ، وهم يسجدون الملك الداعر بالزيت المقدس ، على التوكيد على تعهد الملك والتزامه بالدفاع عن العقيدة وعن الكنيسة . وفى مايو اجتمع « برلمان الفرسان » الذى سمي كذلك لأن غالبية أعضائه كانوا ملكيين أكثر من الملك ، متلفين على الإلتقام من البيوريتانيين . ووجد شارل مشقة فى أن يثليهم عن الاسترسال فى إعدام أعداء والده ، واسترد البرلمان ، من الوجهة النظرية ، كثيرا من الإمتيازات التي كان قد فقدتها شارل الأول : من ذلك أنه لا يصبح أى تشريع نافذ المفعول إلا بعد أن يوافق عليه المجلسان كلاهما ، والملك . وكانت للملك السلطة العليا على القوات الإنجليزية المسلحة فى البر والبحر ، وأعاد البرلمان تنظيم مجلس اللوردات ، وأعاد إليه أساقفة الكنيسة الرسمية ، ولكنه رفض تجديد قاعة النجم أو محكمة اللجنة العليا وأبقى على حق التحقق فى قانونية القبض على المسجونين بغير محاكمة ، وأعيدت إلى الفرسان أملاكهم التي صادرها كرومول من قبل ، مع تعويض ضئيل لمن اشتروها ، واسترجعت الأرستقراطية القديمة ثراها ونفوذها . وانقلبت الأسرات التي جردت من أملاكها على ملوك آل ستيوارت ، وانضمت فيها بعد إلى صغار النبلاء وأبناء

الطبقات الوسطى ليشكوا « الأحرار » ضد « المحافظين » .. إن شارل في النصف الأول من حكمه بلغ من الضعف والوهن حدا لم يستطع معه أن يفرض أى قدر من السلطة المطلقة ، من ذلك أنه أجاز « لبرلمان القريسان » أن يستمر لمدة سبعة عشر عاما ، على الرغم من حقه الشرعى في حله . أنه كان من الناحية العملية ملسكا دستوريا . فإن النتيجة الجوهرية لثورة ١٦٤٢ — ١٦٤٩ ، وانتقال السلطة العليا من يد الملك إلى البرلمان ، ثم من مجلس اللوردات إلى مجلس العموم ، كل أولئك عاش بعد عودة الملكية ، على الرغم من قيام الملكية المطلقة من الوجهة النظرية .

وكان من حسن حظ البرلمان أن شارل كان عزوفا عن الحكم ، وكأنه بعد أربعة عشر عاما من التشرد والشقاء ، قد منحته العناية الإلهية الحق في السعادة والهناء ، وأدخل جنات عدن التي وعد بها المسلمون . وكان الملك أحيانا ينهمك بحمد وكمد في شئون الدولة ، وقد بولغ في إهماله لها (١١) . وقبيل نهاية حكمه دهشت الأمة إذ رآته يأخذ كل شيء على عاتقه ، وينصرف بكلية إلى إدارة شئون البلاد في كفاية وعزيمة صادقة . ولكنه في أعوام المسك كان قد فوض إلى إدوارد هايد ، الذي عينه أرل كلارندون في ١٦٦١ ، إدارة دفة الحكم ، بل تقرير السياسة .

وتسربت شخصية الملك ، بشكل مؤثر إلى عادات العصر وأخلاقه وسياسته . وغلب الطابع الفرنسى على أصله وتعليمه . فأمه فرنسية ، وأبوه ابن حميدة مارى جيز أو اللورين ، أضيف إلى هذا جدا اسكتلنديا ودنمرkia وإيطاليا ، ومن ذلك نجد خليطا ضافيا . ولكنه غير راسخ . أنه عاش من سن السادسة عشرة إلى سن الثلاثين في القارة ، حيث تعلم الأساليب الفرنسية . ثم رآها في أبهى صورها في أخته هنريتا آن . وكان شعره الأسود وجلده الأسمر يذكران بحجته الإيطالية مارى دى مديشى ، وكان مزاجه لاتينيا مثل والدته جدته لأمه مارى ملكة اسكتلنده ، وربما ورث عن جده الغسقوى هنرى ناظر ، شفته الشهواتيتين وعينه البراقتين وأفمه المتطفل ،

بل وربما ميله إلى النساء كذلك .

أما فيما يتعلق بالناحية الجنسية ، فقد كان شارل الثانى أخزى قادة زمانه ، وأسوأهم ، فإن تصرفاته كانت أسوأ مثال تحتذي به حاشيته والمجتمع الإنجليزى والمرح بعد عودة الملكية ، فانفلت الزمام ففجور والخلاعة فى هذه كلها ، وأنا لنعرف أسماء ثلاث عشرة من خليلاته ، أنه وهوى الثامنة عشرة ، حين جاء من هولنده إلى إنجلترا ليقاتل من أجل والده ، وجد فسحة من الوقت لينجب من « السمرات الجميلة الجريئة » لوسى وولتر ، ولدا كبر وترعرع تحت اسم جيمس سكوت ، اعترف شارل ببنوته فيما بعد ، وعينه دوق موغوث . ولحق لوسى بشارل فى القارة ، وخدمته باخلاص ، والواضح أنه كان معها مساعدون آخرون لا نعرف الآن أسماءهم . وفور أن استقر به المقام فى القصر الملكى ، دعا بربارا بالمر لتسرى عنه همومه وتخفف من متاعبه . وكانت بربارا هذه — مثل بربارا فلييرز — قد أقامت لندن وأقامتها بجمالها . وفى سن الثامنة عشرة (١٦٥٩) تزوجت من روجر بالمر الذى أصبح أرل كاسلين . وفى سن التاسعة عشرة وجدت طريقها إلى مخدع الملك ، ومن ثم سيطرت على روحه الوادعة ، إلى حد أنه خصص لها جناحا فى قصر هويتبول ، وأنفق عليها أموالا طائلة وأجاز لها بيع المناصب السياسية ، والتحكم فى مصائر الوزراء . وولدت له ثلاثة أبناء وابتين أعترف ببنوتهم جميعاً ، وساورته الشكوك على أية حال ، لأنها وسط حبها الشديد للملك ، لم تتورع عن الاتصال برجال آخرين (١٢) ، وازدادت تفواها بازدياد علاقاتها غير المشروعة . وفى ١٦٦٣ — أعلنت تحولها إلى الكاثوليكية . والفحس أقاربها من الملك أن يثنىها عن عزمها ، فأجابهم بأنه لم يتدخل قط فى « نفوس » السيدات (١٣) .

وفى ١٦٦١ فكر شارل فى أنه قد حان الوقت للزواج ، ومن بين المرشحات اختار كاترين براجنزا ابنة جون الرابع ملك البرتغال التى قدمت إليه مع صداق هيأته العناية الإلهية لبنى بمحاجات ملك مبذر ودولة تاجرة :

٥٠٠.٠٠٠ جنيه نقداً ، وميناء طنجة ، وجزيرة (والمدينة الصغيرة فيايمد)
 بعباي ، وحرية الاتجار مع كل ممتلكات البرتغال في آسيا وأمريكا
 وتمهدت أنجلترا في مقابل ذلك ، بمساعدة البرتغال في المحافظة على استقلالها
 ولما وصلت الأميرة العروس الغالية إلى بورتسموث كان شارل في استقبالها
 للترحيب بها ، وتزوجا في ٢١ مايو وفقاً للطقوس الكاثوليكية أولاً ثم
 الأنجليكانية ، وكتب شارل إلى والدته يقول أنه « أسعد إنسان في العالم »
 وأحسن معاملة حاشيته من السيدات ذوات « الثنورات » الواسعة اللعوفة ،
 ومن الرهبان الوقورين ، ووقعت الأميرة في غرامه لأول نظرة ، وسارت
 الأمور سيراً حسناً لعدة أسابيع ، ولكن في يولييه وضعت كاسلمين ولداً
 شهد شارل تسميته على أنه « العرب » (أبوه في العهد) — وتلك مناسبة
 أخرى يستخدم فيها اسم الله عبناً ولغوياً . ومذهجرت باربارا زوجها ،
 أصبحت الآن تعتمد كل الاعتماد على الملك ، وتوسلت إليه ألا يتخلى عنها ،
 فامتسك لرجائها ، وسرعان ما استأنف علاقته بها ، وفي إخلاص موصوم
 بأشد الخسة والعار . ونسى الملك قواعد الملوك القويمة للألوفة ، فقدم باربارا
 علانية إلى زوجته . فنزفت أنف كاترين دما وانتابتها إغماءة ، من فرط
 الشعور بالمهانة والإذلال ، وحملت إلى خارج القاعة وبناء على إلحاح من
 الملك ، أوضح لها كلارندون أن عملية الزنى امتياز ملكي مدترف به الملوك
 في أعرق أسرات أوروبا . وبمرور الوقت كينت المملكة نفسها مع أساليب
 زوجها الشرقية ، ولكنها كانت تزوره ذات يوم ، فودعت عيناها على
 « شيدشب » صغير بجوار سريره ، فانسحبت في رفق وتلطف « حتى لا تصاب »
 الحياء الجميلة الصغيرة « المختفية وراء الستائر بالبرد » (١٤) ، وكانت هذه المرة
 الممثلة — هول دافيز . هذا في الوقت الذي حاولت فيه كاترين كثيراً أن
 تنجب لشارل طفلاً ، ولكنها — مثل كاترين أراجون مع ملك سابق —
 أجهضت عدة مرات . وفي ١٦٧٠ أقر البرلمان قانوناً بالتوسع في أحكام
 الطلاق . وأشار بعض رجال البلاط المتلفهين على وريث بروتستانتى ، على

شارل بأن يطلق كاترين ، ولكنه أبى ، حيث كان قد عرف آنذاك كيف يجبها حباً عميقاً على طريقته الخاصة .

ويعصف بيبز البلاط في ٢٧ يولييه ١٦٦٧ فيقول :

« يقص على فن Fenn أن الملك وسيدتى كاسلمين قد حدثت بينهما جموة شديدة ، وأنها ستفارقه ، ولكن بين جنبيها جنين ، إن الملك لا بد معترف بينوته ، وإلا فانهاستحمل الوليد إلى قصر هويتبول ، وتهشم رأسه أمام عيني الملك . ثم يضيف أن الملك والحاشية لم يكونوا في أى زمان في العالم بأسره أسوأ منهم الآن ، بسبب اللهو والدطارة والفجور والسكر والمريضة ، وغيرها من أخط الرذائل البغيضة ، مما لم ير العالم مثيلاً لها ، وهذا أمر يجر الهلاك والدمار على الجميع ، لا محالة (١٥) » .

وضاق شارل ذرعاً بغضببات كاسلمين ، وفي إحدى زياراته الأخيرة لها ، فاجأ عندها جون تشرشل - دوق مالبروفيا بعد - ، الذى قفز من النافذة حتى يتجنب لقاء الملك (١٦) ، كما يروى الأسقف بيرت . على أن شارل خلع على كاسلمين لقب دوقة كليفلند ، ورتب لها مخصصات من الأموال العامة مدى الحياة .

وقد يشوقنا أن نقص كيف أن امرأة واحدة بعينها خيبت علانية أهل الملك المغرور المختال وصدته : تلك هى فرانسيس ستيوارت التى قيل إنها ربما كانت أجمل وجه وقعت عليه العين (١٧) ويقول أنطونى هاملتون « ينذر أن يتيسر العثور على امرأة أقل ذكاء أو أكثر جمالا (١٨) » . وظل الملك يلحف فى الوصول إليها حتى بعد زواجها من دوق واتشموند ويعصف بيبز الملك وهو يجدف وحسده فى الليل إلى قصر سومرست ، « وهناك حيث وجد باب الحديقة موصدا تساق الجدران ليزور هذه المرأة وتلك فضيحة مخزية فظيعة (١٩) » .

وفى ١٦٦٨ رأى شارل « نل جوين » وهى تمثل فى « مسرح درورى لين » ، وهى التى نشأت فى فقر مدقع ، وكانت تسلى رواد الحانة بأغانيها ،

وتبيع البرتقال في المسرح ، وتقوم بالأدوار الصغرى أو الأدوار الرئيسية في الروايات الهزلية ، واحتفظت طوال عملها ، تلقائياً بروح طيبة واردة طيبة ، مما سحر لب الملك الذي لا يبالي بشيء ، والذي سئم الممذات ، ولم تقم الممثلة أية عقبات في سبيل أن تكون عشيقة لجلالته . واستنزفت مبالغ طائلة من كيسه الذي يشكو خلو الوفاض ، ولكنها أنفقت القدر الأكبر منها في أعمال البر والإحسان . ولكن سرطان ما كان عليها أن تنافس امرأة مغوية خطيرة موفدة من فرنسا (١٦٧١) لتثبت شارل على العقيدة الكاثوليكية والتقاليد الفرنسية ؛ تلك هي لويز كيرووال التي قلدت نل مظاهرها الارستقراطية تقليداً ساخراً شيطانياً . وكل العالم يعرف ، كيف أنه ، حيث حسب سكان لندن خطأ أن نل هي منافستها الكاثوليكية ، فسخروا منها ، أخرجت رأسها الصغير من نافذة العربة وصاحت بهم « صه أيها الشعب الطيب ، أنا البغى البروتستانتية (٢٠) » واستمرت تمخلى بعطف شارل إلى آخر حياته ، ولم تبرح غيخته حتى في ساعة احتضاره . أما كيرووال التي عينت على الفور دوقه بورتسموث ، فقد أنارت حفيظة لندن ، حيث نظروا إليها هناك على أنها عميلة فرنسية باهظة التكاليف تبتز من الملك في كل عام ٤٠ ألف جنيه ، لتقتنى المجوهرات وتميش في ترف باذخ أهاج معدة جون ايفلين (٢١) وتقاص ظل سلطاتها في ١٦٧٦ حين اكتشف شارل هورتنس مانسني ابنة شقيق السكاردينال مازاران المرحمة المنعممة بالحوية والنشاط .

وكان لشارل سقطات أخرى : انه في أيام شبابه التمس فقد كل الثقة في البشر ، وحكم على الرجال والنساء جميعاً بأنهم كواصفهم « لاروشوكول ، ومن ثم فإنه قلما استطاع أن يكون مخلصاً لأحد — اللهم إلا أخته - وضيع نفسه في أهوائه وغرامياته ، ولم تكن نعمة ود خالص . تقيم يامى ضياء حقيقياً على البريق الأجوف في حياته . وباع بلاده بنفس اليسر الذي اشتري به النساء . وضرب لحاشيته أكبر المثل في المقامرة بمبالغ طائلة . وعلى الرغم

من الجمال الطائش في سلوكه وعاداته ، فانه أبدى في بعض الأحيان افتقاره إلى الرقة والكياسة اللتين كان من العسير التماسهما عند والده . من ذلك ، على سبيل المثال ، أنه لفت نظر جرامونت إلى أن خدمه يؤدون عملهم وهم راكعون (٢٢) . ولم يكن كثير الادمان على الخمر في أغلب الأحيان ، ولكنه أدمن بشكل مخيف لعدة أيام عقب صدور قانون ضد تعاطي المسكرات (٢٣) . وكان عادة يتقبل النقد بصدر رحب ، ولكن حين جاوز سيرجون كوفنتري حده ، وتساءل في البرلمان علانية « هل يجد الملك متعته بين الرجال أو بين النساء ؟ » . أمر شارل رجال حرسه أن « يجعلوا منه عبرة » فكمّنوا له وهاجموه وهشموا أنفه (٢٤) .

على أن فئة قليلة من الناس كانوا لا يملكون إلا أن يحبوه ، ومنذ شباب هنرى الثامن لم يوجد في إنجلترا ملك في مثل شعبية شارل بين حاشيته ، وكانت هيويته الجسمية تبعث على الرضا والسرور ، ولم يكن به شح أو بخل ، بل كان يرعى الحقوق ، عطوفاً كريماً . فانه ، بعد أن ينقد رجال حاشيته رواتبهم ، كان يجد الوسيلة للبر والإحسان والصدقات . وجعل من المتنزه الخاص به مرتعاً لمختلف الحيوانات ، ولم يلحقها أى أذى . وكانت كلبته المدللة تنام ، ويفترسها رفيقها وتلد وتضع صغارها في حجرة نوم الملك (٢٥) . وكان شارل بعيداً عن التكلف ، أنيساً ، حلوا المعاشرة ، يسهل الوصول إليه أو التحدث معه ، سرطان مايمدى من روع محدثيه ويطمئن بالهم . وذكّر كل الذين تحدثوا عن شارل — فيما عدا كوفنتري ، أنه « ملك ودود طلق المحيا (٢٦) » ، وعده جرامونت « من ألطف الرجال وأرقهم وأكثرهم وداعة (٢٧) » . وقال عنه أوبرى « إنه نموذج فذ في الجمال (٢٨) » وكان شارل قد صقل عاداته وسلوكه في فرنسا ، وكان ، مثل لويس الرابع عشر يرفع قبعته لأية سيده ، حتى ولو كانت من أحط الطبقات . وكان يفضل شعبه بكثير في التسامح مع أية آراء أو مذاهب دينية معارضة إلى حد أنه شرب نخب خصومه السياسيين ، وسر كثيراً بالهجاء حتى

ولو كان موجها إلى شخصه . وكان حسن التقدير فيه ، مبعث ابتهاج لدى حاشيته . ووصفه بـ *بيز* بأنه كان يقود الحلقة في رقصة ريفية قديمة — *cuckoldo All Awry* . وما كان يقطع عليه مرحة ولهو الصاخب — لفترات قصار ، إلا أنباء الطاعون أو الحريق أو الافلاس أو الحرب .

ولم يكن الملك شارل الثاني عميق التفكير ، ولكنه لم يتعاق بتوافه الأمور إلى حد كبير ، وتخلص يوما من رجل زعم أنه يتنبأ بالطالع ، بأن أخذه إلى سباق الخيل ، ولحق أنه يخسر ثلاثة أشواط متوالية . وأولع ولما شديدا بالعلوم ، وأجرى التجارب ، وأصدر براءة تشكيلة الجمعية الملكية ، وأغدى عليها الهبات والمنح ، وشهد كثيرا من اجتماعاتها . ولم يهتم كثيرا بالأدب ، ولكنه أولى الفنون عناية كبيرة ، واعتز بـ *رافايل* و *تيشيان* و *هولبين* وجمع أعمالهم . وتجلى في حديثه كثير من الحيوية والتنوع اللذين تميزت بهما الجماعات المثقفة في فرنسا . فتحدث جيدا عن الشعر مع *دریدن* ، وعن الموسيقى مع *بورسل* (الماكن) ، وعن هندسة العمارة مع *رن* . وكان حاميا ونصيرا حسن التمييز في كل هذه المجالات ، ولا بد أنه كان نعمة قدر كبير من مناقب ومآثر حميدة محببة تحلى بها رجل قالت عنه أخته وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة « إنى أحببته أكثر من حبي للحياة نفسها . وايس نعمة شيء أسف عليه في موتى ، إلا إنى أفارقه » (١٢٩) .

٢ - مر جل الدين

هل تمسك الملك بأية عقيدة دينية ؟ أن حياته من هذه الناحية توحى بنفس النزعة التي سادت كثيرا من الفرنسيين المعاصرين الذين عاشوا ملاحدين وماتوا كاثوليكين . ويبدو أن هذا يسر الفوز بمتاع الدنيا والآخرة معا ، كما أنه كان أفضل كثيرا من « رهان » بسكال . ويقول بيرنت « أن إحساسه الدينى كان ضعيفا ، إلى درجة أنه لم يسكن من التظاهر بالنفاق ولكن بسلوكه الموصوم بالتهاون في الصلوات وفي الأسرار المقدسة ، كان لا ي

إنسان يراه أن يدرك كيف وفر في ذهن الملك أنه لا علاقة له بهذه الأمور (٢٠) . وقال أحد الوعاظ مرة لنبييل غلبه النعاس وهو جالس بين جماعة المصلين « سيدى ، سيدى : إنك تغلط في نومك بصوت عال ، وقد توقف الملك (٣١) » : وقال عنه سانت إيفرموند الذى كان يعرفه حق المعرفة أنه كان « ريويا (٣٢) » - وهو الذى يؤمن بوجود كائن أممى غير مجسم تقريباً ، ويفسر بقية المذاهب الدينية بأنها شعر شعبي . واتفق أول بكنجهام ومركيز هاليفا كسى مع سانت إيفرموند في هذا الرأى (٣٣) ويروى ييرت « قال لى الملك ذات مرة ، أنه ليس ملحداً ، ولكنه لا يظن أن الله يعذب الإنسان لأخذه بشيء من أسباب المتعة والمذة عرضاً أو خطأ (٣٤) » . ورحب الملك بصدافة هوبز الذى يدين بالمادية ، وتولى حمايته من رجال اللاهوت الذين طالبوا بتقديمه للقضاء بتهمة الهرطقة . ويرى فولتير أن « لامبالاة الملك المطلقة » بكل الصراعات الدينية التى تفرق بين الناس عادة ، أسهمت بدرجة غير يسيرة ، فى حكمه السلمى (٣٥) .

ويحتمل أن شارل كان متشككاً ، مع شيء من الإنعطاف نحو الكتلركة ، بمعنى أنه كان يشك فى اللاهوتيات ، ويؤثر الكاثوليكية ، لطقوسها النابضة بالحياة ، وتعلقها بالفنون ، وتساهلها مع الجسد ، وتأبيدها للملكية . وربما غاب عن ذاكرته أن العصبة الكاثوليكية وبعض الآباء اليسوعيين قد أقروا من قبل قتل الملك . ولكنه تذكر أن الكاثوليك الإنجليز دافعوا عن أبيه ، وأن ثلث النبلاء الذين ماتوا فى سبيل النضال عن شارل الأول كانوا من الكاثوليك (٣٦) ، وأن الكاثوليك الأيرلنديين بقوا على ولائهم لأسرة ستيوارت ، وأن حكومة كاثوليكية كانت تمد له يد العون فى منقاة الطويل الأمد - إن روح التعاطف التى تملكته بصفة عامة ، جنحت به إلى الرغبة فى التخفيف بعض الشيء من القوانين التى صدرت فى انجلترا ضد الكاثوليك ، وهى فى تقدير « هلام » قوانين « صارمة غاية الصرامة » بل هى فى بعض الأحيان ، دموية أو متعطشة للدم (٣٧) . ولم

٨ - قصة المضارة

يفارق الملك البروتستانت الإنجليز فيما علق بأذهانهم من ذكرى « مؤامرة البارود » ١٦٠٥ ، أو الخوف من محاكم التفتيش أو البابا في رومه . ولم يفضب لالتزام أخيه العلني بالمذهب الكاثوليكي — والمنفروض أنه وريث العرش . وقد يجوز لنا أن نحكم ، من تحوله إلى الكثلركة وهو على فراش الموت ، أنه كان من الجائز أن يعترف هو أيضا بها ، لو أن الاعتراف بها كان أمرا عاليا من الوجهة السياسية .

وهكذا فإن شارل ، وهو السياسي اللطيف الودود ، قبل السكينة الأنجليكانية ودعمها إنما قد دانت بالولاء لوالده ، وفنيت في الدفاع عنه ، وحانت ما حانت في أيام كرومول ، وكأخت كفاحا شديدا في سبيل عودة الملكية . واعتبر شارل أنه من القضايا المسلم بها أن تكون هناك عقيدة دينية تحظى بموافقة الدولة ومعوتها ، على أنها وسيلة للنشر التعليم وإقرار النظام الاجتماعي . انه ، أساسا ، كانت تزعجه البيوريتانية ، فوق أنها أتت لها من قبل فرصة الحكم ، فكانت صارمة بغيضة إلى حد بالغ . ولم ينس قط أن البرسبتيريانز سجنوا أباه وأن البيوريتانز اطاحوا برأسه ، وأنه هو نفسه أرغم على قبول مذهبهم والاعتذار عن أخطاء آبائه . ووقع القانون الذي أصدره « البرلمان المؤتمر » ، بإعادة السكينة الأنجليكانيين إلى أبرشياتهم ، التي كانت « الجمهورية » قد جردتهم منها ، وكان وجه العدالة والإنصاف واضح في هذا القانون . وعلى الرغم من ذلك ، كان قد وعد « بالحرية لذوي الضمائر الواهنة » ، وألا يضار أي إنسان بسبب الخلافات الدينية مادامت مسالمة . واقترح شارل في أكتوبر ١٦٦٠ تسامحا شاملا مع كل الفرق المسيحية ، بل كذلك تخفيف القوانين المعادية للكاثوليكية . ولكن البرسبتيريانز والبيوريتانز الذين خشوا مغبة هذا التراخي . انضوا إلى الأنجليكانيين في رفض هذا المشروع . ورغبة في المصالحة بين البرسبتيريانز والأنجليكانيين عرض الملك طقوسا تكون حلا وسطا بين الطائفتين ونظاما أسقفيا محدودا يتولى بمقتضاه بعض المشايخ المنتخبين

تقديم العون والمشورة للأساقفة . ولكن البرلمان عارض هذه الفكرة . وأبلغ « مؤتمر سافوى » المكون من اثني عشر أسقفاً ، ومثلهم من المشايخ — أبلغ الملك « أنهم لم يستطيعوا الوصول إلى اتفاق (٣٨) » .

وتلك فرصة ضيعة ، لأن البرلمان الجديد كان أنجليكانياً بأغلبية ساحقة . فحسباً الجراح القديمة بإعادة النظام الأسقفى في اسكتلنده وأيرلنده ، وأعاد المحاكم الكنسية للمعاقبة على « التجديف » ، والتخلف عن دفع العشور للكنيسة الأنجليكانية ، وجعل « كتاب الصلوات العامة الأنجليكاني » إلزامياً على جميع الإنجليز ، وبمقتضى « قانون التوحيد » (٢٠ نوفمبر ١٦٦١) حرمت المناصب العامة على كل الأشخاص الذين لم يتلقوا الأسرار المقدسة وفقاً للطقوس الأنجليكانية قبل الانتخابات ، وبمقتضى « مرسوم التنسيق » (١٩ مايو ١٦٦٢) طلب إلى كل رجال الدين والمعلمين أن يقسموا اليمين على ألا يقاوموا الملك ، وأن يعلنوا موافقتهم التامة على كتاب الصلوات العامة . وكان على رجال الدين الذين رفضوا هذه الشروط أن يتخلوا عن مراكزهم في موعد غايته ٢٤ أغسطس ورفضها نحو ١٢٠٠ منهم فطردوا . وهؤلاء بالإضافة إلى ١٨٠٠ آخرين أخرجوا عند عودة الأنجليكانيين ، انضموا جميعاً ، مع مجموعة كبيرة من الجامع ، إلى العدد المتزايد من « الشيع » أو « المنشقين » ، الذين أرغموا أولى الأمر في النهاية على إصدار قانون التسامح ١٦٨٩ .

وحاول شارل أن يعدل من « مرسوم التنسيق » فطلب من البرلمان أن يستثنى من العزل أولئك القساوسة الذين لم يعترضوا إلا على ارتداء القباس الكهنوتي الأبيض ، أو استخدام الصليب في التعميد ، فوافق اللوردات ورفض النواب . وسعى الملك للتخفيف من أثر القطعة ، بتأجيل تنفيذ للرسوم لمدة ثلاثة أشهر ، ولكن أحبطت هذه للساعي كذلك . فأصدر في ٢٦ ديسمبر ١٦٦٢ بياناً أعلن فيه عن عزمه على أن يستثنى من العقوبات التي نص عليها القانون الأشخاص للمسلمين الذين أثبت عليهم ضلالتهم

أداء القسم المطلوب ، ولكن البرلمان ، إرتاب في هذا الاجراء ورفضه ، باعتبار أنه ينطوى ضمنا على سلطة الملك في الاعفاء من إطاعة القوانين . وعبر الملك عن مشاعره بالإفراج عن الكويكرز المعتقلين (٢٢ أغسطس ١٦٦٢) وبالتأكيد على التسامح الديني في المواثيق التي منحها لجزيرة رود وكارولينا ، وفي التعليمات التي وجهها إلى حاكمي جايبكا وفرجينيا .

وأحس البرلمان أنه ليس نعمة متسع لهذا التسامح في إنجلترا . ولكي يمنع اجتماعات الكويكرز السرية للعبادة ، قال إنها تضم أكثر من خمسة أشخاص بالإضافة إلى أفراد البيت ، وحكم ١٦٦٢ على كل شخص يحضرها بدفع غرامة قدرها خمسة جنيهات ، أو بالحبس لمدة ثلاثة أشهر ، لمخالفة الأولى ، ومضاعفة العقوبة (١٠ جنيهات غرامة أو ستة أشهر في السجن) للثانية ، والننى إلى مستعمرات المجرمين ، لثالثة ، أما المخالفون الذين يعجزون عن دفع نفقات إنتقالهم إلى المستعمرات فكان عليهم أن يخدموا لمدة خمسة سنوات ، مما لا يعقود عمل خاصة . أما المدانون أو المخالفون المرحلون الذين يهربون أو يعودون إلى إنجلترا قبل انقضاء ، المدة المحكوم بها ، فتكون عقوبتهم الإعدام ، وفي ١٦٦٤ امتدت هذه الإجراءات إلى البرسبتيريانز والمستقلين . وحظر « قانون الأميال الخمسة » (١٦٦٥) على القساوسة الذين امتنعوا على حلف اليمين ، أن يقيموا في نطاق خمسة أميال في أية مدينة ذات مجلس بلدى ، أو يقوموا بالتدريس ، في أية مدرسة خاصة أو عامة . وأطلق على هذه القوانين « تشريع كلارندون » لأن الذى فرضها هو كبير وزراء الملك ضد إرادة الملك أو رغباته الصريحة ، وقبل شارل هذه التشريعات الصارمة لأنه كان يناهذ البرلمان لإقرار الاعتمادات التي طلبها . ولكنه لم يغفر قط لكلارندون ، كما فقد ثقته في الأساقفة وقل إحترامه لهم ، لأنهم ما لبثوا أن اعيدوا حتى بدأوا ينتقدون أشد الإنتقام ، ويقبضون أيديهم عن البر والإحسان . وانتهى شارل إلى « أن المسيحية ليست مذهبا يليق بالرجل الماجد المذهب ، وأن الأنجليكانية ليست

مذهبا يليق بالرجل المسيحي (٢٩) .

وإذ أدركت الكنيسة الأنجليكانية اعتمادها على الملكية ، فإنها أكدت من جديد ، ويشكل أكثر إيجابية عن ذي قبل ، « حق الملك الإلهي » ، والإثم العظيم الذي يؤدي إلى الهلاك ، في مناهضة حكومة ملكية فائقة . وفي ١٦٨٠ نشر كتاب سير روبرت فلر « سلطة الملوك الطبيعيه المعترف بها » بعد موت المؤلف بسبعة وعشرين عاما ، وأصبح الدافع القياسى عن النظرية . وفي كتاب أكسفورد « القضاء والقانون » (١٦٨٣) أعلن زعماء الكنيسة الأنجليكانية أنه « زيف وتحريف على الفتنه » بل هو هرطقه وتجديف « ومن ثم جرّعه عقوبتها الإعدام » « أن يتمسك امرؤ » بأن السلطة مستمدة من الشعب ، وأن الحكام الشرعيين يفقدون الحق في الحكم إذا أصبحوا طغاة ، وأن الملك ليس له إلا حق مناظر لحق السلطتين الآخرين : مجلس اللوردات ومجلس العموم . وأضاف الكتاب « أن الطاعة العمياء هي سمه كنيسة إنجلترا وخصيصةها (٢٠) » . وتلك كانت نظريه تثير القلق والمتاعب ، عندما حاول جيمس الثانى ، بعد عامين من هذا التاريخ ، أن يحول إنجلترا إلى الكاثوليكية .

ان الكنيسة الأنجليكانية ، التى استعادت مكانتها ، على الرغم من تمصّبها ، تجلت فيها صفات تدعو إلى الإعجاب ، فقد أباحت آفاقا رحبه للتفكير اللاهوتى بين أعضائها ، ابتداء من « الهوديين » (الذين عرفوا فيما بعد بأنهم الذين يؤكّدون على الطقوس التقليديه High Churchmen) الذين اقتربوا من المذهب والطقوس الكاثوليكية ، إلى « المتحررين المتسامحين » (الذين عرفوا فيما بعد باسم ذوى الأفق الواسع — Broad Charchmen) وهم الذين جنحوا إلى لاهوت متحرر ، وأكّدوا على الجانب الأخلاقى ، لاعلى الجانب المذهبى أو العقائدى ، فى المسيحية ، ووقفوا فى وجه الاضطهاد ، وسعوا إلى المصالحة وتسويه الخلاف بين البيوريتانيين والمشيخيين والأنجليكانيين . وساعد شارل هولاء المتحررين

المتسامحين ، وقدر فيهم الإيجاز النسبي في عطايتهم (٤١) . وكان أعظم هؤلاء المتحررين ، جون تفلوتسون ، الذي عينه شارل قميس القصر ، ثم عينه وليم الثالث رئيس أساقفه كنتربري (١٦٩١) . وكان رجلا « راجع العقل حلي الشائل (٤٢) » ، ناهض « البايويه » والإلحاد والاضطهاد بنفس القدر من الحماس والغيرة ، وتجاهس فبني المسيحية على العقل . وكان يقول « لسنا في حاجة إلى دليل على خطأ إنسان أقوى من أن نسمعه يتهم العقل ويحط من قيمته ، ومن ثم يرى أن العقل ضده (٤٣) » . ومال صغار رجال الدين الأنجليكانيين « الكهنه » إلى أن يكون الخدم الروحيين لثورات المهلين ، بل حتى لبعض مالكي الأرض ، حتى قاربوا أن ينحدروا إلى وضوح العام (٤٤) . ولكن في المدن والمناصب الكنسية ذوات الرواتب الأكبر ، اشتهر كثير من رجال الدين الأنجليكانيين بسعة الإطلاع والمقدرة الأدبية حتى أنهم أخرجوا فيما بعد بعضا من أفضل كتب التاريخ الرسمي في أوروبا . وبصفه عامه سادت روح من الاعتدال المذهبي في الكنيسة الأنجليكانية ، أكثر منها بين المنشقين الذين زاد الاضطهاد من تعصبهم لمذهبهم وتزمتهم .

ولم يعان البيوريتانيون آنذاك من الاضطهاد السياسي وحده ، بل إنهم كذلك كانوا موضع سخرية وازدراء من أولئك الذين أحسوا بالضييق والإنزعاج أيام الحكم البيوريتاني بسبب أخلاقياتهم الهيبة التي نه الخاليه من التزمت . ولكن البيوريتانيين احتملوا في جلد وشجاعه دوران عجلة الزمن . وهاجر بعضهم إلى أمريكا ، وأدى كثير منهم القسم المطلوب . وكان ريتشارد باكستر ألمع شخصية بينهم في ذاك العصر ، وكان رجلا ذا إتجاه معقول ، مستعدا لقبول أية تسوية لا تخل بلاهوته المتقدم . فلما نه على الرغم من إخلاصه الشديد للمذهب البيوريتاني حتى النهايه ، استنكر إعدام شارل

(٤١) هناك وصف مبالغ فيه لهذا الموضوع في كتاب ماكولي « تاريخ انجلترا »

(٤٢) (١ : ٢٥٣ - ٢٥٥) أنظر لشي « تاريخ انجلترا في القرن الثامن عشر »

(٤٣) (٧ : ٧٥ - ٧٩) .

الأول ، وحكم كرومول حكما استبداديا مطلقا ، وحبذ عودة الملكية . ومنع بعد ١٦٦٢ من الوعظ ، واعتقل مرارا وتكرارا لمخالفته أمرا الحظر . وكان من أكثر البيوريتانيين استنارة ، ولكنه مع ذلك استحسن أحراق السحرة في سالم ومساوشوست ، وفكر في ربه على أساس جعل « مولوخ » (اله سامي كان يعبد عن طريق تضحية الأطفال على مذبحه) بجانيه ودودا لطيفا من هم الذين كتب لهم الخلاص ؟ ويجب باكثر : « إنهم فئة قليلة من البشر الضائع ، قدر لهم الله منذ الأزل هذه الراحة (٤٤) . وأكد في عظاته على عذاب الجحيم التي « أوجدها الرب بنفسه » . إن تعذيب الملعونين المحكوم عليهم بالهلاك ينبغى أن يكون شديدا ، لأنه مظهر الانتقام الإلهي . إن العقاب رهيب ، ولكن الانتقام أمر لا سبيل إلى التخفيف منه (٤٥) » . وحرم باكثر الاتصال الجنسي إلا بقصد الإنجاب مع حليلة شرعية . ومذ رأى أن هذا التقييد يتطلب ضبط النفس على طريقه الرواقين ، فإنه أوصى بالحمام البارد والتغذى على الخضروات ، لتخفيف من الشهوة الجنسية (٤٦) وقد نفتقر له لاهوته إذا رأيناه ، وهو في السبعين من العمر (١٦٨٥) واقفا في قمص الإتهام أمام القاضى الوحشى الغليظ القلب « جفرى » ، لأنه تفوه ببضع كلمات ضد مزاعم الأنجليكانيين ولم تتح له أية فرصة للدفاع عن نفسه أو تفسير آرائه ، وحكم عليه بدفع غرامة قدرها ٥٠٠ جنيه ، أو السجن حتى يدفع المبلغ كاملا (٤٧) . وأفرج عنه بعد ١٨ شهرا ، ولكنه لم يسترد عافيته بعد ذلك قط .

وظل الكويكرز يعانون الاعتقال ومصادرة الممتلكات لرفضهم تأديبه القسم أول تخلفهم عن الصلوات الأنجليكانية ، أو عقد الاجتماعات غير المشروعة . وفي ١٦٦٢ كان في السجنون الإنجليزيه أكثر من ٤٢٠٠ منهم : « وحشر بعضهم في السجن حشرا لا يدع مجالا للجلوس وحرموا من فرش القش ليرقدوا عليها ، وكثيرا ما منع عنهم الطعام (٤٨) . ولكن جلدوم ومثابرتهم وتشبههم أ كسبهم المعركة آخر الأمر ، وخفت حدة الاضطهاد عمليا ، إن

لم يكن قانوناً . وفي ١٦٧٢ أطلق شارل مراح ١٢٠٠ رجل منهم (٤٩) ،
وفي ١٦٨٢ منح أخوه جيمس دوق يورك براءة مقاطعة جرمي الشرقية
في أمريكا ، إلى روبرت باركلي وهو كويكرى اسكتلندي ، و « الصاخب »
الكويكرى الفنى « وليم بن » ، وبعض زملائهم الآخرين .

وكان بن وهو ابن أمير البحر وليم بن الذى استولى على جايكا لانجلترا .
قدم وهو صبي فى الثانية عشرة بأطوار مختلفة من الانفعال الدينى الذى
فوجئ به فى أثنائه لفوره براحة فى أحضان نفسه ، وبهالة متألفة
فى الغرفة ، إلى حد أنه قال عدة مرات بأنه منذ تلك اللحظة ختم بخاتم
القداسة والخلود . « الإيمان الراسخ » بأن هناك الها وأن نفس الإنسان
يمكن أن تنعم بهذا الاتصال الإلهى (٥٠) . وفى ١٦٦٩ طرد من أكسفورد
وحكم عليه بدفع غرامة لأنه رفض حضور الصلوات الأنجليكانية . ولما عاد
إلى أبيه أوسعه ضرباً بالسياط ، وطرده من المنزل لإعلانه اعتناق مذهب
الكويكرز . ثم رق قلب الوالد فبعث بإبنيه إلى فرنسا ليتعلم « المرح
الباريسى » ، وربما اكتسب من هناك بعض الكياسة والأساليب المصقولة
التي تحلى بها ، وفى ١٦٦٦ ارتضى لنفسه اسم الخدمة فى الجيش الإنجليزى الذى
يعمل فى إيرلنده ، ولكن بعد عام واحد شهد اجتماعاً للكويكرز فى
كورك ، وإلتهبت حماسته من جديد ، فطرد جندياً ضايقه بكثرة الأسئلة
فاقتيد إلى السجن ، ومنه كتب إلى حاكم مونستر يلتمس إباحة حرية العبادة .
وبعد عودته إلى إنجلترا أحرق مراكبه من خلفه ، وأصبح واعظاً كويكرى ،
وقبض عليه المرة بعد المرة . ولعبت محاكمته ١٦٦٩ دوراً فى تاريخ القانون
الإنجليزى . ذلك أن هيئة المحلفين برأته ، فحكم القاضى على المحلفين بالسجن
والغرامة بتهمة إهانة المحكمة وإزدراءها . فاستأنف المحلفون أمام محكمة
الدعوى المشتركة ، التي أعلنت عدم شرعية القبض عليهم ، وكان فى هذا
تثبيت لحق هيئة المحلفين وسلطتهم فى إنجلترا . ولكن بن أودع السجن ،
على أية حال ، لأنه رفض أن يخضع قبعته فى المحكمة . وأخلى سبيله فى الوقت

المناسب ليحضر وفاة أبيه (١٦٧٠) ، وقد ترك له دخلاً يقدر بألف وخمسة مائة جنيه في العام ، وديننا على التاج قدره ١٦ ألفاً من الجنيهات أقرضه أبوه لشارل الثاني وأعيد إلى السجن لقيامه بالقاء العظائم ، وفيه كتب أبلغ دافع عن التسامح تحت عنوان « القضية الكبرى لحرية الضمير » ، (١٦٧١) ، وفي إحدى الفترات التي تتمتع فيها بالحرية تزوج من امرأة ثرية ، واشترى حصّة في النصف الغربي لما يعرف الآن بولاية نيوجرسي . وصاغ لهذه المستعمرة دستوراً يؤكد فيه على التسامح الديني وسلطة المحلفين في التحقيق والحكومة العمومية ، ولكن الزمام أفلت من يده ، ولم تطبق مواد هذا الدستور .

وفي ١٦٧٧ عبر بن وجورج فوكس وروبرت باركلي وجورج كيث القنال الإنجليزي لبشروا يذهب السكويكرز في القارة . وأسس جماعة من « كرهيم » ممن حولهم بن إلى مذهبه ، مدينة « جرمان تون » ، في بنسلفانيا ، وكانوا أول من أعلن أنه من الخطأ أن يكون للمسيحيين رقيق . ورجع بن إلى إنجلترا ، وأخذ زمام المبادرة في منع السكويكرز من الانضمام إلى حركة اضطهاد الكاثوليك من أجل ما يسمى « بالمؤامرة البابوية » ، وكان « خطابه إلى البروتستانت من جميع المذاهب » (١٦٧٩) نداء قويا للتسامح الديني في أكل صورده . وفي ١٦٨١ قبل التاج اقتراح بن التنازل عن حقه في المطالبة بالدين ، لقاء منحه ما يعرف الآن باسم بنسلفانيا . أن بن اقترح اسم « سلغانيا » للجزء المتراعى الأطراف السكثيف الأحرار ، فالحق شارل الثاني « مقطوع » بن « بهذه اللفظة » ، تخليداً لذكر أمير البحر . وعلى الرغم من الخضوع التام للملك ، كان حكومة المستعمرة الجديدة كانت ديموقراطية ، وكانت العلاقة مع الهنودودية قائمة على العدل والإنصاف ، كما أطاق السكويكرز ، وهم يشكلون غالبية المستوطنين ، الحرية الدينية . وعمل بن في هذه المستعمرة بمجد لمدة عامين ، ولكنه في ١٦٨٤ مبع نبأ اضطهاد جديد عنيف تتعرض له طائفته . فأسرع بالعودة إلى لندن . وهناك بعد عام واحد أصبح صديقه دوق يورك ملكاً على إنجلترا ، وهو جيمس الثاني ، كما صار بن من ذوي

النفوذ والمكانة فى الحكومة ، ولنا معه لقاء آخر .

أن طريق المتناومة السلبية الذى اتبعه الكويكرز ضد الاضطهاد كان أكبر قوة فعالة ساعدت على التسامح الدينى فى عصر التمصب ، وقدر أحد المذمتين أنه كان هناك ستون ألف حالة اعتقال بسبب الخلاف الدينى بين عامى ١٦٦٠ و ١٦٨٨ ، وأن خمسة آلاف ممن اعتقلوا قضوا نحبهم فى السجن (٥١) . وكان تمصب البرلمان أسوأ من خور البلاط والسرحد . وذكر مؤرخ كتب التاريخ مثل ما صنعه تقريبا « فى هذه الفترة الدقيقة الحرجة » كاد الملك أن يكون الصوت الوحيد الرحيم الذى ينادى بآراء عصرية حديثة ودأب طوال حكمه على النضال من أجل التسامح (٥٢) وفى ١٦٦٩ عندما صدر الحكم على ثلاثة أشخاص بدفع غرامة كبيرة للتاج ، بناء على قانون قديم صدر فى عهد الملكة اليزابيث ، لتخلفهم عن حضور الصلوات الأنجليكانية ، أعفاه شارل من دفعها ، وأعلن أنه لن يسمح بتطبيق هذا القانون بعد اليوم « لأنه من رأيه وقناعاته الخاصة أنه لا يجوز أن يضار أحد بسبب تفكيره وما يمليه عليه ضميره (٥٣) » .

وكان من المحتمل أن يقر وجهة نظر الملك فى التسامح عدد متزايد من الأنجليز ، لولا أنهم كانوا يراقبون فى رغبته فى التخفيف من ويلات الكاثوليك فى إنجلترا التى كانت لا تزال تخشى سيطرة البابا ، ومحاكم التفتيش الأسبانية وحكومة القساوسة ، إلى حد أن البرسبترىانز والبيوريتانيين آثروا تحريم عبادتهم على السماح بالعبادة الكاثوليكية فى إنجلترا . وكان الأنجليز الكاثوليك يشكلون آنذاك نحو ١/١٠ من السكان (٥٤) . وكانوا من الناحية السياسية ضمافا عاجزين . ولكن الملكة كانت كاثوليكية ، كما أن شقيق الملك لم يبذل إلا أيسر الجهد فى إحفاء تحويله إلى الكنائس (١٦٦٨) وكان فى إنجلترا حينذاك ٢٦٦ من اليسوعيين . كان أحدهم أبنا غير شرعى للملك ، وبدأوا يظهرن علنا فى جرأة وثقة . على الرغم من القوانين البالغة التشدد . وكانت المدارس الكاثوليكية تقام فى الدور الخاصة .

وأرھقت انجلترا . وأقام البروتستانت فى كل عام عرضا تظاهروا فيه ضد البابوية ، وحملوا إلى « مميفيلد » تماثيل للبابا والكرادلة ، أحرقوها هناك . أنهم لم ينسوا « جى فوكس » . ولكن الكاثوليك صبروا وصابروا ولم يفقدوا الأمل ، فمن الجائز الآن أن يرقى كاثوليكي عرش انجلترا فى أية لحظة

٣ — الاقتصاد الانجليزى ١٦٦٠ — ١٧٠٢

قدر عدد سكان انجلترا وويلز فى ١٦٦٠ بنحو خمسة ملايين نسمة (٥٥) . ربما ازداد إلى خمسة ملايين ونصف المليون فى ١٧٠٠ (٥٦) ، أى أنه لا يكاد يبلغ ربع عدد سكان فرنسا أو ألمانيا ، وأقل من ربع سكان إيطاليا أو أسبانيا (٥٧) . وكان سبع السكان من طائفة « اليومن » ، أى صغار مالكي الأرض الأحرار الذين يملكون الأرض التى يفلحونها ، وشكل المزارعون المستأجرون الذين يعملون فى أراضي النبلاء وذوى الحسب والنسب ، نحو سبع آخر من السكان . أما بقية السكان فكانوا يقيمون فى المدن .

وبازدياد السكان نقص نصيب الأسرة من الخشب ، وتزايد استخدام الفحم فى البيوت والحوانيت ، وتطور علم المعادن واستخراجها من المناجم . وأصبحت شيفيلد مركزاً لصناعة الحديد . وسرت فى انجلترا حتى الانتاج . وجمع الثروات . وتوسل أصحاب المصانع إلى البرلمان أن يصدر تشريعات ترغم العاطلين الكسالى على مزاولة العمل . وتزايد تشيغيل الأولاد فى الصناعات المحلية ، وبخاصة النسيج . وتهلل وابتهج ديفو لأنه فى كولدستر وتونتون « لم يكن ثمة ولد فوق الخامسة من العمر ، فى المدينة أو فيها حولها من القرى ، أمهله والده أو لم يتلق تعليماً ، إلا استطاع أن يكسب قوته » وبالمثل حول « وست رايدنج » : « لا يكاد يوجد ولد جاوز الرابعة إلا كسبته يده مؤونة العيش (٥٨) » .

وكان معظم الصناعة يتم فى المنازل أو فى حوانيت الأسرة . وحدث

توسع في نظام المصانع في النسيج والحديد . وتذكر نشرة ظهرت في ١٦٨٥ كيف أن « أصحاب المصانع يشيدون بتكاليف باهظة ، دوراً ضخمة تضم كل القائمين بعمليات صناعة الصوف ، من فرز وتمشيط وغزل ونسج وكبس بل وصباغة ، في صعيد واحد » . وقيل أنه كان هناك مصنع من هذا القبيل يعمل فيه ٣٤٠ شخصاً . وكان في جلاسجو في ١٧٠٠ مصنع لنسيج يضم ١٤٠٠ عامل (٥٩) . وكان تقسيم العمل والتخصص فيه آخذين في التقدم ، وكتب سير ولیم بتي في ١٦٨٣ « في صناعة الساعة » ، إذا قام فرد بعمل التروس ، وآخر يصنع الزبرك ، فثمة ثالث يحفر القرص المدرج ، ورابع يتولى صناعه الأغلفة ومن ثم تخرج الساعة أحسن وأرخص مما لو كاف بالعمل كله فرد واحد (٦٠) .

وظلت أجور الأعمال الزراعية يحددها الحكام المحليون وفقاً لقانون الفلمان للمهنيين « الذي صدر في ١٥٨٥ في عهد الزابث ، فإذا دفع رب العمل ، أو أخذ العامل ، أكثر من الأجر المحدد ، تعرض كلاهما للعقاب . وتراوحت أجور الأعمال الزراعية في تلك الفترة بين خمسة وسبعة شلنات في الأسبوع مع الإقامة والطعام (٦١) . أما الصناعة فسلكت الأجور فيها أعلى قليلاً . فكان الأجر اليومي شلناً في المتوسط ، وربما كان هذا ، من حيث القيمة الشرائية ، يعادل ، دولارين ونصف دولار في ١٩٦٠ . أما أجور للمساكن فسلكت منخفضة نسبياً ، حيث كان ايجار البيت للمتوسط الاتساع في لندن يبلغ نحو ٣٠ جنيه في السنة (٦٢) . وكانت البيرة وخيصة الثمن ، أما السكر والملح والفحم والصابون والأحذية والملابس ، فسلكت أثمانها في ١٦٨٥ تعادل أثمانها في ١٨٤٨ (٦٣) . وازدادت أسعار الحبوب إلى خمسة أمثالها بين عامي ١٥٠٠ و ١٧٠٠ (٦٤) . وأكلت طبقات العمال خبز الجاودار والشعير والشوفان ، أما خبز القمح فكان ترفاً ينعم به ذوو اليسار ، ونادراً ما ذاق الفقراء اللحم . واعتبر الفقر الذي كان عليه جمهور الشعب أمراً عادياً ، ولو أنه ربما كان أشد منه في أخريات العصور الوسطى (٦٥) . ويقول ثورولد روجرز :

« سعى مالكو الأرض طوال القرن السابع أن يحصلوا من مستأجري الأرض على أكبر ما يستطيعون من إيجار ، وبأقصى ما يمكن من قوة فرضوا على العمال أجورا تؤدي بهم إلى الجوع والعوز ، وبذلوا قصارى جهدهم في استغلال القشريع ليحصلوا من المستهلك على أسعار عالية تقرب الناس من حافة المجاعة والقحط . والتاريخ زاخر بالشواهد الكثيرة على تفاقم الحال يوما بعد يوم (٦٦) » .

وفي ١٦٩٦ قدر جريجورى كنج أن ربع سكان إنجلترا كان يعيش على المصدقات ، وأن الأموال التي تجمع لإغاثة الفقراء كانت تعادل ربع تجارة الصادرات (٦٧) . وقهر الأغنياء الفقراء وغلبوهم على أمرهم إلى حد بات معه الأجراء والفلاحون أضعف من أن يثوروا ويتمردوا ، ولمدة نصف قرن خمد صراع الطبقات في إنجلترا (٦٨) .

أما الكنيسة الانجليكانية التي كانت قد تجاسرت أيام شارل الأول على أن تدافع عن الفقراء من وقت لآخر ، فقد خلصت الآن ، نتيجة لثورة البيوريتانية ، إلى أن مصالحها تحقق على أحسن وجه ، إذا ربطتها بمصالح طبقات الملاك ربطا تاما (١٦٩) . وكان البرلمان شكلا من ائتلاف بين مالكي الأرض وأصحاب المصانع والتجار والرأسماليين . ومن ثم أصغى ، بحكم شعور الزمالة للتبادل ، إلى صيحات طبقة أرباب العمل ليخلصهم من القوانين التي تعوق انطلاق للقوى الاقتصادية للعمل دون قيود . وقبل نهاية القرن السابع عشر ، وقبل ظهور آدم سميث بزمان طويل ، ممت إنجلترا صيحة رب العمل « أتركه يعمل » (سياسة عدم التدخل) من أجل الحرية الاقتصادية ، وتخلص أرباب العمل من العوائق القانونية والإقطاعية والنقابية ، في تشغيل العمال والإنتاج والتجارة (٧٠) ، وتجاوزوا القيود النقابية وانهارت النظم المهنية ، وبطل العمل بتحديد الأجور عن طريق الحكام المحليين ، بفعل القوة النسبية للمساومة بين أرباب العمل الأثرياء والعمال الجياع (٧١) . إن الأيديولوجية الحديثة لحرية ، بدأت هنا الآن ، حين طالب اللقاولون

واللتزمون للغامرون ، في صخب وغضب ، بالتححرر من القيود القانونية والأخلاقية .

وباتت التجارة الآن عنصرا هاما فعلا في الاقتصاد الإنجليزي ، وعاملا حيويا في حصول البرلمان على الاعتمادات التي يقررها ، إلى حد أنها ، أي التجارة ، شقت طريقها لتفعل ما تشاء مع حكومه يسيطر عليها مالكو الأرض . وأصبح التشريع الإنجليزي في التجارة ، بحاي الإنجليزية لا على حساب الهولنديين وحدهم ، بل على حساب الأيرلنديين والاسكتلنديين كذلك ، وحرم استيراد الماشية والأغنام والخنازير من أيرلندة واستبعد الغلال الاسكتلندي ، وفرضت ضرائب ثقيلة على واردات اسكتلندة . إن الرغبة في التوسع في التجارة الإنجليزية وتوفير الحماية العسكرية لها ، هي التي حثت على التحالف مع البرتغال ، وزواج شارل الثاني من كاترين براجانزا ، وعلى تجدد الحرب مع المقاطعات المتحدة ، والتصميم على الاحتفاظ بمجبل طارق . وقضاء عصف حجم تجارة إنجلترا بين عامي ١٦٦٠ و ١٦٨٨ ، بسبب الانتصار على الهولنديين ، إلى جانب أسباب أخرى (٧٢) ، وكتب شارل الثاني إلى أخته يقول : « إن أقرب شيء إلى قلب هذه الأمة هو التجارة وكل ما يتعلق بها » (٧٣) . وبات ثراء التجارة ينافس الآن اقتناء الأراضي الواسعة الطيبة .

ومدت للشروطات المغامرة الإنجليزية أذرعها في كل اتجاه ، فالتفت للمستعمرات الجديدة في نيويورك ونيوجرسي ومنسلفانيا وكارولينا وكندا ، ومنحت شركة الهند الشرقية كل الحقوق فيما تستطيع أن تضع يدها عليه في الهند ، وكان لهذه الشركة أسطولها وجيشها وحصونها وعملتها وقوانينها ، وكانت تملن الحرب وتفاوض لمقد الصلح ، وتم الاستيلاء على بمباي بالمصاهرة في ١٦٦١ ، وعلى منهاتان (في نيويورك) بحق الفتح في ١٦٦٤ . وفي العام نفسه استولى الإنجليز على الممتلكات الهولندية على الساحل الغربي لأفريقية . ومن أجل تزويد هذه المستعمرات بالأيدي العاملة أنشأت عادة « الإكراه » وهي إغراء الشبان الإنجليز بالعمل في هذه « المزارع » بتقديم الحر لهم أو ضربهم حتى يفقدوا وعيهم ، وعندئذ يحملونهم إلى ظهر سفينة

على وشك الإفلاق ، ثم يوضحون لهم فيما بعد أنهم كانوا قد وقعوا عقداً للعمل (٧٤) . إن القانون حرم هذا الإجراء ، ولكنه لم ينفذ . وكان موقف البرلمان واضحاً ، فإنه على حين انتهت ثورتا ١٦٤٢ و ١٦٤٩ و ١٦٨٨ — ١٦٨٩ إلى تقلب البرلمان على الملك ، حدثت في نفس الوقت ثورة إقتصادية متزامنة انتهت بسيطرة التجارة والصناعة والمال على البرلمان .

وكان في إنجلترا في تلك الأيام مئات من « الصائغين أصحاب المصارف » (مقرضو النقود) الذين يدفعون ٦٪ أرباحاً على الودائع ، ويتقاضون ٨٪ على القروض (٧٥) . وكان شارل الثاني يلتبس أى منفذ لتجنب سلطة البرلمان على الخزانة ، فلجأ إلى الاستدانة كثيراً من أصحاب المصارف هؤلاء ، حتى بلغت ديونه منهم في ٢ يناير ١٦٧٢ ، ١٣٢٨٠٥٢٦ رطل جنياً (٧٦) ، وفي هذا التاريخ كان مجلس الملك على وشك أن يشن الحرب على المقاطعات المتحدة فأحدث في مجتمع المال هزة عنيفة « بإغلاق خزانة الدولة » أى منع تسديد فوائد ديون الدولة لمدة عام . فساد الذعر ، ورفض أصحاب المصارف الوفاء بالتزاماتهم تجاه أصحاب الودائع ، أو تنفيذ إتفاقاتهم مع النجار ، وعمل المجلس على تهدئة العاصفة بوعود قاطعة باستئناف الدفع في نهاية العام . واستؤنف الدفع في ١٦٧٤ ، وسدد رأس المال عن طريق تعهدات والتزامات حكومة جديدة . والواقع أنه في ٢ يناير ١٦٧٢ تمحدث بداية الدين الوطني في إنجلترا ، وتلك حيلة جديدة في تمويل الدولة .

ومذ باتت لندن موطن أصحاب المصارف وأمرء التجارة ومركز الثروة المجموعة عن طريق نظام الأسعار ، من منتجي الطعام والسلع ، فإنها كانت الآن أكثر مدن أوروبا اكتظاظاً بالسكان ، فنافست قصور رجال الأعمال قصور الأرستقراطية في البذخ والترف ، إن لم يكن في الذوق . وكانت فيها مجموعة من المخازن بمحاراتها الفاتنة ولافتاتها المزخرفة ونوافذها ذات العمد الحجرية ، تعرض منتجات العالم (*) أمام أنظار الأقلية ، ورصفت

(*) حوالى هذه الفترة بدأت النوافذ الزجاجية تحمل على النوافذ القديمة ذات الاطارات

الشوارع الرئيسية وحدها بالحصى عادة وحوالى ١٦٨٤ أضيئت بنور ضعيف حتى منتصف الليل فى الليل غير المقمرة بقناديل يعلق واحد منها كل عشرة أبواب . ولم يسكن فى الشوارع أرصفة للمشاة ، وكانت نهاراً تمتلئ بالحركة الصاخبة من الباعة المتجولين الذين يعرضون بضاعتهم فى سلال أو عربات يد ، أو عجلات يد ، وبالمزادين الذين يعرضون القيام بخدمات منزلية مثل « قتل الفيران والجُرذان (٧٧) » . وكان هناك المتسولون والقصص فى كل شارع ، كما وجد أيضاً المغنون الذين يرفعون عقيرتهم بالأغنيات من أجل الحصول على بنس . وكان حى الأعمال يسمى « الحى » . وكان يحركه عمدة وهيئة البلدية ومجلس ينتخب أرباب البيوت فى الأحياء أعضاء . وإلى القرب من هذا الحى ، كان يقع « الحى السياسى » وستمستر ، وفيه الكنيسة والقصر اللذان يحملان هذا الاسم (وكان القصر مقر البرلمان) ، وفيه القصران الملكيان هويت هول وسان جيمس . وخارج هذين القسمين من المدينة كانت أحياء الأكوخ التى تمتلئ بالفقراء الكثيرى التناسل . ولم تكن الشوارع فيها مرصوفة فكانت العربات ترش ، مزهوة ، ماء المطر أو الوحل على المشاة ، وهى تصطدم بالجدران فى الأزقة الضيقة . وكانت المنازل متقاربة جداً بعضها من بعض ، والأدوار العليا متلاصقة متقابلة ، مما لا يدع مجالاً لضوء الشمس الممتقطع أن ينفذ إليها . ولم يكن نظام المجارى الحسالى معروفاً فى لندن آنذاك ، بل كانت مراحيض خارجية وبالوعات ، وكانت العربات تحمل الفضلات وتقذف بها خارج حدود المدينة ، أو فى نهر التيمز بطريقة خفية غير مشروعة

وكان تلوث الهواء آنذاك بالفعل مشكلة وبناء على طلب الملك أهد جون افلين ونشر فى ١٦٦١ خطه لتبديد الدخان الذى علق بسماء لندن ، قال :

« إن الامراف فى استخدام الفحم يعرض لندن لأسوأ الازعاج والحزى

== الخشبية الثقيلة ، لأن الزجاج يسمح بنفاذ قدر أكبر من الضوء .

والعار ، وليس هذا ناشئاً من نيران للطايج التي لا يسكاد يرى لها أثر ، بل من بعض مداخن معينة في مصانع البيرة ومحال الصباغة وإحراق الجير ، ومصانع للملح وعلى الصابون وبعض مصانع أخرى ، تسكنى فوهة إحدى المداخن فيها ، وحدها وبشكل واضح ، لتلويث الهواء وإزعاج لندن أكثر مما تفعل كل مداخن المدينة مجتمعة ... إن لندن تكون أقرب شبيهاً ببركان اتنه أو بضواحي جهنم ، منها بمجتمع تعيش فيه مخلوقات عاقلة ، حين تفتح هذه المداخن أفواهها وتنفث القمام والسخام ... أن السائح المنهوك سرعان ما يشم ، من مسافة عدة أميال ، رائحة المدينة التي يقصد إليها ، قبل أن يراها ... أن هذا الدخان الأسود السكريه ... يقرح الرئتين ، وهذا داء لا شفاء منه ، إلى حد أنه يقضى على أعداد كبيرة من الناس ، نتيجة السل المنهك الخطير ، كما ينبىء بذلك نشرات الوفيات الأسبوعية (٧٨) .

وأعدايفلين مشروع قانون للبرلمان الذي كان أقرب من ذالالرجال الصناعة الأثرياء منه للجمهور الذي يعوزه التنظيم ، ومن ثم لم يحرك هذا البرلمان ساكناً . وبعد ثلاثة عشر عاماً سوياً رفع سير توماس براون صوت الطب طلياً ، يحذر من : —

« الروائح السكريبه التي تنفثها البالوعات العامة ، وإلأماكن المنننة وفضلات المواد المغلية التي تستخدمها المصانع القذرة غير الصحية كما أن الضباب والسديم يعوقان دخان الفحم من أن يهبط ويتبدد ، ومن ثم يمتزج بالسديم ويتنفسه الناس ، ولكل هذا آثار سيئة ، حيث يلوث الدم ويعرض السكان للزلات الشعبية والسعال (٧٩) » .

إن الهواء الفاسد ، وضعف الرعاية الصحية وسوء التغذية كان يهدد بانتشار الأوبئة في كل عام وما أن تجيئ فترة تتجمع فيها ظروف غير مواتية ، حتى تنزل كارثة الطاعون . وفي ٣١ أكتوبر ١٦٦٣ دون يبيز في مذكراته : « أن الطاعون منتشر في أمستردام ، ونحن في فزع منه هنا » . وكانت السفن القادمة من هولنده تخضع للحجر الصحي ، وفي ديسمبر ١٦٦٤ مات شخص واحد بالطاعون في لندن ، واثان في أبريل ١٦٦٥ ، ٩ — قصة المضارة

وفي مايو ٤٣ شخصاً ، وهكذا تفاقم الحال حتى حل الصيف الحار مع مطر قليل يساعد على تنظيف الشوارع ، فكان ضغثاً على إباله ، وأيقنت لندن التي ملأها الفزع والجزع ، أنها تواجه شيئاً شبيهاً بالموت الأسود ١٣٤٨ الذي لا يزال ذكراه عالقة بالأذهان . وكان ديفو آنذاك صبياً في السادسة ، ولكنه استطاع أن يمي قدراً كبيراً مما تردد في هاتيك الأيام عن الطاعون : فكتب قطعة خيالية بعنوان « صحيفة عام الطاعون » تسكاد تكون في منزلة التاريخ (٨٠) :

« منذ الأسبوع الأول من يونيو انتشرت العدوى بصورة رهيبة ، وارتفعت أرقام الوفيات ، وحمد الناس إلى إخفاء قلقهم قدر الطاقة ، حتى يحاولوا دون ابتعاد جيرانهم عنهم ، أو دون إغلاق الحكومة لبيوتهم . وفي يونيو تزاحم الأغنياء على مغادرة المدينة ، وفي هويتشابل ما كان يمكن أن ترى إلا العربات ، وعربات السيد تحمل البضائع والنسوة والأطفال وغيرهم ، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الرجال على ظهور الخيل .. وهو منظر رهيب كئيب (٨١) » .

وزادت النسذر والتنبؤات عن المصير المشؤوم من الرعب ، وأغلقت المسارح وحلقات الرقص والمدارس ودور المحاكم . وانتقل الملك وحاشيته في يونيو إلى أكسفورد « حتى يحوهم الله برعايته إن شاء » دون أن يسهم سوء ، ولو أن صيحات التأليب تعالت ضدهم لأنهم هم الذين جلبوا هذا البلاء ، عقاباً من عند الله ، على فسادهم وفجورهم ، وبقي رئيس أساقفة كنتربري في مقره في لامبث ، يتفق في كل أسبوع عدة مئات من الجنهيات عونا للمرضى والأموات . وبقي موظفوا المدينة فيها يقومون بأعمال بطولية . وأرسل الملك ألف جنيه ورجال الأعمال في « السيتي » ستائة جنيه أسبوعياً ، وهرب كثير من الأطباء ورجال الدين ، وبقي آخرون وقضى كثيرون منهم متأثرين بالعدوى . وجرب الناس الأدوية والعلاجات على اختلاف أنواعها ، فلما أخفقت لجأوا إلى التهاشم والتعاويد التي قد تصنع

المعجزات • وفي ٣١ أغسطس ١٦٦٥ قال بيبز « في هذا الأسبوع مات ٧٤٩٦ شخصا منهم ١٦٠٢ بالطاعون » • وكان حفارو القبور يحملون من يموتون في الشوارع على عربات اليد ، ويدفنونهم في مقابر عامة • وبلغت جملة من ماتوا بالطاعون من أهالي لندن في ١٦٦٥ ، نحو سبعين ألفا ، وهذا سبع السكان • وخف الوباء في ديسمبر ، وعاد الناس لمزاولة أعمالهم شيئا فشيئا • وفي فبراير ١٦٦٦ عادت الحاشية إلى العاصمة •

وما كاد السكان الباقون على قيد الحياة يروضون أنفسهم على احتمال ما كلفهم الطاعون من خسائر حتى داهمت المدينة كارثة أخرى • وكانت كارثة حقا ، ذلك أنه في يونيو ١٦٦٦ أبحر الهولنديون في جرة إلى التيمز ودرسوا المراكب الإنجليزية فيه بمدافع ممتع صوتها في لندن • ولكن في الساعة الثالثة من صباح الأحد ٢ سبتمبر ، في حانوت خباز في بودنج لين ، شب حريق ، أتى في ثلاثة أيام على معظم الجزء من لندن الواقع شمال النهر • ومرة أخرى تآمرت الظروف وتجمعت المصائب : صيف جاف ، وبيوت كلها تقريباً مبنية من الخشب ، متلاصقة ، كثير منها خال من السكان الذين يقضون عطلة نهاية الأسبوع في الريف ، مخازن فلابى بالوت والقار والقنب والسكران والخمور وغيرها من المواد القابلة للاحتراق في الحال ، ثم هبت ربيع عاصفه حملت النار من بيت إلى بيت ، ومن شارع إلى شارع ، أضف إلى ذلك سوء التنظيم وعدم الاستعداد لمواجهة مثل هذا الحريق في مثل هذا الوقت من الليل • ومن حسن حظ ايفلين أنه كان في سوثنارك ، فأسرع إلى شاطئ النهر •

« حيث شهدنا للمدينة بأسرها وقد اندلع فيها القهب الرهيب بالقرب من للاء ، في كل الدور من جسر لندن ، وفي شارع التيمز ، صعدا نحو تشيسيد ... وامتدت النيران في كل مكان ، وعرت الدهشة الناس ، إلى حد أننا لم ندر منذ البداية ، ماذا تولا من قنوط وجزع حتى أنهم بشق النفس تحركوا لاختادها ، فلم نكن نسمع أو نرى إلا الصرخات والعيول والنواح

وم يجرّون هنا وهناك ، ذاهلين مخبولين . كذلك أحرقت النار الكنائس والقاعات العامة ، وسوق الأوراق المالية والمستشفيات والآثار والخراف والبيوت والأثاث أنها أتلفت كل شيء ١٠٠ »

وهنا رأينا النهر مغطى بالبضائع الطافية فوق الماء والزوارق والقوارب محملة بالبضائع التي وجد بعض الناس فسحة من الوقت وأوتوا شيئاً من الشجاعة لانقاذها . كما كان هناك على الجانب الآخر العربات وغيرها ، تنقل إلى الحقول ، التي انتشرت لعدة أميال كل المنقولات من كل نوع ... كما نصبت الخيام ليأوى إليها الناس وما استطاعوا أن يستخلصوه من بضاعة ومتاع . ياهول المنظر الأليم المفجع الذي لم تصادف الدنيا مثله منذ بدء الخليقة . وغطت السنة النيران وجه السماء ، فبدت وكأنها أتون ملتهب ... انى أرجو الله ألا تقع عيناي ثانية على مثل هذا المنظر ، منظر أكثر من عشرة آلاف بيت تمحرق كلها في لحظة واحدة وكان صوت اللهب المندلح وفرقته ورعده ، وصراخ النساء والأطفال ، وهرولة الناس ، وسقوط الأبراج والمنازل والكنائس ، أشبه شيء بعاصفة هوجاء ، وكان الهوام ساخناً إلى حد أن الناس اضطروا إلى الوقوف جامدين ، تاركين النار يشتد أوارها ، وتمتد ألسنتها لمسافة تقرب من ميلين طولاً وميل عرضاً (٨٢) .

وأبلى الملك وأخوه المسكروه جيمس ، كلاهما ، بلاء حسناً في هذه الأزمة ، وجدوا في العمل بأيديهم مع مكافئ النيران ، وأشرفوا على أعمال الإغاثة ومولوها وهياؤوا المأوى والطعام لمن باتوا بلا مأوى ، وأصرروا ، رغم المعارضة الشديدة ، على هدم البيوت ليجولوا دون امتداد الحريق ، بما كان له أثره في انقاذ جزء من المدينة في شماله التيمز (٨٣) وكاد الحى التجارى أن يمضى عن آخره ، أما حى السياسة « وستمنستر » ، فقد أُمّقت ، ودمر ثلثاً مدينة لندن ، بما في ذلك ١٣٢٠٠ منزل ، ٨٩ كنيسة بما فيها كنيسة سانت بول العتيقة ، ولقى ستة أشخاص فقط مصرعهم ، ولكن مائتي ألف شخص فقدوا مساكنهم (٨٤) . ودمرت معظم المكتبات واحترق من الكتب

ما قيمته ١٥٠ ألف جنيه . وقدر مجموع الخسائر والأضرار بنحو ٠٠٠ ر ٧٣٠ ر ١٠ جنيه (٨٥) ، وهو ما ربما يعادل اليوم ٥٠٠ مليون دولار .
وإمد الكارثة نظم المجلس البلدى فى لندن إدارة للمطافئ ، وركبت خراطيم الماء فى أنابيب الماء الرئيسية . وكان على كل شركة أن تعين بعض أعضائها ليكونوا على أهبة الاستعداد لتشغيلها لدى مماع أى انذار ، وكان على كل العمال أن يحذوا حذوهم إذا استدعاهم عمدة المدينة . وأعيد بناء لندن فى شىء من التمثل ، على طراز أمتن وأقوى ، وإن لم يكن أجمل من ذى قبل . وبأمر من الملك حل الطوب والحجر محل الخشب ، واختفت الطوابق العليا النائية ، وأصبحت الشوارع أوسع وأكثر استقامة ، ورصفت بالحجر الساس الأملس ، وخصصت الطوارىء للمشاة . وتحسنت الرماية المحمية . وقضت النيران على كثير من الأقدار والقيران والبراغيث والجرائم فتخاضت لندن من الطاعون ، وجدد المهندس المهارى « رن » بناء كنيسة سانت بول .

٤ — الفن والموسيقى ١٦٦٠ - ١٧٠٢

ولد كرسٲوفر رن Wren فى أحضان الدين ، ورضع لبان العلم ، وتوجه بالفن . كان أبوه كبير كهنة وندسور ، وعمه أسقف الى Ely ، والتحق بمدرسة وستمنستر ، ثم كلية وادهام فى « أكسفورد » وفى ١٦٥٣ حصل وهو فى الحادية والعشرين على منحة لمتابعة الدراسة فى كلية « جميع النفوس » . ثم أصبح فى سن الخامسة والعشرين أستاذاً للفلك فى كلية جريشام فى لندن ، وفى سن التاسعة والعشرين شغل « كرسى » « سافيل » للفلك فى أكسفورد . وبدأ أنه وهب نفسه للعلم ، فقد سحرت له الرياضيات والميكانيكا والبحريات والأرصاد الجوية والفلك . فقوم السيكلويد (وجد أن الخط للمستقيم مكافئ لانحناء السيكلويد) . وشرح قوانين التصادم ، ونسب إليه نيوتن كثيراً من التجارب التى أدت إلى وضع قوانين الحركة الثلاثة (٨٦) . وعمل بمجد على تحسين التلسكوب وصقل

المدسات وبحث في دوائر زحل . وابتكر طريقة لتحويل الماء للمالح إلى ماء عذب ، وأدى من أجل بويل أول عملية حقن للسائل في مجرى الدم في الحيوان . وأثبت أن الحيوان يمكن أن يعيش بسهولة بعد إزالة طحال . واشترك مع توماس ولس Willis في تشريح المخ . وأعد الرسوم اللازمة « لتشريح ولس للمشهور » وكان من أوائل أعضاء « الجمعية للملكية » وهو الذي كتب مقدمة ميثاقها . وما كان أحد ليحلم أنه سيغلب في التاريخ على أنه أعظم مهندس معمارى انجليزى .

أن الظروف قد تغير مجرى الحياة . وربما كانت مهارة رن في الرسم هي التي حدثت بشارل الثانى إلى تعيينه مساعدا لسير جون دهنام (١٦٦١) رئيس للمساحة في الأشغال العامة . وسرعان ما وجد في المهارة ذلك التزاوج بين العلم والفن ، أى اضفاء الجمال على الحقيقة ، وهذا هو ما كان يشغل كل تفكيره . وكتب يقول : « هناك لونا من الجمال : الجمال الطبيعي والجمال المألوف أو العادى المتعارف عليه . والجمال الطبيعي تأتى لنا به الهندسة ، أما الثانى ، الجمال المألوف ، فإنه يتأتى من ترويض حواسنا على الأشياء التي تبعت السرور والبهجة عادة . . . في نفوسنا ولكن المعيار الحقيقي دائما هو الجمال الطبيعي أو الجمال الهندسى (١٧) » . فالشئ الصحيح هندسيا ، كما يرى رن ، يسرنا هو نفسه ، ويكون جيلا (أحد الجسور الكبرى في العالم مثلا) . ومن هذه الزاوية أثر العمارة الكلاسيكية على العمارة الفوطية . وفي تصميماته الأولى ترسم خطى اينجو جونز .

وفي ١٦٦٣ وضع تصميم مسرح شلدون في أكسفورد لأستيف جابرت شلدون ، وهما منذ البدايه ، اتبع مبادئ « كلاسيكية » . فرفع المسرح الدأرى الضخم ، على نفس الطراز الذي وضعه فتروفوس في قديم الزمان وفيينولا في عصر النهضة . وساعدت إقامته الطويلة في فرنسا ١٦٦٤ - ١٦٦٦ على ترسيخ ميوله الكلاسيكية . ولكن إعجابه بكنيسة فرانسوا مانسارت في فال - دي - جراس ، جنح به إلى إضافة شئ من زخارف الباروك إلى

واجهات مبانيه . كما أنه تذكر قبه فال - دي - جراس ، وهو يعيد بناء كنيسة سانت بول .

وحادرن إلى لندن في مارس ١٦٦٦ . وفي أبريل ، بناء على طلب الأسقف شلدون وضع خطة لإصلاح الكاتدرائية المتداعية ، التي ساخت من العمر آنذاك نحو ٦٠٠ عام . وفي ٢٧ أغسطس وافقت لجنة إصلاح كنيسة سانت بول على مشروع رن . ولم يعض على ذلك أسبوتان حتى دمر حريق لندن التاريخي الكنيسة ، وجرى الرصاص الذي أذاخته النيران من سقفها في الشوارع .

أن هذا الحريق الذي أتى على ثلثي العاصمة هياً للعمارة فرصة لم تتح لها منذ حريق رومه . وكانت النيران لاتزال كامنة تنفث الدخان حين عرض رن على شارل ، الثاني مشروعه الرائع لإعادة بناء المدينة . وقبل الملك المشروع ، ولكن أعوزه المال اللازم له ، كما أن المشروع تعارض مع حقوق الملكية القوية . وشغل رن نفسه بمشروعات أخرى ، وأعد في ١٦٧٣ نصميما لكنيسة سانت بول جديدة . ولكن رجال الكاتدرائية اعترضوا بأن التصميم تبدو عليه سماء معبد وثني ، وحثوا رن على التزام الطراز القوطي في الكنيسة العتيقة ، ووافق كارها على حل وسط ، بحيث يكون الداخل عبارة عن أقواس وجناح من الكنيسة ومكان خاص بالمرتلين ، وكلها على الطراز القوطي ، على أن تكون الواجهه من طراز عصر النهضة : مدخل ذو رواق معمد وقوصرة كلاسيكية وبرجان من طراز الباروك . وكانت النتيجة خليطاً كريه المنظر من الطراز ، ولو أن رن أصلح منه بعض الشيء بتتويج الجزء الداخلي بقبة تنافس قبة برونلسكي في فلورنسة وميسكلاً نجلو في رومه وستظل سانت بول أروع كنيسة شادها البروتستانت

وعلى حين مضى هذا المشروع في طريق التنفيذ لمدة خمسة وثلاثين طاماً ، فإن رن الذي خلف دنهام في تولى شئون المساحة العامة ، وضع تصميميما

لثلاث وخمسين كنيسة أخرى . اشتهر كثير منها بأبراجها وقعها المستدقة التي جمعت بين حاسة الجمال عنده وبين نزعته الرياضية . أضيف إلى هذا دار الجمارك في لندن ، والمستشفى في كل من جرينتش وشلس ، والسكنائس الصغيرة في كلية بمبروك في كمبردج وترينتي كولدج في أكسفورد ، ومسكنه ترينتي كولدج في كمبردج والجناح الشرقى السكلاسيكى في قصرها مبيتون كورت ، وستا وثلاثين داراً نقابية ، وعددا من الدور الخاصة بل يبدو أنه في الأربعين عاما الأخيرة من القرن السابع عشر . لم يشيد مبنى له قيمته وأهميته ، إلا كان رن هو المهندس الذي تولاه (٨٨٠) واحتفظ رن بمنصبه في المساحة طوال حكم شارل الثانى ، وجيمس الثانى ، ووليم ومارى ، وآن . وتقاعد عن العمل فى سن السادسة والثمانين ، ولكنه ظل لخمس سنوات أخرى يشرف على العمل فى كنيسة وستمنستر ، وينسب بعضهم إليه فضل إقامة أبراجها ، وفارق الحياة فى سن الحادية والتسعين ، ودفن فى كنيسة سانت بول .

وكان فن النحت لا يزال يتجلى فى انجلترا . واسكن . الحفر على الخشب كبان فذا رفيعاء وكان جرنلنج جيبونز معاوننا له قيمته للمهندس رن ، قام بمحفر المقاعد فى المكان المخصص للمرتلين وصندوق الأرغن الفخيم فى كنيسة سانت بول ، والزخارف فى قصر وندسور وقصر كنسنجتون وهامبتون كورت .

واستمر فن الرسم فى انجلترا على أن يستقدم الأساتذة ويثبط . من همم بنيه . وعلى الرغم من ذلك ، كان بعضهم يعد جون ربلى أعظم رسام لصور الأشخاص فى فترة عودة الملكية وأدرك جون أن الوجه المدروس الذى يرسم فى روية ، هو فى ذاته سيرة حياة ، فاستطاع أن يقرأ خطوطه ، وفى بصيرة نافذة كشف فى ثناياه عن خفاياه وأسراره وأبرزها فى شجاعه غير مريحه . وكاد تعليق شارل الثانى على صورة رسمها له ربلى يكون سببا فى انهيار الفنان ودماره ، حين قال الملك : « أهذه صورتى ؟ يا خليبه الأمل ،

اذن أنا رجل قبيح المنظر ، ومضى زمن طويل قبل أن تدرك الحاشية أن هذا كان مجرد تحية عفوية لأمانة القنآن . وبنفس الدقة والأمانة أخرج ديلي صور للملك الأحق جيمس الثانى ، وادموند وإلر الشاعر المرتد ، وارل آرونديل الأرسنقراطى التافه المختال . ولكنه حين رسم كرسنوفرون وربرت بويل ، وقع على العبقرية ووضع يده على إماراتها فى الوجه ، وعلى بريقها فى العينين . قال هوراس وولبول « ربما كان فى مقدور ديلي ، بربع غرور سيرجودفوى نلر ، أن يفتح العالم بتموقعه وممونه (٨٩) . وفارق الحياة فى ١٦٩١ وهو فى سن الخامسة والأربعين .

وكان لى الهولندى وتلى الألمانى فارسى الحلبة المرموفين فى رسم الأشخاص فى عصر آل ستيوارت الثانى . وكان والد لى جنديا هولنديا اسمه فان در فاس . (واشتق لقبه هذا (لى) من زبقة كانت مرسومة على داره . واهدر اللقب إلى الإبن . ولد بيتر فى وستفاليا ١٦١٨ ، ودرس الرسم فى هارلم ، وعبر البحر إلى انجلترا (١٦٤١) حين سمع أن شارل الأول أوتى الذوق والمال ، ووفق فى أن يخلف فانديك بوصفه مصور الأشخاص الذى يبتغيه الناس ، وظل محتفظا بمسكاته هذه على عهد كرومول وشارل الثانى ، واقتبس لى أسلوب فانديك فى اضفاء الأناقة والرشاقة على الجالسين أمامه (لرمهم) . ولو فى اللباس فقط . وحاصرته ربات الجمال فى الحاشية ، من ذلك أننا نرى فى قاعة المتحف الوطنى لوحة لى جون ريانة حاتنة داعة . وكوثس شروزبرى التى ساءت سمعتها ، بمماراتها الغرامية كما نرى على جدران قصر هامبتون كورت ليدى كاسلبن ولويزدى كير ووال ، تزدهيان بمحلات أندائهما . وأجل من ذلك جون تشرشل وهو طفل مع أخته (٨٩) أزابللا (٩٠) ومن الذى كان يتوقع أن يصبح هذا الطفل للملائسكى والطفلة الملائسكية دون مالبرو القوى الجبار ، والعشيقة التى تصعب زحزحتها لجيمس دوق يورك ؟ . وعن طريق مثل هذه اللوحات حصل لى على لقب فارس ، وجمع ثروة . فقد جلس أمامه شارل الثانى وستة من الأدواق

ارسمهم . ورأى بيبز أنه جبار معتد بنفسه .. يحظى بمنزلة رفيعة (٩١) « ، وكان يعيش « عيشه مترفه باذخه (٩٢) » وحدد له موعدا للقاءه بعد ثلاثة أسابيع .

وفي ١٦٧٤ ، أى قبل وفاة لى بست سنوات ، قدم إلى لندن رجل ألماني عقد العزم على أن يخلف سيربيتر (لى) فى رسم الأشخاص وفى كسب المال وفى الفروسية ، وحقق الرجل برنامجه وكان الرجل ، وهو جوتفريد فون نلر ، آنذاك فى الثامنة والعشرين ، وعينه شارل الثانى « مصور البلاط » واحتفظ نلر بهذا المنصب فى عهد جيمس الثانى ووليم الثالث الذى منحه لقب فارس ، ورسم سير جودفرى لوحات لثلاثة وأربعين من أعضاء « نادى كيت كات » ذى المسكافة السياسية البارزة (٩٣) ولعشر من النساء الخطيرات المغويات فى بلاط وليم (٩٤) . وغطى على شهرة دريدن ولوك . ومثلما يتلطف أى إنسان على الخلود ، حول نلر رسمه الفخم إلى مصنع ينتج بالجملة ، بهيئة لم يسبق لها مثيل من المساعدين ، يتخصص كل منهم فى شىء معين : الأيدي ، الثياب الأشرطة والخطوط المونة . وفى بعض الأحيان جلس أمامه أربعة عشر شخصا فى يوم واحد . وشيد قصر فى الريف ، وتنقل بينه وبين بيته فى المدينة فى عربة تجرها ستة جياد . واحتفظ بحياته فى كل التقلبات السياسية . وفاضت روحه وهو فى فراشه معززا مكروما فى سن السابعة والسبعين (١٧٢٣) وفى تلك السنة ولد ربنولدز ، وكان هوجارت فى السادسة والعشرين من العمر ، وبدأ الرسم الوطنى . يترعرع ويشقى طريقة .

وقضى البيوريتانيون تقريبا على الفن ، ولكنهم لم يخرسوا الموسيقى . ولم يخل من الآلات الموسيقية إلا أحقر البيوت ، ولحظ بيبز وجود الهذراويه (آلة تشبه البيان الصغير بدون قوائم) فى كل قارب من ثلاثة من القوارب التى تحمل البضائع المنقذة فى التيمز أثناء الحريق (٩٥) ، وكتب يقول : « لا بد أن أفسح المجال للموسيقى والنساء مهما كنت مشغولا » .

وكان يورد ذكر صفاته ومزهره وعوده وقيثارته . قدما يذكر أسلحته (٩٦) وكل إنسان ورد ذكره في مذكراته ، كان يعزف ويغنى . وكان من القضايا للمسلم بها عنده أن أصدقاؤه كان في مقدورهم أن يشاركوا في الغناء (٩٧) ، وأنه هو وزوجته وخداماتهم كانوا يغنون في حديقته غناء متناغما ، بشكل مقبول إلى حد أن جيرانهم كانوا يفتحون النوافذ ليستمعوا إليهم .

وفي الابتهاج بعودة الملكية صدحت الموسيقى من كل شكل ولون . واستقدم شارل الموسيقيين من فرنسا . وسرعان ما جعل الناس يدركون أنه كان يهذب الألحان الرخيمة المبهجة الواضحة التي لا تحسب الرياضيات تناسقا أو تناغما . ووضعت آلات الأرغن من جديد ولعلت في الكنائس الرسمية . وكان الأرغن الذي صمم لكنيسة سانت جورج في وندسور ، وللكاتدرائية في أكستر ، من بين عجائب الدنيا التي أحدثت دوبا في ذاك العصر . ولكن حتى في جماعه المنشدين في الكنيسة حل محل الوقار والرهبة ، عروض مسرحية من فنانين والآلات المنشدين المنفردين . وأمر شارل الثاني وجيمس الثاني بإعداد الموسيقى للشعر الغنائي وحلقات الرقص التي تقام احتفالا بالمناسبات الملكية . واستخدمت الكنائس الموسيقى لقاء أجره ، وجازفت المسارح بالأوبرا ، وبدأ الملحنون والمغنون الانجليز يرتزقون من جديد .

وفي ١٦٥٦ أقنع سير ولیم دافانت حكومه الحماية لترخص له في إعادة افتتاح مسرح ، على أساس أنه سيخرج أوبرا ، لاروايه وفي « حفلة الأيام الأولى » التي مثلها لم يسكن هناك أوبرا بقدر ما كان هناك سلسلة من الحوارات سبقتها وتخللتها وأعقبها الموسيقى . ولكن في العام نفسه عرض دافانت في مسرحه الخاص « رتلندهاوس » أول أوبرا إنجليزية « حصار رودس » (٩٨) ، ولكن إغلاق المسارح بسبب الطاعون والحريق ، عوق هذه التجارب . على أنه في ١٦٦٧ عرض دافانت المغامر ، في صورة

صوره موسيقية معدلة « العاصفة » التي زعم أنها من عمل أبيه . وحددت أوبرا بورسل « ديدو وإينياس » بداية الأوبرا الكاملة في إنجلترا .

وكما هو الحال غالباً في تاريخ الموسيقى ، فإن عبقرية هنري بورسل كانت في معظمها نتاج وراثية اجتماعية — أي بيئة سن المراهقة . فكان أبوه رئيس المرتلين في وستمنستر ، وكان عمه يشغل وظيفة « ملحن القيثارات لصاحب الجلالة » . وكان أخوه ملحنًا وكاتبًا مسرحيًا . وتابع ابنه وحفيده عمله في العزف على الأرغن في الكنيسة . أما هو فلم يمتد به الأجل لأكثر من سبعة وثلاثين عاماً (١٦٥٨ — ١٦٩٥) ، وتولى الترتيل في الكنيسة الملكية وهو لا يزال صبياً ، حتى ضعف صوته . وألف في شبابه ترايم دينية ظلت تسمع في الكاندراتيمات الإنجليزية على مدى قرن من الزمان ؛ وألحانه الإثني عشر من نوع السوناتة (١٦٨٣) لقيثارتين أو لأرغن وبيان قيثاري ، هي التي جلبت شكل السوناتة من إيطاليا إلى إنجلترا ، ويقول بيرني أن أغانيه وترايمه والكانتاتنا (قصه تنسدها المجموعة على أنعام الموسيقى من غير تمثيل) وموسيقى الفرقة التي ألفها « فاقت إلى حد بعيد كل ما أنتجته أو استوردته بلادنا من قبل ، إلى حد يبدو معه أن سائر الألحان الموسيقية باءت بالاحتقار أو لاذت بزوايا النسيان » (٩٦) .

ولما كان بورسل منهمكاً في عمله ، عازفاً على الأرغن واملحناً ، فإنه لم يتيسر له أن يخرج « ديدو وإينياس » (٩٥) قبل ١٦٨٩ ، لنخبه مخفارة من المتفرجين ، في إحدى مدارس البنات في لندن . وتبدو الموسيقى لنا الآن ، حتى الاستهلال المشهور ، هزيلة نحيلة ، ولكن يجب أن نتذكر أن الأوبرا كانت آنذاك في المهد ، وأن جمهور المستمعين آنذاك لم يولع بالوضوء والصخب مثلنا اليوم . أما اللحن الأخير — عويل ديدو ونواحها : « عندما

(٩٥) في الأساطير الرومانية — ديدو أميرة صور إلى أسست قرطاج وأصبحت ملكة عليها ، وتقول انيادة فرجيل ، أنها رحبت بأينياس حين قدم إلى قرطاج . بعد سقوط ترواده ، ووقعت في شرك غرامه ، ثم قتلت نفسها حين غادرها .

أتوسد الثرى » فإنه من أكثر ما يهز المشاعر ويؤثر في النفوس ، من الحنان في تاريخ الأوبرا بأسره .

أما « الملك آرثر » (١٦٩١) التي كتبت كلماتها دريـدن ووضع موسيقاها بورسل ، فليست أوبرا بالمعنى الكامل ، حيث يبدو أن الموسيقى لم تكن مرتبطة إلا ارتباطا يسيراً بحجج الرواية أو أحداثها ، مثلما أن الرواية لم يكن لها صلة وثيقة بمصر آرثر كما نراه في مالورى وتينسون . وبعد ذلك بعام واحد ، أحرز بورسل تقدما أكثر في موسيقى ثانويه لروايه « فيرى كوين : الملكة الجنية » ، وتكييف مجهول الاسم « حلم ليله منتصف الصيف » . ولم يمتد به الأجل ليشهد إخراجه ، وضاعت الألحان ، ولم تكتشف إلا في ١٩٠١ وهي الآن تعد من أحسن ما أنتج بورسل .

وفي ١٦٩٣ وضع أكثر قصائده الغنائية الكثيرة ، أحكاما واتقانا ، في الاحتفال بيوم سانت سيسيليا . ولكن أرق هذه القصائد هي « تسبيحة الشكر والابتهاج » المرحه ١٦٩٤ . وكانت تعزف سنويا في الإحتفال « بأبناء رجال الكنيسة » حتى ١٧١٣ ، حتى اشتركت في هذا الشرف مع مقطوعة هاندل « تسبيحة الشكر من أوترخت » ، فكانتا تعزفان بالتبادل سنويا حتى ١٧٤٣ . ومن أجل جنازة الملكة ماري ١٦٩٥ ، ألف بورسل ترتيلة مشهورة « يا ربنا : أنت أعلم بخفايا قلوبنا » . وفي سنواته الأخيرة اسهم في الموسيقى الثانويه لروايه دريـدن « الملكة الهندية » ومن الواضح أنه مرض قبل أن يتمها لأن موسيقى الخاتمة وضعها أخوه دانييل ، وحانت منيته ، ربما بسبب السل ، في ٢١ نوفمبر ١٦٩٥ .

وعلى الرغم مما امتلأت به فترة عودة الملكية من حيوية ونشاط ، فإن الموسيقى الانجليزية لم تكن قد أفاقت بعد من نكستها على يد البيوريتانيين بعد عهد إليزابث . وبدلا من ترسيخ جذورها ثانية في التربة الانجليزية ، حدث حذو للملك ، فانحنت إجلالا وإكباراً أمام الأساليب

الفرنسية والآلات الإيطالية. وبعد أوبرا « ديدو وإينياس » غزت الأوبرا الإيطالية مسرح الأوبرا الانجليزي ، بتقديمها مغنون إيطاليون . كتب بورسل في ١٦٩٠ « ان للموسيقى الانجليزية لم تبلغ بعد سن الرشد إنها طفل تواق طموح يبشر بما يمكن أن يكون عليه في المستقبل ... إذا وجد أساتذته مزيدا من التشجيع (١٠٠) » .

٥ - الأخلاق

فلنبدأ لفورنا هنا بالتفريق بين عامة الشعب وأبناء الطبقات العليا ، فالاستهتار الجنسي الذي صاد فترة عودة الملكية ، سرى عن طريق الحاشية إلى الطبقة الوسطى العليا وسكان المدن وما حولها الذين ترددوا على المسارح وربما كانت أخلاق العامه للمغمورين أفضل منها في عصر الزنا ، لأن النظام الاقتصادي أبقاهم على اعتدالهم وبعدمهم عن السرف ، فلم يكونوا يملكون الوسائل التي يتردون بها في مهاوى الرذيلة والشر ، وظلوا يحسون بوازع من عقائدهم البيوريتانيه . ولكن في لندن ، وبوجه أخص ، في الحاشية للملكية ، فإن التحلل من القيود البيوريتانيه ورد الفعل الناتج عن ذلك ، أدبا إلى اتصال جنسى غير مشروع ومرح صاحب غير برى . أما الشباب الارستقراطي الذي اقتلع من أرض الوطن وأطلق لنفسه العنان في فرنسا ، فقد ترك أخلاقه ورائه في المنفى ، وأتى معه لدى عودته بضروب من القوضى الموسومة بالرشاقة والظرف ، وانتقاما منهم للسنوات التي عانوا فيها عنت الظلم والحرمان والسلب والنهب ، شنوا بكل ما أتوا من قوة وذكاء ، الحرب على زى البيوريتانيين وحديثهم ولا هوتهم ومبادئ الأخلاق عندهم ، إلى حد لم يجرؤ معه واحد من أبناء طبقتهم أن ينبس ببنت شفه من أجل الحشمة والوقار . وباتت الفضيلة والتقوى والأمانة الزوجية كلها ألوانا من البراءة أو السذاجة الريفية وأصبح الزانى الذي يوفق كل التوفيق في هذه الرذيلة ، هو بطل عصره وفريد زمانه ، (كما هو الحال في رواية وتشير لى : الزوجة الريفية) والواقع أن الديانة فقدت مسكاتها

واعتبارها بين الناس ، ولم يبق لها شيء من هذا إلا عند الحرفيين والفلاحين . وصار الوعاظ موضع الإحتقار والازدراء على أنهم منافقون كثيرون أغبياء مزعجون يملون ثقال الظل . وأصبحت الديانة الوحيدة الصالحة للسيد المأجد هي الأنجليكانية المهدبة التي يحضر فيها اللولى (رب العمل أو مالك الأرض) صلاة الأحد لتدعيم مركز القسيس الذي يزرع الخوف من نار الجحيم في نفوس القرويين ، ويسبج بالحمد والشكر ، في إيجاز مناسب ، من جانب المنصة التي يجلس إليها اللولى أو سيد القرية . وأصبح أقرب إلى طابع العصر أن يكون المرء ماديا على مذهب هوبز ، لامسيحيًا مثل ملتون ، الأحمق المعجوز الأحمى الذى نظر إلى سفر التكوين على أنه تاريخ ، وفقدت نار الجحيم التي بولغ فيها في العشرين سنة الماضية ، رهبتها وهيبتها لدى طبقات للمالكين . أما اللجنة في رأيهم ، فهي ماثله دوما في مجتمع متحرر من الثورة الاجتماعية والسكبت الخلقى في ظل حاشية وملك ضربا للثل وتقدما الركب في الفسق والفجور والميسر واللهو والعبث .

وكان نمة عدة رجال أفاضل ونساء فضليات بين أفراد البلاط للملكى ، وكان كلارندن مثلاً رجلاً ذا مبادئ وسلوك قويم حتى سارت ابنته في طريق الغواية فاهتاج وفقد صوابه ، وأوصى بقتلها وتحلى أول سونميتون الرابع ودوق أورمند الأول بالحشمة والوقار ، وكان بين رجال الدين الأنجليكانيين نفر من المخلصين الأتقياء ، حتى من الأساقفة أو ذوى المراتب الكنيسة العالية . وصدقت عزيمة الملكة وليدى فالهو والآنسة هملتون ، أو السيدة جودولفين فيما بعد ، في التمسك بأهداب الفضيلة . وبقينا كان هناك أفراد غير هؤلاء وهؤلاء ، ضاعت ذكراهم في ثنايا التاريخ لأن الفضيلة لا تعلن عن نفسها .

وكلماء علت المسكانة أنحطت الأخلاق . فهناك جيمس ، دوق يورك ، شقيق الملك ، الذى يبدو أنه يز الملك في حصته من الخليلات العشيقات (١٠١) . وبينما هو في المنفى تسال إلى مخدع آن هايد ابنة قاضى القضاء ، فلما حملت

منه توسلت إليه أن يتزوجها ولكنه كان يماطل ، وأخيراً وقبل أن تضع وليدها بسبعة أسابيع (٢٢ أكتوبر ١٦٦٠) اتخذ منها زوجة شرعية سرّاً . وعندما سمع أبوها (كلارندون) نبأ هذا الزواج ، كما تروى سيرته حياته (١٠٢) احتج لدى الملك بأنه لم يعلم شيئاً عن هذا الاتفاق ، وأنه « كان يؤثر أن تكون ابنته خليله الدوق لزوجته ، وأنهما إذا كان حقا قد تزوجا » فينبغي على الملك أن يزوج بالمرأة في السجن فوراً ، وأن يصدر في الحال قرار من البرلمان بقطع رأسها ، وأنه لن يوافق على هذا القرار فحسب ، بل سيكون عن طيب خاطر أول من يقترحه . « وهز الملك كتفيه استهجاناً للموضوع على أنه هراء لا غناء فيه ، وكأنه يسمع جمعجة ولا يرى طعناً ، وربما أدرك قاضي القضاة أن الملك لن يلزمه بكلمته . وتحدث في صرامة وتجهّم ، على الطريقة الرومانية ، ليموض صمائر من ريبه في أنه رتب أمر الزواج من قبل ، ليجعل من ابنته ملكة على أن ابنته آن ماتت بالسرطان في ٢٦٧١ ، في سن الرابعة والثلاثين .

واتخذ جيمس ، بينما كانت زوجته (آن) تمنى مشاكل الأمومة ، من أرابللا تشرشل عشيقه له ، وهي التي إرتضى أخوها هذا الوضع حتى يحظى بالترقى في مناصب الجيش . ورغبة في معاونة آن وأرابللا والتخفيف عنهما اتخذ الدوق بضع خليلات أخريات لمضاجعته واستاء إيفلين بصفه خادمه من من سلوكه الشائن مع ليدى دنهام (١٦٦٦) (١٠٣) . ولم يغير تحول جيمس إلى السكثلكة من خلقه شيئاً . فكان كما كتب بيرنت « دائم التنقل من غرام إلى غرام دون أن يحسن الاختيار ، حتى قال الملك يوماً أنه يعتقد أن القساوسة هم الذين يقدمون له المشيقات عقوبة يكفر بها عن ذنوبه (١٠٤) » ودامت علاقته بأرابللا نعمة عذبة من الأرغن ، وسط هذا التنقل بين مطارح الهوى ، وبقيت بعد موت آن ، وبعد زواج جيمس (١٦٧٣) من ماري مودينا .

وينبغي علينا أن نضيف إلى ما ذكرنا ، أن دوق يورك نفسه كان يتعلى بمناقب تدعو إلى الإعجاب ، فإنه — وهو أمسير البحر

(١٦٦٠ — ١٦٧٣) ، بذل أقصى الجهد في التغلب على سوء النظام والفساد في البحرية ، نتيجة لضآلة الأجور والمؤن التي تصرف لرجال البحر وتدريبهم الهزيل ، وأبدى مهارة وشجاعة في اشتباكات مع الهولنديين . ونهض بمهام الإدارة في مقدرة واخلاص . ولم تشب أية شائبة قط اخلاصه العميق لأخيه الملك ، بل انتظر صابرا طيلة ربع قرن من الزمان قبل أن يخلفه على العرش . وكان صريحا مخلصا يسهل الوصول إليه ، ولكنه كان شديد السكاف بمكانته وسلطانه إلى حد لم يكن معه شعبيا ، وكان صديقا بقيم على الود ، وعدوا عنيدا لا يغتفر الاساءة . وكان ذا جلد على العمل الشاق ولكنه لم يكن متوقفا الذكاء . وكان يأبى النصيح والمشورة أبما إياه .

وكان يحتل المركز الثاني في البلاط ، جورج فليبردوق يكنجهم الثاني . وكان ابن محظية جيمس الأول التي لقيت حتفها ، ومن ثم قاتل إلى جانب شارل الأول في الحرب الأهلية ، ومع شارل الثاني في وورستر ، وعينه الملك الذي استرد العرش عضوا في مجلسه الخاص وكان بارعا ذكيا أنيسا كريما ، ولذلك سيطر في البلاط بسحره وفننته لبعض الوقت ، وكتب « ملهارة » رائعة . « التجربة » ، وتلهى بالكيمياء القديمة والعزف على القيثارة إلى حد ما . ولكن وجهه ورائه جلبا عليه الدمار . انه تنقل من امرأة إلى أخرى ، وانغمس في عبث مخز شائن . وبدد ضيعته الهائلة . وكان يتوق إلى الظفر بكونتيس شروزبرى ، فتحدى زوجها لمبارزته ، وتنكرت هي في زى خادم ، وأمسكت بجواد بكنجهم أثناء المبارزة ، وصرع بكنجهم السكونت ، وطانقت الأرملة السعيدة الدوق المنتصر الذي كان لا يزال مفرجا بدم زوجها ، وطادا ظافرين إلى قصر الفريسة (١٠٥) . وعزل بكنجهم عن منصبه (١٦٧٤) ، وانصرف إلى اللهو والعبث ، ومات فقيرا معدما يحمله الخزي والعار .

وكان ينافس بكنجهم في المسكانة والذكاء والقصف والعربة والانحلال

جون ولوت أرل روشستر الثانى ، حصل جون على درجة الأستاذية من أكسفورد فى سن الرابعة عشرة (١٦٦١) وهو أمر لا يصدق ، وإلتحق بالبلاط فى السابعة عشرة . وأصبح المشرف على حجرة الملك . وكان فى حاجه إلى المال وهو فى سن التاسعه عشرة ، فتودد إلى وريثه ثرية تباطأت فى تحقيق بغيته ، فاخطفها ، ومن أجل ذلك زج به فى السجن ، فرق قلبها له ، ثم حظى بالزواج منها ، ثم بثروتها ، وكم من مرة أبمدته شارل عن الحاشية وأطاعه إليها ، مستسيغا فطنته وذكائه . وكان روشستر - مثل بكنيجهام - خبيرا فى التقليد والمحاكاة ، وكان يسر بالتنسك فى زى جمال أو متسول أو تاجر أو طبيب ألمانى ، وكان يوفق فى هذا التمثيل والمحاكاة إلى حد ضلل أو خدع معه أوثق أصدقائه صلة به . وزعم بوصفه طبيبا أنه يبرىء من الأدواء المستعصية عن طريق علمه بالتنجيم . وجذب إليه مئات من المرضى ، وشفى عددا منهم ، وسرطان ما قصدت إليه سيدات البلاط لملاجهن . وعجز أولئك الذين عرفوه حق المعرفة ، عن التعرف عليه (١٠٦) وفى كل هذه التنسكات تقريبا كان يطارد السيدات ، دون أى اعتبار لمكانتهن . وكن هن يتعقبنه كذلك . وتسلى جون بكتابة قطع من الهجاء البذىء الداعر . وقضى على حياته بالخر والفجور . وكان يفخر بأنه كان تملأخجورا لمدة خمس سنوات بلا انقطاع - ومات فقيرا نادما فى سن الثالثة والثلاثين .

وكان فى الحاشية رجال كثيرون من أمثال ولوت ، حتى أن يبذ نفسه ، وهو غير هاو للزنى تسائل : « ماذا ستكون نهاية كل هذا الشراب وهذا السباب وهذه العلاقات الغرامية الفاجرة (١٠٧) » . وعبر بوب عن هذه الحالة فى « بحث فى النقد » ، واسكنه لم يذصف الملك كل الإنصاف ، فهو يقول :

« إذا كانت المهمة الهينة اللينة للملك هى المشق والغرام ، فقلما نراه فى مجلس الحكم ، ولا نراه أبدا فى ساحة الوغى ، فان الدولة يحسكها النساء الحائثات بالعهد اللأئى يتنقلن من حب إلى حب ، أما رجال الدولة والسياسة فيكتبون للمسرحيات الهزلية الساخرة ولا يستفاد بذوى اللواهب ،

والقوربات الشبان الياقعون خلو من الذكاة والفتنة ، ولم تعد للروحة المتواضعة المحترمة ترفع ، وعلت الابتسامة وجوه العذارى لما كانت وجناتهن تحمر له حياه وخجلا من قبل (١٠٨) .

وكان من الأمور للمسلم بها أن الزوجات — مثل الأزواج — تموزهن الأمانة والاخلاص ، فان الرجال لم يتطلبن الأمانة والإخلاص إلا في عشيقاتهم (١٠٩) . إن مذكرات كوت فيليبرت دى جراموت التي دونها بالفرنسية أخوزوجته ، أنطوني هلمتون ، كانت ، أحيانا ، عبارة عن قائمة بالمفرورين المختالين ، أو سلسلة من الديوثين الذين لا يغارون على زوجاتهم وهم يعلمون انهن يأتين الناحضة ، كما رأى الكونت في منفاه السعيد في بلاط شارل الثاني .

وكم كانت الساعات تقضى وتخصص للرقص وسباق الخيل وصراع الديكة ولعب البليارد والورق والشطرنج ، والألعاب الأرضية والحفلات التنكرية المرحية ، ثم كما يقول بيرنت « يطوف الملك والملكة وكل أفراد البلاط ، وهم جميعا متنكرون ، بالبيوت غير المعروفة ، حيث يرقصون ويعبثون ويلهون في صخب فاجر (١١٠) » وكانت المراهنات على مبالغ طائلة . يقول ايفلين « في هذه الليلة ، افتتح جلالة الملك الحلبة ، كما هي العادة ، فألقى « الزهر » بنفسه في القاعة الخاصة ، . . . وخمس مائة جنيه . (وكان قد كسب في العام الماضي ١٥٠٠ جنيه) . وأقبل السيدات كذلك على اللعب اقبالا شديدا (١١١) » وحذت الطبقات العليا حذو الحاشية في الفجار والدطارة . وتحدث ايفلين عن شباب انجلترا الفاسق الفاجر الذي فاقت إلى حد كبير دطارته للذهله ، حماقات سائر الأمم المتحضرة مهما كانت (١١٢) . وانتشر اللواط ، وبخاصة في الجيش . وكتب روشستر رواية عنوانها « سودومى » (نسبة إلى سودوم قرية قوم لوط) مثلت أمام الحاشية . والظاهر أنه كان في انجلترا عدد من المواخير لهذا الاختلاط الجنسى الشاذ (١١٣) .

وكان عدد الریجات القائمة على الحب يتزايد . وهناك أمثلة رائعه ، منها زواج دوروتى أو زيورن من وليم تمبل ، الذى ثبت أنه زواج سعيد ، ولو أن دوروتى كتبت تقول . « ليس الزواج القائم على الحب تصرفا معيبا ملوما ، إذا كنا لم نر من بين ألف من الزوجين الحبيين الذين يقدمون عليه ، زواجا واحدا يمكن أن يتخذ مثلا على أنه يمكن اتمامه دون ندم عليه فى المستقبل » (١١٤) . وكتب سويفت إلى سيدة شابة فى موضوع زواجها فتحدث عن الشخص الذى اختاره أبواها ليكون زوجها . وأضاف « أن زواجك كان قائما على الحكمة والحصافة والتدبر والشعور الطيب للتبادل ، خاليا من عوائق الانفعال السخيف فى الحب الرومانتيك » (١١٥) . ويذكر كلارندون : « إن رغبتى الأولى فى الزواج لم تتعلق إلا بضیعة ملائمة مریحه » (١١٦) .

ومن الناحیه النظرية كان للزوج كل السيطرة على زوجته ، كما يتحكم حتى فى الصداق الذى أتت به إليه . وفى كل الطبقات كانت مشیئة الزوج قانونا . وفى الطبقات الدنيا استعمل الزوج حقوقه المشروعه فى ضرب زوجته ، ولكن القانون حرم عليه استعمال عصا بمجاوز سمكها سمك ابهامه (١١٧) . وكان انضباط الأسرة أو نظامها قويا ، الا فى الطبقات العليا فى لندن ، حيث شك كلارندون من أن الوالدين ليس لهما أى سلطان على الأبناء ، كما أن هؤلاء لا يذعنون للأباء ولا يطيعونهم . بل « ان كل انسان يتصرف كما يحلوه » (١١٨) . وكان الطلاق نادرا ، ولكن يمكن اجازته بقرار من البرلمان . ورأى الأسقف بيرت — مثل لوثر وميلتون — أنه يمكن السماح بتعدد الزوجات فى حالات معينة ، وعرض هذه الفكرة على شارل الثانى ، بسبب عقم الملكة ، ولكن الملك رفضها ، تمحاشيا للتمادى فى اذلال زوجته (١١٩) .

وهددت الجريمة الأرواح والممتلكات بشكل مستمر . وكان اللصوص والشارلون يتجمعون فى عصابات ويسطون فى جنح الليل . وكانت المبارزة

محرمة بحكم القانون ، ولكنها بقيت امتيازاً للسادة الأماجد ، فإذا صرع مبارز غريمه وفقاً للقواعد ، نجا المنتصر عادة بسجن قصير مريح . وسعى القانون جاهداً ليكافح الجريمة عن طريق ما يبدو الآن عقوبات وحشية . ولكن ربما كانت الإجراءات الصارمة لازمة لغزو العقول المتحجرة أو المتبلدة . وكان التعذيب والموت عقوبة الخيانة العظمى . وكان الشنق عقوبة القتل أو الجنائية أو تزيف العملة . وكانت الزوجة التي تقتل زوجها تمحرق حية . أما السرقات الخفيفة فكانت عقوبتها الجلد ، أو قطع إحدى الأذنين ، وضرب أى فرد من حاشية الملك يعاقب بقطع اليد اليمنى . أما التزوير والخداع وغش الموازين والمقاييس فكانت عقوبتها التعذيب في المشهرة ، أحياناً مع دق الأذنين كليهما بالمسامير في آلة التعذيب ، أو ثقب اللسان بقضيب من الحديد المحمى (١٢٠) . وكان الناس عادة يستمتعون بمشاهدة مثل هذه العقوبات (١٢١) ، ويحتشدون ، وكأنهم في يوم عطلة ، ليشهدوا سجيناً على حبل المشنقة . وضمت السجون في عهد الملك السعيد عشرة آلاف سجين من أجل الديون ، وكانت السجون قدرة ، ولكن كان من الممكن أن يقدم الحراس بعض التيسرات مقابل رشوة . كانت العقوبات أشد صرامة وقسوة منها في فرنسا المعاصرة ، ولكن القانون كان أكثر تحرراً . ولم تكن في إنجلترا « أوامر مختومة » (لا لقاء أى شخص في السجن دون محاكمة) ، بل كان فيها نظام التحقيق في قانونية الاعتقال . إلى جانب نظام الملعفين .

وشاركت الأخلاقيات الاجتماعية في الانحلال العام . وتزايدت أعمال البر . ولكن ربما كان الواحد والأربعون ملجأ في إنجلترا مجرد وجه آخر لجشع الأقوياء ، وكان كل فرد تقريباً يعمد إلى الغش أثناء لعب الورق (١٢٢) ودب الفساد في كل الطبقات بمعدل أكبر من المستوى العادى . ومن مذكرات بيير تفوح رائحة الفساد في مختلف الأعمال ، في السياسة وفي البحرية وفي بيير نفسه . من ذلك أن المؤسسات والمصانع زادت في أسهمها دون زيادة مقابلة في رأس المال ، وزورت في حساباتها ، وتقاظت من

الحكومة أثماناً فادحة (١٢٣) . وكانت الاعتمادات التي يقرها البرلمان لأجيش أو الأسطول يتحول جزء منها إلى جيوب الموظفين ورجال البلاط . وباع موظفي الدولة — حتى ولو كانت رواتبهم كافية تدفع بانتظام — الألقاب والعقود والبراءات والتعيينات وأوامر العفو ، إلى حد « بات معه الراتب الأصلي يشكل الجزء الأصغر مما يدخل إلى جيوبهم » (١٢٤) . وأثرى كبار رجال الحكومة مثل كلارندون ودانبي وسندرلند — أثروا في سنوات قليلة واشتروا أو بضواياها لا تتناسب قط مع رواتبهم . وباع أعضاء البرلمان أصواتهم للوزراء ، بل حتى للحكومات الأجنبية (١٢٥) وفي القرارات انتزع مائتا عضو من صفوف المعارضة ، نتيجة لأن الوزراء اشتروا أصواتهم (١٢٦) . وفي ١٦٧٥ قدر أن ثلثي أعضاء مجلس العموم كانوا مأجورين من قبل شارل الثاني ، والثلث الباقي من قبل لويس الرابع عشر (١٢٧) حيث وجد العاهل الفرنسي أنه من الميسور أن يرشوا الأعضاء ليصوتوا ضد شارل إذا حاد بشكل مزعج عن سياسة البوربون . أما شارل نفسه فحكم من مرة تسلم أموالا طائلة من لويس ، حتى يلتزم الدوران في فلك فرنسا في السياسة أو الديانة أو الحرب ، وهكذا كان المجتمع الإنجليزي أكثر المجتمعات استهتارا وفساداً في التاريخ .

٦ — العادات

حاولت العادات أو أساليب الحياة هنا أن تعوض عن النقص في الأدب — كما في فرنسا — ، وأن تضفي كياسة متكلفة على الملابس المزركشة الأنيقة والأدب الفاجر ، والحديث الدنس . وكان شارل نفسه مثالا لأسلوب الحياة وتسرب إلى الطبقات العليا ما يجمل به الملك من ظرف ولطف ومجاملة وسحر وفتنة ، وترك كل أولئك بصماته على الحياة في إنجلترا . فتبادل الرجال القبلات عند اللقاء . وقبلوا يد المرأة إذا قدموا إليها . وفي لندن — كما كان في باريس — استقبلت السيدات الرجال في الفراش ، فكان هناك ضراحة

منعشة واحتقار للنفاق في الأدب وفي المسرح وفي البلاط . ولكن العراحة أطلقت فيضاً من الخشونة على المسرح وفي الحديث اليومي . وكانت البداية في إنجلترا بغير مثال . وفي هذا كان شارل من بين الشواذ الخارجين على القاعدة ؛ حيث كان لا يتجاوز في السباب « عبارة المفضلة Odds Fish » وكان البيوريتانيون الباقون ينادون بأنفسهم عن خش القول إلا إذا هاجوا خصومهم وسخروا منهم . أما السكويكرز فامتنعوا عن الخلف

وبز الرجال النساء في الأزياء الغربية ، من الشعر للمستعار المضمخ بالمساحيق لأجل التبرج ، إلى الجوارب الحريرية والأحذية ذات « الابرزيم » وكان الشعر المستعار بدعه أخرى مستوردة من فرنسا . وكان الفرسان والمختالون وغيرهم ، ممن كان شعرهم قصيراً ، أو ممن يخافون أن يخطئهم الناس على أنهم من البيوريتانيين ذوي الرؤوس المستديرة الذي كانوا يقصرون شعرهم قصاً قصيراً جداً ، تقول ان هؤلاء وهؤلاء كانوا يغطون قصر شعرهم بعمور أجنبية مستعارة . أما الرجال الذين أبيض شعرهم أو مال إلى الشيب فقد وجدوا في الشعر المستعار وسيلة ناجحة لاختفاء أعمارهم . وكان كل الرجال تقريباً يملقون اللحي آنذاك . وكان هذا الشعر المستعار يصلح من شأن بشرة الملك الأسبانية وأمنه الضخم . وجعل يبرز من أول شعر مستعار وضعه مسألة خطيرة ، ورتى لشعره المحبب إليه الذي كان لزاماً أن يقص ليفسح الطريق « للباروكة — الشعر المستعار » ويزود بالشعر رأس إنسان آخر (١٢٨) ، وكان لزاماً أن يتم تنظيف شعره المستعار من القمل في أوقات منتظمة (١٢٩) — واختفى الآن طوق الرقبة المسكشكش للمتييس الذي كان سائداً في عهد إليزابث وجيمس الأول . كما اختفت السترة الضيقة والمباغة الطويلة ليحل محلها الصدرية والمعطف . ووصلت الصدرية على أية حال إلى ربلة الساق . وكانت تشد إلى الجسم بحزام . وتوقفت « بنطلونات » الركوب عند الركبتين . وتدلّت السيوف إلى جوانب الأرض تظاريين أو الأغنياء . وساعد المخملات والخمرات والأشربة على الهداب وكشكشة الثياب

على استكمال الظرف والكياسة ، وربما استخدم الناس لتدفئة اليدين في الشتاء ، « الموقه » وهى غطاء أنبوبي طويل مكسو بالفراء ، يعلق في العنق .

أما نساء الطبقات العليا الأنيقات (طبقا لآخر طراز) فكان يضمنن شعورهن بالمساحيق والمطور ، ويمشطنها في خصلات فوق جباهن ، وزدن عليهن خصلات مستعارة مرفوعة على أسلاك خفية ، وكسوز قبعاتهن بالريش النادر ، ووضعن على خدودهن أو جباهن أو أذنانهن « لصقات تجميلية » (وهى قطع صغيرة جداً من حرير أسود يلصقها النساء كوسيلة لإخفاء العيوب أو للتبرج) ، زيادة في إغراء الرجال بمطاردتهن . وكشفن عن أكتافهن وعن أجزاء كبيرة من نهودهن ، وهكذا جلست لويز دى كيرووال أمام الرسام لى ليصورها وأحسد نهديها طار تماماً ، وبزتها نل جوين في ذلك . وكانت النساء تحجبن سيقانهن بشكل مغر . وتزايد الطلب على أدوات التجميل الأنيقة . فسكات المرأة بالفعل شيئاً معقداً استخدم الإنسان كل براعته في تشكيكه وصنعه ، حتى صورتها إحدى الروايات في فترة عودة الملسكية ، في شيء من المغالاة والإغراق في الوصف .

« صنعت أسنانها عند ناظم اللالى » (في بلاك فرايرز) ، وحواجبها من خيوط أو أسلاك مجدولة (في استراند) ، وشعرها في شارع « الفضة » ، فإذا آوت إلى الفراش نزعته عن نفسها كل ما عليها لتضعه في عشرين صندوقاً . حتى إذا نهضت من نومها ظهر اليوم التالي ، ركبت كل شيء في مكانه على جسمها من جديد . وكأنها ساعة حائط ألمانية ضخمة (١٣٠) .

وكان التبذير واجبا حتميا ، لقد أصبحت الحياة مظهرية متكلفة من جديد ، ومن ثم اقتضت تجهيزات معقدة مفصلة . وكان لزاما استئجار عدد كبير من الخدم . فكان منهم لدى والد إيفلين نحو خمسين وكان لدى إيفلين طبّاخ ومديرة للمنزل ووصيفة وخدمة . وكانت وجبات الطعام مرفوعة

ضخمة . أنظر إلى غداء بيبر في ٢٦ يناير ١٦٦٠ قبل أيام الطيش والفرارة
بزمن طويل :

« أعدت زوجتي غداء شهيا جدا : أعنى طبقا من « عظام النخاع » ،
ونفذا من الضأن ، وقطعة من لحم العجل ، وصحنا من الطيور ، وثلاث
دجاجات ، واثني عشر زوجا من القنبر على طبق واحد ، وكمسكة ضخمة
محمشة بالمربي والفاكهة المطبوخة (تورقة) ، ولسان بقرة ، وطبقا من
السبك الصغير « الأنشوجة » ، وطبقا من القريدس (الجبرى) والجبن . »

وكانوا يتناولون الوجبة الرئيسية في الساعة الواحدة . وكان للطبخ
إنجليزيا . وعندما أوضح شارل الثانى لجرامونت أن الخدم كانوا يقدمون
الطعام للملك ، وهم ركوع ، رمزا للاحترام والإجلال ، قال جرامونت
(أوروى أنه قال) : « أشكر لجلالتكم هذا الإيضاح ، فقد ذهب تفكيرى
إلى أنهم إنما كانوا يلتمسون للغفرة لتقديمهم طعاما رديئا (١٣١) » .

ولم يكن تناول للمشروبات الروحية مجرد مظهر اجتماعى . فقلما كان
الناس ، حتى الأطفال ، يشربون الماء (١٣٢) ، وكانت « البيرة » أيسر منالا
من الماء الصالح للشرب . ومن ثم تناول كل الناس من مختلف الأسنان ،
البيرة ، وأضاف الموسرون إليها الويسكى أو استوردوا النبيذ . وتردد معظم
الناس على الحانات مرة واحدة في اليوم ، وتناول كل الأفراد من جميع
الطبقات الخمر من حين إلى حين .

ودخل البن من تركيا حوالى ١٦٥٠ . وحتى ١٧٠٠ كان معظم البن
يستورد من إقليم مخا فى اليمن . وفى القرن الثامن عشر نقل الهولنديون
زراعته إلى جاوة والبرتغاليون إلى سيلان والبرازيل ، والانجليز إلى جايبكا .
وساعد استخدام القهوة فى التغلب على الخمول والكسل وفى شحذ الذهن ،
على انتشارها وإقبال الناس عليها . وافتتحت لندن أول مقهى فيها فى ١٦٥٢ ،
وما وافى عام ١٧٠٠ حتى كان بها ٣٠٠٠ مقهى (١٣٣) واتخذ كل فرد مهابا
كانت مكانته ، أحد اللقاءى عملا مختارا لمقابلاته بانتظام ، حيث يلتقى بأصدقائه

ويستمع إلى آخر الأبناء والمخازي . وحاول شارل الثاني أن يحدد من انتشار المقاهي ومن نشاطها باعتبارها مراكز لإهاجة المشاعر السياسية والمؤامرات ، ولكن شهوة الحديث والشراب والاستمتاع برائحة التبغ أحبطت مساعيه . ومن بعض المقاهي نشأت الأندية التي لعبت دورا في سياسة القرن الثامن عشر ، ثم أصبحت آنذاك ملاذاً ومهرباً من أحادية الزواج ، واختلقت المقاهي عن الأندية التي ظهرت متأخرة عنها ، لا لمجرد أن القهوة كانت هي المشروب المفضل فيها ، بل لأن الحديث كان يلقى تشجيعاً فيها . كما أن مشاهير الأدباء مثل دريدن وأديسون وسويفت وجدوا فيها منابرهم (في المقاهي) . كما أن حرية الكلام في إنجلترا انتعشت وازدهرت هناك .

وجاء الشاي إلى إنجلترا من الصين حوالي ١٦٥٠ ، ولكنه كان غالي الثمن . إلى حد أنه لم يحمل محل البن في الحياة الإنجليزية إلا بعد قرن من الزمان . وحسب بيبز أنه انما كان يقوم بمغامرة حين تناول أول فنجان من الشاي (١٣٤) . وفي نفس الوقت استورد حب السكاكاو من المكسيك وأمريكا الوسطى . وحوالي ١٦٥٨ استحدث شراب جديد بإضافة « الفانيليا » والسكر إلى السكاكاو . وأصبحت « الشكولاته » الناتجة عن هذا المزيج شراباً محبباً مألوفاً في فترة عودة الملكية ، وكان يقدم في كثير من المقاهي .

وفي تلك الآونة دخلت التبغ كل الطبقات ، بما في ذلك كثير من النساء وبعض الأولاد ، في أنابيب طويلة دوماً . وظن النساء أن لهذا التبغ بعض الفائدة في التطهير وقاية من الطاعون . وربما نشأت عن هذه الفكرة عادة « السموط » في تلك الأيام ، أي نشوق التبغ المسحوق .

والآن وقد تخلص الناس من كابوس البيوريتانية ، فتبدد ازدهرت الألعاب وأسباب التسلية واللهو ، واستمتع الفقراء من جديد بمسرح العرائس وعروض السيرك وصراع الديكة ومطاردة الدببة والثيران ، وألعاب البهلوان على الحبال والمصارعة ، والشموذة والملاكمة والسحر ، والغمس المومسرون

فى الصيد بنوعيه : صيد النساء وصيد الحيوان ، وظل شارل الثانى يمارس لعبة
النس حتى بلغ الثالثة والخمسين . أما ايفلين فقد أحب لعبة البولنج على
الأرض الخضراء ، التى لا تزال منظرآ محببآ إلى الانجليز حتى اليوم . وكانت
لعبة الكريكت قد بدأت تكون وسيلة لقضاء وقت الفراغ فى الأمة بأسرها
ولأول مرة فى ١٦٦١ يرد ذكر قطعة من الأرض مخصصة لهذه اللعبة ، وفى
تلك السنة خططت حدائق فوكسهول على الضفة الجنوبية للتيمز ، وصرطان
ما أصبحت منتجعا أنيقا على أحدث طراز . وافتتح شارل الثانى للجمهور
متنزه سان جيمس . وأقيمت آنذاك حدائق هايد بارك حيث يقصد إليها
فى الامسيات الطريفة ، عليه القوم وعلى رأسهم الملك والملكة . إن
« المجتمع » بدأ آنذاك يستشفى فى مياه باث المعدنية .

وتنقل الناس — فيما خلا أفقر الطبقات — فى عربات تجرها الجياد ،
التي كانت قد بدأت تؤدي خدمة يريديّة منتظمة لقاء بنس فى ١٦٥٧ ، ثم
استخدمت لنقل الركاب فى مواعيد منتظمة فى ١٦٥٨ ، وكانت هذه
العربات قد استخدمت لنقل السلع والتجارة داخل المدينة منذ ١٦٢٥ .
وتنقل كبار الأغنياء فى عربات تجرها ستة جياد . وكانوا يصطحبون
ثلاث فرق من الجياد ، للمجرد العرض وحسب الظهور ، ولكن لتجربة العربّة
فى الطريق الموحلة . وكانت الماشية المحلية فى بعض الأحيان تربط أمام
الجياد لتشد العربّة وتسحبها من المستنقعات العميقة . لقد كانت الطرقات
منظمة بالأتربة أو الأوحال . إن الحانات والانزال على جانبي الطريق ،
بالخليط العجيب من زلائهم من سائقي العربات والمسافرين والممتهنين والبائسين
واللصوص والبغايا ، كانت تهيم السبيل أمام هؤلاء جميعا للاسهام فى الأدب
فى انجلترا وهكذا كانت تشكل انجلترا الخشنة المحببة الى النفس والمفعمة
بالحيوية ، التى عرفها دكنز فى شبابه .

٧ — الدين والسياسة

استمر الصراع بين المذاهب الدينية ، وتجدد النزاع القديم بين الملك والبرلمان ، وسط تفتح الناس وتوافر أسباب الحياة لديهم وتكاثرهم . وأحزن الملك المبتهج أن يرى مجلس العموم ، بعدما أظهر من اذعان وامتنال في شهر العسل ، يغار من سلطة الملك وقوته ، ويقبض عنه الاعتمادات . لقد كان الملك رقيق القلب ولسكنه حازم صلب العود . فولى وجهه شطر ملك فرنسا ليحصل منه على قروض خاصة ، ووعد ، وواضح أنه رغب — في التخفيف من ويلات الكاثوليك الانجليز ، كما وعد بتأييد سياسة لويس الرابع عشر ضد الأراضي الوطیئة ، وبيع نفردسكرك على القنال الانجليزى لفرنسا ، وكان جنود كرومول قد استلوا عليه . والحق أن الدفاع عنه كان يكلف أمولا طائلة ، وكان شوكة في جنب فرنسا . فتخلى شارل عن دسكرك (١٦٦٢) مقابل خمسة ملايين فرنك بالاضافة الى امانات سرية من البوربون ، استطاع بها البعض الوقت أن يتجاهل أو ليجار كية الأرض والمال التي تحسكت في البرلمان آنذاك

ان هؤلاء الأوليجاركين ، على أية حال ، رأوا أن أموال الحكومة ينبغي أن تستخدم في شن حرب مريحة أخرى ضد الهولنديين . ان نفس المنافسة على التجارة ومصايد الأسماك التي أدت الى الحرب الهولندية الاولى من قبل في ١٦٥٢ هي التي عززت فكرة الحرب الثانية ١٦٦٤ . وقاوم شارل هذا الاتجاه الى الحرب ، لأطول مدة ممكنة ، لأنه آثر المحبة والمودة إيماءا إشار . وكتب لأخته يقول : لم أر قط مثل هذه الشهوة الجامعة للحرب في الريف والحضر كليهما ، وبخاصة لدى رجال البرلمان . إني لأجد أنني الرجل الوحيد الذي لا يريد الحرب في مملكتي (١٦٥٥) .

لقد ساءت الأحوال . وحارب الأسطول الإنجليزى ببسالة على الرغم من سوء تغذيته وضآلة ملابسه وذخائره ، ولكنه خسر بقدر ما انتصر ،

وفي الوقت الذي جرى فيه وطيس الحرب ، ترك الطاعون والحريق لندن موحشة مقفرة ، كما ترك انجلترا مفلسة ، وفي أخريات عام ١٦٦٦ فتاح الهولنديون باب المنازعات لعقد الصلح وسر الملك بقرب التوصل إلى تفاهم ، فأرسل مندوبين إلى بريدا . ووثقا منه بأن الإتفاق كان وشيكاً ، ومذ رأى أن أمواله على وشك النفاد ، فإنه نحي جانباً من أسطوله في «مدواي» ، وسمح للبحارة بالاستغلال على السفن التجارية . فما كان من « دى روتر » إلا أن قاد أسطولا هولنديا إلى التيمز ومدواي ودمر معظم السفن الإنجليزية التي خلت من الرجال . ويقول بيبر أنه في تلك الليلة « كان للملك يتناول العشاء مع ليدى كاسلمين عند دوقه مونموث ، وقد شغل الجميع إلى حد الجنون باصطياد فراشه مسكينة (١٣٦) » . وعندما وصلت أنباء الهجوم إلى لندن ، دعى كل رجل مفتول العضلات إلى حمل السلاح . ولكن الهولنديين كذلك رغبوا في الصلح ، لأن الفرنسيين كانوا قد أغاروا على إقليم فلاندرز . وأنهت معاهدة بريدا في ٢١ يولييه ١٦٦٧ ، الحرب الهولندية الثانية بشروط لم يرنح لها الجميع .

وأضعف هذا الإخفاق التام وتلك الكوارث التي توالى على لندن ، مركز الملك إلى حد أن بعض الإنجليز فكروا في خلعهم . وطالب البرلمان بفرض رقابة برلمانية على مصروفات الحكومة . وأذعن الملك ، لأنه كان خالي الوفاض ، ولأن خطوة أخرى قد اتخذت نحو سيادة البرلمان الذي طالب كذلك بعزل كلارندون ، لسوء معالجته للشئون الخارجية . ولم يكن شارل يكره عزله ، لأن مستشاره كان يعارض تحركه في اتجاه التسامح الديني ، وينتقد إنغماسه مع الخليلات ، ولم يكتف مجلس العموم باستقالة كلارندون ، فقدم إقتراحاً بتحاكمته بتهمة خضوعه للدليل لفرنسا ، فاستمع كلارندون لنصيحة الملك ، ولاذ بالفرار إلى القارة . وكانت خاتمة محزنة قاسية لرجل حفل سجل حياته بالخدمات . وكرم الشيخ الهرم منقاد بتدوين أجمل مؤلف تاريخي أخرجه الأدب الإنجليزي حتى ذلك اليوم . ووافته المنية في روان

(على السين في شمال فرنسا) في ١٦٧٤ ، وهو في الخامسة والستين .
وعين الملك شارل (١٦٦٨) خمسة رجال ليحلوا محل كلارندون :
توماس كليفورد ، إرل آرنجتون ، ودوق بكنجهام ، ولورد آشلي (الذي
أصبح على الفور إرل شافتسبري الأول) وإرل لودرديل . وكونت الحروف
الأولى من أسمائهم لفظة « كابال Ci bal » التي سميت بها الوزارة الجديدة .
وكان كليفورد يعلن عن كاثوليكيته ، وكان آرنجتون ميالا إلى هذا المذهب ،
وكان بكنجهام خليعاً ماسقاً ، وكان شافتسبري متسامحاً شكاكاً ، أما لودرديل
فكان من « رجال الموائيق » السابقين ، وهو الذي فرض النظام الأسقي
بالنار والسيف ، على مواطنيه الاسكتلنديين . واستمع شارل إلى آرائهم
أو مشوراتهم المتعارضة . ولكن تزايد ، على مر الأيام اعتياده على نفسه
والتزامه برأيه الخاص .

وكان للملك هدفان أساسيان : تجسيد الملكية المطلقة وإقامة
الكاثوليكية ورفع شأنها في إنجلترا . ونظر بعين الأمل إلى أن الذي
سيخلفه على العرش هو أخوه الكاثوليكي جيمس ، وتبادل الرسائل مع
زعيم اليسوعيين في رومه ، وأستقبل سرا مندوبا بابويا قدم إلى لندن من
بروكسل (١٣٧) . وفي يناير ١٦٦٩ أبلغ أخاه كليفورد وآرنجتون ولورد
آرندل أنه يرغب في المصالحة مع كنيسة رومه ، وفي إطادة كل الإنجليز
إلى المذهب القديم (١٣٨) . أن أخته هنريتا لم تكف يوماً عن أن تحضنه على
أن يعلن للملأ في جرأة وشجاعة عن إرتداده إلى الكاثوليكية .

وفي مايو ١٦٧٠ أرسل لويس الرابع عشر هنريتا إلى إنجلترا وفي محيتها
عدد من الدبلوماسيين الدهاء ، ليعاونوها على ربط شارل بسياسة فرنسية
كاثوليكية . وفي أول يونية ١٦٧٠ وقع كليفورد وآرونديل وآرنجتون
باسم إنجلترا معاهدة دوفر السرية . ووافق ملك فرنسا على أن يدفع لشارل
١٥٠ ألف قرنة عند إعلان إرتداده إلى الكاثوليكية . وتزويده ، عند
الاقضاء ، بستة آلاف جندي تتولى فرنسا الانفاق عليهم ، وكان على
شارل أن يدخل الحرب إلى جانب فرنسا ضد المقاطعات المتحدة عندما يطلب

إليه ذلك . على أن يتسلم من فرنسا ٢٢٥ ألف جنيه طيلة قيام الحرب ، وكان لشارل أن يستولى على بعض الجزر الهولندية ويحتفظ بها ، كما كان عليه أن أن يؤيد مطالب لويس الرابع عشر في أن يرث أسبانيا (١٣٩) . وامتاعاً في خداع البرلمان والشعب في إنجلترا ، بعث شارل بدوق بسكنجهام إلى باريس ليصوغ معاهدة صورية زائفة وقعت في ٢١ ديسمبر ١٦٧٠ ونشرت على الملأ ، تعهدت فيها إنجلترا بالاشتراك في الحرب ضد الهولنديين ، ولكن لم يرد ذكر العقيدة الدينية .

وتلكأ شارل نحو خمسة عشر عاماً في إعلان تحوله إلى الكاثوليكية . ولو أن أخاه أعلن تحوله إليها صراحة في ١٦٧٠ ، ولكن ارل أرلنجوت نفسه ، وهو الذي يؤيد الكاثوليكية ويميل إليها ، حذر الملك من اعلانه التحول إلى هذا المذهب — كما فعل أخوه — قد يعجل بقيام ثورة . ومهما يكن من أمر ، فإن شارل تحرك نحو هدفه بأن أصدر في ١٥ مارس ١٦٥٢ ، إعلان التسامح الثاني ، « لدوى الضمائر الرقيقة » يوقف فيه العمل « بكل قوانين العقوبات ، أيا كانت ، في الأمور الكنسية ، ضد المنشقين أو المتمردين والمخالفين وفي الوقت نفسه أخلى سبيل كل من كانوا أودعو السجن بسبب مخالفتهم لتشريعات البرلمان في المسائل الدينية . وبذلك أطلق سراح مئات من المنشقين ، من السكويكرز . وأرسل زعماءهما وفدا عنهم لتقديم الشكر للملك . وصعد المشيخيون والبيوريتانيون حين رأوا أن الحرية الجديدة التي منحت لهم امتد نطاقها لتشمل الكاثوليك وأنصار تجديد العهد ، كما فزع الأنجليكانيون من « أن البابويين والفرق الدينية ذوات المذاهب المختلفة » مجتمعون علناً في لندن . ولمدة عام كامل نعمت إنجلترا بالتسامح الديني أو شقيقت به .

وفي ١٧ مارس ١٦٧٢ شنت إنجلترا الحرب الهولندية الثالثة . وتلك سألة كان الملك والبرلمان كلاهما على اتفاق فيها . واعتمد البرلمان ٢٥٠ ر ١٢٥٠ جنيه للحرب . على أن يسلم هذا المبلغ للحكومة على أقساط كان من الواضح أنها تعتمد على استرضاء الملك البرلمان وموافقته على تشريعاته الدينية وأعان مجلس العموم « أن قوانين العقوبات في المسائل الدينية لا يمكن ابطال العمل

بها الالبه نون يسنه البرلمان . وأرسل الى الملك طلبا بسحب اعلان التسامح
ومذ كان لويس الرابع عشر يتوق الى أن يرى ابجلترا صنفا واحدا كالبنيان
المرصوص ، تأييدا للحرب ضد الهولنديين ، فانه نصح الملك شارل بالغاء
اعلان التسامح حتى تنتهى الحرب بالفوز ، وأذن شارل ، وألغى
الاعلان فى ٨ مارس ١٦٧٣ .

ومن المحتمل أنه فى هذا الوقت ، ترامت الى زعماء البروتستانت أنباء
معهدة دوفر السرية أو أشتتموار انحلتها ورغبة فى الحيلولة دون تحول الملك
الى الكاثوليكية ، سن المجلسان كلاهما « قانون الاختبار » الذى ينص على أنه
يجب على كل أصحاب الوظائف المدنية والعسكرية فى انجلترا أن يقرروا علنا
على تخليهم عن النظرية الكاثوليكية التى تقول بتحول خبز القربان والخبز الى
جسد المسيح ودمه وأن يتناولوا الاسرار المقدسة طبقا للعقوس الانجليكانية
وكافح كليفورد هذا المشروع بضراوة ، وبعد اقراره استقال من الحكومة ،
وآوى الى ضيعته ، وما لبث حتى مات منتحرا كما يظن ايفلين . أما شافيتسبرى
فقد عضده بكل قوة ، وعزل من الوزارة ، فجعل من نفسه زعيما « لحزب
الريف » الذى تاهض ، بمنف يقارب الثورة ، « حزب البلاط » الذى كان
يؤيد الملك . وبذلك قضى على الوزارة « السكبال » (١٦٧٣) . وأصبح
أرل دى كبير الوزراء .

واعزل جيمس كل مناصبه الحكوميه . وخفف من حدة المعارضة
ضده بهض الشئ ، أنه على الرغم من أن زوجته الاولى إراتضت الكاثوليكية
منذها من قبل ، فإن إبنيتها - الملكة ماري والمملكة آن فيما بعد - نشأتا
على المذهب البروتستانتي . لكن زواجه آنذاك (٣٠ سبتمبر ١٦٦٣) من
أميرة كاثوليكية أثار ضده حملة من أقسى الإتهامات . تلك هى الأميرة
مارى مودينا التى دمغت بأنها « كبرى بنات البابا » ، والمفروض أنها لا بد
أن تنشئ أولادها على الكاثوليكية . وفى الحال قدمت إلى البرلمان
مشروعات قوانين تقضى بتشئة أبناء الأسرة المالكة على المذهب البروتستانتي .

إن تطور الأحداث على هذا النحو أثار سخط إنجلترا على الحرب ضد المقاطعات المتحدة وجعلها تحس بالمرارة ، فلو أن ملك إنجلترا كان كاثوليكية لانحاز إن عاجلاً أو آجلاً إلى جانب فرنسا وأسبانيا في تدمير الجمهورية الهولندية تدميراً ، تلك الجمهورية التي لم تبد الآن منافساً تجارياً ، بل بدت معقل البروتستانتية في القارة ، فإذا سقط هذا الحصن الحصين فكيف يتسنى للبروتستانتية الإنجليز أن تثبت وأن تقاوم ؟ وفوض شارل عن طيب خاطر ، سير ولیم نبل في توقيع صلح منفرد مع الهولنديين . وفي ٩ فبراير ١٦٧٤ وقعت معاهدة وستمنستر التي أنهت الحرب الهولندية الثالثة .

٨ - (المؤامرة البابوية)

وأعقبت هذه الأحداث فترة كادت أن تنسم بالصفاء والتعقل . وحيث تسلم شارل من لويس الرابع عشر مبلغاً إضافياً قدره ٥٠٠ ألف كراون ، فإنه عطل البرلمان المتعب إلى أجل ، وعاد إلى عشيقاته . ولكن السياسة لم تتوقف . فان شافتسبري وغيره من زعماء المعارضة أسسوا في ١٦٧٥ « نادى الوشاح الأخضر » . ومن هذا المركز نشر « حزب الريف » دعايته دفاعاً عن البرلمان والبروتستانتية ضد ملك يتآمر مع فرنسا الكاثوليكية ، ووريثه الذي زف علناً إلى زوجة كاثوليكية . وفي ١٦٨٠ أطلق على رجال حزب الريف اسم Whig ، وعلى المدافعين عن سلطنة الملك اسم Tories* . وبدا للملك شارل أن شافتسبري « أضعف الرجال وأخبثهم » (١٤١) . وقال عنه بيرنت « أن علمه سطحي هزيل ، وأن غروره سخيف ، وأن

(*) من الواضح أن هويج انتصار لكلمة « هويجامور » ، وهذا اسم تصبى من الاسكتلنديين نشطت في مقاومة شارل الأول (١٦٤٨) . أما تورى فهي لفظة أيرلندية معناها لص . وقد أطلقها تيمس أوتس على « حزب البلاط » لأول مرة (١٦٨٠) (١٤٠) .

عقليته نافذة (١٤٢) ، ولكن جون لوك الذى عاش مع شافيتسبرى لمدة خمسة عشر عاما رأى أنه مناضل باسل جرىء عن الحرية للدين والدينية والفكرية أو الفلسفية. وقال عنه بيرنت أنه يدين باليهودية (مذهب طبيعى يقوم على العقل لاعلى الوحي) وقد يحق لنا أن نرتاب فى ديانتة من قوله هو نفسه « ليس للعقلاء من الرجال إلا دين واحد » ، فلما سألتة احدى السيدات ، وما هو ، كان جوابه « أن عقلاء الرجال لا يفصحون عنه قط » (١٤٣) .

وخفت حدة التوتر الدينى بعض الشيء فى ١٦٧٧ ، حين تزوج وليم أورنج من ماري البروتستانتية كبرى بنات دوق يورك . فإذا ظل جيمس دون عقب ذكر ، فإن ماري سوف تخلفه ، فى وراثة العرش ، ومن ثم ترتبط انجلترا بهولنده البروتستانتية بحكم المصاهرة ، ولكن فى ٢٨ أغسطس ١٦٧٨ مثل تيتس أوتس أمام الملك وأعلن أنه اكتشف « مؤامرة بابوية : ذلك أن البابا وملك فرنسا ورئيس أساقفة أرماج واليسوعيون فى انجلترا وأيرلنده وأسبانيا كان يدبرون قتل شارل وخلع أخيه ، وفرض الكاثوليكية فى انجلترا بحمد السيف ، وأن ثلاثة آلاف سفاك سيتولون ذبح زعماء البروتستانت فى لندن ، وأن لندن نفسها - قلعة البروتستانتية - كانوا يدبرون احراقها عن آخرها .

كان أوتس ، وهو آنذاك فى التاسعة والعشرين من العمر ، ابن أحد أنصار تجديد العماد . وكان قد أصبح قسيسا أنجليسكانيا ، ولكنه فصل من وظيفته الكهنسية لسوء سلوكه (١٤٤) . ثم قبل - أو تظاهر بقبول - التحول إلى الكاثلكة . وكان قد درس فى الكليات اليسوعية فى بلد الوليد (أسبانيا) وسات أومر حيث فصل أيضا . آخر الأمر (١٥) . وفى نفس الوقت ، زعم الآن أنه كان قد اطلع على خطط الجزويت السريفة لغزو انجلترا. واعترف أنه شهد فى ٢٤ أبريل ١٦٧٨ مؤتمرا يسوعيا فى لندن نوقشت فيه

وسائل قتل الملك . وعدد أسماء خمسة من النبلاء الكاثوليك ، على أنهم مشتركون في المؤامرة هم : أروندل ، بويس ، بتر ، ستافورد ، بلاسييس . وعندما أضاف أوتس أن بلاسييس هذا كان سيعين قائدا عاما لجيش البابا ، ضحك شارل ساخرا ، حيث كان بلاسييس طريق الفراش بداء النقرس . وخلص الملك إلى أن أوتس لفق القصة كلها أملا في الحصول على مكافأة ، وصرفه من حضرته .

ولكن المجلس المخصوص ارتأى أنه من الحكمة أن يفترض بعض الصديق في الاتهامات ، واستدعى أوتس ليمثل أمامه في ٢٨ سبتمبر . وخشى أوتس أن يزج به السجن ، فقصده إلى قاضي الصلح سيراد موند برى جودفري وأودعه اعترافا خطيا مقرونا بقسم ، فصل فيه المؤامرة تفصيلا . وأصدر المجلس ، متأثرا بهذه الأدلة ، أوامره بالقبض على عدد من أنصار البابوية الذين تضمنهم اعتراف أوتس . وكان من بينهم أدوارد كولمان الذي كان لعدة سنوات (حتى عزل بأمر من الملك) سكرتير الدوقة يورك . وأحرق كولمان بعض أوراقه قبل القبض عليه ، ولكن الأوراق التي لم يكن لديه متسع من الوقت لاحراقها أوضحت أن كولمان والاب لاشيز قسيس لويس الرابع ، تبادلوا من الرسائل مايعبر عن أمل الطرفين (شارل ولويس) في أن تصبح إنجلترا كاثوليكية في أسرع وقت وفي هذه الرسائل اقترح كولمان أن يرسل إليه « لويس الرابع عشر أموالا ليكسب بها أعضاء البرلمان إلى جانب قضية الكاثوليك » ثم أضاف « أن نجاحنا سوف يكون ضربة شديدة للعقيدة البروتستانتية » لم تلاق مثلها منذ نشأتها تلك هي تحول ثلاث ممالك . ومن ثم ، فربما كان في هذا القضاء التام على هذه الطريقة الوييلة (١٤٦) إن اعدام كولمان لمعظم أوراقه حسدا بالمجلس إلى الاعتقاد بأن كولمان على علم بالمؤامرة التي وصفها أوتس ، وربما كان شريكا فيها . واستنتج شارل نفسه من تلك الرسائل ، وجود مؤامرة حقيقية بشكل ما .

وفي ١٢ أكتوبر اختفى القاضى جودفرى ، وبعد خمسة أيام وجدت جثته فى أحد الحقول فى الضواحي . وبات من الواضح أنه قتل . بيد ضللاء مجهولين ، ولأسباب غير معروفة حتى الآن ، ولكن البروتستانت نسبوا القتل إلى الكاثوليك الذين كانوا يأملون فى الحيلولة دون نشر اعترافات أوتس . ويبدو أن هذا الحادث أكد الاتهامات . وفى هذا الجو الذى سادته الريبة وعدم الثقة ، الذى خلقته معاهدة دوفر السرية ، والخوف من اعتلاء جيمس عرش إنجلترا ، كان طبيعيا أن تصدق إنجلترا البروتستانتية آنذاك كل ما جاء على لسان أوتس من اتهامات ، وأن يعترىها نوبة من الجنون بدامعها أن حماية البروتستانتية تتطلب اعتقال كل من أورد أوتس ذكرهم فى المؤامرة ، إن لم يكن اعدامهم .

وبدأت فترة من حكم الإرهاب امتدت لنحو أربع سنوات . وفر جيمس إلى الأراضى الوطيدة وتسليح أهالى لندن استعدادا لمقاومة أى غزو متوقع . ونصبت المدافع فى هويت هول . واتخذ الحراس أما كنهم فى الأقبية والسراديب تحت مبنى البرلمان بمجلسيه ليحولوا دون « مشروع بارود » آخر لنسف المبنى . وأقر البرلمان قانونا لطرده الكاثوليك من مجالس اللوردات ، وكرم أوتس بوصفه « مخلص الأمة » وكافأه بتخصيص معاش سنوى له قدره ١٢٠٠ جنيه لمدى الحياة ومنحه مسكنا فى قصر هويت هول . وسرطان ما ازدحمت السجون باليسوعيين والكهنه غير المنتسبين إلى رهبينات ، والكاثوليك العلمانيين الذين أورد ذكرهم أوتس أو وايم بدلو الذى ظهر ، مدعيا العلم بأشياء تؤكد صحة اتهامات أوتس .

وفى ٢٤ نوفمبر وضع أوتس أمام المجلس اتهاما جديدا مروعا ، ذلك أنه كان قد سمع الملكة تبنى موافقتها على قتل زوجها بالسم ، بيد طبييبها الخاص . وهنا أخذ شارل بهذه الكذبة الصارخه . وفقد ثقته فى أقواله كلها ، وأمر بالقبض عليه . ولكن مجلس المهوم أهر بالإفراج عنه ، وبالقبض على ثلاثة من خدم الملكة . واقترح على اصدار بيان يطالب

بجزلها . وقصد الملك إلى مجلس اللوردات ودافع عن إخلاص زوجته وولائها، وأقنع اللوردات بالامتناع عن الموافقة على بيان النواب . وفي ٢٧ نوفمبر حوكم كولمان وكاثوليكي علماني آخر ، وثبتت إداتهما وأعدما . وفي ١٧ ديسمبر أعدم ستة من اليسوعيين وثلاثة من الكهنة المنتسبين إلى رهيئات . وفي ٥ فبراير ١٦٧٩ شنق ثلاثة رجال بتهمة قتل جودفري . وثبت فيها بعد براءة هؤلاء الاثنى عشر .

وتزايدت الحملات إقترابا من الملك ، ففي ١٩ ديسمبر ١٦٧٨ تلقى البرلمان من باريس أنباء تهديد أن داني كان قد تسلم من لويس الرابع عشر مبالغ طائلة من المال . ورفض الوزير إيضاح أنها كانت إعانات فرنسية للملك . ووجه مجلس العموم الإتهام إلى الوزير . وخشى الملك الحكم على مستشاره الملكي بالاعدام ، فحل ، في ٢٤ يناير ١٦٧٩ « برلمان الفرسان » الذي كان قد التأم على فترات متقطعة ، لمدة ثمانية عشر عاما ، أي أنه كان أطول من « البرلمان الطويل » .

ولكن برلمان « الهويج » الذي اجتمع في ٦ مارس ، كان في عدائه لكاثوليكية وللمالك ، أشد إندفاعا وتحمسا من البرلمان السابق . واتهم مجلس العموم داني بالخيانة العظمى ، ولكن اللوردات ألقوه بوجه في سجن لندن ، حيث قضى فيه ، في هدوء وقلق ، السنوات الخمس المضطربة التالية . وبناء على نصيحة سير وليم تمبل ، عين شارل مجلسا جديداً من ثلاثين عضوا ، بينهم — رغبة في تخفيف حدة المعارضة — زعيما حزب الهويج : شافتسبري وجورج سافيل ، مركز هاليفاكس وبناء على توصية الملك اختير شافتسبري رئيسا للمجلس . وسعيا وراء المزيد من تهدئة الماصقة ، عرض الملك على البرلمان تسوية بديلة لاستبعاد أخيه عن العرش : ألا يسمح لأي كاثوليكي بمقعد في البرلمان أو بتولى منصب قيادي يتطلب الثقة ، وألا يكون للملك حق التعيين في المناصب الدينية ، وأن يخضع تعيين القضاء لموافقة البرلمان . وان يكون للبرلمان حق الرقابة والاشراف

على القوات البرية والبحرية (١٤٧). ولكن البرلمان أحس بشيء من الارتياح وعدم الثقة في موافقة جيمس على مثل هذه الاتفاقية . وفي ١١ مايو قدم شافنبري نفسه أول مشروع قانون لاستبعاد (جيمس) في عبارة واضحة جلية لا لبس فيها « إسقاط حق دوق يورك في وراثة التاج الامبراطوري لهذه المملكة » . وكان موضع فخر وشرف للبرلمان أنه في ٢٦ مايو توسع في حق التحقيق في قانونية الاعتقال : بمعنى أنه يمكن الإفراج بكفالة عن أى سجين ، فيما عدا المتهمين بالخيانة أو بجناية ، وفي مثل هذه الحالة ينبغي أن يحاكم المتهم في الدورة التالية للمحكمة ، وألا أطلق سراحه . وكان على فرنسا أن تنتظر ١١٠ سنوات حتى تنعم بضمانات مماثلة ضد الاعتقالات التعسفية . وفي ٢٧ مايو خشي الملك إقرار « مشروع قانون الاستبعاد » فعمل البرلمان .

ولم يكن حق التحقيق في قانونية الاعتقال مجدياً بالنسبة لأنصار البابوية الذين إنهمم أو تس ، لأنهم حوكموا مع شيء من التباطؤ ، حتى إذا أدينوا بالخيانة أعدموا في سرعة غاضبة ، وحشد الكثير منهم إلى المقصلة أو ساحة الإعدام طيلة عام ١٦٧٩ ، وكانت محاكمتهم سريعة جداً لأن القضاة الذين روعتهم صيحات الجوع المتعطشة للدماء خارج المحكمة ، أدانوا كثيراً من المدعى عليهم دون تمحيص الأدلة أو مواجهة الشهود ببعضهم ببعض . وهب الشهود المزيقون الذين أغرام ما أغدق على أو تس من مكافأة ، وكأعما هبوا من مرقدم ، وأقسموا بأغلف الإيمان على ما يقولون : فروى أحدهم أن جيشاً من ثلاثين ألفاً كان قادماً من أسبانيا ، وقال آخر أنهم وعدوه بخمسة مائة جنيه وبضمه إلى قائدة القديسين إذا هو أطاح برأس الملك ، وذكر شاهد مزيف ثالث بأنه كان قد سمع أحد رجال المصارف الكاثوليك الأثرياء يأخذ على نفسه عهد بأن يقوم بمثل هذا العمل (١٤٨) . ولم يسمح للمتهم بأي محام أو مستشار قانوني . ولم يبلغ بما نسب إليه إلا في يوم المحاكمة . وكان يفترض أنه مذنب حتى يستطيع أن يثبت براءته (١٤٩) . وحتى تسهل

الإدانة أحيوا قانوناً قديماً كان معمولاً به في عهد الزباث : وهو أن وجود أى كاهن في إنجلترا جريمة عقوبتها الإعدام . وكانت الجموع المحتشدة حول مبنى المحكمة تصرخ وتولول في وجوه شهود الدفاع استهجاناً ، وتنفذهم بالحجارة ، ويهتفون ويهللون فرحاً عند إعلان الحكم بالإدانة (١٥٠) .

فك كل هذا في عضد شارل ، وكان إمتحاناً قاسياً للملك الذى غمرته يوما الهجة والفرح ، والذى رأى الآن كل آماله تنهار ، وسلطاته تنتقص ، وزوجته تمنى الاذلال ، وأخاه يبوء بالاحتقار والارذراء وينحى . وفى ذروة العاصفة خر شارل مريضاً مرضاً خطيراً حتى توقعوا موته بين ساعة وأخرى . واستدعى هاليفاكس كس جيمس من بروكسل ، واسكن زعماء الهويج أمروا ابليس بالحيلولة دون عودته . واتفق شافستبرى ومونتو ولورد رسل ولورد جراي على أنهم - فى حالة وفاة شارل - سيتزعمون عصياناً مسلحاً لمنع أخيه من إرتقاء العرش (١٥١) ، ويسر لجيمس أن يدخل البلاد متنكراً ، وشرق طريقه إلى جوار الملك . وتظاهر شارل بأنه أبل من مرضه ، وابتسم للمخاوف التى ساورت حتى أعداءه الذين توقعوا موته . والحق أنه لم يبرأ من علته قط .

وبقى العداء للكاثوليك على أشده حتى تخبط أوتس أثناء محاكمة سير جورج ويكان طبيب الملكة . فى شهادته أمام المجلس كان قد برأ الطبيب ، ولكنه فى المحاكمة اتهمه بتدبير دس السم للملك . واكتشف هذا التناقض فى الأقوال . قاضى القضاة سكر وجز الذى سبق له أن تولى محاكمة الكاثوليك منتهى الشدة . وصدر الحكم ببراءة ويكان ، ومن ثم صارت شهادة أوتس تسمع فى مزبد من التدقيق ، وامتنع الشهود المزيفون الذين كانوا يعززون أقواله ، عن مساندته . وكان إعدام أوليفر بلنكيت رئيس أساقفة آرماج الكاثوليكى ، آخر إجراء يتم فى حركة الارهاب التى قامت ضد الكاثوليك (١ يولييه ١٦٨٩) .

ولما خفت وطأة الرعب والاضمحال تأكد لدى بعض عقلاء الرجال أن

أوتس ، عن طريق الريب التي لا تستند إلى أساس من ناحية ومن ناحية أخرى عن الأكاذيب ، عجل بإرسال كثير من الأبرياء إلى الموت قبل الأوان . وانتهوا إلى أنه لم يسكن ثمة تدبير لقتل الملك أو ذبح البروتستانت أو إحراق لندن . ولكنهم أحسوا بأنه كانت هناك مؤامرة حقيقية ، كاثوليكية ، وأن لم تكن « بابوية » : تلك هي أن أركان الحكومة دبروا ، أو راودهم الأمل ، بمساعدة أموال (أو جنود إذا لزم الأمر) من فرنسا ، أن يقضوا على عجز الكاثوليك وعدم أهليتهم الشرعية في إنجلترا ، ويحولوا الملك إلى الكاثوليكية ، ويثبتوا حق أخيه الذي تحول فعلا في إرتقاء العرش ، ويستخدما كل الوسائل لتدعيم الملكة دينا للدولة ، وفي النهاية للشعب . والواقع أن كل هذا تضمنته معاهدة دوفر السرية التي وقعت من قبل في ١٦٧٠ وكان شارل قد تراجع عن هذه الإتفاقية . ولكن رغباته لم تتبدل ولم يتدخل عنها قط ، وظل مصمما على أن يعتلى أخوه عرش إنجلترا ويكون ملكا عليها .

٩ - خاتمة الملهاة

أما شافيتسبرى فقد وطد العزم على نقيض ما يبتغيه للملك . لقد اعترف كولمان أثناء محاكمته بأن جيمس علم أمر المراسلات المتبادلة بينه وبين الأب لاشيز ، وأقرها (١٥٢) . وأحس شافيتسبرى بأن ارتقاء جيمس عرش إنجلترا لابد أن يحقق المرحلة الأولى من « المؤامرة البابوية » وعرض أن يساند شارل ويقف إلى جانبه إذا هو طلق الملكة المقيم وتزوج من بروتستانتية قد ينجب منها ابنا بروتستانتيا . وأبى شارل أن يدع كاترين حتى براجازا تكرر الدور الذي لعبته كاترين أوف أراجون . فولى شافيتسبرى وجهه شطر دوق مونموث الابن غير الشرعى للملك ، الذي لم يغفر قط لأبيه خداعه وإبعاده عن العرش بتقصيره في الزواج من أمه . ونشر شافيتسبرى غكرة أن شارل كان بالفعل قد تزوج من لوسي والتر ، وأن دوق مونموث

هو الوريث الشرعى لعرش . فما كان من شارل إلا أن كذب هذا بإعلانه أنه لم يتزوج قط إلا من كاترين أوف براجانزا ، وإذ وجد أن شافيتسبرى خصم عنيد ، فإنه أقصاه عن المجلس المخصوص (١٣ أكتوبر ١٦٧٩) .

وأثناء توالى الأزمات والمحن على هذا النحو كاد شارل أن يبدل من خلقه ومن شخصيته ، فودع حياة البهجة والدعة . وباع اسطبلاته ، وانصرف بكليته إلى الإدارة والسياسة ، وحارب أعداءه بتراجع محكم التدبير ، حتى جاوزوا حدودهم فاتهموا إلى الفشل إن الملك فى سنواته الخمس الأخيرة أبدى من قوة العزيمة والمقدرة ما أدهش حتى الأصدقاء . وإذ عاودته الطمأنينة والثقة فقد دعا برلمانه الرابع .

واجتمع البرلمان فى ٢١ أكتوبر ١٦٨٠ . وأقر مجلس العموم فى شهر نوفمبر « مشروع قانون الاستبعاد » الثانى ، وقدم إلى مجلس اللوردات . وهنا تحول هاليفاكس الذى كان يصوت حتى تلك اللحظة إلى جانب « حزب الهويج » نقول تحول الآن إلى جانب الملك ، وبدأ يحظى بلقب « القلب الحول » ويژهو ويختمال به . إنه كان يبغض جيمس ويرتاب فى الكاثوليكية ، ولكنه اتفق مع شارل فى ضرورة الإبقاء على مبدأ الملكية الوراثية . كما خشى أن يقود شافيتسبرى المجتمرا إلى حرب أهلية ثانية (١٥٣) . ومن ثم فإنه بفصاحته ومنطقه فى المناقشة الطويلة التى جرت بشأن « مشروع قانون الاستبعاد » أقنع اللوردات برفض المشروع . ورد مجلس العموم على هذا ، برفض الموافقة على أية اعتمادات مالية للملك ، وحظر على التجار وأصحاب المصارف . اقراضه أية أموال . وحاكم هاليفاكس وسكرو وجز وفيسكوت ستافورد . وهو أحد اللوردات الخمسة المعتقلين فى سجن لندن . وحكم على ستافورد بالإعدام بناء على شهادة أوتس ، وضرب عنقه فى ٧ ديسمبر . وفض الملك البرلمان فى ١٨ يناير ١٦٨١ .

وبدلا من أن يضجى شارل بأخيه يسبب حاجته إلى المال ، اعتزم شارل أن يعول الحكومة بأن يصبح من جديد أسيرا للملك الفرنسى لويس الرابع

عشر . وارتضى أن ينظر في شيء من التجلد ورباطة الجأش إلى سياسة فرنسا
العدوانية ، مقابل ٧٠٠ ألف جنيه (١٥٤) — وهو مبلغ يفتيه لمدة سنوات
عن إعانات البرلمان واعتماداته . فلما أحس بالقوة دعا برلمانه الخامس . ولكي
يحرره من تأييد جمهور لندن وقوات الطوارئ فيها ، فإنه ، أي الملك أمر
باجتماعه في أكسفورد . وهناك إلتقى الجمعان مدججين بالسلاح : شارل مع
عدد كبير من حرسه ، وزعماء الهويج مع أتباعهم حاملي السيوف والمسدسات
رافعين أعلاماً كتب عليها « لا بابوية ولا عبودية » وأقر بحاس العموم
في الحال « مشروع قانون الاستبعاد » الثالث ، ولكن قبل أن يصل
المشروع إلى مجلس اللوردات حل شارل البرلمان (٢٨ مارس ١٦٨١) .

وتوقع كثير من الناس أن يلجأ شافيتسبرى الآن إلى الحرب الأهلية .
أما الرأي العام الذي استرجع في ذاكرته أحداث ١٦٤٢ — ١٦٦٠ فقد
تحول عنه وانحاز إلى صف الملك . ودافع رجال الكنيسة الأنجليكانية
دفاعاً مجيداً عن حق جيمس السكاوليكي في ارتقاء العرش . وعندما حاول
شافيتسبرى أن يعيد تنظيم صفوف النواب المشنتين في ميثاق ثوري (١٥٥) ،
أمر شارل باعتقله ، ولكن هيئة المحلفين برأته (٢٤ نوفمبر) وعلى الرغم
من أنه كان آنذاك مريضاً بدرجة لا يسكاد معها يقوى على المشي ، فإنه انضم
إلى دوق مونموث في ثورة علنية (١٥٦) . وأمر الملك باعتقالها كلها وهرب
شافيتسبرى من سجن لندن ، وفر إلى هولنده ، وهناك وافته منيته (٢١
يناير ١٦٨٣) بعد أن أنهكته الأحداث ، ولكنه حاف وراعه صديقه
لوك ، ليتابع في مجال الفلسفة ، المعركة التي لم يكتب لها لبعض الوقت
التوفيق في ميدان السياسة .

وصفح شارل عن مونموث ، ولكنه لم يغفر قط للمحلفين في لندن
تبرئتهم لشافيتسبرى . والآن وقد تحول الملك انشوان إلى شخص آخر ،
وكان متطرفاً في تحوله هذا ، فإنه عقد العزم على تحطيم استقلال المدن التي
ترعرت فيها فكرة الهويج (الأحرار) بل الفكرة الثورية ، فأمر

بمراجعة المواثيق والعهود والقوانين التي هيأت الأجهزة البلدية الخروج على الارادة الملكية ، ووجد بالفعل في هذه بعض النقص والخلل من الوجهة التشريعية ، فأعلن إلغاءها جميعا ، وصدرت عهود وقوانين جديدة تنص على أن يكون للملك حق الاعتراض وحق عزل كل الموظفين الذين ينتخبون لهذه الهيئات البلدية (١٦٨٣) . وخضعت الآن حرية الكلام وحرية الصحافة لقيود جديدة ، وبدأت موجة اضطهاد المنشقين — لا السكائوليك : لأن معظم المنشقين كانوا من الأحرار (الهويج) . وفي اسكتلنده قاد جيمس حملة التعذيب بنفسه ، وبدأ أن انتصار حقوق الملك على اصلاحيات البرلمان بات انتصارا ساحقا كاملا ، وأن انجازات الثورة الكبرى كان واضحا أنه ينبغي التضحية بها في نسكة أو رد فعل تؤيده أمة تخشى تجديد الحرب الأهلية . وعكس هاليفاكس شعور البلاد حين نضى عن شافيتسبرى ، وانحاز بحكمته المعتدلة البعيدة عن التطرف إلى جانب الملك ليكون في خدمته (١٦٨٢ — ١٦٨٥) فكان حامل الاختام الملكية .

وقام أتباع شافيتسبرى بمحاولة أخيرة . ففي يناير ١٦٨٧ ، اجتمع دوق مونموث وإرل اسكس وإرل كارليل ، ووليم لورد رسل وألجرون سدن في دار جون ممدن (حفيد بطل الحرب الأهلية) ورسموا الخطط لتطويق جيمس والتغلب عليه ، وقتل شارل إذا لزم الأمر . وراود سدن أمل التقدم إلى خطوة أبعد ، وهي إعادة إقامة الجمهورية الانجليزية . وكان حفيد أحد أخوة سيرفيليب سدن « رئيس الفرنسية » ، وحارب في صف البرلمان أثناء الحرب الأهلية وجرح في مارستن مور . وعين عضوا في اللجنة التي شكلت المحكمة شارل الأول ، ولكنه رفض العمل بها على اعتبار أن الشعب لم يمنح اللجنة سلطة محاكمة الملك . وألقى نفسه في القارة حين طادت الملكية ، فظل بها ، مشغولا بدراساته وأبحاثه ، وتدير المؤامرات ضد شارل الثاني . وفي الحرب الهولندية الثانية حرض الهولنديين على غزو إنجلترا ، وعرض خدماته على الحكومة الفرنسية ليشعل نار الثورة في إنجلترا إذا أمدهت الحكومة الفرنسية بمائة

ألف كروان (١٥٧). وفي ١٦٧٧ سمح له شارل بالعودة ليشهد وفاة والده ،
وبقي في إنجلترا وانضم إلى « حزب الريف » (الأحرار ، الهويج) . وفي
كتابيه « مقالات عن الحكومة » (الذي كتب ١٦٨١ ولم ينشر إلا في
١٦٨٨) دافع سدني عن المبادئ شبه الجمهورية ، واستبق لوك في مهاجمته
دفاع فلر عن حقوق الملوك الإلهية ، وأكد حق الشعب في محاكمة الملوك
وخلعهم . ومن الواضح أن سدني ورسل ، كليهما تسليما أموالا من
الحكومة الفرنسية التي كان يهما أن يظل شارل مشغولا بمشاكله
الداخلية (١٥٨) .

وصح عزم « مجلس الستة » على أسر الملك . وكان معروفا أنه سيشهد
سباق الخيل في شهر مارس في نيوماركت . وكان لابد له ، لدى عودته إلى
لندن من أن يمر « براى هاوس » في هودزدون في شمال المدينة ، فتقرر
أن تسد عربة محملة بالحشائش الجافة الطريق في هذا المكان ، ومن ثم يمكن
أسر الملك وربما أسر أخيه معه كذلك ، حينئذ أو ميتين . ولكن في ٢٢
مارس شب حريق في ميدان السباق ، وانتهت المسابقات قبل موعدها المقرر
بأسبوع ، وحاد الملك سالما إلى لندن قبل أن يعد المتآمرون عدتهم . وخشى
أحدهم افتضاح الأمر وادود الأمل في العفو ، فأفضى بسر المؤامرة إلى الحكومة
(١٢ يولية) . وقبلض على كارليل فأكد الاعتراف وعفوا عنه . واحتج
مونموث بأنه بريء ، وعلى الرغم من أن شارل علم علم اليقين أن ابنه كاذب
فيما يقول ، فإنه ألغى أمر اعتقاله . أما رسل فحوكم ونبتت إدانته وأعدم
(٢١ يولية ١٦٨٣) . وانتحر اسكس في السجن . وعندئذ قال الملك « ما كان له
أن يخطئ من الرحمة ، فإني مدين له بحياة (١٥٩) » فقد مات أبوه من قبل من
أجل شارل الأول . وشتق عدد من صغار المشتركين في « مؤامرة راى
هاوس » وأخذ سدني مجرم لم يقيم عليه دليل كاف من الناحية القانونية ،
ودافع عن نفسه دفاعا مجيدا ، وقابل الموت بصدر رحب (٧ ديسمبر) .
وكان شعاره « يدي هذه هي عدوة الطغاة » . ولكنه كان قد اختار سيفنا

ذا حدين • ونطق وهو على المشنقة بكلمات تستحق الذكر : « إن الله ترك للشعوب حرية إقامة الحكومات كما تشاء (١٦٠) » . ورفض أية طقوس دينية قائلا أنه في سلام مع الله فعلا •

لقد انتصر شارل ولكنه كان مشرفا على النهاية ، ونعم ، مع جهد مضمّن ، بشعبية جديدة ، وكانت إقتصاديات إنجلترا قد ازدهرت في عهده ، أما الآن ، والبلاد تتطلع إلى هدوء سياسي ، فقد ركنت إلى ملك كان يمثل بقاء الأمة ونظامها ، ولو كان معنى هذا ، لفترة من الزمن « ملكا كاثوليكيا » • وغفرت إنجلترا لشارل أخطائه ، حين رأته ينهار ويدبل قبل الأوان • وافقت معه ، بعض الشيء ، على أن الحكومة الانتخابية — لا الملكية الوراثية — مدعاة للاضطراب والهرج الذين يصاحبان انتخاب الحاكم عندما يحين موعده • واحترمت فيه إخلاصه لأخيه ، حتى في الوقت الذي حزنّت فيه لنتيجة هذا الإخلاص ، ورأت جيمس منتصرا ، ورأته ثانية قائدا أعلى للأسطول ، يتعقب أعداءه ليشأّر منهم • وفي يناير ١٦٨٥ رفع جيمس دعوى مدنية ضد تيتس أوتس يطالبه فيها بتعويض قدره مائة ألف جنيه • وكسب جيمس القضية • ولما كان أوتس عاجزا عن الدفع فقد أودع السجن • وقال شارل في حزن بالغ « لست أدري ماذا سيفعل أخى عندما ينتهى الأجل وأفارق الحياة • أخشى ما أخشاه أنه عندما يأتى ليضع تاج الملك على رأسه ، أن يرغب على العودة من حيث أتى • على أنى سأعنى العناية كلها بأن أترك له مملكة يسودها السلام ، وكل أملى أن يحتفظ لها بهذا السلام لأمد طويل • ولكن هذا ينير كل مخاوفى ، ولست أومل فيه كثيرا ، بل لا يسكاد أمل يدور بخلدى أنه سيتحقق (١٦١) » • ولما اعترض جيمس على تجول شارل حول لندن راكبا عربته دون حرس ، أمره شارل أن يهدى من روعة : « لن يقتلني أحد ليجلسك أنت على العرش (١٦٢) » •

ولابد أنه اعترض على الأطباء • فإنه في ٢ فبراير ١٦٨٥ أصيب بحالة تشنج واضطراب شديدة ، شوّهت وجهه ، وجعلت فيه ، يرقى ، وأجرى

دكتور كننج عملية فصد بشق أحد الأوردة . وكان لهذا نتيجة طيبة .
ولكن مرافقى للملك استدعوا ثمانية عشر طبيباً آخرين ليشرحوا الدواء
ويصفوا الدواء . وطيلة خمسة أيام فى عذاب ألیم ، استسلم للملك للحملة التى
جردوها عليه مجتمعين . فبزلوا أورده ، ووضعوا كؤوس الحجام إلى
كتفيه . وقصوا شعره ليزيلوا البثور والقروح من جلدة رأسه ، ووضعوا
على باطن قدميه لصوقاً من القاروروث الحمام . وقال مؤرخ طبيب
« ولكى يزيلوا النزوات من عنقه نفخوا فى أعلى خياشيمه الخريق (وهو
عشب جميل الزهر) ثم جعلوه يعطس . ولكى يتقيأ صبوا فى حلقة الأنثيمون
وسلفات الزنك . ولتنظيف أمعائه أعطوه مطهرات قوية ، وعدداً من الحقن
الشرجية فى تعاقب سريع (١٦٣) » .

وفادى للملك الذى يحتضر زوجته التى عاشت فى شقاء عقيم ، ولم يكن
يدرك أنها جائية فى أسفل الفراش تدلك قدميه . وفى ٤ فبراير قدم له بعض
الأساقفة الأسرار الدينية الأخيرة وفقاً للطقوس الأنجليكانية ، ولكنه
رجام أن يكفوا ، ولما سأله أخوه ، هل يريد كاهناً كاثوليكياً أجاب
« نعم ، نعم ، من كل قلبى (١٦٤) » فأرسلوا فى طلب الأب جون هدزتون
الذى كان قد أنقذ حياة شارل فى معركة وورسيستر ، كما أن شارل كان قد
أنقذ حياة الأب جون أيام « الارهاب البابوى » وأعلن شارل إعترافه
بالمذهب الكاثوليكى ، واعترف بذنوبه وخطايا ، وغفا عن أعدائه ،
وطالب المغفرة من الجميع . ومسحوه مسحاً تاماً بالزيت المقدس ، وتلقى
الأسرار المقدسة . وطلب الصفيح والعفو ، بخاصة من زوجته ، ولكنه
كذلك أوصى أخاه خيراً بالسيدة لويز كيرووال وأبنائه (منها) « لا تترك
تلمى المسكينه تتضور جوعاً (١٦٥) » واعتذر لمن حوله عن أنه قضى مثل
هذا الوقت الطويل بشكل غير معقول ، وهو يعانى سكرات الموت (١٦٦) .

وعند ظهر اليوم السادس من فبراير ، كان دوق يورك ملساً .

الفصل العاشر

الثورة الجليلية ١٦٨٥ - ١٧١٤

١ - الملك الكاثوليكي : ١٦٨٥ - ١٦٨٨

من ذا الذي كان يستطيع أن يتخيل حين يقع بصره على الصورة (١) التي رسمها فانديك في اللونين الأزرق والذهبي لدوق يورك وهو في الثانية من عمره ، أن هذا الطفل البريء الحلي سيقضى قضاء مبرما على أسرة ستيوارت ، ويسكل آخر الأمر ، في « الثورة الجليلية » انتقال السلطة من الملك إلى البرلمان ، وهو ما كان أبوه قد بدأه بشكل مخز من قبل ؟ ولكن في الصورة التي رسمها ريلي (٢) للشخص عينه تحت اسم جيمس الثاني ، نجد أن الحياء قد انقلب إلى ذهول وارتباك . وأن الحساسية تغيرت إلى عناد وتصلب ، وأن البراءة تحولت بين أحضان العشيقات المذعنات الطيعات إلى لاهوت جامد لا ينشئ . فما كان إلا أن حدد هذا الخلق لصاحبه مصيرا قاجما ، وفيه ، وكما يحدث في كل التراجيديات أو المأسى الكبرى ، كان كل فريق يناضل من أجل ما يبدو له هو أنه حق ، ومن ثم يستحق منا بعض العطف .

لقد أوردنا من قبل ذكر بعض فضائل جيمس الثاني ، فسكهم من مرة عرض نفسه لخطر الموت في عمله في البحرية . ووازن الناس بينه وبين أخيه ، موازنة مرضيه ، في النشاط الحسكوى والإداري ، والاعتدال في الإنفاق ، وفي ارتباطه بكلماته . أنه استمسك بما أوصاه به شارل وهو يحتضر ، من العناية بأمر نل جوين ، فسدد ديونها ، وخصص لها ضيعة تسكفل لها رغد العيش . وبعد ارتقائه العرش ظل لبعض الوقت على علاقة مع آخر عشيقاته كاترين سدي . ولكنه بناء على اعتراضات الأب بنز أجزل لها المطاء على

خدماتها وأقنعها بمغادرة إنجلترا ، لأنه اعترف بأنه إذا وقع بهرم عليها ثانية فإنه لا يملك فسكا كما من سلطانها عليه (٣) . إن الأسقف بيرت الذي ساعد على خلعها ، حكم عليه بأنه « صريح غاوص بطبيعته ، ولو أنه في بعض الأحيان متلفف محب للانتقام ، صديق ثابت على العهد ، إلى أن أفسدت عقيدته الدينية مبادئه وميوله الأولى (٤) » وكان مقتصدا ينمى ثروته بسرعة ، ولم يعتمد قط إلى غش العملة ، كما كان رحيا بالشعب في موضوع الضرائب (٥) . إن ما كولى بعد أن دون ثمانمائة صحيفة عن حكم جيمس الذى لم يدم لأكثر من ثلاثة أعوام ، انتهى إلى « أنه نحلى بمناقب كثيرة ، إلى حد أنه لو كان بروتستانتيا ، لابل كاثوليسكيا معتدلا ، لكان عصره عصر زاهرا مجيدا (٦) » .

وتفاقت أخطاؤه بنمو سلطانه . وكان مغرورا متمعجرا حتى قبل اعتلائه العرش ، ينظر إلى معظم الناس باحتقار ، لا يفتح قلبه إلا لقلّة منهم ، وتمسك تمسكا حرفيا بنظرية أبيه ، وهى أنه ينبغى أن يكون للملك مطلق السلطة ، ولم يكن له للزواج الواقعى الذى كان لأخيه والذى أدرك به الحدود العملية لهذه السلطة المطلقة . ويجدر بنا أن نقدر حق التقدير غيرته الدينية ، ورغبته في منح إخوانه الكاثوليك في إنجلترا حرية العبادة والمساواة في الحقوق السياسية . وكان مخلصا لأمه وأخته الكاثوليكيتين ، وكان طوال الخمسة عشر عاما السابقة محاطا بالكاثوليك في بيته ، وكان موضع استنراب عنده أن الديانة التى أنجبت مثل هذا العدد الكبير من أفاضل الرجال وفضليات النساء ، يضع الانجليز أمامها العراقل ويبغضونها ويحدون من انتشارها . ولم يشاطر البروتستانت ما تناقلوه من ذكريات حيه في أذهانهم عن مؤامرة البارود ، أو خوفهم من أن يولى عليهم ملك كاثوليكي ، يميل . طاجلا أو آجلا ويقتنع ، بانتهاج سياسة ترضى البابا الايطلى . إذ انجلترا البروتستانتية كانت تشعر بأن أى ملك كاثوليكي لا بد أن يعرض للخطر استقلالها الدينى والفكرى والسياسى .

إن تصرفات جيمس الأولى بعد ارتقائه العرش خفضت من هذه المخاوف شيئاً قليلاً : أنه عين هاليفاكس رئيساً لمجلس الملك ، وسندرلند وزيراً ، وهنرى هايد (أرل كلاروندى الثانى) حاملاً لأختام الملك ، وكل هؤلاء من البروتستانت . وفى أول خطاب له فى هذا المجلس وعد بالابقاء على نظم الكنيسة والدولة ، وعبر عن تقديره لتأييد كنيسة أنجلترا لاعتلائه العرش ، ووعد بأن يوليها عناية خاصة . وعند تنويجه أدى اليمين للألوفة لدى ملوك أنجلترا الحديثين ، بالمحافظة على الكنيسة الرسمية وحمايتها . وحظى الملك جيمس الثانى لعدة شهور بشعبية لم تكن متوقعة .

وأول اجراء مؤيد للكاتوليكية اتخذه جيمس ، لم يكن يحمل عدواناً مباشراً على البروتستانت . أنه أمر بالإفراج عن كل المسجونين بسبب رفضهم تأدية قسم الولاء والسيادة . وبهذا أفرج عن آلاف من الكاثوليك ، بل أدخل معهم سبيل ألف ومائتين من الكويكرز وكثير من المنشقين غيرهم . ومنع إقامة الدعوى بعد ذلك فى المسائل الدينية . وأطلق سراح دانجى والوردات الكاثوليك الذين أودعوا السجن بناء على اتهامات تيتسى أوتس . وحوكم أوتس من جديد وأدين بتهمة الأيمان الكاذبة التى أدت إلى إعدام عدد من الأبرياء ، وأعربت المحكمة عن أسفها لأنها لم تستطع الحكم عليه بالإعدام ، وحكمت عليه بغرامة قدرها ألفان من الماركات ، وأن يربط خلف عربة ويحمله بالسياط مرتين علانية ، الأولى من أولدجيت إلى نيوجيت ، والمرة الثانية بعد الأولى بيومين ، من نيوجيت إلى تايبيرن ، وأن يوضع فى آلة التعذيب ، المشهورة ، خمس مرات سنوياً طيلة بقائه على قيد الحياة . وطاش أوتس بعد هذا التعذيب ، وأعيد إلى السجن (مايو ١٦٨٥) وطلبوا إلى الملك اعفائه من الجلد للمرة الثانية ، ولكنه رفض .

وتحطمت الهدنة المزعومة بين الشيع الدينية بثورة مزدوجة . ذلك أنه فى مايو نزل أرشيبالد كامبل ، إرل أرجيل التاسع ، فى اسكتلنده ، وفى ١٢ — قصة المضارة

يونية رسا جيمس دوق مونموث على الشاطئ الجنوبي الغربي لـ إنجلترا ، في مسعى مشترك لخلع الملك الكاثوليكي . وأصدر مونموث بلاغا وصم فيه الملك جيمس بأنة فاصب طاغية سفاح ، كما اتهمه بإحراق لندن وللؤامرة البابوية ، ودس السم لشارل الثاني ، وتعمد الغزاة ألا يضعوا السلاح أو يكفوا عن القتال حتى يخلصوا البروتستانتية وحریات الشعب والبرلمان . ومنى أرجيل بالهزيمة في ١٧ يونية ، وأعدم في ٣٠ يونية ، وبذلك أخفق الجناح الشمالی للثورة . ولكن أهالی دورستشير — وهم بيوريتانيون شديدو التمسك بمذهبهم — رحبوا بمونموث وحيوه مخلصا ومنقذا لهم . وانضم تحت لوائه عدد كبير جدا من الناس ، إلى حد أنه في ثقة وجلال ومهابة ، اتخذ لقب جيمس الثاني ملك إنجلترا . ولم يقدم له الإشراف والطبقات الغنية أى عون أو تأييد . وهزم جيشه المختل النظام على يد القوات الملكية في سدجور (٦ يوليه ١٦٨٥) وهذا آخر حرب جرى فيها القتال على تراب إنجلترا قبل الحرب العالمية . ولأذ مونموث بالهرب ، وتوسل إلى الملك أن يعفو عنه فأبى ، وضرب عنقه .

وتعقب جيش الملك ، بقيادة برس كيرك ، فلول الثوار ، وشنق الأسرى دون محاكمة . وشكل جيمس لجنة يرأسها قاضى القضاة جفرين ، لتذهب إلى المنطقة الغربية لتحاكم الأشخاص المتهمين بالإنتقام إلى الثورة أو التحريض عليها . وسمح للمحلفين بالاشتراك في المحاكمات ، باعتبار أن هذا من حق المتهمين ، ولكن جفرين قذف في قلوب المحلفين الرعب ، حتى أن قلة قليلة من المتهمين هي التي أصابت شيئا من الرحمة لدى هذه « المحكمة الدموية » (سبتمبر ١٦٨٥)^(٥) . وشنق نحو أربعمائته ، وحكم على ثمانمائته بالعمل الإجبارى في مزارع جزر الهند الغربية^(٦) . وكانت الإزابت في ١٥٦٦ وكرومول في ١٦٤٨ ، قد اتهما قبل ذلك بمثل هذه الأعمال الوحشية ،

(٥) Assizes الجلسات الدورية للمحاكم العليا في شكل مقاطعة

ولكن جفریز تفوق عليهما في إرهاب للتهمين والمخلفين والتجهم والمبوس ،
وصب الامنات على ضحاياه ، والتحديد في وجوههم في كثير من الخبث ،
والإدانة لمجرد الشك ، إلا إذا ساعدت رشوة مجزية على إقناعه بالبراءة (٨) .
وبذل جيمس جهودا متواضعة ليضع حدا للوحشية ، ولكن ما أن تمت
الإبادة الكاملة وخدمت النار المحرقة حتى رفع جفریز إلى مرتبة النبلاء ، وعينه
رئيسا للمجلس اللوردات (٦ سبتمبر ١٦٨٦) .

وأسهم هذا الاجراء الانتقامي في إبعاد النبلاء عن الملك . وعندما طالب
من البرلمان إلغاء « قانون الاختيار » (الذي يقضى باقصاء الكاثوليك عن
الوظائف ومقاعد البرلمان) وتعديل قانون « حق التحقيق في قانونية
الاعتقال » وإنشاء جيش دائم تحت امر الملك ، لم يستجب البرلمان لشيء من
هذا . فعطله جيمس (٢٠ نوفمبر) وأخذ يعين الكاثوليك في وظائف الدولة .
ولما اعترض هاليفاكس على امتحان البرلمان على هذا النحو ، عزله جيمس
من المجلس . وأحل محله ، رئيسا للمجلس ، سندرلند الذي أعلن تحوله إلى
الكاثوليكية على الفور (١٦٨٧) . وحين امتدح جيمس إلغاء لويس الرابع
لرسوم بات (٩) استنتجت إنجلترا أنه لو تمتع جيمس بمثل السلطة المطلقة التي
يتمتع بها البوربون ، لما تردد في إتخاذ خطوات مماثلة ضد البروتستانت في
إنجلترا ولم يخف جيمس اعتقاده بأن سلطته الآن باتت مطلقة بالفعل ،
وأن لويس الرابع عشر في نظره هو المثل الأعلى للملك . وقبل الاطانات من
لويس لفترة من الزمن ، ولكنه أبى عليه أن يعلى سياسة الحكومة
الانجليزية . فتوقفت الاطانات .

وكان لويس أكثر تعقلا فيما يتعلق بإنجلترا منه بالنسبة لبلاده . وعلى
حين أنه أضعف فرنسا باضطهاده الهيجونوت ، نراه يحذر جيمس من مغبه
التسرع في تحويل إنجلترا إلى الكاثوليكية . كما أن البابا أنوسنت الحادي
عشر زود جيمس بمثل هذه النصيحة . وعندما أرسل إليه الملك الانجليزي
بعده بقراب انضواء إنجلترا تحت راية الكنيسة الكاثوليكية في رومه (١٠) ،

نصحه البابا بأن يقتنع بالحصول على التسامح الديني للكاثوليك الانجليز ،
كمد حذر هؤلاء أن يكفوا عن الأظلم السياسية ، ووجه رئيس الجزويت
لتعنيف الأب بنزولومه على القيام بمثل هذا الدور الخطير في الحكومة (١١) .
إن البابا أنوسنت لم يخفف من غيرته الكاثوليكية ، ولكنه كان يخشى قوة
لويس الرابع عشر التي تبتغي التطويق والسيطرة ، كما كان يأمل في إمكان
تحويل إنجلترا من مجرد تابع أو خادم ذليل للسياسة الفرنسية ومشروطاتها
إلى قوة متوازنة ضدها . وأوفد البابا مبعوثا بابويا — للمرة الأولى منذ
عهد ماري تيودور — ليوضح لجيمس أن أى تصدع في العلاقة بين البرلمان
والملك لابد أن يضر بالسكنيسة الكاثوليكية (١٢) .

ولم يستفد جيمس من هذا النصيح . إنه أحس ، وكان في الثانية والخمسين
حين اعتلى العرش ، أنه قد لا يتيسر له فسحة من الأجل لتنفيذ التغييرات
الدينية التي ينشدها والتي يحبش بها صدره ، ولم يؤمل كثيرا في أن ينبج
ابنا ، وهنا قد تخلفه ابنته البروتستانتية ، وتقاب عمله رأسا على عقب ، إلا
إذا أقيم هذا العمل على أساس وطيء راسخ قبل موته . وطلعت آراء الأب
بنزولومه وسلطانهما على كل نصيح بالتروى والتريت . ولم يكتف للملك
بالذهاب إلى القديس ، تحفه الجلالة والمهابة للملكية ، بل طلب كذلك إلى
مستشاريه أن يلحقوا به لحضور القديس . وتكاثر الأساقفة حول الحاشية ،
وعين الكاثوليك في المناصب العسكرية ، وحرص القضاة (الذين كان له حق
تعيينهم وعزلهم) على تأكيد حقه في أعفاء هؤلاء المعينين من العقوبات
التي فرضها عليهم « قانون الاختبار » . وجند ، تحت أمرة ضباط أغلبهم
من الكاثوليك ، جيشا قوامه ثلاثة عشر ألف رجل لا يخضعون إلا
لأوامره هو ، وواضح أن مثل هذا الجيش كان يهدد استقلال البرلمان .
وعطل العمل بالقانون الذي يفرض العقوبات على حضور العبادة الكاثوليكية
علانية . وأصدر في يونيو ١٦٨٦ مرسوما يحرم على رجال الدين القاء عظات
في الخلقات المذهبية . ولما خطب الدكتور جون شارب في « دوافع

المرتدين « أمر جيمس بوصفه الرئيس الشرعى للكنيسة الإنجليزية ، هنرى كبتون أسقف لندن ، بفصل شارب مؤقتا من سلك رجال الكنيسة الأنجليكانية ، فرفض كبتون . فعين جيمس ، متجاهلا قانونا صدر فى ١٦٧٣ ، « محكمة كنسية » جديدة ، سيطر عليها سندرلند وجفريز ، وحاکت كبتون بتهمة شق عصا الطاعة على التاج ، وعزلته من وظيفته . وبدأت الآن الكنيسة الأنجليكانية ، التى كانت قد التزمت من قبل بالطاعة المطلقة ، نقول بدأت تقلب للملك ظهر المجن .

أن الملك جيمس كان يأمل فى كسب الكنيسة الأنجليكانية إلى جانب المصالح والتراضى مع رومه ، ولكن تصرفه المتهور قضى الآن على هذه السياسة . وبدلا من ذلك انتهج سياسة التوحيد بين الكاثوليك والمنشقين ضد الكنيسة الرسمية . ان وليم بن الذى وجد طريقه إلى قلب الملك وأحرز ثقته ، نصحه بأنه يستطيع أن يظفر بالتأييد الحار من جانب كل البروتستانت الانجليز ، فيما عدا الأنجليكانيين إذا هو بحجرة قلم ألغى القوانين التى تحرم العبادة العلنية على فرق المنشقين وفى ٤ أغسطس ١٦٨٧ أصدر جيمس أول « إعلان للتسامح » فى عهده . ومهما تسكن دوافع الملك ، فإن هذه الوثيقة تحتل مكانا فى تاريخ التسامح الدينى . إنه ألغى كل قوانين العقوبات فيما يتعلق بالديانة ، وأبطل كل الاختبارات الدينية ، ومنح الحرية الدينية للجميع ، وحظر التدخل فى شئون الاجتماعات الدينية المسالمة . وأخلى سبيل كل المسجونين بسبب الخلافات الدينية . أن هذا الاعلان ذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه إعلانات التسامح فى عهد شارل الثانى ، التى كانت قد أثبتت على الاختبار الدينى لمن يتولون الوظائف ، وسمحت بالعبادة الكاثوليكية داخل الدور الخاصة فقط . وأكّد للكنيسة الرسمية أن الملك سيواصل حمايته لها فى كل حقوقها القانونية . وبما يدعو إلى الأسى والأسف أن هذا الاجراء قدّر له أن يسكون إعلانا ضمينا للحرب على البرلمان ، الذى كان قد سن من قبل كل القيود وعدم الأهلية التى ألغيت الآن . ولو سلم

البرلمان بسلطة الملك في إلغاء التشريعات البرلمانية لكان لزاما أن تنشب الحرب الأهلية من جديد .

ودخل هاليفا كس الذي كان في هاتيك الأيام ألمع عقلية في انجلترا ،
للحركة بكتيب لا يحمل اسم المؤلف بعنوان « رسالة إلى منشق » (أغسطس
١٦٨٧) — « أكثر النشرات توفيقا في هذا العصر (١٣) » ، حيث فيه
البروتستانت ان يكونوا على يقين من أن هذا التسامح الذي قدم إليهم الآن ،
صدر عن ملك موال الكنيسة تدعى المصمة من الخطأ ، وتسخر التسامح
صراحة . وهل يمكن أن يكون نمة انسجام دائم بين حرية الفكر والتفكير
وبين كنيسة لا تخطئ ؟ وكيف يطعن المخالفون إلى أصدقائهم الجدد الذين
دمغوم بالأمس القريب بأنهم هراطقة ؟ « كنتم بالأمس أبناء الشيطان ،
وأنتم اليوم ملائكة النور (١٤) » . ومن سوء الحظ أن الكنيسة
الأنجليكانية كانت قد اتفقت مع رومه فيها يتعاق بأبناء الشيطان ، وأنها في
السنوات السبع والعشرين الأخيرة أخذت تخالفها لألوان من الاضطهاد
والتعذيب تفهم من قبول الحرية حتى على أيد كاثوليكية . وأسرع رجل
الدين الأنجليكانيون إلى التماس التمساح مع المشيخيين والديوريثانيين
والكويكرز ، وتوسلوا إلى هؤلاء جميعا أن يرضوا التسامح الراهن ،
ووعدهم على الفور بتساح يحظى بموافقة كل عن البرلمان والكنيسة
الرسمية . وبعث بعض المخالفين بخطابات شكر إلى الملك ، ولكن الأغلبية
نأت بجوابها في تحفظ . وعندما حانت ساعة العمل بهذا الجبع الملك .

وتابع جيمس خطواته . لقد تطلبت جامعات انجلترا لمدة سنوات مضت
من أساتذتها وطلبتها الالتزام بمذهب الكنيسة الأنجليكانية ، ولم يستثن
من ذلك إلا منح درجة اطالاب لوثري ، ومنح درجة نخزية لدبلوماسي . ولم
هلى أن التساوسة الأنجليكانيين رأوا في أكسفورد وكبريدج هيئات وظيفتها
الرئيسية اعداد الرجال لقبول المذهب الأنجليكاني ، وتقرر ألا ياتق بهما
أى كاثوليكى . ورغبة في كسر هذا القيد أرسل جودس ، إلى نائب رئيس

جامعة كمبريدج رسالة يلزمه فيها بأن يستثنى من الأنجليكاني راهبا بندكتيا يسمى للحصول على درجة الأستاذية . ورفض نائب رئيس الجامعة ففصل بأمر من لجنة المحكمة الكنسية . فأرسلت الجامعة وفدا من بين أعضائه ايزاك نيوتن ، ليشرح للملك موقف الجامعة . ولكن الراهب حل المشكلة بالانسحاب (١٦٨٧) . وفي نفس العام رشح الملك لرياسه كلية مجدلان في أكسفورد ، رجلا لا يتمتع بوزارة العلم ، ولكنه ذو ميول كاثوليكية ، فرفض الزملاء انتخابه ، وبعد نزاع طويل اقترح الملك مرشحا ليس عليه إلا اعتراض أيسر من سابقه ، وهو باركر أسقف أكسفورد الأنجليكاني ، ولكن الزملاء الذين يشكلون الهيئة الانتخابية رفضوه كذلك ، ففصلوا بأمر من الملك ، وعين الأسقف باركر قسرا .

واشتدت وطأة الاستياء عندما ارتضى الملك أكثر فأكثر في أحضان مستشاريه الكاثوليك . وكان إعجابه بالأب بتر شديدا إلى حد الإلحاف على البابا برسمه أسقفا ، بل كاردينالا ، ولكن أنوسنت أبى . وفي يولييه ١٦٨٧ عين جيمس الجزويتى القدير ، ولكن المستمتر ، عضوا في المجلس الخصوص (الملكي) ، فاحتج كثير من الكاثوليك الإنجليز بأن هذا تصرف طائش ، ولكن جيمس كان في عجلة من أمره ليصل بالنضال إلى نهايته . وكان في هذا المجلس الآن ستة من الكاثوليك ، مكنت لهم حظوتهم لدى الملك من السيطرة والغلبة (١٥) . وفي ١٦٨٨ عين أربعة من الأساقفة الكاثوليك لإدارة شئون الكنيسة الكاثوليكية في إنجلترا ، وخمس جيمس لكل منهم راتبا سنويا قدره ألف جنيه ، والواقع أن الكاثوليك شاركوا الآن الأنجليكانيين في أنه أصبح لكل من الفريقين كنيسة تساندها وتعاونها الدولة .

وفي ٢٥ أبريل ١٦٨٨ جدد جيمس نشر « إعلان التسامح » الذي مضى على صدوره عام واحد ، وأكد فيه من جديد عزمه على توفير حرية الفكر والضمير « لكل الإنجليز إلى الأبد . فمن الآن فصاعدا لا بد أن

يعتمد التعمين في الوظائف والترقى فيها على الجدارة الشخصية لا للذهب الدينى . وتنبأ بأن الاقلال من الخلفاء الدينية لابد أن يفتح أسواقا جديدة للتجارة الانجليزية ، ويزيد من ازدهار الأمة ورخائها . وتوسل إلى رعاياه أن يطرحوا جانبا كل الاحقاد ، وينتخبوا البرلمان الجديد دون تمييز بين المذاهب الدينية ، وللتحقق من انتشار هذا الاعلان الموسع على أوسع نطاق ممكن ، أصدر مجلس الملك توجيهاته إلى كل الأساقفة ليرتبوا مع كل رجال الدين أمر تلاوته في كل كنيسة في الأقاليم في إنجلترا ، يوم ٢٠ أو ٢٧ مايو . واستخدم رجال الدين على هذا النحو ، وسيلة للاتصال بالجمهور ، أمر له سوابقه الكثيرة في إنجلترا . ولكن لم تكن الرسالة قط يوما بغیضة إلى الكنيسة الرسمية إلى مثل هذا الحد . وفي ١٨ مايو رفع سبعة أساقفة أنجليكانيين إلى الملك ظلامة أو ضيق فيها أنهم لم ترض ضمائرهم أن يوصوا قساوسهم بتلاوة الاعلان ، لأنه يخرق قرار البرلمان بأنه لا يجوز إلغاء تشريع برلمانى إلا بموافقة البرلمان نفسه ، فأجاب جيمس بأن رجال اللاهوت هم الذين كانوا يلحون على عظاتهم وخطبهم دوما على ضرورة الامتثال للملك وطاعته بوصفه رئيسا للكنيسة ، وأنه ليس في الاعلان ما يخذش أو يسيء إلى كرامة أحد . ووعد بأنه سوف ينظر في ظلامتهم ، ولكنهم إن تلقوا منه ردا في الغد فعليهم أن يدعوا الأمر .

وفي صبيحة اليوم التالى بيعت آلاف النسخ من هذه الظلامة في شوارع لندن ، في الوقت التى مازالت فيه قيد البحث عند الملك . وأحس جيمس بأن هذا يحافى قواعد اللياقة ، وعرض الظلامة على القضاة الاثنى عشر فى المحكمة الملكية ، فأشاروا بأنه تصرف فى حدود حقوقه للمشروعة . ومن ثم أغفل الرد على الظلامة . وفى ٢٠ مايو تليت الظلامة فى أربع كنائس فى لندن ، وتجاهلوا فى الكنائس الست والتسعين الباقية . وشعر الملك بأن سلطته قد امتهنت ، وأمر الأساقفة السبعة بالمثل أمام المجلس . فلما جاءوا أبلغهم بأن عليهم أن يخضعوا للمحاكمة بتهمة نشر طعن أو قذف فيه تحريض

على الفتنة ، وعلى أية حال فإنهم لسكى يتفادوا السجن في الحال ، يمكن أن يقبل الملك منهم وعدا كتابيا بالحضور عند استدعائهم . فأجابوه بأنهم بوصفهم من أشرف المملكة ، ليسوا في حاجة إلى تقديم أى ضمان سوى كلمتهم . وأحاطهم المجلس إلى برج لندن (السجن) وحياتهم الأهالي وهتفوا لهم على الجانبين عند نقلهم عبر نهر التيمز .

وفي يومى ٢٩ و ٣٠ يونيه حاكم الأساقفة السبعة - أمام محكمة الملك - أربعة قضاة مع هيئته المحلفين . وبعد يومين من منافشات حادة في قاعة يحيط بها عشرة آلاف من أهالي لندن المهتاجين ، أصدر المحلفون حكما بعدم الإدانة . وابتهجت كل انجلترا البروتستانتية ، وقال أحد النبلاء الكاثوليك « لم تع ذاكرة الإنسان قط مثل هذه الصيحات والهمات ودموع الفرح التي حدثت اليوم (١٦) » وتوهجت الشوارع بالمشاعل والنيران التي أضرمت في الهواء الطلق . وسار الناس في موكب خلف شخص من الشمع تمثل البابا والكاردينالات والجزويت ، أحرقت وسط احتفالات صاخبة . إن هذا الحكم كان يعنى عند البسطاء من الناس أنه لا ينبغي التسامح مع الكاثوليكية ، وعند ذوى الادراك الأوسع أو العقل الأنضج كان يعنى تنبؤ حق البرلمان في سن قوانين ليس للملك أن يبطلها ، وأن انجلترا ، في الواقع ، حتى ولو لم تكن من الناحية النظرية ، ملكية دستورية ، لا ملكية مطلقة .

على أن جيمس الذى عراه الاكتئاب والحزن بسبب الهزيمة ، أخذ يتعزى بالطفل الذى وضعته له الملكة فى ١٠ يونيه ، قبل الموعد المتوقع للولادة بشهر ، وفى مقدوره أن يلشى هذا الولد النفيس تنشئه قوامها الولاء والاخلاص للكاثوليكية ، وكان يمكن للوالد والولد ، فى وجه أیه معارضه أو معوقات ، أن يقتربا يوما بعد يوم خطوة من الهدف المقدس - ألا وهو الملكية القديمة ، تعيش فى وئام ووافق مع الكنيسة ، فى انجلترا يسودها الهدوء والسلام والتراضى ، فى أوربا نادى على

ارتدادها عن عقيدتها ، موحدة في ظل هذه العقيدة الحق الوحيدة العالمية .

٢ — الاطاحة بالعرش والمملك في المهدي

ربما كانت هذه الولادة التي جاءت قبل الأوان هي التي جلبت السكاره على رأس الملك المتهور . واتفقت انجلترا البروتستانتية مع جيمس في أن هذا الولد قد يواصل السعي لاطاحة الكاثوليك ، ومن ثم يمكن القول بأنها خشيت له نفس السبب الذي أحبه الملك من أجله وأنكرت انجلترا البروتستانتية في أول الأمر ، بنوة الطفل للملك . واتهمت الجزويت بأنهم دسوا إلى مخدع الملك وليدًا اشتروه ، كجزء من مؤامرة أرادوا منها إبعاد الابنه البروتستانتية ماري عن ورائه العرش . وانعطفت انجلترا أكثر فأكثر نحو ماري ، على أنها أمل البروتستانتية الانجليزية ، ووطنت النفس على القيام بثورة أخرى لاجلاس ماري على العرش لتسكون ملكة انجلترا .

ولكن ماري كانت آنذاك زوجه وليم أورانيج الثالث ، رئيس الدولة في المقاطعات المتحدة . ماذا يقول وليم المزهر بنفسه في أنه مجرد زوج الملكة ؟ لماذا لا يعرض عليه الاشتراك في الحكم مع ماري ؟ وفوق كل شيء ، أنه هو أيضاً يجري في عروقه الدم الملكي الانجليزي . أن أمه كانت ماري أخرى ، وكانت ابنه شارل الأول . وليس في نية وليم على أية حال أن يلعب دور الزوج لزوجته الملكة . ومن الجائز أن الاستغفير الذي كان قد اتخذ سبيله إلى القارة هرباً ، عند إرتقاء جيمس العرش - أقنع ماري ، بايعاز (١٧) من وليم ، أن تتعهد بالطاعة التامة لـ « في كل الأمور » أيًا كانت السلطة التي تخولها التصرف فيها ، فوافقت على « أن يكون الحكم والسلطة في يديه هو ، لأنها لا ترغب إلا في أن يعمل هو بالوصية التي تقول : أيها الأزواج أحبوا زوجاتكم ، كما تعمل هي بالوصية التي تقول : أيتها الزوجات أطيعن أزواجكن في كل شيء » (١٨) . وتقبل وليم الطاعة ، ولكنه تجاهل التلميح الرقيق إلى علاقته بعشيقته السيدة

فليب (١٩)، فإن الحكام البروتستانت أيضا ، يجوز لهم فوق كل شيء ، أن يخذعوا أو يخونوا زوجاتهم .

إن وليم الذي يحارب لويس الرابع عشر حفاظا على استقلال هولنده والبروتستانتية ، راوده الأمل لبعض الوقت في كسب والد زوجته (جيمس) في تحالف ضد ملك فرنسا الذي كان يحطم توازن القوى والحريات في أوروبا ، ولما خاب فأله ، حمد إلى التفاوض مع الإنجليز الذين تزعموا حركة للقاومة ضد جيمس . إنه تفاوض من قبل عن الحملة التي إنظمها مونموث على الأرض الهولندية ضد الملك جيمس ، وسمح لها بالإقلاع من أحد الثغور الهولندية دون عائق (٢٠) ، وخشى بحق أن يكون جيمس قد دبر خطة لإعلان عدم أهليته لورانة عرش إنجلترا . ومتى ولد للملك ابن فن الواضح أن يستطحق ماري في العرش . وفي أوائل ١٦٨٧ أوفد وليم افرهارد فان ديكفيلد إلى إنجلترا ليقم علاقات ودية مع زعماء البروتستانت . وعادت البعثة برسائل مبشرة من مركيز هاليفاكس ، وأرسل شروزبرى وأرل كلارندون (ابن رئيس اللوردات السابق) ومن داني ، والأسقف كمتون وغيرهم . وكانت الرسائل فامضة مبهمة إلى حد لا يثمن عن خيانة صريحة ، ولكنها انطوت على تأييد حار لوليم في نضاله من أجل العرش .

وفي يونيو ١٦٨٧ أصدر كاسبار فاجل ، الحاكم العام ، رسالة أوضح فيها بصورة جازمة آراء وليم في التسامح . إن وليم يريد حرية العبادة للجميع ولكنه يعارض إلغاء « قانون الاختبار » الذي يقهر حق تولى الوظائف العامة على أتباع المذهب الأنجليكاني (٢١) . أن هذا البيان الرسمي للتحفظ أكسب وليم تأييد الأنجليكانيين البارزين . ولما قضى . ولد ابن لجيمس على فرص وليم في أن يخلفه (جيمس) قرر زعماء البروتستانت دعوة وليم للقدوم والاستيلاء على العرش عنوة . ووقع الدعوة (٣٠ يونيو ١٦٨٨) إرل شروزبرى الثاني عشر ، دوق ديفونشير الأول ، إرل داني ، إرل سكاربره ، وأمير البحر ادوارد رسل (ابن عم وليم رسل الذي أعدم في

١٦٨٣) ، هتري سدننى (أخو الجرنون) ، والأسقف كبتون . أما هاليفاكس فإياه لم يوقع متذرعاً بأنه يؤثر المعارضة الدستورية . ولكن كثيرين غير هؤلاء ، من بينهم سندرلند وجون تشرشل ، وكلاهما آنذاك فى خدمة جنبيه (س) بعثوا إلى وليم يؤكدون مساندتهم له (٢٢) . وكان الموقعون يعملون علم اليقين أن دعوتهم خيانية ، ولكنهم وضعوا حياتهم على أكتفهم صمداً ، ونذروا أموالهم للمغامرة ، من ذلك أق شروزبرى الكاثوليكي السابق الذى تحول إلى البروتستانتية ، رهن ضياعه نظير أربعين ألف جنيهه ، وعبر البحر إلى هولنده ليساعد فى توجيه الغزو (٢٣) .

ولم يكن فى مقدور وليم أن يتخذ أى اجراء فورى . لأنه لم يكن على ثقة من شعبه . كما كان يخشى أن يجدد لويس الرابع عشر هجومه على هولنده فى أية لحظة . وخشيت الولايات الألمانية كذلك مهاجمة فرنسا لها ، ومع ذلك لم تبد هذه الولايات اعتراضاً على غزو وليم لـانجلترا ، لعلها بأن الهدف الاسمى لـوليم هو كبح جماح ملك البوربون . أما حكومتا آل هابسبرج فى النمسا وأسبانيا فقد نسبتهما كشاكشيتهما فى بغضهما للملك لويس الرابع عشر ، وأقرتا خلع ملك كاثوليكي يصادق فرنسا بل أن البابا نفسه منح الحملة بركته ورضاه السامى . ومن ثم أصبح بإذن من الدول الكاثوليكية أن يأخذ وليم البروتستانتى على عاتقه الإطاحه بجيمس الكاثوليكي وتعتجل لويس وجيمس كلاهما الغزو ، وأعلن لويس أن روابط «الصدقة والتحالف» القائمه بين انجلترا وفرنسا نحتم عليه أن يعان الحرب على كل من يغزو انجلترا . ولكن جيمس الذى خشى أن يودى هذا البيان إلى توحيد صفوف رعاياه البروتستانت ضده بشكل أقوى ، نى وجود مثل هذا التحالف ، ورفض مساعدة فرنسا له . وانتصر غضب لويس الرابع عشر على استراتيجيته ، فأمر جيوشه بمهاجمة ألمانيا ، لاهولنده (٢٥ سبتمبر ١٦٨٨) ، ووافقت الجمعية العموميه للمقاطعات المتحدة ، التى تحررت لبعض الوقت من الخوف من فرنسا ، على أن يقود وليم حملته قد تودى بإنجلترا إلى الدخول فى

تحالف ضد فرنسا .

وفي ١٩ أكتوبر تحرك الأسطول — خمسين سفينة حربية ، وخمسمائة سفينة نقل ، وخمسمائة فارس ، وأحد عشر ألفاً من المشاة ، بما فيهم عدد كبير من الهيجونوت اللاجئين من الاضطهاد في فرنسا . وصدت الرياح الأسطول ، فانتظر حتى يهب « نسيم بروتستانتى » (مؤات) ، وأقلع ثانية في أول نوفمبر . وخرج أسطول إنجليزى ليعترض سبيله ، ولكن سرقة العاصفة . وفي ٥ نوفمبر ، وهو يوم عطلة وطنية احتفالاً بذكرى « مؤامرة البارود » ألقى الغزاة مراسيمهم في « ثورباى » ، وهو منفذ على المائش على شاطئ دورستشير . ولم يلق الغزاة أية مقاومة ، ولكنهم كذلك لم يلقوا أى ترحيب . فإن الناس لم يكونوا قد نسوا جفرز وكيرك . وأصدر جيمس أوامره إلى جيشه بالتجمع فى سالسبورى تحت أمرة لورد جون تشرشل ، ولحق الملك به هناك ، ولكنه وجد القوات يعوزها الولاء والاخلال ، يخيم عليها الفتور إلى حد الإرتياب فى اشتراكهم فى معركة ، فامر بالتقهقر ، وفى تلك الليلة (٢٣ نوفمبر) إنحاز تشرشل واثنان من كبار الضباط فى جيش الملك إلى وليم مع أربعمائة رجل (٢٤) . وبعد ذلك بأيام قلائل انضم جورج الدنركى ، زوج الأميرة آن ابنة جيمس ، إلى جماعة الخارجين على الملك ، والذين يتزايد عددهم ، ووجد الملك التمس ، لدى عودته إلى لندن ، أن ابنته آن وسارا جنجيز زوجة تشرشل قد هربتا إلى نوتنجهام ، وتحطمت روح الملك الذى كان يوماً مزهواً مختالاً ، حين وجد أن ابنتيه كليهما قد انقلبتا ضده . فأوفد هاليفا كس للتفاوض مع وليم وفى ١١ ديسمبر غادر الملك نفسه عاصمة ملكه . ولما عاد هاليفا كس من الجبهة ، وجد الأمة بلا رئيس ولا زعيم ، فعمد جماعة من النبلاء إلى تنصيبه رئيساً للحكومة مؤقتة . وفى يوم ١٣ تسلموا من جيمس رسالة تقول بأنه وقع فى أيدى الأعداء ، فى فاشرشام فى كنت . فأنفذوا بعض القوات لانتقاذه ، وفى يوم ١٦ عاد الملك الدليل إلى قصر هويتبول وأرسل

وليم أثناء تقدمه نحو لندن ، بمض حراس هولنديين زودهم بتعليمات بأن يحملوا جيمس إلى روشستر ، وهناك يسلمون له طريق الفرار . وقد كان ، ووقع جيمس في الفخ الذي نصب له ، وغادر إنجلترا إلى فرنسا (٢٣ ديسمبر) . وعمر ثلاثة عشر عاماً بعد سقوطه ، ولكنه لم ير إنجلترا ثانية قط .

ووصل وليم إلى لندن في التاسع عشر من ديسمبر . واستغل انتصاره في حزم وحذر واعتدال ممتاز ، ووضع حدا للشغب الذي آثاره البروتستانت في لندن وسلبوا فيه منازل الكاثوليك وأحرقوها . وبناء على طلب الحكومة المؤقتة ، دعا اللوردات والأساقفة وأعضاء البرلمان السابقين للاجتماع في كوفنتري . وأعلن « المؤتمر » الذي انعقد هناك في أول فبراير ١٦٨٩ أن جيمس اعتزل العرش بفراره . وعرض المجتتمعون أن يتوجوا ماري ملكة ، ويرتضوا وليم نائبا لها . فقبلا (١٣ فبراير) . ولكن المؤتمر قرن هذا العرض « باعلان الحقوق » الذي سنه وأصدره البرلمان من جديد في ١٦ ديسمبر على أنه « وثيقة الحقوق » ، وأصبح (بالرغم من عدم موافقه وليم عليه صراحة) جزءا حيويا أساسيا في قوانين المملكة :

حيث أن الملك السابق جيمس الثاني .. سعى جهده أن يدمر ويستأصل العقيدة البروتستانتية وقوانين وحریات هذه المملكة من جذورها :

١ — باتحاله لنفسه وممارسته سلطه التحلل من القوانين وإلغائها ، أو تنفيذها دون موافقه البرلمان . .

٣ — بإنشاء « محكمة خاصه بالقضايا الدينيه » .

٤ — بحماية أموال من أجل الملك وليستخدمها هو ، بحجه الامتيازات والحقوق الملكيه ، في غير الوقت ولغير الغرض الذين أقرهما البرلمان .

• — بتجنيد جيش ثابت والاحتفاظ به دون موافقه البرلمان .

٧ — بإقامه الدعوى أمام « محكمة الملك » في مسائل وقضايا هي من إختصاص البرلمان وحده .

وكل هذا يتعارض تماما ، وبطريق مباشر ، مع قوانين هذه المملكة

وشرائعها المعروفة . ولما كانوا (أعضاء البرلمان - المجتمعون) على ثقته تامه من أن . . أمير أورانج . . سوف يحميهم من إهدار حقوقهم التي أثبتوها هنا ، ومن أية محاولات أخرى للاعتداء على حقوقهم الدينية وحرياتهم ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المجتمعين في وستمنستر ، يقررون أن يعينوا وليم وماري ، أمير وأميرة أورانج ، ملكا وملكة على إنجلترا وفرنسا وأيرلنده ، وأن يقسم اليمين المذكورة بعد ، كل الأشخاص الذين يتطلب القانون منهم أن يقسموا يمين الولاء . .

« أقسم أنا (س من الناس) أن أمقت وأبغض وأبذ من كل قلبي على على أنها كفر وهرطقة ، تلك النظرية الدنسه اللعينة . . التي تقول بأنه يجب أن يخلع أو يقتل ، بيد رعاياه أو غيرهم أيًا كانوا ، كل أمير يصدر ضده البابا أو أية هيئة في المقر البابوي في رومه ، قرارا بالحرمان من الكنيسته أو من العرش . . كما أعلن أنه ليس ، ولا ينبغي أن يكون . لأي حاكم أو فرد أو مطران أو دولة أو عاهل أجنبي ، أية ولاية أو سلطه أو سيادة أو سلطان . . في هذه المملكة . أسألك العون على هذا يا رب . »

وحيث ثبت بالتجربه أنه لا يتفق مع سلامه هذه المملكة ولا مع مصلحتها أن يحكمها أمير مناصر للبابا ، أو ملك أو ملكه متزوجه من أحد أشياع البابا ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المذكورين يرجون فوق ذلك أن يسن تشريع يقضى بأن كل شخص أو أشخاص يذعنون أو سيدعنون للبابا أو الكنيسه في رومه ، أو تكون أو ستكون لهم علاقة بهما ، أو سيدعنون بالمذهب البابوي ، أو يتزوجون من نصيرات البابا والمشايعات له ، يجب استبعادهم وجرمانهم إلى الأبد من وراثه أو إمتلاك أو التمتع بتاج وحكومه هذه المملكة (٢٥) .

أن هذا الإعلان التاريخي عبر من النتائج الجوهريه لما أممته إنجلترا البروتستانتية « الثورة الجليله » : وهي الاعتراف الصريح بالسيادة التشريعية للبرلمان ، التي طالما نازع فيها أربابه من آل ستيوارث ، وحماية المواطن

ضد السلطة التعسفية للحكومة ، واستبعاد الكاثوليك من تولى عرش إنجلترا أو للمشاركة فيه . وبلى هذه النتائج في الأهمية ، هو ادماج سلطة الحكومة في الارستقراطية مالكة الأرض ، لأن الثورة بدأها كبار النبلاء ، وسار بها إلى غايتها صغار الملاك الممثلون في مجلس العموم . وواقع الأمر أن الملكية « المطلقة » المتمسكة « بحق الملك الإلهي » تحولت إلى أوليغاركية اقلية أو ذات علاقة بالملكية الخاصة للأرض . وهي أوليغاركية تميزت بالاعتدال والجد والبراعة في إدارة دفة الحكم ، متعاونة مع ملوك الصناعات والتجارة والمال ، كما أهملت بصفه عامه أمر الحرفيين والفلاحين . إن الطبقات المتوسطة العليا أفادت من الثورة بصورة فعالية . واستردت مدن إنجلترا حريتها ، لتحكمها أوليغاركيات التجار المستغلين . أن تجار لندن الذين أحجموا من قبل عن مساعدة جيمس ، أقرضوا وليم مائتي ألف جنيه فيما بين وصوله إلى العاصمة ، وتسلمه اعتمادات البرلمان لأول مرة (٢٦) . إن هذا القرض عزز اتفاقه غير مسطورة : فالتجار يتركون لملاك الأرض حكم إنجلترا ، على أن توجه الارستقراطية الحاكمه سياسه البلاد الخارجيه نحو المصالح التجارية ، وتحرر التجار أكثر فأكثر من النظم الرسمي .

ونعم عناصر مخزيه غير كريمه كانت في « الثورة الجليله (٢٧) » . فما يبدو أنه مدعاة الأسف أن تضطر إنجلترا إلى استدعاء جيش من هولنده ليصلح من أخطاء الإنجليز أنفسهم ، وأن تساعد الإبنه على خلع أبيها عن عرشه ، وأن ينحاز قائد جيشه إلى الغزاة ، وأن تشارك الكنيسه الوطنيه في الإطاحه بملك سبق لهذه الكنيسه أن بررت و قدست سلطته الإلهيه المطلقه في وجه أيه ثورة أو أي عصيان . كما كان مدعاة الأسف أن يكون تثبيت سيادة البرلمان على حساب مناهضه حريه العبادة . ولكن السيئات التي اقترفها هؤلاء الرجال والنساء طويبت في الأحداث مع رفاقتهم ، أما حسناتهم التي أدوها فقد بقيت بدمهم وآتت أكلها . أنهم حتى في إقامة الأوليغاركيه وضعوا أسس ديمقراطيه كان لا بد أن تنشأ مع توسيع القاعدة الانتخابية .

وجعلوا من دار الرجل الانجليزي قلعة ، آمننا نسبيا من « عجرفة الحكم » و « أخطاء الظلم » وأسهموا إلى حد ما في هذا التوفيق الذي يدعو إلى الإعجاب بين النظام والحرية ، وهذا هو قوام الحكومة الانجليزية اليوم . إنهم فعلوا هذا كله دون اراقة قطرة من الدم ، اللهم إلا ما نزل من أنف الملك المنزعج المنهوك الآخرق الذي تخطى عنه الجميع في ساعة العسرة .

٣ — انجلترا تحت حكم ولیم الثالث ١٦٨٩ — ١٧٠٢

عين الملك لمجلسه الخاص : داني رئيسا ، وهاليفيا كس حاملا للأختام الملكية ، وإرل شروزبرى وإرل نوتنجهام وزيرين ، وإرل بورتلاند رئيسا للخاصة الملكية ، وجلبرت بيرت أسقف سالسبوري .

وكان أبرز هذه الشخصيات وأكثرها نفوذاً هو جورج سافيل مركز هاليفيا كس . ولما كان ابن أخى لورد سترافورد الذى أعدمه البرلمان الطويل من قبل ، فإنه — أى هاليفيا كس — كان قد فقد جزءاً كبيراً من ممتلكاته فى الثورة الكبرى ، ولكنه كان قد أُنقذ ما يكفيه لعيش رغيد فى فرنسا أيام حكم كرومول . وهناك عثر على « مقالات » مونتاني ، وأصبح فيلسوفاً . وإذا كان المركيز قد ارتقى فيما بعد من السياسة إلى فن الحكم ، فما ذاك إلا لأن الفرق بين السياسة وفن الحكم هو الفلسفة أى القدرة على رؤية اللحظة العابرة والجزء الصغير فى ضوء الزمن الخالد ، والكل الذى يضم كل الأجزاء ، ولم يكن هاليفيا كس ليرضى قط بأن يكون كله رجل أعمال وكتب يقول : « إن حكومة العالم (يعنى حكم الشعوب) عمل عظيم ، ولكنه شاق خشن جداً كذلك ، إذا قورن برقة للمعرفة التأملية (١٢٨) » . فقد كان على السياسة فى بعض الأحيان أن تتعامل مع الجماهير وهو ما أزعج هاليفيا كس . إن فى الجمع من الناس قساوة مثرأكمة ، على الرغم من أنه ليس بينهم فرد واحد بالذات ردى الطبع ٠٠٠٠ ان الغمضة الغاضبة فى حشد ١٣ — قصة الحضارة

من الناس من ألعن وأسوأ الضوضاء في العالم» (٢٩) . لقد عاش من قبل في ظل «الارهاب البابوي» حين كانت الجماهير تقذف الرعب في المحاكم . ومذ رأى كثيراً من المذاهب الدينية للولمة بكسب الأنصار ، طرح معظم اللاهوت ، إلى حـد أنه ، كما يقول بيرنت «تحويل إلى ملحد جرىء ثابت العزم ، على الرغم من أنه كان غالباً ما يحتاج إلى بأنه ليس كذلك ، وأنه قال أنه يعتقد أنه ليس في العالم رجل ملحد . واعترف بأنه لم يستغ كل ما يفرضه رجال الدين على العالم . وكان مسيحياً ، امثالاً ، وآمن قدر طاقته» (٣٠)

وعندما عاد إلى إنجلترا استرد ممتلكاته ، وبلغ من الثراء حداً استطاع معه أن يكون أميناً . وخدم شارل الثاني حتى علم بأمر «معاهدة دوفر» السرية . ودافع عن حق جيمس في عرش إنجلترا ، ولسكن طامش في إلغاء «قانون الاختبار» ، وتطلع إلى حكم بروتستانتى بعد فترة حكم كاثوليكي قصيرة . وحقق آماله حين لعب دوراً قيادياً في انتقال الحكم بطريقة سلمية من جيمس الثاني إلى وليام الثالث . والتزم هاليفا كس بما يعتقده هو أنه حق ، وما كان لينحاز إلى أى حزب . وكتب في «أفكار وتأملات» : «ان الجهل يقود معظم الناس إلى الانضمام إلى حزب ما ، والجهل يحول بينهم وبين الخروج منه» (٣١) . ولما هوجم بسبب خروجه على اتجاهات الحزب ، دافع عن نفسه في كتيب مشهور «شخصية الحول القلب»

إن اللفظة البريئة (قلب حول) لا تعنى أكثر من أنه إذا كانت مجموعة من الرجال في قارب . ومال به قسم منهم إلى جانب ، فلا بد أن يميل الباقي بنفس القدر إلى الجانب الآخر ، ويحدث أن يكون هناك رأى ثالث لأولئك الذين يرون أنه يكفي أن يكون القارب مستويا أو متمدلاً (٣٢) .

وكان في بعض الأحيان عديم الضمير ، فصيحاً دائماً ، ذكياً بشكل خطير ولما اجتاحت صائدوا المناصب الذين ادعوا مساعدة الثورة ، بلاط وليام الثالث ناصبوه العداء لأنه قال : «إن الأوز أنقذ رومه ، ولكنى لا أذكر أن

هذه الأوزات هيئت في مناصب القناصل « (٣٣) (١)

ولابد أن هاليفا كس ابتسم ساخراً عندما حول « المؤتمر » نفسه إلى برلمان ، ثم عمد إلى ما حسبه أول ما تحتاج إليه الحكومة — ألا هو قسم جديد للولاء والطاعة لوليم الثالث ، لا بوصفه رئيساً للدولة فحسب ، بل للكنيسة الرسمية كذلك . أنها لإحدى مهازل التاريخ للضحكة ، إن الكنيسة الأنجليكانية وهي التي ظلت لمدة قرن من الزمان تضطهد الكلفنيين (البرسبترينز ، والبيوريتانز وغيرهم من مخالفيها) تقبل الآن رئيساً لها كلفنيا هولنديا .

إن أربعمائة من رجال الدين الأنجليكانين للمتعمسين بنظرية « حقوق الملوك الإلهية » ومن ثم ينازعون حق وليم في الحكم ، رفضوا أن يؤدوا القسم الجديد . وعزل هؤلاء الرافضون « من وظائفهم الكنسية ، وشكلوا شعبة أخرى من المنشقين أو المخالفين . أما الذين أقسموا اليمين فإن كثيراً منهم فعلوا ما فعلوا مع « تحفظ عقلي » (٣٥) ربما أضحك الجزويت الباقين في المنحلترا . ويرى بيرنت « أن مراوغة الكثيرين ومواربهم في موضوع يمثل هذه القدسية أسهم إسهاماً غير قليل في تدعيم الاتحاد الآخذ في التهاقم (٣٦) « وصنع الأنجليكانيون من ذوى المشارب والأمزجة المختلفة ؛ حين ألغى وليم — إذعاناً للشعور السائد بشكل طاغ في اسكتلندة — ألغى هناك النظام الأسقفي الذي كان آل سستيوارت قد أقاموه قسراً . وحزن كثير من الأنجليكانيين حين ألغوا وليم ينجح إلى التسامح الديني .

إن وليم الذي نشأ في أحضان الكلفنية الجبرية المؤمنة بالقضاء والقدر لم يطق تعاطفاً مع وجهة النظر الأنجليكانية التي تقضى بإقصاء البرسبترينز عن الوظائف العامة أو مقاعد البرلمان . انه شجع بالفعل التسامح في المقاطعات

(١) ان قأفاة الأوز المقدس المنفوج في السكايتول أيقظت الهامية الرومانية لتصد

بظارة ليلية قام بها السكت ٢٩٠ ق م (٣٤)

للتحدة ، ولم يكن يسمح بأى تمييز ديني فى صداقاته . إن الكلفنية الجبرية كانت قد أصبحت بالنسبة لوليم ثقة فى النفس وكأنها حامل من عوامل القدر . وفى ظل هذه الثقة ينظر ، دون ما تعصب ، إلى الانشقاق الدينى على أنه فى حد ذاته أداة من أدوات تلك « القوة الخفية » أكثر منها شخصية التى مماها تارة « الحظ » وتارة « العناية الإلهية » وأخرى « الله » (٣٧) . ورأى فى الخلافات الدينية فى انجلترا قوة تمزق الأمة اربا إذا لم يحدد التناغم والمحبة من مثل هذه القوة .

وكانت خطوة بارعة من جانب المجلس المخصوص (أو مجلس الملك) أن يمهّد بتقديم « قانون التسامح » الذى أعدّه ، إلى البرلمان ، إلى نوتنجهام الذى عرف بأنه ابن غيور بار للكنيسة الأنجليكانية . وأبطل دفاع نوتنجهام عن هذا القانون أمام البرلمان حجة المعارضين المتشددين وجردهم من سلاحهم وهكذا أقر المجلسان أول انجازات العهد الجديد دون معارضة تذكر (٢٤ مايو ١٦٨٩) . وسمح هذا القانون بحرية العبادة العلنية لكل الفرق التى سلمت بمبدأ التثليث وبأن الكتاب المقدس نزل به الوحي ، والى نبذت صراحة تحول خبز القربان والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وسيادة البابا الدينية . وسمح لأنصار تجديد العباد بتأجيله إلى سن البلوغ . وبعثت « قانون تثبيت التسامح » الذى صدر فى ١٦٩٦ مسمح للسكويكرز باستبدال وعد قاطع بالقسم سالف الذكر . واستثنى التوحيديون والكاثوليك من التسامح . وقام وليم ومجلسه فى مشروع « قانون التسامح الشامل » الذى قدم فى أواخر ١٦٨٩ ، بمحاولة للسماح بدخول كل طوائف للنشقين إلى الكنيسة الأنجليكانية ، ولكن لم تتم الموافقة على هذه الخطوة . وظل المنشقون محرومين من الجامعات ومن مقاعد البرلمان ومن الوظائف العامة إلا إذا تلقوا الأسرار المقدسة وفقاً للطقوس الأنجليكانية ، وجدد فى ١٦٩٧ العمل بقانون يقضى بعقوبة السجن على من يهاجم أية نظرية مسيحية أساسية . ولم يصدر بعد ذلك أى تشريع بالتوسع فى الحرية الدينية فى انجلترا حتى ١٧٧٨

وعلى الرغم من ذلك كان التسامح هنا أكبر منه في أية دولة أوروبية أخرى بعد ١٦٨٥ ، باستثناء للمقاطعات المتحدة . والواقع أن التسامح اتسعت دائرته في إنجلترا بازدياد قوة إنجلترا إلى الحد الذي تحررت معه من مخاوفها من أن تغزوها أية دولة كاثوليكية أو تعمل على تخريبها في الداخل .

إن الكاثوليك أنفسهم نعموا في عهد وليم بأمن متزايد . وأوضح للملك أنه ليس في مقدوره أن يحتفظ بالأحلاف مع الدول الكاثوليكية إذا هو صب العذاب والظلم على رؤوس الكاثوليك في إنجلترا (٢٨) . وظل القساوسة الكاثوليك لعشر سنوات يقيمون القداس في دور خاصة . وما كان أحد ليتحرش بهم لو تستروا في شيء من الحزم والحكمة ، أمام الجمهور . وفي أخريات عهد وليم (١٦٩٩) ، حين كان للمعتقلين (أنصار السلطة الملكية المطلقة) وللمتشددين ، الغلبة في البرلمان ، شددت القوانين ضد الكاثوليك ، فتمرض العقوبة السجن مدى الحياة أى كاهن يبدان بأقامة القداس أو أداء أية مهمة كهنوتية أخرى إلا في دار أحد السفراء . وتنفيذا للقانون كانت ثمة مكافأة قدرها مائة جنيه لمن يدبر الإدانة . ونص القانون على نفس العقوبة لأي كاثوليكي يقوم بالتعليم العام للصغار . وما كان يجوز للوالدين أن يرسلوا أولادهم إلى الخارج لتلقى العلم وفق للمذهب الكاثوليكي . وما كان يجوز لأي فرد أن يشتري أو يرث أرضا إلا بعد أداء القسم على أن الملك رئيس الكنيسة ، وعلى أنه لا يؤمن بتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . وصودر من أجل الحكومة ارث أي فرد امتنع عن أداء القسم (٣٩) . وفي ١٦٨٩ عفا وليم عن تيتس أوتس وأجرى عليه معاشا .

وجلب الكاثوليك في أيرلنده على أنفسهم اضطهادا مجددا بتنظيمهم ثورة تهدف إلى إعادة جيمس الثاني إلى العرش . ذلك أن ريتشارد تاليوت جمع جيشا قوامه ٣٦ ألف رجل ودعا جيمس للقدوم من فرنسا ليتولى قيادته . وكان لويس الرابع عشر قد أسكن الملك المخلوع أحد قصوره في سان جرمان ، وخصص له ستائة ألف فرنك سنويا ، وجهاز له الآن أسطولا

و إلى ميناء برست ، وودعه بكلبات مشهورة : « أن أحسن ما أرجوه لك ألا يرى الواحد منا الآخر ثانية أبدا (٤٠) » . وفي ١٢ مارس ١٦٨٩ ألقى جيمس مراسيه في أيرلنده مع ألف ومائتي رجل ، ورافقه تالبوت إلى دبلن ، حيث دعا برلمانا أيرلنديا ، وأعلن حرية العبادة لكل الرعايا المخلصين . واجتمع البرلمان في ٧ مايو وألقى « قانون التسوية » الذي صدر في ١٦٥٢ ، وأمر بإعادة الأراضي التي انتزعت من أصحابها منذ ١٦٤١ إلى ملاكها السابقين . وأرسل وليم قائده الهيجونوتي شومبرج إلى أيرلنده على رأس عشرة آلاف جندي . ورد لويس الرابع عشر على ذلك بإرسال سبعة آلاف من الفرنسيين المحنكين لمساعدة جيمس . وعبر وليم بنفسه إلى أيرلنده في يونيو ١٦٩٠ . فلما ألتقى الجمعان في معركة بوين (أول يولييه) فر جيمس من الميدان مذعورا ، ولو أنه اشتهر بالبسالة يوما ، حين رأى قواته تنهزم . وسرطان ماعاد أدراجه إلى سان جرمان .

وربما ابتهج وليم بمقد الصلح وإقرار السلام مع الأيرلنديين على أساس الوضع الراهن . ولكن الزعماء والقوات البروتستانتية الذين كانوا تحت أمرته ، طالبوا بالقضاء التام على العناصر الثورية ، وبالإستيلاء على المزيد من أراضي أيرلنده . وعاد وليم إلى إنجلترا تاركا جيشه تحت قيادة جودرت دي جنكل ، إرل أتلون آنذاك ، وكان شومبرج قد قضى محبه في انتصاره في بوين . وأوصى الملك جنكل بإصدار عفو عام دون قيد أو شرط ، وإطلاق حرية العبادة ، وبالإعفاء من أداء القسم بعدم الاعتراف بسيادة البابا ، وباسترداد الثوار لضياعهم شريطة أن يضموا السلاح (٤١) . وعلى أساس هذه الشروط ضمن جنكل استسلام جولواي وليمرك وبمقتضى معاهدة ليمرك (٣ أكتوبر ١٦٩١) وافق الثوار الأيرلنديون على التسوية التي عرضها وليم . وفي مارس ١٦٩٢ صدر بيان ملكي يعلن انتهاء الحرب مع أيرلنده .

واستنكر البروتستانت في أيرلنده هذه المعاهدة على أنها استسلام

ذليل للبابويين ، ولجأوا إلى البرلمان الانجليزي . ووضع هذا البرلمان على الفور (٢٢ أكتوبر ١٦٩١) قانونا يحرم من عضوية برلمان أيرلنده ، كل من يمتنع عن أداء عيمين السيادة وإعلان رفضه لفكرة تحول الخبز والخبز إلى جسد للمسيح ودمه . ورفض البرلمان الأيرلندي الجديد ، وكان بروتستانقيا تماما ، الاعتراف بمعاهدة ليمرك . وعلى حين كان وليم منهمكا في مكثيل أوربا ضد لويس الرابع عشر ، سن برلمان دبلن سلسلة جديدة من قوانين العقوبات ضد الكاثوليك في أيرلنده ، تنقض صراحة الصالح الذي وقعه وليم وماري من قبل ، ونصت هذه القوانين على عدم شرعية للمدارس والكليات الكاثوليكية ، وعلى أن القساوسة الكاثوليك معرضون للترحيل خارج البلاد ، وعلى أنه ليس للكاثوليك أن يحمل سلاحا ، أو يمتلك حصانا تزيد قيمته على خمسة جنيهات ، وعلى مصادرة أملاك أية وريثة بروتستانتية تزوج من كاثوليكى (٤٢) . واستمرت مصادرة أراضي أيرلنده حتى « لم يعد هناك في الواقع أرض تصادر » (٤٣) . وكاد يكون من المستحيل أن يسكب كاثوليكى أيرلندى قضية في محكمة أيرلندية ، وقل أن صدرت عقوبة على من يقترب جريمة ضد الكاثوليك . واستكمالا لخراب أيرلنده قضت قوانين برلمان إنجلترا قضاء تاما على صناعة الصوف التي كانت قد نمت إلى حد منافسة صناعة الصوف في إنجلترا ذاتها ، حيث حظرت هذه القوانين تصدير الصوف من أيرلنده إلى أى بلد آخر سوى إنجلترا ، وخنقت حتى هذه التجارة نفسها بما وضع من تعريفات جمركية معوقة عمدا (١٦٩٦) . ومن ثم انتشر الفقر والتسول والمجاعة والتمرد على القانون في الجزيرة ، خارج نطاق « البسال » الانجليزي (قسم في شرق أيرلنده حول مدينة دبلن) . وفي الستين عاما التي أعقبت الثورة الجمليلة هاجر من أيرلنده نصف الكاثوليك الذين كان عددهم يقرب من المليون في ١٦٨٨ ، أى أن أزكى الدماء وأطيب العناصر نزلت إلى البلاد الأجنبية .

وازدهرت آنذاك كل الطبقات الاقتصادية في إنجلترا فيما عدا طبقة

الكادحين (البروليتاريا) وطبقة الفلاحين . وعانى عمال النسيج من المنافسة الأجنبية ومن الاختراع . وفي ١٧١٠ أُضرب عمال الجوارب بسبب ادخال أنوال الجوارب واستخدام الغلمان لتشغيلها لقاء أجور منخفضة (٤٤) على أن الانتاج القومى كان آخذاً في الارتفاع . ويمكن أن نحكم على هذا الارتفاع من زيادة متوسط إيرادات الحكومة من ٥٠٠ ألف جنيه في القرن السادس عشر إلى سبعة ملايين ونصف للمليون من الجنيهات في القرن السابع عشر (٤٥) . وقد ترجع الزيادة إلى حد ما إلى التضخم ، ولكنها نتجت أساساً من التوسع في الصناعة وفي التجارة الخارجية .

ومع هذا لم يسكن الدخل كافياً ، لأن وليم كان يجند الجيوش لمحاربة لويس الرابع عشر ، فارتفعت الضرائب إلى حد لم يسبق له مثيل ، بل اشتدت الحاجة إلى مزيد من المال . وفي يناير ١٦٦٣ أحدث شارل مونتاجو — إيرل هاليفاكس الأول — بوصفه وزير الخزانة تغييراً أساسياً في مالية الحكومة ، باقناع البرلمان بطرح قرض عام قدره ٩٠٠ ألف جنيه ، ووعدت الحكومة بدفع ٧ ٪ فائدة سنوية عنه . وفي أخريات ١٦٦٣ ، حين زادت النفقات عن الإيرادات ، اتفق جماعة من أصحاب المصارف على اقراض الحكومة مبلغ مليون ومائتى ألف جنيه بفائدة قدرها ٨ ٪ . تحصل من رسم اضافى على السفن . وكانت فكرة القروض المتحدة (الجماعية) هذه ، قد اقترحها وليم باترسون قبل ذلك بثلاثة أعوام . وجاء الآن مونتاجو فعززها من الناحية الرسمية . وأقر البرلمان هذه الخطة . واتباعا للسوابق التي جرى عليها العمل في جنوة والبندقية وهولنده ، عمد المقرضون إلى تنظيم أنفسهم فيما يسمى « محافطو وشركة بنك انجلترا » الذي صدرت براءة تأسيسه في ٢٧ يولييه ١٦٩٤ . واقترضوا هم النقود من مصادر مختلفة بسعر ٤ ٪ . واقترضوها للحكومة بسعر ٨ ٪ ، وجنوا أرباحاً اضافية عن طريق القيام بكل الأعمال المصرفية . وهكذا نشأ بنك انجلترا ، وقدم للحكومة قروضا أخرى . وفي ١٦٩٦ حصل من البرلمان على حق احتكار مثل هذه القروض .

وبعد تقلبات كثيرة مر بها هذا البنك ، أصبح العامل الرئيسى فى استقرار الحكومة الانجليزىة المشهور منذ اعتلاء وليم ومارى عرش انجلترا حتى يومنا هذا . ومنذ ١٦٩٤ أصدر البنك أوراقا نقدية تضمنها الودائع ، قابلة للدفع بالذهب ، عند الطلب . وتداولها المتعاملون على أنها مال قانونى ، فكانت أول عملة ورقية حقيقية غير زائفة فى انجلترا (٤٦) . (٥)

واشتهر عهد مونتاجو فى وزارة الخزانة بعمل ممتاز آخر ، هو اصلاح العملة المعدنية . ذلك أن العملة الجيدة التى سكنت فى عهد شارل الثانى وجيمس الثانى اختزأت أو صهرت أو صدرت . أما العملة للشوهر أو التالفه منذ أيام اليزابث وجيمس الأول ، فقد طرحت للتداول والاستعمال ، وفقدت فى القوة الشرائية جزءا لا يستهان به من قيمتها الاسمية . ودعا مونتاجو أصدقاءه جون لوك واسحق نيوتن وجون سومرز ليعدوا لانجلترا عملة أكثر استقرارا فصمموا قطع نقد جديدة ذات حافة مسننة تتحدى التشويه . واشتردوا العملة القديمة وسحبوها من التداول بقيمتها الاسمية ، وتحملت الحكومة الخسارة الناجمة عن ذلك . وصار لانجلترا نقد ثابت صحيح ، كان مثار لحسد أوروبا ، ومثالا تحتذى . وفى ١٦٨٩ فتحت بورصة الأوراق المالية فى لندن ، وبدأت فترة مضاربة مالية ، سرطان ما أنتجت « شركة البحر الجنوبى » (١٧١٩) وانفجار « فقاعتها » (١٧٢٠) . وفى ١٦٨٨ أقام إدوارد لويذ فى أحد مقاهى لندن شركة للتأمين تعرف الآن بكل بساطة تبعت على الفخر باسم « لويذز » وفى ١٦٩٣ أصدر آدموند هاللى أول نشرة وفيلجته معروفه . وأكدت هذه التطورات المالية ووسعت دور المصالح القائمة على المال فى شئون إنجلترا ، وحسدت بداية الأهمية المتزايدة

(٥) صدرت أول عملة ورقية معروفة فى القرن السابع الميلادى فى الصين على عهد أسرة تانج . ورأى ماركو بولو مثل هذه العملة فى الصين ١٢٧٥ ، وحاول إدخال أسلوب التعامل هذا الى ايطاليا . واستخدمت السويد أوراق العملة فى ١٦٥٦ ومسنمة ماساشوست ١٦٩٠ .

لرأسماليين - الذين يمدون برأس المال والذين يديرونه - في بريطانيا .
وفوق الاقتصاد الآخذ في التوسع احتدمت المعركة السياسية حول
النزاع على السلطة بين المحافظين (التوري) مالكي الأرض وبين الأحرار
(الهويج) جامعي الثروات ، وبين الإنجليز والاسكتلنديين ، وصحب هذا
مؤامرات لقتل وإيم ، ومشروعات لاعادة جيمس إلى العرش . ولم يكن
وليم مهتما بالشئون الداخلية في إنجلترا ، انه غزاها أساساً ، ليجمع بينها
وبين هولنده (موطنه الأصلي) ودول أخرى ، لتقف جميعاً في وجه لويس
الرابع عشر ، أو كما قال هاليفاكس من قبل : « أنه استولى على إنجلترا وهو
في الطريق إلى فرنسا » (٤٨) ، ولما اكتشف الإنجليز أن هذا هو شغله الشاغل
أوالشعور المستولى عليه فقد كل شميته ولم يعد ملكاً محبوباً . وقد بقسو
دون مبالاة ، كما حدث حين أمر باستئصال عشيرة مكند ونالد في جلنكو
لتأخرهما في إعلان ولائهما له (١٦٩٢) ، وكان « صموتا فظاً غليظاً في
المعاشرة » لأنه كان يتكلم الانجليزية بصعوبة . ولم يمن كثيراً بالسيدات .
وكان سلوكه على المائدة يدعو إلى الاشتزاز ، حتى أطلق عليه سيدات
المجتمع في لندن « الدب الهولندي الوضع » (٤٩) ، وأحاط نفسه بحراس
ورفاق هولنديين ، ولم يخف رأيه في تفوق الهولنديين تفوقاً عظيماً على
الإنجليز في المقدرة الإقتصادية والتفكير السياسي والأخلاقى وعلم أن
كثيراً من النبلاء يفاوضون جيمس الثانى سرا . ووجد الفساد يستشري
حوله إلى درجة تلوثه هو نفسه ، وانجر في شراء أصوات أعضاء البرلمان .
وكان الخير كل الخير فيما يمكن عمله لكبح جماح فرنسا الهائجة المتحفزة .
وحيث ترك وليم الشئون الداخلية لوزرائه ، فقد بدأ عهد الوزراء
الأقوياء (١٦٩٠) و « الوزارات » المتضامنة في المسئولية والعمل ، والتي
يسيطر عليها رجل واحد ، هو في العادة وزير الخزانة . وفي ١٦٩٧ جاء
أعداؤه المحافظون (التوري) أثر انقلاب إنتخابى ، ومن ثم حدوا من
سلطانه ونازعوه سياسته الخارجية ، إلى حد أنه فكر في الاعتزال

(١٦٩٩). ولكنه حين رقد رقدته الأخيرة (٨ مارس ١٧٠٢) وقد أنكم الربو والسل جسمه ، كان يمكن أن يتعزى عن هزأته فى الداخل حين يدرك كل الإدراك أنه هياً لانهلتر. مشاركة أكيدة فى « الحلف الأعظم » (١٧٠١) الذى استطاع بعد اثنى عشر عاما من الصراع ، أن يخضع وبذل الملك البوربونى العظيم ، وينقذ استقلال أوروبا البروتستانتية ، ويطلق يد انجلتر فى بسط نفوذها على العالم .

٤ — انجلترا فى عهد الملكة آن : ١٧٠٢ - ١٧١٤

بعد وفاة الملكة ماري ١٦٩٥ أصبحت أختها آن وريثة العرش . ومذ نشأت آن وسط الخطر والشغب ، أصبحت بنتا مخلوعة القوادى ، قوية الخلق ، بسيطة التفكير ، قوية الشعور ، تلتهمس العزاء والسوى والجراءة فى صداقة خاصة متواضعة مع رفيقة صباها ساره جننجر الضاحكة الوفية الشكاكة الوائقة من نفسها المتفعمه بالحياة والنشاط . وفى ١٦٧٨ تزوجت سارة التى كانت تكبر آن بخمس سنين من جسون تشرشل ، وفى ١٦٨٣ تزوجت آن من الأمير جورج الدنركى . وحالف التوفيق الزوجيين كليتهما . ولكنهما لم تمسا العلاقة الوثيقة بين المرأتين . وتخلت آن عن كل الشكليات والرمميات ، فاطلقت مازحه على سارة (التي كانت آنذاك وصيفة مخدومها) « مسز فريمان » وأصرت على ألا تنادىها سارة « بالأميرة » بل « مسز مورلى » ولما تخطى الزوجان عن الملك جيمس وانحازا إلى وليم ، كأن أمام آن أن تختار بين أمرين أحلاهما مر : بين الوالد والزوج ، ولسكن حبها لزوجها ولصدىقتها أوجب عليها السفر إلى نوتنجهام (٢٨ نوفمبر ١٦٨٨) . وفى ١٩ ديسمبر عادة هى وسارة إلى لندن وإلى ملك أجنبى غريب عنهما .

لم تأخذ آن قط نفسها بحب وليم ، ولقد ما أحست بالامتهان والأذى والألم ، حين منح أحد أصدقائه ضيعة أبيها التى كان لها نصيب فيها . وكانت فى ١٦٩١ تتطلع إلى عودة أبيها إلى عرشه . واشتبه وليم ، بحق ، فى أن

قشرشل (إرل مالبرو آنذاك) وزوجته سارة تمحيطان له الدسائس مع الملك المخلوع. وأمرت الملكة ماري أختها آن بطرد سارة من بطانتها، ولسكن الأميرة رفضت. وفي صباح اليوم التالي (يناير ١٦٩٢) عزل مالبرو من مناصبه الرسمية، وأبعد هو وسارة عن الحاشية، وبدلاً من أن تفترق الأميرة عن صديقتها، تحدثت الملكة (وليم وماري) وخادرت قصر هويتول لتعيش مع سارة في «سيون هاوس». وفي ٤ مايو أودع مالبرو سجن لندن. وكثيراً ما كانت سارة تزوره هناك. وعرضت أن تنهى صداقتها للأميرة آن لتهدي من غضب الملكة. ولهذا كتبت آن لسارة تقول:

«في آخر مرة كان هنا وورستر، أبلغته أنك عرضت على عدة مرات أن تبتهدى عني... وإني لا توصل إليك» من أجل يسوع المسيح، ألا تعودى إلى مثل هذا الحديث ثانية. وإني لأؤكد لك أنك إن أقدمت على مثل هذه الجفوة القاسية، فإنني لن أنعم بلحظة من الهدوء والراحة بعد ذلك. فإن فعلت دون موافقتي، (ولو قدر لي أن أوافق لما كان لي أن أرى وجه الله قط) فلسوف أعزل الحياة، ولا أرى العالم بعد ذلك، وأعيش حيث ينسأني البشر جميعاً (٥٠)».

ولما لم يقم أى دليل حاسم على اشتراك مالبرو في أية مؤامرة لاعادة جيمس إلى العرش، ولما كان وليم في ميسس الحاجة إلى قادة مهرة. فإنه أدخل سبيله وأعادته إلى سابق مكانته ونفوذه.

ولما أصبحت آن ملكة، وكانت آنذاك في سن الثامنة والثلاثين، بدل وغير إبنارها الخلق الكرم والأمانة والإخلاص والعزلة، من طبيعة البلاط الإنجليزي، فلم يجد المولعون بالقصف والمصخب واللهو والقبحور إليه منفذاً. وآووا ساخطين ناقلين إلى المقاهي والمواخير. وحل رجل الأخلاق أديسون محل روشستر المستهتر الخليع. وكتب ستيل «البطل المسيحي». وكان لتجنب الملكة آن التردد على المسرح ونفوذ حياتها، بعض الأثر في تحسين أسلوب المسرح الإنجليزي. وعبرت الملكة عن ورعها

وتقواها بأن حوت إلى فقراء رجال الدين في الكنيسة الرسمية نصيب العرش في « بشائر النصار » والعشور الكنسية (١٧٠٤) ، ولا تزال الحكومة البريطانية تدفع « منحة الملكة آن » هذه . وأنجبت الملكة أطفالا في كل عام بانتظام تقريبا ، ولكنهم ماتوا في سن الطفولة عدا واحدا . ولم يبق على قيد الحياة بعدها منهم أحد . ولشد ما أظلمت حياتها وتحطم قلبها لكثرة ما شيعت من جنازات .

ولو كان في مقدور الملكة الآن أن تحدد هي السياسة القومية لعقدت الصلح مع فرنسا ، واعترفت بما طالب به أخوها من أبيها المتوفى ، أن يتربع على العرش تحت اسم جيمس الثالث . ولكن ولیم الثالث بأرادته القوية كان قد أدخل إنجلترا في « الحلف الأعظم » كما أن الرجل الذي غلبت آراؤه ومعهورته على كل ما عداها ، والذي كانت قد رفعت فور اعتقالها العرش من إرل إلى دوق مالبرو ، نقول أن هذا الرجل أغراها بأن تشق في حكمها لمدة أكثر من عشر سنوات بحرب دامية باهظة التكاليف . وكانت لا تزال واقعة تحت تأثير صديقتها . وهي آنذاك دوقه والمشرقة على ملابس الملكة ، وعلى أموالها الخاصة . وكانت سارة تتقاضى ٥١٠٠ جنيه سنويا . واستغلت تأثيرها الذي كاد يكون مغناطيسيا على الملكة ، في زيادة ثراء زوجها ، فعين مالبرو قائدا عاما للقوات البرية . كما عين بناء على اقتراحه (صديقه سدي جودولفين وزيراً للخزانة لأنه كان أمينا بشكل شاذ ، كما كان قديرا في الشؤون المالية كما كان يمكن الاعتماد عليه في تحويل الأموال فورا إلى قادة الجيش الذين كان جنودهم يبدون من الشجاعة بقدر ما يقبضون من نقود . وقد يشوقنا أن نسجل أن جودولفين مات فقيرا ، بعد أن قضى نصف صره يضطلع بشؤون الخزانة ، وذهبت دوقه مالبرو العنيدة إلى أنه « خير من عاش من الرجال » (٥١) ومهما يكن من أمر فإنه قضى وقت فراغه في صراع الديكة وسباق الخيل والميسر ، وهي رذائل معتدلة تعتبر مقاربه للفضيلة .

أن تجرد آن من الذكاء والفضيلة مسموح لوزرائها بالاستحواذ على قدر

كبير من السلطة وحقوق المبادرة التي كان البرلمان قد تركها للتاج ، ومن ثم نشبت المعارك السياسية (فيما عدا فترة حكم جورج الثالث) بين البرلمان والوزراء ، لابين البرلمان والملك . وفي ١٧٠٤ دخل الوزارة شخصيات جديدة : روبرت هارلي وزير الدولة ، وهنري سانت جون وزير للحرب . ومس كلا الرجلين تاريخ الأدب مساهمات : فان هارلي كان يستخدم ديفو وسويفت ، كما كان سانت - بوصفه فيسكونت بولنجبروك فيما بعد - ذا تأثير على بوب وفولتير ، كما أنه هو نفسه مؤلف أبحاث كانت يوما مشهورة . « أبحاث في دراسة التاريخ » و « فكرة عن ملك محب لوطنه . وكان كلا الوزيرين يد من الشراب ، ولكن هذا لم يكن ميزة في انجائهما في ذاك الزمان . وكلاهما تولى منصبه بعون من مالبرو ، ولكنهما اهلبا ضده بتهمة اطالة أمد حرب الوراثة الأسبانية دون مبرر يدعو إلى ذلك .

ولد سانت جون (١٦٧٨) في عهد شارل الثاني ، وتوفي (١٧٥١) في أول سني « دائرة المعارف » ، ومن هنا مثل تمثيلا دقيقا عبور أوروبا من عودة الملكية إلى عصر الاستنارة في فرنسا ، وتلقى أيام صباه تعليما دينيا كثيرا ، وأهدر قدرا كبيرا منه أيام كان رجلا . وأنه ليروي لنا : « كنت أرغم حين كنت صبيا على قراءة تعليقات دكتور مانتون الذي كان يفخر بأنه ألقى ١١٩ عظة عن المزمور رقم ١١٩ (٥٢) » وفي ايتون وأكسفورد سعى جون وأحرز قصب السبق في الذكاء والتسكاهل الخالي من الهموم ، والانغماس في الملذات والادمان على الشراب في لباقة . وكان يفاخر بأنه يتناول أكبر قدر من الخمر دون أن يشمل . وبأنه يخادن بهظ الماهرات نفقة في المملكة (٥٢) . وفي لحظة أراد أن يسكنني فيها بواحدة تزوج من وريثة ثرية . ولكنها سرعان ما هجرته لخياته ولكنه استمر ينعم بضياعها ، مع بعض فترات انقطاع يسيرة . ووجد في ١٧٠١ أن الانتخاب للبرلمان لا يكلف كثيرا ، نسبيا . وهناك حظي في مجالس العموم بنفوذ عظيم نتيجة لوسامته وسرعة بديهته وبيانه المتدفق . ودخل الوزارة ولما تجاوز

السادسة والعشرين من العمر .

وكان أبرز انجازات هذه الوزارة هو توحيد برلمان انجلترا واسكتلندة،
فإن البلدين على الرغم من خضوعها للملك واحد، كان لهما برلمانان منفصلان .
واقترادات متعارضة ومذاهب دينية متنافرة ، وشنت كل منهما الحرب
على . الأخرى ، زد على ذلك أن التمرينة الجركية التي أملاها الحقد والحسد
بين البلدين عوقت تجارتها . وفي ١٦ يناير ١٧٠٧ وافق البرلمان الاسكتلندي،
وفي ٦ مارس صدقت المملكة ، على بنود « الاتحاد » التي بمقتضاها أصبحت
المملكتان — على حين احتفظت كل منهما بمذهبها الديني المستقل —
« المملكة المتحدة » لبريطانيا العظمى ، ولها برلمان بريطاني واحد ، مع
حرية مطلقة في الاتجار . على أن يختار ١٦ نبيلًا اسكتلنديًا لمجلس اللوردات،
وينتخب ٤٥ عضوًا في اسكتلندة لمجلس العموم ، وينضم صليب سان جورج
وصليب سانت أندرو في علم جديد واحد . « اتحاد جاك » ولم يرحب أهالي
اسكتلندة بالاندماج، ولمدة نصف قرن من الزمان تفاقمت العداوات القديمة .
ولكن ما جاءت ١٧٥٠ حتى اعترف الجميع بأن الاتحاد كان خيرًا وبركة . وتخلصت
اسكتلندة من نفقات مزدوجة ، وانطلقت طاقتها العسكرية لتبدع في النصف
الثاني من القرن الثامن عشر باكورة نتاج مشرق من الأدب والفلسفة .

وعزل هارلي وسانت جون عن الوزارة أثر فوز الأحرار (الهويج)
في أكتوبر ١٧٠٧ ، ولكن استمر تأثير نفوذ هارلي على الملكة عن طريق
ابنة عمه « مسز أيجيل ماشام » وكانت دوقة مالبرو قدمت هذه السيدة
إلى الملكة آن من قبل . تخفف هدوؤها ولين عريكتها ورقة مزاجها عن
الملكة التي أرهقت مسؤولياتها الجديدة أعصابها كما أزعجت نظرات سارة
وصوتها العنيف . ورحبت سارة لبعض الوقت يتحررها من مداومتها على
البقاء في البلاط ، ولكنها سرعان ما فزعت حين اكتشفت تضاؤل نفوذها
لدى الملكة : وكادت أن تكون بالطبيعة « محافظة — توري » تقية محبة
للسلام ، على حين كانت سارة « متحررة — هويج » ضعيفة الإيمان ،

تسخر صراحة من حقوق الملوك الالهية على أنها تدجيل على الشعب وخداع له . وكم ألت على الملكة في تأييد مشيئة مالبرو في شن الحرب على فرنسا حتى يتم القضاء عليها . وكشفت آن عن شيء جديد من قوة العقل والتفكير بعد أن تقلص ظل سارة . وعندما ثارت ثائرة ساره عليها بشكل وقع طردها من الحاشية (١٧١٠) ، وصرحت الملكة آنذاك بأنها تحررت من أسر طال أمده .

وفي نفس السنة مادفوز « المحافظين » في الانتخابات ، هارلى وبولنجبروك إلى الحكم ، وحل هارلى محل جودولفين في وزارة الخزانة ، وتولى بولنجبروك وزارة الحربية ، وأصبح جوناثان سوينت كاتب الكراسات والنشرات ، البالغ الأثر ، لهما . وعين هارلى إرل أكسفور (١٧١١) وحظى سانت جون بلقب فيكونت بولنجبروك (١٧١٢) . وابتهجت موهبات لندن حين ممنع بنياً ترقية بولنجبروك ، قائلات : « أنه يحصل على ثمانية آلاف جنيه في العام ، وكلها لنا (*) » وقدمت الأغلبية « المحافظة » إلى المجلسين (١٧١١) مشروعا ينص على أنه يشترط لترشيح للبرلمان امتلاك أرض ذات دخل سنوى لا يقل عن ٣٠٠ جنيه للممثل المدن ، وستائة جنيه لملندوب الريف (٥٤) . لقد بلغت الارستقراطية مالكة الأرض ذروتها آنذاك في إنجلترا .

واعترفت الوزارة الجديدة — على حين رفض مالبرو — انهاء الحرب بعقد صلح منفرد مع فرنسا . وفي ١٧١١ قدم هارلى إلى مجلس العموم اتهاما بالاختلاس ضد مالبرو . فتذرعوا بأن الدوق كان يجمع ثروة خلسة طائلة بوصفه القائد العام للقوات البريطانية ، وعن طريق مهام أخرى يتولاها ، وأنه بالاضافة إلى رواتبه السنوية التي تصل إلى نحو ٦٠ ألف جنيه . كان يقبض ستة آلاف جنيه سنويا من سيرسولومون مدينا متمهد توريد

(*) من رسالة مؤرخة : ٢ أبريل ١٧٦٩ ، لفلاتير ، وهو في الغالب كلدوج .

الخبز للجيش . وأنه اقتطع لنفسه خاصة ٢١٪ من المبالغ التي كان يتسلمها من الحكومات الأجنبية لدفع رواتب القوات الأجنبية التي كانت تحت امرته . ولم توق عمارة قصر بلنهم الضخم لأحد إلا لعين مهندس . وكان مالبرو يشيد هذا القصر في وودستوك قرب أكسفورد . وكانت الملكة قد أمرت أن تتولى الحكومة الاتفاق على بنائه . وشرعوا في البناء ١٧٠٥ ، ولم يتم في ١٧١١ إلا نصفه الذي تكلف ١٣٤ ألف جنيه بالنفعل (٥٥) ، وكان انتمائه يستلزم مبلغ ٣٠٠ ألف جنيه دفعت الحكومة أربعة أخماسه (٥٦) .

ودفع مالبرو بأن المبلغ المقتطع (٢١٪) كان مسموحا به بحكم العادة والعرف للقائد للصرف منه — دون تسجيل علني في الحسابات — على الخدمات السرية وأعمال التجسس التي أتت بأحسن النتائج . وأبرز ترخيصا موقعا من الملكة تميز له الاقتطاع ، كما أكد الحلفاء الأجانب أنهم أيضاً فوضوه في الاقتطاع ، وزاد ناخب هانوفر على ذلك أن هذا المال استخدم بحكمة « وأدى إلى كسب معارك كثيرة (٥٧) » ، أما عن المنحة التي كان مالبرو يتقاضاها من مدينتا فإن دفاعه كان غير مقنع . وأدانه المجلس بأغلبية ٢٧٦ صوتا ضد ١٧٥ . وعزلته الملكة من جميع مناصبه (٣١ ديسمبر ١٧١١) ، فعاد انجلترا إلى المذني الذي اختاره لنفسه بنفسه ، وعاش في هولنده أو ألمانيا حتى نهاية العهد . وعين الوزراء جيمس بذر دوق أورمند الثاني ليتولى قيادة الجيوش البريطانية ، وفوضوه في اقتطاع نفس النسبة من عقود توريد الخبز ومن الأموال الأجنبية ، وهو ما أدانوا به مالبرو (٥٨) . ولكن الشعب البريطاني قبل سقوط مالبرو على أنه خطوة على طريق السلام ،

وتفجر النزاع من جديد بين حزبي المحافظين والأحرار حول موضوع الوراثة الأسبانية . ذلك أنه في ١٧٠١ حين مات آخر من بقي على قيد الحياة ١٤ - أمة الحضارة

من أولاد الملكة آن ، أقر البرلمان - رغبة منه في احباط عودة أسرة ستيوارت إلى الملك مرة ثانية ، قانونا للتسوية ينتقل عرش انجلترا بمقتضاه في حالة عدم وجود عقب لوليم الثالث والأميرة آن - إلى الأميرة صوفيا وورثتها من صلبها ، وهم بروتستانت . وكانت صوفيا ، زوجة ناخب هانوفر ، بروتستانتية يقيما ، يجري في عروقتها بعض الدم الملكي البريطاني لأنها من حفيدات جيمس الأول . وكانت آن قد قبلت هذا التدبير ضمنا للحفاظ على انجلترا بروتستانتية . ولكن الآن وقد آذنت شمس حياتها بغميب فإن عطشها على أخوها المحروم من حقه في العرش ، نما واشتد ، ولم تدع مجالا للشك في أنها لابد أن تساند مطالبة جيمس الثالث بالعرش إذا هو ارتضى نبذ الكاثوليكية . وأعرب الأحرار « عن تأييدهم التام لوراثة آل هانوفر للعرش ، على حين مال المحافظون إلى وجهة نظر الملكة . وفاوض يولنجهبروك جيمس ، ولكن الأمير أوى التخلي عن عقيدته الكاثوليكية . على أن يولنجهبروك القدى لم تكن الديانات في نظره إلا أثوابا متباينة تكمسو الموت جلالاتا وشرقا . حاول بكل الوسائل إلغاء « قانون التسوية » وابقاء وراثة العرش لجيمس ، وعاب على هارلى تباعده الشديد في هذه المسألة ، وبناء على اقتراح منه عزلت الملكة آن هارلى وهي كارهة . وبدا لمدة يومين اثنين أن يولنجهبروك سيد الموقف .

ولكن في ٢٩ يولييه انتاب الملكة مرض خطير نتيجة تأثرها وحزنها الشديد للخلافات بين وزرائها . وهنا تسلم البروتستانت في انجلترا المقاومة آية عودة للملكية آل ستيوارت ، ونبذ المجلس المخصوص سياسة يولنجهبروك ، وأقنع الملكة المترددة بتعيين دوق شروزبرى وزيرا للخزانة ورئيسا للحكومة . وفي أول أغسطس ١٧١٤ فارقت آن الحياة . وكانت صوفيا قد قضت حبها قبل ذلك بشهرين ، ولكن « قانون التسوية » مازال قائما . وأرسل المجلس إلى ابن صوفيا ، ناخب هانوفر ، يبلغه أنه أصبح الآن جورج الأول ملك انجلترا

أن سنى حكم ولیم ومارى وآن (١٦٨٩ - ١٧١٤) كانت سنين حيوية بارزة فى تاريخ انجلترا . وعلى الرغم من الإنحلال الخلقى والفساد السياسى والنزاع الداخلى ، شهدت هذه السنوات انقلابا أمرييا (تغييرا جذريا فى الأسرة المالكة) ، وإقرار البروتستانتية نهائيا فى انجلترا ، وانتقال سلطة الحكم من الملك إلى البرلمان بشكل لارجعة فية . كما شهدت نشوء الوزراء الأقوياء ، وهذا بدوره أدى إلى الاتقاص من سلطان الملك . وشهدت لآخر مرة فى ١٧٠٧ اعتراض الملك على تشريع البرلمان ، وخطت خطوة أوسع فى اقرار التسامح الدينى وحرية الصحافة . ووحدت بطريقة سلمية بين انجلترا واسكتلنده ، فى دولة أقوى ، هى بريطانيا . وأحبطت محاولة أقوى ملوك العصر الحديث ليجعل من فرنسا الدكتاتور الأمر الناهى فى أوربا ، وبدلا من ذلك جعلت انجلترا سيدة البحار ، ووسعت ممتلكات انجلترا فى أمريكا ، مما كان له نتائج تاريخية بعيدة المدى وشهدت هذه السنوات أيضا انتصارات العلم والفلسفة فى انجلترا فى « مبادئ اسحق نيوتن » ، وفى كتاب لوك « بحث فى التفاهم الإنسانى » . أما سنى حكم آن الوديعه ، وهو حكم قصير لم يتجاوز اثنى عشر عاما ، فقد كان عهد انبثاق فى الأدب — ديفو ، أديسون ، ستيل ، والفترة الأولى من حياة الاسكندر بوب — لم يكن له نظير فى أى مكان فى العالم فى ذاك العصر .

الفصل الحادى عشر

من دريدن إلى سوبفت ١٦٦٠ — ١٧١٤

١ — صحافة حرة

ترى ماذا حدا برجل فرنسى أن يكتب فى ١٧١٢ بزت د انجلترا
فرنسا فى الانتاج الأدبى كما وكيفا وأن مركز الحياة العقلية والفكرية ..
انتقل أكثر فأكثر إلى الشمال حتى قام الإنجليز حوالى عام ١٧٠٠
« بأكبر دور خلاق (١) » إن رجلا انجليزيا نعم بمآثر فرنسا يرد التحية
فيقول : إن جزءا من هذا الحافز جاء عن طريق آداب السلوك والعادات التى
جلبها شارل الثانى والمهاجرون العائدون ، وأن جزءا آخر ينبع من ديكارت
وباسكال وكورنيل وراسين وموليير وبوالو ومدموازيل دى سكوبرى
ومدام دى لافايت ، ومن الفرنسيين المقيمين فى انجلترا مثل سانت أفرموند
وجرامونت . وأنا لئنم التأثير الفرنسى فى الملهيات الشهوانية الجنسية
وللأسيات البطولية التى ظهرت على المسرح فى عودة الملكية ، وفى الانتقال
من غزارة النثر فى عهد اليزابث وتلافيف فترات ملتون إلى النثر الممذهب
المعقول المنطقى الذى دبعه دريدن وهو يكتب المقدسات وإلى الشعر
الذى نظمه بوب : ومضى الآن قرن من الزمان (١٦٧٠ — ١٧٧٠) كان
الأدب الإنجليزى فيه نثرا ، حتى ولو كان موزونا مقفى ، ولكنه نثرا نخبيا
واضحا ممتازا من الطراز الأول .

ومهما يكن من أمر فإن الأثر الفرنسى كان مجرد استعثناء ، ولكن
جذور المسألة كانت فى وسع انجلترا نفسها : فى عودة الملكية المقرونة
بالبهجة والفرح والتحرر ، وفى التوسع الاستعمارى ، وفى إثراء الفكر بفضل

التجارة ، وفي الانتصارات البحرية على الهولنديين ، وفي قهرها (١٧١٣) لفرنسا التي كانت قد انتصرت على أسبانيا . ومن ثم انفتح الطريق إلى الامبراطورية شمالا ، وكما أجرى لويس الرابع عشر الرواتب على المؤلفين بوصفها رضىخة أو رشوة تمنح الأ نصار ، فان الحكومة الإنجليزية ، بطريقة شبيهة بهذه ، كافأت الشعراء أو الناثرين المحبين لوطنهم أو المشايخين للحكومة — دريدن كوتجريف ، جاي ، بربر ، أديسون ، سويفت — بالرواتب تخصصا لهم ، ويتناول الطعام على موائد الارستقراطية ، وبمحبة على المبيعات من المطبوعات ، أو بالوظائف ذوات الدخل الكبير والجهد اليسير في الإدارة ، من ذلك أن أحدهم صار وزيرا ، ونظر فولتير في شيء من الحسد إلى هذه الوظائف السياسية^(٢) . ورعى شارل الثاني العلم والجمال لا الأدب والفن . ولم يسكثرت ولم الثالث والملكة آن بالأدب . ولكن وزراءهم — حين وجدوا أن الكتاب نافعون في عصر الصحافة والنشرات والمقاهى والدعاية — أغدقوا المال على الأقلام التي يمكن أن تخدم التاج أو الحزب أو الحرب . وأصبح الكتاب سياسيين ثائوين ، وبعضهم مثل بربر Prior ، صار من رجال السلك الدبلوماسى ، وبعضهم مثل سويفت وأديسون يرع في التعيين في الوظائف وفي المحسوبة وفي التدخل في شئون السلطة . وأهدى المؤلفون أعمالهم إلى اللوردات وسيدات المجتمع ، تقديرا كريما لما ينتظر أن يحظوا به من خيرات وفضل وعطف ووصال ، في عبارات اهداء ملؤها المديح والاطراء والتعنيات والتعنيات ، مما جعل هؤلاء السيدات وأولئك اللوردات أمسى من أبولو أوفينوس في جمال الجسم والقوام ، ومن شكسبير وسافو في كمال العقل والذهن .

وساعدت الحرية الذهب على اطلاق العنان لغيضان المداد وجريان القلم . وكانت قصيدة ملتون « أريو باجيتيكا » قد اخفقت في القضاء على « قانون الرقابة » ، الذي تحسكت به الرقابة في الصحافة في عهد ملوك أسرتى التيودور وستيوارت ، واستمر القانون نافذ المفعول في عهد كرومول غير المستقر ،

وبعده في عودة الملكية لآل ستيوارت ، ولكن حين بدأت حكومة جيمس الثاني في إزطاج الأمة ، شرع عدد أكبر فأكبر من كتاب الكراسات والنشابة يتحدون القانون ويدخلون السرور على قلوب الشعب . وعندما اعتلى وليام الثالث العرش ، كان هو وأنصاره « الأحرار » مدينين بأكبر الفضل للصحافة إلى حد أنهم طارضوا تجديد قانون الرقابة ، فانتهى العمل به ١٦٩٤ ، ولم يجدد ، وتدعت حرية الصحافة تلقائياً . وربما ظل الوزراء الملكيون يعتقدون الكتاب بسبب هجماتهم العنيفة المنتظمة على الحكومة وظل « قانون التجديف » (١٦٩٧) يفرض عقوبات صارمة على التشكك في أساسيات الدين المسيحي ، ولكن انجلترا نعمت منذ ذلك الوقت فصاعدا بحرية الأدب التي أسهمت ، على الرغم من سوء استخدامها غالباً ، إسهاماً كبيراً في نمو الفكر الانجليزي .

وتضاعف عدد الدوريات ، وانتظم صدور الصحف الأسبوعية منذ ١٦٢٢ ، وعظمتها كرومول جميعاً ماعدا اثنتين ، ورخص شارل الثاني في صدور ثلاث منها تحت إشراف رسمي ، أصبحت واحدة منها هي « أكسفورد » وفيها بعد لندن جازيث « الناطقة باسم الحكومة » وكانت تصدر نصف شهرية أو نصف أسبوعية منذ ١٦٦٥ . وفور إلغاء قانون الرقابة صدرت عدة صحف أسبوعية . وفي ١٦٩٥ أسس المحافظون أول جريدة يومية انجليزية « ساعي البريد Post Boy » والتي لم تصدر إلا أربعة أيام فقط ، حيث طاكسها « الأحرار » في الحال بصحيفة « البريد الطائر Flying Post » . وأخيراً في ١٧٠٢ أصبحت The English Gourant هي الصحيفة اليومية المنتظمة في انجلترا — فرخ صغير من الورق مطبوع على وجه واحد فقط ، تقص الأنباء ولا تدون آراء ، ومن هذه الهبات المنتظمة نشأت عمالة الإعلان التي تراها اليوم بين أيدينا .

وأتى ديفو بمستوى جديد في صحيفه « ريفيو » (١٧٠٤ - ١٧١٣) وكانت أسبوعية تقدم التعليقات كما تقدم الأنباء . وهي التي بدأت القصة

المسلسلة وتبعه ستيل في « ناتلر » (١٧٠٩ - ١٧١١). وسما هو وأديسون بهذا التطور إلى ذروته التاريخية في « سبكتاتور » (١٧١١ - ١٧١٢) وروى حكومة المحافظين التوزيع الإجمالي وتأثير الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية ، فقرضت عليها ضريبة ثمة تتراوح بين نصف بنس وبنس واحد. بها جعل البقاء مستحيلا بالنسبة لمعظم الدوريات . وكانت « سبكتاتور » إحدى الدوريات التي احتجبت . وقال سويفت لبطلته وصديقه ستلا : « لقد دمروا شارع Grub بأمره »^(٣) (الشارع الذي يقطنه محررو الصحف) . وأصدر بولجبروك في ١٧١٠ « اجزامر Examiner » الأسبوعية ليدافع فيها عن سياسة وزارة المحافظين . ووجد في جونانان سويفت رجلا واسع الاطلاع لاذع القدح والطعن ، متوقد الذكاء . لقد وقع المال على أداة جديدة ، وطنى سلطان الصحافة الدورية شيئا فشيئا على تأثير المنابر في تشكيل الرأي العام ، وإعداده للأهداف الخاصة ، ودخلت التاريخ قوة جديدة تنزع عن الناس الصبغة الدينية وتنزع بهم إلى التعلق بالأمور الدنيوية .

١١ - المسرحية في فترة عودة الملكية

فيما بين عامي ١٦٦٠ و ١٧٠٠ كان ثمة أداة أخرى شكت أو شوهت أو عبرت مجرد تعبير عن روح لندن المجردة من الحيوية والنشاط . وحيث استطاب شارل الثاني المسرحية الباريسية فإنه أجاز فتح مسرحين : الأول للملك وجامعته في « دروري لين » والثاني لدوق يورك وجامعته في « لندون ان فيلدز » وفي ١٧٠٥ افتتح مسرح الملكية في هايماركت ، ولكنها نادراً ما شهدت التمثيل فيه . وفي أيام شارل الثاني كان مسرحان اثنان يقيان بالحاجة عادة . وظل البيوريتانيون يقاطعون المسرحية ، أما الجمهور بصفه عامه على أيه حال ، فلم يكن يرخص له بدخول المسارح بين ١٦٦٠ و ١٧٠٠^(٤) ولم يقصد إليها في معظم الأحوال إلا كل عربي يد ماجن من رجال الحاشية ، وحنالة الطبقة الأرستقراطية والمتصلين بها ، والأثرياء المتعطلين الذين

يقضون أوقاتهم فى المسارح والنوادر وسباق الخيل وغيرها . يقول :
دكتور جونسون الوقور : « أن المحامى الوقور ليحط من قدره ويمتنع
كرامته ، وأن المحامى الناشئ ليسىء إلى سمعته ، إذا غشى بيوت الاباحية
للنحلة هذه (٥) » وشكل النساء قسما صغيراً من النظارة على أمن إذا ذهبن
إلى المسرح كن يخفين شخصياتهن وراء الأقنعة (٦) . وكانت العروض تبدأ
فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، حتى إذا تحسنت الإضاءة فى الشوارع (حوالى
١٦٩٠) أجلت إلى السادسة . وكان أجر الدخول أربعة شلنات للمقصورات
والمقاعد الخلفية شلنين ونصف وللشرفات شلناً واحداً . وكانت أجهزة التأثير
المسرحى وتغيير المناظر أكثر إتقاناً بكثير مما كانت عليه فى أيام اليزابيث .
ولو أن حجرة نوم واحدة وملحقاتها ربما كانت تسكنى لمعظم ملهيات عصر
عودة الملكية ، وحلت الممثلات محل الغلمان فى تأدية أدوار النساء ، وكن
كذلك عشيقات ، من ذلك أن مرجريت هيوز التى مثلت ديدمونا لأول مرة
ظهرت فيها امرأة على المسرح الانجليزى (٨ ديسمبر ١٦٦٠) كانت عشيقة
الأمير روبرت (٧) . وفى عرض مسرحية دريدن « الحب الاستبدادى »
تعلق قلب شارل الثانى لأول مرة بخليفته نل جوين التى كانت تمثل دور
طاليريا (٨) . إن طبيعة جمهور المشاهدين ، ورد الفعل ضد البيوريتانية ،
وأخلاق البلاط ، وذكريات روايات عصرى اليزابيث وجيهس الأول (وبخاصة
روايات بن جونسون) وأحياء هذه الروايات واستعادة تلك الذكريات من
جديد ، وتأثير المسرح الفرنسى والملكيين المهاجرين ، كانت كلها عوامل
تجمعت لتشكيل المسرحية أيام عودة الملكية .

وكان الإسم اللاحق فى « مسرحية النساء » فى عودة الملكية هو دريدن
لنتركة مؤقثاً ، لنتحدث عن مسرحية توماس أوتواى « الحفاظ على فينيسيا »
التي عمرت بعد كل روايات دريدن وظلت تمثل حتى ١٩٠٤ . إنها قصة حب
مطعمه بمؤامرة أصدقاء كوت دى أوزونا لقلب سناتو فينيسيا فى ١٦١٦ .
ويرجع مصادفته من نجاح فى البداية من ناحيه ، إلى الصورة الساخرة التي

رسمتها لإرل شافتسبرى الأول (عدو شارل الثانى وصديق لوك) فى شخصيه أنطونيو الذى يحب أن تضربه عشيقته البغى ، ومن ناحية أخرى إلى التشابه بين هذه المؤامرة وبين المؤامرة البابويه «الحديثه» ومن ناحية ثالثه إلى تامل توماس بترتون ومسز اليزابيث بارى ، ولكن الروايه تقف اليوم على قدميها إن مناظرها الهزليه سخيفه مؤذيه ، خانتها تنشر الموت فى إجماع أقرب شبيها بالمسرحيه الموسيقيه (الأوبرا) ، ولكن حبكه الروايه متقنه دقيقه ، وشخصيها مصورة تصويراً يميزاً ، والحركة مسرحيه إلى أبعد حد ، والشعر المرسل فيها ينافس مثيله فى المسرحيه فى عصر اليزابيث ، باستثناء مارلو وشكسبير . ووقع أوتواى فى غرام مسز بارى ، ولكنها أثرت عليه بمعاملة إرل روشستير ، وبعد كتابه عدة مسرحيات أخرى ناجحه أخرج الشاعر سلسله من الروايات لم يكتب لها النجاح ، وانحدر إلى مهاوى الفقر والعوز وفى روايه أنه مات جوعاً (٩) .

إن ذكرى المسرحيه فى فترة عودة الملكيه حيه من أجل ملهياتها . فإن ما كان فى هذه الملهيات من مرح وسخرية ، ومحاورات داعرة ، ومغامرات فى الخدع ، بالإضافة إلى قيمتها فى أنها مرآة تعكس حياة طبقه واحده فى جيل واحد . كل أولئك أكسبها شعبيه جزئيه ، إن لم تكن مختهله لانتكاد تستحقها . فإن مجالها ضيق إذا قيست بملهيات عصر اليزابيث أو موليير ، وأنها لا تصور الحياه بل تصف عادات المتعطلين المتسكعين فى المدن والحاشيه الخليعه المشتهكه ، وتتهجاهل الريف إلا إذا أخذوه هدفًا للاستهزاء والسخرية ، أو « سيديريا » يننى إليها الأزواج زوجاتهم للمتطفلات . إن بعض للمسرحيين الإنجليز شاهدوا موليير يعمل أو يمثل رواياته ، واستعار بعضهم شخصيه أو حيلكات مسرحياته ، ولكن أحدا منهم لم يبلغ نزعه فى مناقشه الأفكار الاساسيه ، فالفكره الاساسيه الوحيدة فى هذه الملهيات هى أن الرضى هو الهدف الرئيسى لأعظم عمل بطولى فى الحياه . وكان المثل الأعلى للرجل فيها هو ما وصفه دريدن فى « المنجم الهزاه » على أنه « سيد ماجد ، رجل ثرى

طافل يغشى النوادي وللقاهى وللسارح والمواخير ، يرتدى أفخر الثياب ، يأكل ويشرب ويفسق ويعاشر البغايا إلى أقصى حد ممكن . وفى رواية فاركو « خداع العاشقين » جاء على لسان أحد الشخصيات ، وكأنما يقول سيد مذهب لآخر : « إنى أحب جوادا جميلا ولكنى أتركه لرجل آخر ليتولى العناية بأمره ، وإنى كذلك بالمثل أحب سيدة جميلة » (١٠) وهذه لا يعنى أنه لا يشتهى زوجة جاره ولا يمد عينيه إليها ، بل أنه يريد أن يستمتع بكل مفاتها وأطايها ، على حين ترك زوجها أن يعنى شئونها وينفق عليها . وفى رواية كونجريف « طريق الحياة الدنيا » يقول ميرابل للمشوق موضع الإعجاب لزوجته صديقه « يجب أن تشمرى بالاشتزاز والنفور والسكرامية لزوجك مما يجعلك تستمتعين بحبيبك أو عشيقك » (١١) . ويندر أن ترى الحب فى هذه الروايات يرتفع فوق الشهوة الجسدية التى تلتهم بين جوانح الطرفين ، يريدان إطفاءها . وإنما لتلهم عند قراءتها أن تقع العين على ظل للمسافر النبيل والشرف ، ولكننا لا نرى فيها ألا أخلاقيات للمواخير وبيوت اللطارة .

إن وليم وتشرلى هو الذى استهل هذا التقليد . وكان أبوه ملكيا من أسرة عريقة تملك ضيعة كبيرة ، وأرسل ولده إلى فرنسا لتلقى العلم ، عندما تولى البيوريتانيون مقاليد الحكم فى إنجلترا ، إصرارا منه على ألا ينشأ الولد بيوريتانيا . ولم يعتنق وليم قط هذا المذهب ، ولكن الأميرة صمقت حين أصبح كاثوليكيًا . وسرطان ماعاد إلى البروتستانتية لدى عودته إلى إنجلترا ، وهناك درس فى أكسفورد وتركها دون الحصول على درجة جامعية . وإنصرف إلى كتابة الروايات . وجمع ثروة من رواية « حب فى الغابة » (١٦٧١) التى أهداها إلى ليدى كاسلين . واستقبله فى البلاط الملك الودود اللطيف الذى لم يشك ولم يتذمر حين وجد آن وتشرلى وتشرشل كليهما ، يشاركانه غرام عشيقته كاسلين (١٢) .

واشترك وليم فى الحرب الهولندية ١٦٧٢ ، ببسالة متوقعة من سيد .

ماجد ، وعاد إلى إنجلترا ولم يمسه سوء ، وأحرز نجاحاً آخر في « الزوجة الريفية » (١٦٧٢) . ودعى النظارة في المقدمة - إذا لم تعجبهم الرواية - إلى دخول غرفة ملابس المجهلين في ختامها ، وهناك :
« فإنا عن طيب خاطر ٠٠٠ نتغلى لكم يا شعراءنا ، عن العذارى ، لا بل عن عشيقاتنا كذلك » .

وخلاصة الموضوع أن مستر بنشوياف اصطحب زوجته معه لقضاء استيوغ في لندن ، وأحسكم حراستها إلى حد أنها أوقعت في شرك الغواية تحت سممه وبصره ، ذلك أن من بدعى مستر هورنر - العائد من فرنسا لتوه ، والمتلهف على الوصول إلى الزوجات دون عائق - أذاع بين الناس أنه خصي ، ومن هنا يستنتج بنشوياف أنه لا حرج في أن يفتح بيته لمثل هذا العنين العاجز ، ولكنه سرعان ما يكتشف أن زوجته تكتب رسالة غرامية إلى هذا الوزير المتودد إليها الذي أدمى العنة ، فيرغمها على كتابة رسالة أخرى تسكيل له فيها أقذع السباب والشتائم ، وما أن أدار الزوج ظهره حتى أمرعت هي فوضعت رسالتها الغرامية الأولى مكان الرسالة الثانية التي تم عن الغضب والاستياء . وسلم الزوج المزهو المفاخر بالسيطرة على الموقف الرسالة الأصلية إلى هورنر . وبعد فترة اتجه ظن الزوج إلى أن هورنر أقدر مما تردده عنه الشائعات ، ففكر في أن يشغله ، ووافق على أن يأخذ إليه أخته أليشيا . وتتنكر الزوجة حتى تبدو وكأنها أليشيا ، ويحملها زوجها إلى عشيقها . وتختتم الرواية « برفضة الديوث » ، وهورنر هو المنتصر في النهاية ، ثم تلقى إحدى الممثلات شعراً توجه فيه اللوم والتقريع إلى الرجال الحاضرين ، لأنهم لا يتحلون بقدر كاف من الرجولة .
« وقد يظل الناس على اعتقادهم بأنكم ممثلون قوة ورجولة ، ولكننا نحن النساء لا سبيل إلى خداعنا » .

واقتبس وتشرلى كثيراً من « الزوجة الريفية » من رواية موليير « مدرسة الأزواج ومدرسة الزوجات » وفي روايته التالية « التاجر

«الشريف» حول وتشترى شخصية «ألس» في رواية مولير «مبغض البشر» إلى شخصية كاتب مايلي الذي لم تتعد فسكرته عن التعامل الشريف، مجرد تناول كل الناس والأشياء بلغة بذينة مقذعة . والغريب للدهش في الأمر أن سكان لندن ، بل حتى سكان بعض الضواحي ، أحبوا وصف الحياة على أنها سعى متصل وراء شهوة الجسد ، يلطف منه بعض التجديف في الحديث . وفي إحدى للكتبات في «تبريدج ولز» سمع وتشترى إحدى السيدات تسأل عن كتابه المنشور حديثاً «التاجر الشريف» فغمزته نشوة الفرح ، ولم تسكن هذه إلا كوفتس دور جيداً ، الأرملة الثرية ، فطلب يدها وتزوجها . ووجد أنها كانت تضعه تحت مراقبة أشد وأكثر مثابة مما كان يفعل بنشوييف ، ولكنها ماتت فجأة فظن أن أموالها لا بد أن تؤول الآن إليه ، ولكن القضايا القانونية التي تشابكت فيها التركة حالت دون ذلك ، فلم يستفد منها شيئاً . وعجز عن تسديد الديون التي كان قد اقترضها ثقة منه بأيلولة التركة إليه ، فأرسل إلى السجن حيث قضى سبع سنين وهدت فيها عزيمته وذبل نشاطه ، حتى جاء جيمس الثاني ، وسدد — قبل إرتداد وتشترى إلى الكاثوليكية ثانية أو بعده — ديونه وأجرى عليه راتباً . وبلغ وتشترى أرذل العمر في شقاء ومعاناة . وظل مع عجزه بلاحق النساء ، ويسكتب نظاماً ، حاول صديقه الشاب بوب أن يحوله إلى شعر . وفي سن الخامسة والسبعين تزوج الفاجر المجوز امرأة شابة ، ولم يمر بعد الزواج إلا عشرة أيام ، ووافته المنية في أول يناير ١٧١٦

وكان سيرجون فاير وألطف من كتب عن الزنى والزناة . وكان «جون بول» (الرجل الإنجليزي النموذجي) يتجسد فيه تماماً ، فهو خشن مروح طلق الحياء ، يحب طعام إنجلترا وشرابها ، ولو أن جده لوالده هو جليليس فإن برو ، وهو فلمسكي من مدينة غنت قدم إلى بريطانيا في عهد جيمس الأول . وكان جون يبشر بحسن المستقبل إلى حد أنه أرسل إلى باريس في سن التاسعة عشرة ليدرس الفن . فلما عاد في الحادية والعشرين التحق

بالجيش ، وقبض عليه في كاليه بتهمة أنه جاسوس بريطاني ، وقضى مدة في اللبasting ، وهناك كتب المسودة الأولى « للزوجة المغيطة » حتى إذا ما خرج من السجن عكف على كتابة الروايات . وفي ستة أسابيع - كما يروي لنا هو - فكر وقصور ، ثم كتب ومثل رواية « النكسة » (١٦٩٦) ، بما فيها من هجاء مرع للمتناقين في لندن ، مثل لورد فون بنجتون وملاك الأرض في الريف مثل سيرتنبلي كلزى ، ومس هويدن الشهوانية . وكان سيرتنبلي يضمها تحت الرقابة والحراسة منذ بلغت الحلم ، وفرح وابتهج لبراءتها وطهرها . « يا للبنات المسكينات : إنها ستفزع وتنزعج في ليلة عرسها ، لأنها ، والحق أقول ، لا تميز الرجل من المرأة إلا بلحيته وبطلونه القمير » (١٤) . ولكن مس هويدن تصف نفسها على نحو آخر : « من حسن حظي ، هناك عريس قادم ، وإلا تزوجت الخباز ، سأفعل ذلك . فإني من أحد يستطيع أن يقرع الباب ، ولكن حاليا يجب على أن أختبئ » ، وهنا يمكن السكبة السلوقية الصغيرة تحوم حول البيت طوال اليوم ، إنها تستطيع ذلك . وعندما يأتي يوم فاشون ليطلب بدها ، ويمهله أبوها أسبوعا ، تحتج الفتاة وتقول « أسبوع : ولماذا ؟ إني أكون عند ذلك امرأة عجوزاً » (١٥) :

ونجحت مسرحية « النكسة » نجاحا كبيرا إلى حد أن قاترو تمجل إكمال « الزوجة المغيطة » (١٦٩٧) وكانت هذه من أنجح أعمال ذلك العصر . وظل دافيد جارك طيلة نصف القرن التالي يتحف لندن ويمتعها بتمثيله المشتهر لشخصية سيرجون بروت ، وهي أعظم شخصية مشهورة مذكورة بين كل شخص المسرحيات في فترة عودة الملكية . وسيرجون هذا وسيم هزلى ساخر يمثل المظاهر الأقرب شها بالخنزير في ملاك الأرض الانجليز - يشرب الخمر ، ويتباهى ، ويهدد ويتوعد ، ويستأسد ، ويعلم ويحكى من « عصر الاتحاد الأمين هذا » . ويفتح المسرحية برأيه في الزواج حيث يقول :

«أى لحم متخضم هو الحب ، إذا كان متبلا بالزواج ، إن عامين قضيتهما متزوجا قد أفسدا على حوامسى الجنس . فكل شيء أراه ، وكل شيء أسمعه ، وكل شيء أحس به ، وكل شيء أشمه ، وكل شيء أتذوقه ، أظن أن فيه زوجة . فما ضجر ولد يؤدبه ، ولا بنت ولا رجل يعمل الكفارة ، ولا عذراء عجوز يظهرها وعفتها ، قدر ضجري بزواحي وسأهي إياه .

ومذ عرفت زوجته آراه ، فانها تفكر في ترويضه بأن تجعل منه ديوتا . ليدي بروث : إنه أساء معاملى أبلغ أساءة مؤخرات حتى كاد يستقر عزمي على أن ألعب دور الزوجة بكل ما في الكلمة من معنى ، وأجعل منه ديوتا وأخونه . . .

بيلندا : ولسكنك تعلمين أنه ينبغي علينا أن نقابل الإساءة بالإحسان . ليدي بروث : ربما كان هذا خطأ في الترجمة (١٦) .

وهنا تأتي جارتها ليدي فانسيل التي تميل إلى ماتيل إليه ليدي بروث ، وتناقش شكوكها ومخاوفها مع وصيفتها الفرثسية التي تجيب بالفرنسية ، وهي هنا مترجمة :

ليدي ف : ممعنى يا آنسة : ممعنى :
الوصيفة : سيدتى ، إذا فقد المرء ممعته يوما ، فلن تعود بعد ذلك تزوجه .

ليدي ف : تبالك يا آنسة ، تبالك ، أن السمعة جوهرة .
الوصيفة : وقيمتها عالية جدا يا سيدتى .
ليدي ف : لماذا إذن ، يقينا أنك لن تضحي بمشارك من أجل متمتك ؟
الوصيفة : إلى فيلسوفة .

ليدي ف : انه لا يتفق مع الشرف (لقاء العاشقين) .
الوصيفة : ولكنه للثمة ...
ليدي ف : ولكن إذا كان العقل يصلح من شأن الطبيعة .

الوصيفة : عندئذ يكون العقل وقحا ، لأن الطبيعة أخته الكبرى . .

ليدى ف : إذن أنت تؤثرين طبيعتك على عقلك ؟

الوصيفة : نعم ، بكل تأكيد .

ليدى ف : ولماذا ؟

الوصيفة : لأن طبيعتي تعمرنى بالهجة والسرور ، أما عقلى فيورثنى

الجنون (١٧) .

وربما كانت هذه الراوية هى التى أثارت غضب جرمى كولير إلى حد أنه فى العام الذى تلا ظهورها ، نشر هجومًا عنيفًا على للمسرحية فى فترة عودة الملكية ، وعلى فانبرو بصفة خاصة . وكان كولير كاهنًا أنجليكانيًا على درجة من العلم ، ومن الشجاعة والتشدد فى عقيدته . وحيث كان قد أقسم بعين الولاء لجيمس الثانى ١٦٨٥ ، فإنه أبى أن يقسم بعين الولاء لوليم ومارى ١٦٨٩ . واستنكر « الثورة الجليلة » ، حتى إلى حد التحريض على التمرد والعصيان . وقبض عليه ، ووجد أصدقاءه مشقة كبيرة فى إقناعه بأن يسمحوا بإطلاق سراحه بكفالتهم . ومنح الغفران المطلق لرجلين كانا على وشك أن يشنقا بتهمة التآمر على ما اعتبر كولير أنها حكومة اغتصبت الحكم . فأنكر أسقفه عليه تصرفه وأدانه النائب العام ، ولكنه رفض المثول أمام أية محكمة . وعاش طريد العدالة محروما من الكنيسة حتى وافته المنية . ولكن الحكومة قدرت نزاهته ، ولم تلاحقه بعد ذلك . وعبر وليم الثالث عن تقديره الكبير للمصنعة التاريخية التى قام بها كولير .

وكان الكتاب الذى نشره كولير يحمل عنوان « لمحة قصيرة عن الانحلال والفساد فى المسرح الإنجليزى » . وكان يحوى ، كما حوت معظم الكتب ، هراء كثيرا . واستنكرا الراعى الغاضب فى المسرحية الانجليزية أخطاء كثيرة قد تبدو لنا الآن تافهة ، أو أنها ليست أخطاء إطلاقا ، واعترض على أية إشارة غير كريمة لرجل الدين ، ونشر فى سخط شديد ، مظلة المصممة

من الخطأ فوق زعماء الوثنية والكهنة الكاثوليك والقساوسة اللذين
أدان كثيرا من كتاب المسرح ، من أشبلس إلى شكسبير إلى
كونجريف ودریدن ، حتى يشعر كل المتهمين ببراءتهم لجرد حشرهم في زمرة
هؤلاء العظماء . ولكن كولير أضعف قضيته في محادثته في أن للمسرح العام
يجب ألا يتناول الجريمة أو الانحلال الخاطئ مطلقا . ولكنه وجه بعض
ضربات ناجحة لأن الأهداف البارقة واجهته في كل مكان . فنعى على كثير
من كتاب المسرح في فترة عودة الملكية ما أبدوا من إعجاب بالأسفاف
في الزنى والفسق ، وأثر ذلك على جمهور للشاهدين . وظل الكتاب حديث
لندن طيلة عام كامل . ودافع الروائيون عن أنفسهم بأساليب متنوعة ، وتحول
قائمو عن المسرحية إلى هندسة العمارة ، وانهمك لأكثر من عشر سنوات
في بناء قصر بلنهم ، ثم شاد قصر هوارد على طراز عمارة بلاديو الروماني
الجليل (١٧١٤) . واعترف دریدن بخطاياه ، وأظهر ندمه على ما فعل
وأنسكز كونجريف جريمته ، ولكنه أصلح من فنه .

ويلغ ولیم كونجريف بمسرحية عصر عودة الملكية ذروتها ونهايتها
معا . ولد بالقرب من ليدز في ١٦٧٠ ، في أسرة كانت عراقبتها موضع غفوه
واعتزازه وسط كل ما أحرز من فوز ونجاح . وكان والده قائد حامبة
انجليزية في أيرلنده ، ولذلك درس ولیم في مدرسة كاسكني ، وجلس على
نفس المقعد الذي جلس عليه جونانان سويفت ، ثم في ترنتي كولدج في دبلن .
ثم في مدل تمبل في لندن . وسرى في دمه جرثومة العلموح الأدبي من بيئة
كان فيها الأذواق أنفسهم يؤلفون الكتب . وفي أول سنة كان يدرس فيها
القانون كتب « المستغنية » (١٦٩٢) التي امتدحها ادموند جروس
« لمرحها ودمايتها الخفيفة » ولأنها أقدم قصة طويلة (عن العادات وآداب
السلوك ؟) في الإنجليزية (١٨) ، ولكن صمويل جونسون قال عنها «
خير لي أن أمتدحها من أن أقرأها » (١٩) ، وحظي كونجريف بالشهرة من

قفزة بجلهاته الأولى لا الأعزب المعجوز « ١٦٩٣ ، التي أقسم دريدن - وهو عميد الأدب للمعترف به في إنجلترا في هاتيك الأيام - بأنه لم ير قط خيرا منها ، باكورة للعمل في مجال الرواية . ومذ كان كونجريف غير واثق من أن الرجل الماجد ينبغي أن يكتب للمسرح ، فإنه اعتذر بأنه إنما كتبها « لمجرد التسلية في فترة إبلال بطيء من علة أملت به » ، ومن هنا قال كولير « ليس لي أن أقسامل ماذا كانت علمته ، ولكن لا بد أنها كانت خطيرة جدا ، وأسوأ من العلاج (٢٠) » . أما هاليفا كس فإنه اتفق في الرأي مع دريدن ، حتى أنه عين كونجريف في منصبين يدران عليه دخلا كافيا يستطيع بفضلله أن يحتفظ بمكانته ، سيدا كريما ، وأن يعمل في عالم المسرح .

ولم تلق روايته الثانية « التاجر الخادع » (١٦٩٤) ترحيبا كبيرا ، ولكن اطراء دريدن ، الذي وضع كونجريف مع سكسبير في مرتبة سواء ، شد من أزر المؤلف الناشئ ، وفي ١٦٩٥ ، في سن الخامسة والعشرين ، عاد إلى خشبة المسرح برواية « الحب للحب » التي فاق نجاحها كل ما عرف من نجاح . ولكن كولير شجب الرواية وانهمها بأنها تؤيد الفسق والفجور وتشجعهما ، وبلغ رد كونجريف عليه من التفاهة حسدا انقطع معه عن المسرح طيلة ثلاثة أعوام . وعندما عاد إليه برواية « طريق الدنيا » (١٧٠٠) كان قد أفاد من النقد القاسي ، وأوضح أن الموهبة لا تعتمد على قلب الوصايا العشر رأسا على عقب . وكان في هذه الرواية التي قال عنها سوينبرن المعالي أنها « التحفة التي لا نظير لها والتي لا تدانيها رواية أخرى في روائع الملهاة الإنجليزية (٢١) » ، نقول كان فيها بعض أخطاء المسرحية في عصر عودة الملكية ، ولكن ليس فيها شيء من رذائلها . وقد ترهقنا عند قراءتها بظرفها المازح الساخر ، وتدكرنا بالتلاعب الضعيف بالألفاظ في أهمال سكسبير الأولى ، ولكن إذا مثلت (ونطق بها بترتوت ومسر بريسيجر دل كما حدث في أول عرض لها) ، فلربما كانت أمتعتنا بما فيها من حيوية وتألق ١٥ — قصة الحضارة

يقول وتوود « أعرف سيده تحب الكلام بلا إقطاع ، ولا تترك أنراً حسناً (٢٢) » وحبكة الرواية بالغة التعقيد ، وقد تنغم من طول الوقت للطلوب انهم شجارات ومشروطات الشخص من التناهب الطائفة ، وحل المقدمة لا يعدو أن يكون سخفاً لا حده . ولكن في الرواية بعض تهذيب في اللغة وفي الدعابة ، وتفكير لطيف (ولو أنه غير صحيح أبداً) ، مما يمكن أن يدخل السرور على الذهن غير المتعجل ، وليس فيها سخفية لازمة ، كما هو الحال في مسرحيات فابرو ، بل فيها تهكم مهذب رقيق ؛ تسرب من قصر فرساي إلى قصر هويتبول وإلى البلاط في فترة عودة الملكية . وفي الرواية خلق الشخصيات الروائية وتصوير لمصائبها . فالبطل ، ميرابل شخص غير جذاب ، ولسكنه نابض بالحياة ، صياد للتركات والثروات . وجدير بالذكور أنه يسعى للزواج من ميللامات ، بدلا من إغرائها . ولكن لهما نروية تساوي اثني عشر زائيا ، وهي أجل ما أبدع كونيغريف ، ماجنة حابثة تريد ألف عاشق ، وتوود الهيام بها لمدي الحياة ، من أجل مناتن أو جمال لن يدوم إلا لسنوات عشر ، وترفض الزواج ولكن بشروط :

ميللامات : ... لاشك يا ميرابل آتي سأبقي في الفسراش في الصباح كيغما أشاء .

ميرابل : هل من شروط أخرى تفرضينها ؟

ميللامات : توافه : ... أكون حرة في تناول طعامي متى أشاء ، وأتناوله وحدي في حجرة ملابسي ، إذا كنت متعكرة المزاج ، دون إبداء الأسباب . وألا يقتحم على أحد خلوتي . وأن أجلس « امبراطورة » وحدي إلى مائدة الشاي التي لا يجوز لك أن تفكر في الاقتراب منها قبل أن تستأذني أولا وأخيراً حينما كنت ينبغي عليك أن تطرق الباب قبل الدخول . تلك هي شروطي ، حتى إذا استطعت أن احتملك لمدة أطول ، فقد أتناطله هيناً فشيئاً حتى أصبح زوجة .

ميرابل : ألسنت حراً أن أعرض شروطي ؟

ميللامات : هات أقصى ما عندك ...

ميرابل : أشرت عليك أن تستمرى نخبين وجهك وتعجبين به طالما أحبيته أنا أو أعجبت به ، حتى إذا ألقته أنا ، فلا تحاولي قط تشكيكه من جديد .. اشترط ثانيا ، أنك إذا هلت .

ميللامات : آه : لا تذكري شيئا من هذا .

ميرابل : وهذا هو المفروض ، وليبارك الله في محاولتنا

ميللامات : هذه محاولة كريهة قبيحة :

ميرابل : إنى أعرض وأمنعك من إرتداء الملابس المحبوة التي تشد جسمك لتحتفظي بقوامك حتى لا تشوهي ولدي ويخرج وكأن رأسه قمع سكر (٢٣) ..

وهكذا ، وتلك سفسطة سارة ، وهجاء معقول ، يمر بخفة وسرعة ، في أمان ، على مظاهر الحياة .

وضرب كونيغريف نفسه مثلا لمظاهر كثيرة ، مؤثرا التركيب على المادة ، والتنوع على الوحدة . ولم يتزوج قط ، ولكنه اختلف إلى سلسة من المشيقات ، ولم نسمع عن ذرية أشقته أو أسعدته . وكان رقيقا لطيفا في المقاهي والوادي . وكانت أكرم العائلات تستقبله ببالح الترحيب . وكان أ كولا ، وكان يدهن قدميه ويمالجهما بانتظام من داء النقرس . وعندما زاره فولتير ١٧٢٦ استنكر كونيغريف أطراء الشاعر الفرنسي لرواياته ، وأبدى عدم اكرانه لها ، على أنها توافه لا تستحق الذكر ، وطلب إلى فولتير أن يعتبره مجرد رجل مهذب . عندئذ أجاب فولتير (طبقا لروايته) « لو كان الأمر كذلك ، وأنت مجرد رجل مهذب ، لما جئت لأراك (٢٤) » .

وفي ١٧٢٨ ، في رحلة للاستشفاء بالمياه المعدنية في باث ، انقلبت عربة كونيغريف ، وظل يعاني من بعض إصابات باطنية حتى وافته المنية في ١٩ يناير ١٧٢٩ . ودفن في كنيسة وسقمنستر . وفي وصيته ترك مائتي جنيه لمسر بريسجيردل التي كانت تقاسي الفقر في شيخوختها ، أما معظم الضيعة ،

أى نحو عشرة آلاف جنيه ، فقد أوصى به لدوقة مالبرو الثانية البالغة الثراء ، ومضيافته الأثيرة لديه ، فحوالت للال إلى عقد من اللالى . وكانت تضع على الدوام ، فى المكان الذى اعتاد الشاعر أن يجلس فيه إلى مائدتها ، تمثالاً من العاج والشمع تدهن قدميه وتعالجهما بانتظام من النقرس (٢٥) .

وقبل موت كونجرف بزمن طويل ، كان المسرح الإنجليزى قد شرع يظهر نفسه ، حيث أمر وليم الثالث مدير للملاهى والمسارح أن يمارس بشكل أشد صرامة ، سلطته فى رقابة الروايات أو منع عرضها . وعززت موجة من الاستياء فى رأى العام هذه الرقابة . وحرّم قانون أصدرته الملكة آن إرتداء السيدات للأقنعة فى المسرح ، وقاطعت النساء اللاتى حرمن هذا التستر ، الروايات المجردة من الاحتشام والوقار على وجه اليقين (٢٦) . واتفق سويفت مع الأساقفة على أن مسرح لندن وصحة فى جبين الخلق الإنجليزى . وعرض ستيل روايته «العشاق الشاعرون بالانم» (١٧٢٢) على أنها مسرحية أخلاقية . وناقس أديسون وقار للنساء الفرنسية وجلاها فى مسرحيته «كاتو» (١٧١٣) . ونمة علامة أقدم من هذا ، على التغيير الذى حدث فى المسرح ، ظهرت فى أسلوب رد دريدن على كولير ، حيث أحس دريدن أن السكاهن طالباً ماكمل على كتاب للمسرح دون وجه حق ، وأنه « فى كثير من المواضع .. فسر كلاتى بأنها تجديف وفجور ، وهى بريئة من هذا كله » ، ولكنه أضاف :

لن أتحدث كثيراً عن مستر كولير لأنه اتهمنى فى شياء كثيرة ، وله فى هذا كل الحق . واعترفت بذنبى فى كل الأفسكار والتعبيرات التى أوردتها والتى يمكن أن توصم بحق بالفحش أو الدنس أو بحفاة الأخلاق السكرية ، ولا بد من سحبها . فإذا كان ينامبنى العداء ، فقد كتب له الانتصار على . أما إذا كان صديقاً ، حيث أتى لم أهيب له فرصة خاصة ليكون غير ذلك ، (لم أسىء إليه إسائة شخصية) ، فلأنه سيسر بأنى قدمت (٢٧) .

٣- جون دريدن ١٦٣١ - ١٧٠٠

كان أبوه من صغار ملاك الأرض ، يمتلك ضيعة متواضعة في نورمجتونشير وأرسل إلى مدرسة وستمنستر التي علمه فيها ، هو ورفيق دراسته جون لوك ، الأستاذ الضليع ريتشارد بزبي Buzby كثيرا من اللاتينية والنظام والانضباط . وهناك حصل على منحة دراسية مكنته من الذهاب إلى تراتي كوليج في كمبردج . وفي العام الذي حصل فيه على الدرجة الجامعية مات أبوه (١٦٥٤) وورث جون ، بصفته أكبر الأبناء البالغ عددهم أربعة عشر ، الضيعة التي كانت تدرستين جنيا في العام . وانتقل إلى لندن وحاول عن طريق الشعر أن يضيف شيئا إلى دخله ، احتيالا على العيش . وفي ١٦٥٩ نشر « مقطوعات شعرية بطولية » تخليدا لذكر كرومول — وهو شعر تافه غير ذي قيمة بشكل ملحوظ من شاعر في التاسعة والعشرين من عمره . وألحق أن دريدن نضج في بطنه ، وكأنه رجل يتخطف في جهد جهيد مائة عقبة ليرقى مدارج الثراء في نجاح . وبعد ذلك بعام واحد هلك الشاعر لعودة الملكية في قصيدته « عودة النجم » التي قارن فيها نجمة شارل الثاني بنجمة بيت لحم ، وما كاد أحد يتجزأ على اتهام دريدن بالثقل ، لأن كل الشعراء تقريبا — عدا ملتون — ولوا ظهورهم إلى البيوريتانية وولوها شطر الملكية مع تغيير بارع لأساليبهم .

ولكن دريدن كان أشد اهتماما بالمسرح منه بمجرد نظم الشعر ، حيث أثنى الكتاب المسرحيون على حين حالف البؤس والشقاء الشعراء الجدد . إن دريدن لم يكن به ميل إلى المسرحية ، ولكنه كان يتطلع إلى الحصول على لقمة العيش بانتظام . وحاول كتابة الملهة فأخرج « زير النساء الطائش » (١٦٦٣) التي وصمها بيبرز بأنها « أحقر شيء رأيته في حياتي تقريبا » (٢٨) . وفي أول ديسمبر ١٦٦٣ تزوج دريدن من ليدى إليزابيث هوارد ابنة إرل بيركشير ، وأشيرأت الإغناطي دهشا من سيدة ذات مكانة و ثراء تزوج من

ظاهر ، ولكنها كانت في سن الخامسة والعشرين ، وفي خطر من فوات
الأوان ، كما كان أخوها سير روبرت هوارد للتلف على التأليف والكتابة ،
قد ضمن تماون دريدن معه في رواية « الملكة الهندية » التي أخرجها
١٦٦٤ ، في مشاهد بالغة البذخ ، مع نجاح عظيم .

وحددت هذه المسرحية « للأساء » طورا في تاريخ الأدب ، حيث
تخلت عن الشعر للرسل الذي كان سائدا في عصر اليزابيث ، واستخدمت
للقاطع للقفاء ذات البيتين الذين يتكون كل منهما من خمس تقاميل ،
أسلوبا منتظما لها . وكان لورد أوريري قد تأثر بحلاوة واتساق القافية في
الأساء ، وأدخل هذا الأسلوب في رواياته . وعاد دريدن إلى الشعر للرسل
بعد ١٦٧٥ ، معتقدا بأن القافية تفضي إلى تمويق سيل الكلام والتفكير .
ولو أنه لقي هناك أكثر في نظم الشعر لأصبح شاعرا أعظم مما كان .

وواصل نجاحه التعاوني بعمل مستقل ، وهو « الامبراطور الهندي »
(١٦٦٥) ، وكان موثروما بطل الراوية . وما كاد يجد لمسرحيته مكانا على
المسرح الإنجليزي حتى دام الطاعون لندن فأغلقت المسارح أبوابها لمدة
عام . ولما زال كابوس الطاعون والحريق احتفل دريدن بخروج إنجلترا من
هذه المحنة الثلاثة — الطاعون والحريق ثم الحرب — بقميدة « سنة
المجائب » (١٦٦٦) وهي مكونة من ٣٠٤ مقاطع رباعية الأبيات ، تأرجح
بين الوصف الرائع (المقاطع ٢١٢ — ٢٨٢) والتفاحة الصبيانية (مثل للقطع
٢٩) ولما فتحت المسارح أبوابها من جديد في ١٦٦٦ عجل دريدن بالعودة
إلى المسرحية . ولم ينتج حتى ١٦٨١ غير الروايات . وتميل مأسياته إلى أن
تكون كلاما منهقارا نائبا طنانا ، ولكنها بدت لأعين معاصريه أممي منزلة
من مأسيات شكسبير (٢٩) — ولما انضم دريدن إلى دافنات في إعادة
صياغة « العاصفة » كانت النتيجة باحجام المهترئين فيها أذال صياغة الجديدة
تطوى على تحسين كبير للأصل . وربما اتفقت معهم « شركة الملكية » في
هذا الرأي لأنها كلقت دريدن بتزويدها بثلاث روايات في السنة مقابل

حصّة في الأرباح التي بلغت ٣٥٠ جنبها في العام . أما ملهيات دريدن ، على الرغم من أنها داعة فاحدة مثل غيرها ، فإنها لاقت نجاحا أقل من نجاح مأسياته السبع والعشرين ، لأنه في هذه الأخيرة استطاع أن يثير اهتمام الرأى العام في الدنيا الجديدة والمهيجين البدائيين المدهشين فيها ، وهكذا يقول المنصور في « فتح غرناطة » .

« أنا حر طليق مثلما خلقت الطبيعة الإنسان لأول مرة ، قبل أن يظهر قانون الاسترقاق الحقير ، حين هام النبلاء المتوحشون على وجوههم في الغابات » .

وربما كان نجاح هذه الرواية بالإضافة إلى ما تضمنته رواية « سنة المعجائب » من مديح منمق لشارل الثانی ، هو الذي كسب لدريدن منصب مؤرخ الملك ، لسائر التاج (١٦٧٠) . وبلغ دخله السنوى آنذاك ألف جنيه في المتوسط .

وفي طاعة القسم الثانی من « فتح غرناطة » زعم دريدن تفوق مسرحية فترة عودة الملكية على المسرحية في عصر اليزابيث . وذهب منافسوه ، على حين قدروا له هذه التحية والمجاملة ، إلى القول بأن في هذا اطراء مغاليا لمسرحياته . ولم يشارك المفكرون في المدينة جمهور المسرح إعجابه وتذوقه لغة الطنانة الرنانة المرفقة في مأسيات دريدن ، وأصدر دوق بكنجهام بالاشتراك مع آخرين في ١٦٧١ هجاء مسرحاً تحت عنوان « التجربة » سخر كثيراً من المستحيلات والمحامات واللغة الطنانة للنمقة في المأسيات المعاصرة ، وبخاصة ما كتبها دريدن . وأحس الشاعر بأنها لطمه له ، ولكنه كظم غيظاً لمدة عشرة أعوام . وبعدها شهر بالدوق بكنجهام أيما تشهير في شخصية « زمرى » في أقوى أبيات رواية « أبشالوم وأختبوفل » .

وفي الوقت نفسه عملت دراسته لشكسبير على تحسينه . وفي أروع مأسياه (كله من أجل الحب) (١٦٧٨) تحول من راسين والقافية إلى

هكسبير والشعر المرسل . وأفرغ كل جهده وبراعته في أن يبارى ما كان منه في عصر اليزابث ، بصفة عامة ، وعرض في ثوب جديد قصة أنطونيو وكليوباترة التي فقدت الدنيا من أجل قصة غرام قصيرة . ولو أن الرواية القديمة لم توجد لحظيت رواية دريدن بثناء وإعجاب أكبر ، ففي مواضع كثيرة منها ترتفع من الكلام الشديد البساطة إلى الشعور النبيل للكظوم ، كما يتمثل في قدوم أو كتافيا إلى أنطونيو لتعرض عليه صفيح أو غسطن (٣٠) . ورواية دريدن محكمة في الإيجاز ، بقصد مراعاة الوحدات ، ولكنه بتضييق الحدث في أزمة واحدة في مكان واحد ثلاثة أيام ، اختزل الفكرة الرئيسية البطولية إلى قصة غرام ، وضيق للشهد الكبير الذي رأى في « أنطونيو وكليوباترة » (لشكسبير) أن هذه القصة الغرامية ليست إلا جزءا من الأحداث التي هزت عالم البحر المتوسط وشكلته .

وأكثر الجواب امتا وتشويقا اليوم في مسرحيات دريدن هي المقدمات التي قدمها بها مطبوعة ، والأبحاث التي شرح فيها وجهات نظره في الفن المسرحي . وكان كورني قد ضرب له المثل ، ولكن دريدن جعل منه مجالا لشرائع . ولما إذ نمر مرور الكرام بهذه الأبحاث الموجزة وهذه الحوادث القوية ، لتلمح أن عصر الخلق والابداع في الأدب الإنجليزي كان يعبر إلى عصر النقد الذي قد يبلغ ذروته في بوب . ولكن اجلا لما لتفكير دريدن وعقليته يزداد إذ نراه يسير في رشاقة ورفق غور أسلوب المسرحية ومعالجة تفاصيلها ، وفن الشعر ، ويقارن في مقدرة فائقة على التمييز والمقارنة ، بين المسرحين الفرنسي والإنجليزي . وانك لترى في هذه المقالات والبحوث أن الائتواء المثير في النثر في عصر اليزابث ، والجلد الطنانة المتراكمة عند ملتون ، كل أولئك يفسح الطريق لأسلوب أبسط وأسلم وأكثر تنظيما ومنهجية ، أسلوب خلا من التراكيب ، اللاتينية ، وزاده صقلا التعرف على الأدب الفرنسي ، لم يجار الإنافة الفرنسية كل المجازاة قط ، ولكنه أخرج إلى القرن الثامن عشر — قرن النثر — نماذج

من كلام يتميز بالصفاء والروعة والسلاسة وسحر البيان ، وعدم التكاف والقوة . وهنا اتخذت المقالة الإنجليزية شكلها ، وبدأ العصر الكلاسيكي (النموذجي الممتاز) للأدب الإنجليزي .

ولسكن إذا كانت مقالات دريدن تبدو الآن أعلى مكانة من الروايات التي كانت سببا في كتابة المقالات ، فإنه في الهجاء ساد عصره وأرهبه . وربما وقع حادث أطلق لسانه اللاذع ، ذلك أنه في ١٦٧٩ وزع جون شفيلد إرل ملجريف نشرة مخطوطة بعنوان « مقال في الهجاء » لاثمحل اسم كاتبها ، هاجت إرل روشستر ، ودوقة بورتسموث (لويدي كيروال) ، بلاط شارل الثاني بصفه عامه . واتجه الظن خطأ إلى أن كاتب المقال هو دريدن الذي كان آنذاك يحصل على معظم دخله من الملك . وفي ليلة ١٨ ديسمبر في « زقاق روز — كوفنت جاردن » هجم على دريدن نفر من السوقة وأوسموه ضربا بالهراوات ، والمفروض أن روشستر استأجرهم لهذا الغرض ، ولو أن هذا لم يثبت على سبيل اليقين . وكان دريدن رجلا ودودا كريما مستعدا لم يد المعوة وكيل المديح . ولسكن نجاحه وغروره وافراده في التحدث عن نفسه وتوكيداته الأخلاقية ، كل أولئك جلب عليه عداوات كثيرة . واحتمل دريدن لبعض الوقت حملاتهم عليه ، دون ردعاني منه ، بل أن « كمين زقاق روز » لم يلق استجابة سريعة من قلمه . ولسكنه في ١٦٨١ جمع عديدا من أعدائه في رجل واحد وسلمهم بالسنة حداد ، في ألدع هجاء عرف في اللغة الإنجليزية .

وتلك هي السنة التي حاول فيها شافستبري أن يقوم بثورة ليخلف ابن شارل الثاني غير الشرعي أباه على العرش وعندما ظهر القسم الأول من قصيدة « أبسالوم وأخيتوفل » كان شافستبري على وشك أن يقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى . وانحاز هجاء دريدن إلى جانب الملك ، وربما كان بإيعاز منه (٢١) . وهزأ الشاعر من شافستبري في شخص أخيتوقل الذي يحرض

أبشالوم (وهو دوق مونيوت) على الثورة ضد أبيه داود (شارل الثاني) .
ولما كان داود وشارل كلاهما قد أحبا عددا من النساء ، فإن القصيدة تبدأ
ببحث في قيمة تعدد الزوجات :

« في عهد التقي والورع ، قبل ظهور الكهنة وأساليهم ، وقبل أن
يصموا تعدد الزوجات بأنه خطيئة ، وحين تكاثر الإنسان بتعدد زوجاته
وقبل أن يقتصر الواحد على واحدة بفعل بغض . وحين استعنت الطبيعة
— ولم يمنع أى قانون — على معاشرة الخليلات والزوجات دون تمييز ،
وحين عاش ملك بنى اسرائيل ، برضا السماء ، على الزوجات والاماء من مختلف
الانحاء ، فى قوة وحيوية ، ونشر صورة خالقه على أوسع نطاق نطاق على
الأرض ، بأسره . »

ويتهج دوا د بجمال ابنه أبشالوم . وكان مونيوت ، حتى قيام الثورة ،
قرة عين أبيه الملك السعيد (شارل الثاني) ، أما بنو اسرائيل فهم الإنجليز
(فى القصيدة) :

جنس عنيد متقلب متذمر ، أرهق النعمة الإلهية إلى آخر مداها ،
شمع الله المدلل الذى انغمس فى المذات والشهوات ، والذى لم يستطع أن
يحكمه ملك أو يرضيه إله (٣٢) .

وأستروفل هو رئيس شياطين الخيالة ، وتتحقق لدن لغورها
أنه شافتسبرى :

وكان على رأس هؤلاء جميعا اختيوفل الكاذب ، وهو اسم ملمون كربه
على مر العصور ، أهل لكل التدابير الخفية والمشورات الملتوية ، ذكى
جربى مضطرب الحواس ، قلق ، لا يثبت على مبدأ ولا يستقر فى مكان ،
غير راض إذا تملك وتسلط ، ضائق صدره إذا تمرد من سلطانه ، يحمل
بين جنبديه نفسا محنونة مضطربة انهكت وأبليت جسم القزم وهى تشق طريقها .
ضائق بها جسده الهزيل . قائد جسور لا خطر الأعمال ألياسة ، يطرب للأخطار

حين ترتفع الأمواج . أنه يلمس الأحاسير والأوابح ، لأنه لا يحب الهدوء .
يدنى سقيلته من الرمال بفطنته وذكائه . يقينا أن ذوى المواهب العظيمة
قريبون من الجنون ولا يفصله عنهم إلا حواجز رقيقة . وإلا ، لماذا —
وهو ذو الثراء المريض والمناصب الرفيعة — يرضى على شيعفوخته بما تحتاج
من راحة ودعة ؟ لا يقيم على ود ولا يخلص فى صداقة ، عنيد حقود .
فى عدائه وبغضه ، مصمم على أن يدمر الدولة أو يحكمها هو (٢٣) .

ثم يجىء دور الانتقام من دوق بكنجهام و « التجربة » :
ويقف على رأس هؤلاء (المصاء الثأرين) زمرى ، وهو رجل متعدد
الجوانب ، حتى إنك لا تحسبه واحدا ، بل صورة مصغرة لكل بنى البشر ،
جامد الرأى ، يحافى الصواب دائما . كان يندفع فى كل أعماله ، ولكنه
لا يثبت على حال . وخلال فر منير واحد ، كان الكيمايى والعارف ، ورجل
الدولة والمهرج . ثم ينصرف بكليته إلى النساء والتصوير ، والشعر والشراب ،
فضلا عن عشرة آلاف نزوة تموت فى المهد . . وكان تبديد المال فنا خاصا
برع فيه . أغدق على كل الناس إلا من يستحقون المكافأة ، أفقره الحق
المهرجون الذين اكتشفهم بعد فوات الأوان . وحظى هو بالمرح ،
وحصلوا هم على ماله وضييعته (٢٤) .

ولم ترانجلترا قط من قبل مثل هذا الهجاء اللاذع الذى لا يرحم ،
الذى يركز كل التشويه والتجريح فى سطر واحد ، ويترك جثة ممزقة مهتمة
فوق كل صفحة . ويبحث القصيدة بالمشات خارج نفس المحكمة التى كان
يحاكم فيها شاففسبرى ، مخاطراً بحياته . وقضت المحكمة ببراءته فملك أشياءه .
الأحرار (الهويج) « ميدالية » تمجيداله ، وانبرى عدد من الشعراء
والكتاب يترصعهم توماس شادويل لإصدار ردود ظافرة على الرجل الذى
أيقنوا أنه باع عقله ، ولسانه السليط وبيانه السكاوى إلى الملك . وطود
دريدن الكرة بهجاء آخر ، « لليدالية » (مارس ١٦٨٢) سلق فيه شادويل ،
بصفة خاصة ، فى قصيدة « ماكفلكنو » (أكتوبر) . وهنا كان الدم

والقدح أسكى وأمر ، فانحط أحيانا إلى شتائم لفظية صريحة ، لم تتميز ، مثل الهجاء السابق ، بمقاطع طامعة تنشر السم في دقة دون اسراف أو اسفاف .

إننا لا نستسيغ اليوم هذا اللون من « الذبح » الأدبي ولم نعد نتذوقه إلا قليلا ، وانا لترتاب بعد قرون من الجدل والمناقشة ، في أن هناك بعض الصدق في كل عاطفة أو هوى ، وأن في كل خصم أو عدو شيئا محببا . وما السياسة حتى في أيامنا هذه إلا حرب بوسائل أخرى ، أكثر بكثير مما كانت حين كان عرش أسرة ستوارث يترنح على حافة الثورة ، وكان الظهور إلى جانب الفريق الخاسر المهزوم قد يعنى الموت المحقق . وعلى أية حال ، فإن دريدن بذل كل الطمح ، مما أكسبه امتنان الملك ودوق يورك ، ولم ينازعه أحد آنذاك التربع على عرش مملكة الشعر . وكانوا يحجزون له — إذا قصد إلى « حانة ول will » مقعدا إلى جانب المدفأة في الشتاء ، وفي الشرفة صيفا ، وهناك رأى بيبز وسمع « أحاديث طريقه ذكية (٣٥) » وصورة سير والتر سكوت ، في خيال مبدع ، وهو يدخل إلى هذه الحانة ، « رجل عجوز بدين قليلا ، ذو شعر أشيب ، يرتدى حلة سوداء بالغة الأناقة ، محمودة الأطراف وكأنها قفاز ، تشرق في وجهه أرق ابتسامه رأيها في حياتي (٣٦) » . وكان الانحناء تحية لشاعر التاج والاستماع إلى رأيه في آخر مأساة أخرجه راسين ... يعتبر ميزة ، كما كانت القبضة من علبة سعوطة شرفا كفيلا بأن يريك المتحمس الناشئ . وكان كل العطف بعينه بالنسبة لأصدقائه ، ولكن ما كان أسرع في كييل السباب لمنافسيه وخصومه (٣٧) وما كان لأحد أن يبهز في طراء شعره . إن تعلقه للملك وليدى كاسلين ولسكل أولئك الذين يجزلون له العطاء مقابل الإهداء إليهم ، جاوز الحد المؤلف من الاستسلام الدليل في مهنته في عصره (٣٨) . ومع ذلك فإن كونجريف بادلته التشجيع بمثله حين وصفه بأنه « بالغ الإنسانية والرجة » مستعد أن يغتفر الإساءة ، أهل للتراضى بإخلاص مع من أساء إليه (٣٩) .

والآن ، وقد آذن جسمه بالضعف والانحلال ، يدأ الشاعر يفكر في الدين بشكل أكثر انعطافاً وميلاً ، مما كان عليه في سني القوة والفتوة والزهو والغرور . لقد اندفعت مسرحياته وقصائده هجائه اندفاعاً طارئاً بين هذا وذاك من مختلف المذاهب الدينية ، أما الآن ، وقد ربط الشاعر مصيره بالمحافظين (للمساكين — التوري) ، فإنه تحول إلى الكنيسة الأنجليكانية بوصفها ركيزة للاستقرار في إنجلترا ، مستنكراً عدوان العقل للمتغرس على هذا الحرم للقدس ، ألا وهو الإيمان والعقيدة . وفي نوفمبر ١٦٨٢ أدهش أصدقاءه الدنيويين بنشره قصيدة « الدين والدنيا » دافاً عن الكنيسة الرسمية . وبداله أن الكتاب للقدس للمنزل ، بل وكنيسة معصومة من الخطأ تفسره وتسكله ، دعامتان لاغنى عنهما للمجتمع ولسلامة العقل . وكان على علم بالخلافات وبالجدل بين الربوبين ، وكان رده عليهم أن شكوكهم إنما تعكس صفو النظام الاجتماعي للعقد الذي لا يمكن أن يدعهم إلا قانون أخلاقي تفره عقيدة دينية .

لأنه لا قيمة ولا فائدة في تعلم النقاط الغامضة ، أما السلام العام فهو كل ما يهم العالم .

وتلك حجة كان يمكن أن تخدم قضية الكنيسة الكاثوليكية أيضاً ، وتابعها دريدن إلى غايتها بتحويله إلى الكاثوليكية ١٦٨٦ . ولسنا ندري إذا كان لاعتلاء ملك كاثوليكي العرش في السنة السابقة ، ولتلهف الشاعر على الاستمرار في الحصول على رواتبه — نقول لسنا ندري إذا كان لهذا الأمر أو ذلك دخل في هذا التحول (٤٠) . على أن دريدن على أية حال ، صب كل فنه — الشعري أليشرح وجهة النظر الكاثوليكية في قصيدة « الأيلة والتمرة » The Hind and The Panther (١٦٦٧) وفيها (أيلة ناصعة البياض) التي تدافع عن المذهب الكاثوليكي ، ضد تمرة « هي أجل النوع المرقط » التي تمثل المذهب الأنجليكاني . وكانت صورة حيوانين من ذوات الأربع يناقشان موضوع الوجود الحقيقي في القربان للقدس مدعاة للسخرية (٤٢) والتسخيف .

سرحان مائارهما ماتييو برير Prior ولورد هاليفاكس في محاكمة تهكية تحت عنوان « الآلية والحجرة تنفل إلى قصة فأرة القرية وفأرة للدينة » (١٦٨٧). وفي ١٦٨٨ فرجيمس الثاني إلى فرنسا . ووجد دريدن أنه يعيش من جديد في ظل ملك بروتستانتى ، فلزم مذهبه الجديد ، وكان أولاده الثلاثة يعملون في روما تحت إمرة البابا . كما أن الردة إلى مذهب آخر أمر غير مقبول ، فاحتل في شجاعة وجلد فقدانه لمنصب شاعر التاج ولراتبه ولوظيفة « مؤرخ للملك » ، على أن التاريخ ، زاد من أحزانه ، لأنه أضفى كل هذه للتناصب والشرف على شادويل الذى توجه دريدن ملكا على الهراء ، وصوره نموذجاً للغباء . وعاد في شيخوخته يكسب بقلمه قوت يومه . فكتب مزيدا من الروايات ، وترجم مختارات من تيوكريتس وهوارس وأوفيد وبرسيوس ، وأخرج الأبيادة في شعر بطولى في أداء غير محكم ، ولكنه سلس ، ونقل بأعوانه الشعرية الخاصة بعض أساطير هوميروس وأوفيد وبوكاشيو ، وتشوسر . وفي ١٦٩٧ وهو فى السابعة والستين نظم قصيدته للشهيرة « ولجة الاسكندر Alexanders Feast ، التى حظيت بأعظم الثناء والإطراء . ووافته للنية فى أول مايو ١٧٠٠ ، وشهدت جنازته اضطرابا شديدا ، وفتنازعت الشيع للتنافسة جثمانه ، وأخيرا وورى التراب إلى جانب تشوسر فى كنيسة وستمنستر .

ومن الصعب أن تحب هذا الشاعر ، فكل الطواهر تقول بأنه كان انتهازيا نفسيا متقلبا ، امتدح كرومول فى فترة الحماية ، وكال للديبح اشارل الثانى وخيلاته ، وأثنى على البروتستانتية فى عهد ملك بروتستانتى ، وأطرى الكاثوليكية فى ظل ملك كاثوليكي ، وألمس موارد كسب للال بكل الطرق ، وجلب على نفسه عداوة كثير من الناس ، مما لا بد منه أن يكون ثمة شيء يكرهه الناس فيه . وجارى كل منافسيه فى إباحية رواياته وتحررها من كل القيود ، وفى تورعه فى شعره . وبلغت قوته فى الهجاء مبلغا يستدر العطف على ضحاياه ، مثل العطف على الشهداء وهم يحترقون على الخازوق . ولكن

لا جدال في أنه كان أعظم الشعراء الانجليز في جيله . وكتب معظم شعره في المناسبات ، وكلما حفظ الزمن شعرا نظم للمناسبات . ولكن هجاءه لا يزال حيا ، لأن أحدا غيره لم يستطع أن يأتي بمثل هذا الهجاء الذي صور الشخصيات في ازراء قارس وسخرية لاذعة . وطور للمقطع الشعري البطولي ذا البيتين إلى درجة من الإيجاز المحكم واللرونة ، سيطرت على الشعر الانجليزي طيلة قرن من الزمان . وكان أثره على النثر أقوى ، حيث نفاه من التراكيب للزعجة والمصطلحات الغريبة ، وضبطه على درجة ممتازة من العمق والسهولة . وكان معاصروه على حق حين كانوا يرهبونه أكثر مما يحبونه . ولكنهم أدركوا أن له الحق كل الحق ، بفضل قوة إرادته وبراهته في فنه في صناعة الأدب والكتابة ، وملكا على عرش القوافي ، فكان بن جونسون الروائي . ودكتور صمويل جونسون الكاتب ، في وقت معاه في عصره .

٤ — في ثلث واحد

والآن نجتمع في قاعة غير نابضة بالحياة بعض الشخصيات الأصغر شأنا الذين أمدوا هذه الفترة بالحياة وبالأدب ، ولكننا لن نستطيع أن نمسك معهم طويلا لنتتبع مجرى حياتهم .

وأعظم قصيدة في الجانب الوثني من فترة عودة الملكية كانت ملحمة بيوريتانية ، ولكن أشهرها هي ملحمة هجاء ساخر ضد البيوريتانية : « هو دبراس » (١٦٦٣ — ١٦٧٨) . ذلك أن الشاب الفاجر ، صمويل بتلر ، قضى عدة سنوات مضنية في خدمة سير صمويل لوك ، وهو مشيخي (برستيربان) متحمس غيور ، ضابط برتبة زعيم في جيش كرومول ، كان مقره في « كوبل هو » ، وهي قلعة بيوريتانية للسياسة والعبادة . وعندما عادت الملكية ثار بتلر لنفسه بنشر هجاء مرع ، يصور فيه كيف أن سير هو دبراس الفارس المغوار يقود سيده صاحب الأرض « رالفو » إلى حرب

صليبية ضد الخطيئة والإثم . وتستطيع أن تحكم منذ بداية القصيد عليها .
« حين اشتدت ثورة الغضب والحقدين الناس لأول مرة وتشاجروا لأنهم
لم يدركوا السبب ، وحين أشعلت الكلمات النابية والأحقاد والمخاوف نار
الحرب بين الجماعات وجعلتهم يقتتلون كالجائين أو المضمورين ، من أجل
« السيدة : الديانة » وكأنا يقتتلون من أجل عاهرة فاجرة . . . وحين أعلن
نافخ البوق الإنجيلي يحيط به الرعاع ذوو الأذان الطويلة ، النفير من أجل
الحرب ، ودقت طبول المنبر والكنيسة بجماع الأيدي بدلا من العصى .
عندئذ غادر السيد الفارس مسكنه وامتطى صهوة جواده متزعا الركب . . .
وكان كثيرون من الناس يرون ، أنه كما اشتكى موتاني من أن قطنته حسبته ،
وهو يداعبها ، حماراً ، فلا بد أن القطنة تحسب هو دبراس حمار أو أكثر من
حمار ، وإنما لنسلم بأنه على الرغم مما أوتى من ذكاء شديد ، فإنه ينجبل من
استخدامه ، وكأنا يكره أن يستنفذه ويبلية ، ولذلك لم يظهره أو لم يلبسه
إلا في أيام العطلة أو ما يشابهها ، كما يرتدى الناس أحسن ملابسهم . . . وكان
من اللائم ، من أجل عقيدته ، أن يوفق بين علمه وذكائه ، وكان مذهبه
مسيحياً صادقاً متشدداً ، لأنه كان من بين العصبة العنيدة من القديسين
الضالين الذين يقر الناس جميعاً بأنهم المناضلون الصادقون عن الكنيسة المجاهدة
الذين يبنون عقيدتهم على الرمح والمدفع ، ويحسمون كل الخلافات عند فم
لا تخطئ المرعى ، ويثبتون صحة نظريتهم بالضربات والمسمات . الرسولية . .
فرقة تتمثل أعظم تقواهم في كراهياتهم الحقاء الضالة ، الشاذة فرقة نحرم
على الخطأ في يوم العطلة أكثر من حرص سائر الناس على الصواب ، بجمعة
على الخطايا التي فطرت عليها ، تلعن أولئك الذين لا يفكرون فيها (٤٣) .

وهكذا بما آلم البيوريتانيين أيما إيلام وسر الملك كل السرور . ومنج
شارل المؤلف جائزة قدرها ثلثمائة جنيه . وامتدح كل الملكيين القصيد
فيما عدا بيبي الذي لم يستطع « أن يتبين موضع العبقرية فيها » ، على الرغم
من أنها تعتبر الآن من أحدث طراز من الهزل والسخرية (٤٤) ، وبادر بتل

إلى الاستزادة من الكتابة (١٦٦٤ — ١٦٧٨) ، ولكن لم يمد في جمعته سهام ، ولم تسمع القوافى . وحل النزاع بين البروتستانت والكاثوليك محل النزاع بين الملكيين والبيوريتانيين . ونسى القوم بتلر ، وقضى نحبه مغمورا معدا (١٦٨٠) . وبعد أربعين عاما أقيمت له لوحة تذكارية في كنيسة وستمنستر ، تحمل هذه العبارة « طلب الخبز فنح حبرا (٤٥) » .

وخير من هذا الشعر الهزل المعتل الوزن الذى بتصيد القوافى ، ثركلارندون القمخ فى كتابه « تاريخ الثورة » الذى ظهر فى ١٧٠٧ على — الرغم من أنه كتب فى ١٦٤٦ — ١٦٧٤ — وشهد الناس فى عهد الملكة آن مقدار العناية التى بذلت فى تأليف هذه المجلدات الثمانية ، وروعة أسلوبها ، وكيف كان تصوير الشخصيات أخاذا ، وكيف كانت روح قاضى القضاة الذى ضرب قدما ، طالية ، وبالمثل لعب جلبرت بيرت دورا ليس بهزيل فى كتابه « تاريخ زمانه » الذى لم ينشر ، بأمر منه ، إلا بعد وفاته ١٧٢٤ . أما كتابه « تاريخ إصلاح كنيسة إنجلترا » (١٦٧٩ ، ١٦٨١ ، ١٧١٥) فكان حملا أضخم ، وكان عمرة بحث طويل ، وظهر فى وقت كانت فيه إنجلترا البروتستانتية تخشى إحياء الكاثوليكية . وقدم له مجلسا البرلمان كلاهما الشكر عليه . ووجد فيه الأعداء والمحررون ألفا من الأخطاء . ولكنه لا يزال يحظى بمن يشايحه وينتصر له ، وفى بعض الأحيان يكون موضع ذم وطعن . ولكنه يظل أعظم مرجع فى موضوعه ، وحاول بيرت أن يوسع دائرة التسامح الدينى ، فكسب عداء السوق .

وسعى ثلاثة رجال آخرين إلى تكبير الحاضر بأن يضيفوا إليه صورة من الماضى . وطاف توماس فولر Fuller بأرجاء الأرض الحبيبة متنقلا من بلد إلى بلد ، حيث جمع كتابه « تاريخ مشاهير الرجال فى إنجلترا » (١٦٦٢) ، وأحيا أبطاله الأموات بما روى عنهم من فضلكات وحكايات ودماية وذكاء ، وبما كتب على شواهد قبورهم . وقص أثنوى وود تاريخ أكسفورد ، وجمع أثباتا حوى سير حياة خريجيها ، وللؤلؤات القيمة ١٦ — قصة الحضارة

التي اقتبس منها كثير من المؤلفين خلاصة . وجمع جون أوبري شذرات ممتعة
ظن نحو ٤٢٦ من مشاهير الإنجليز ، على أمل أن ينسق هذه المادة المجموعة
في تاريخ كامل ، ولكن الخمول والمنية حالتا دون طبع « سير الحياة »
قبل ١٨١٣ (٤٦) . وقد شجعنا ذخائره على المضي في طريقنا . وهناك
السكرولونيل (الزعيم) جون هشتشون ، وهو بيوربتاني أيد إعدام شارل
الأول ، وزج به شارل الثاني في السجن ، وما أن أخلى سبيله حق عاجلته
المنية ، وخلدت أرملته لوسي ذكراه في كتاب « حياة كولونيل هتشسون »
وهو كتاب لطيف رفع من مكانة صاحب السيرة . ولكن لوسي كان يعيبها
الوقفات الطويلة فسكات عباراتها أحيانا تمتد إلى صحيفة كاملة أما جون
آريوتنوت ، الطبيب البار ، والصديق المخلص لسويقت وبوب والمسلكة
آن ولستيرين غيرهم ، فإنه انضم إلى حملة المحافظين لوقف الحرب مع فرنسا ،
بأن أصدر في ١٧١٢ سلسلة من النشرات يهجو فيها الأحرار ، ويصف
شخصية خيالية هي « جون بول » الذي أصبح منذ ذلك الوقت رمزا على
التجترا . ويقول جون آريوتنوت عن جون بول :

« أنه شخص أمين شريف صريح في التعامل مع الناس ، سريع الغضب ،
جريء ، متقلب المزاج إذا تعلقته ولاطفته كان سلس القياد ، إن مزاج
جون يعتمد كثيرا على الهواء ، فيرق مزاجه أو يتكدر تبعا لحالة الجو .
وكان جون ذكيا . يدرك مهمته تمام الإدراك ، ولكن ليس على قيد الحياة
إنسان أشد منه إهمالا في إمعان النظر في حساباته ، ولا أكثر انخداعا
بشركائه أو غلمانه أو خدمه . ذلك لأنه رقيق سرح ، مولع بالخمر والهمو
والتسلية . والحق أنه لا يوجد إنسان أشد عناية ببيته ولا أكثر سخاء
في الانفاق من جون (٤٧) » .

وماذا عسى أن يقول سيروليم تمبل إذا وجد أنه اختزل في فقرة من
فصل بلغ الذروة بسكريته ؟ ربما قال — إذا سمحت له آدابه الرفيعة — إن
للورخين أهملوه لأنه لم يحتفظ بامرأتين تطعمان في الزواج ، حتى قضت

إحداهما نحبها ، وأنهكت الأخرى ، أو لأنه لم يبع قلبه لوزراء المحافظين استياء من الأحرار ، أو لأنه لم يغمس هذا القلم في ذم البشر ، ولكن خدم وطنه في هدوء بدبلوماسية ناجحة ، وفي عصر ساد فيه الفساد والفجور ، ضرب لأنجلترا مثلاً صادقاً غير مصطنع لحياة أسرية تزينها الحشمة والوقار . وظل لمدة سبع سنين يتودد إلى دوروتى أوزيورن التى أصبحت رسائلها الرقيقة إليه قطعاً من الأدب الانجليزي (٤٨) وارتضته زوجاً لها رغم معارضة أسرتهما . وتزوجها بعد أن شره الجدرى جمالها . ودخل تمبل معتزك الحياة السياسية ، ولكنه آثر الأعمال التى نأت به عن حمى لندن ، وتجنب « العبودية المفضية اقى تثير البغض والحسد ، والتى تحصى فيها الحركات والسكنات ، والتى يطلقون عليها من قبيل السخرية والاستهزاء ، السلطة والنفوذ » (٤٩) . وكان من أوائل ، من حذروا من أطماع لويس الرابع عشر التوسعية ، وكان المخطط الرئيسى للحلف الثلاثى الذى وقف فى طريق الملك الفرنسى ١٦٦٨ . وعرضت عليه الوزارة فى ١٦٧٤ و ١٦٧٧ ولكنه آثر منصبه الدبلوماسى فى لاهاي . وأدت مفاوضاته للموسومة بالحصافة والنظر الثاقب إلى زواج ماري ابنة جيمس الثانى من وليم الثالث الذى أصبح ملكاً فيما بعد . وهو الزواج الذى مهد الطريق « للثورة الجليلة » . وفى ١٦٨١ اعتزل السياسة وانصرف إلى الدراسة والتأليف فى « موربارك » ، حبيته فى « سرى » وحسبه سويقت جامداً متحفظاً ، ولكن زوجة سير وليم وأخته ، كليهما ، أحبتاه إلى حد العبادة ، على أنه ملك الرحمة والكياسة واللف . وأهم أبحاثه « المعرفة قديمها وحديثها » (١٦٩٠) ، الذى رفع فيه من ذكر الأقدمين وانتقص من قدر العلم الحديث والفلسفة الحديثة ، فى شخص نيوتن وهويز وسبينوزا وليبنز ولوك . وقصيد ينتل لكاتب خطأ جسيماً . فأوى سير وليم إلى حديقته ، وتسلى بابقور . ولم يوفى بلتقى به ثانية .

٥ - إيفلين ويينز

اتفق جون إيفلين مع تومبل في « أنه إذا دخلت الأحزاب في الدولة وتعمقت جذورها فيها ، فمن الحق عندئذ أن يتدخل أفاضل الرجال في الشؤون العامة » (٥٠) ولما بدأت الحرب الأهلية رأى أنه قد آن الأوان لرحيل . وغادر إنجلترا في يولية ١٦٤١ . ولكن وخز الضمير أعاده إليها في أكتوبر ، وانضم إلى جيش الملك في برتنفورد ليشترك في الانسحاب في نفس الوقت الذي وصل فيه . وبعد شهر من الخدمة في الجيش آوى إلى ضيعة أبويه في ووتون في سرى . وفي ١١ نوفمبر ١٦٤٣ عبر البحر ثانية إلى القارة . وطاف على مهل بأرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا وهولنده ، ثم قفل راجعا إلى فرنسا . وفي باريس تزوج من فتاة إنجليزية . وتنقل لبعض الوقت بين فرنسا وإنجلترا ، حتى وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، حيث عاد إلى الوطن (٦ فبراير ١٦٥٢ . ورشا حكومة كرومول لتركه وشأنه . وتبادل الرسائل مع شارل الثاني في منفاه ، وفي ١٦٥٩ بذل جهدا جبارا لتمجيد بعودة الملكية . وبعد ارتقاء شارل الثاني عرش إنجلترا أصبح إيفلين شخصية مرموقة في البلاط ، ولو أنه دمه بالانحلال والفساد ، وشغل بعض المناصب الحكومية الصغيرة ، ولكنه في معظم الأحوال آثر أن يفرس الأشجار ويؤلف ثلاثين كتابا في بيته الريفى . ودون كل شيء من لو كريس إلى سبتاي زيفى . وعجز كتابه « للبحرة » عن تنقية هواء لندن ، ولكن في كتابه « أشجار الغابات » دعا دعوة حارة إلى إعادة تدوير إنجلترا ، وحث الحكومة على فرس الأشجار في مختلف أنحاء لندن ، التي تعد أشجارها اليوم من أعظم مفاخرها ومباهجها . أما كتابه « حياة مسز جودولفين » ، فهو مثل أهل في فضائل النساء وسط عريضة عودة الملكية وصحتها .

ومن ١٦٤١ إلى ٣ فبراير ١٧٠٦ ، قبل وفاته بأربعة وعشرين يوما ، دون إيفلين في مذكراته كل ما رأى وسمع في إنجلترا أو في القارة . وبوصفه

رجلا من ذوى المسكنة لم يكن فى مقدوره أن يسجل من الخطايا أو الآراء الشخصية جداً ، مثل تلك التى تغرينا بقراءة « مذكرات » بيبز المسببة ، ولكن وصفه لمندن أوربا ساعداً كثيراً على اكتناء ماهية العصر . وفى مذكرات ايفلين صفحات رائعة عن « ممر ممبلون (١٠١) » وكان فى بعض الأحيان يفصح عن مكنون صدره فى قطع تفيض بالحُب والحنان والرفقة ، مثلما كتب عن وفاة ابنه وهو فى سن الخامسة . ولم تنشر مذكرات ايفلين إلا فى ١٨١٨ .

إن إشارات ايفلين إلى بيبز فى مذكراته أدت إلى فحص المجلدات الستة المكتوبة بطريقة الاختزال ، والتى كان بيبز قد أوصى بها لكتلية مجلدن فى كمبردج . وحلت رموز المذكرات التى بلغ عددها صفحاتها ٣٠١٢ بعد ثلاث سنوات من جهد شاق ، ونشرت فى ١٨٢٥ ، بعد اختصارها وتنقيتها . وهى الآن ولو أنها لم تستكمل ، تملأ أربعة مجلدات ضخمة . على أنها جعلت من بيبز شخصية من أكبر الشخصيات المعروفة فى التاريخ بالصراحة وعدم الصحة . أما من حيث الصراحة ، فمن الواضح أنه قصد أن تنشر المذكرات إذا قدر لها أن تنشر — بعد وفاته ، لا قبلها — ولهذا حوت تفاصيل كان ينبغى كتمانها فى حياته ، ولا يزال بعضها « غير قابل للنشر » . أما عدم صحتها ، فيرجع إلى أنها تتناول حقبة تقل عن عشر سنوات (١ يناير ١٦٦٠ — ٣١ مايو ١٦٦٩) من حياة بيبز ، ولم تورث سرداً وافياً لعمله فى أركان حرب القوات البحرية الانجليزية ، حيث تدرج فى أعمال ازدادت أهمية من ١٦٦٠ إلى ١٦٨٩ ، وبعد وفاته بزمان طويل تذكره وكرموه على أنه رجل إدارة قدير نشيط مجتهد .

وكان أبوه خياطاً (ترزيا) فى لندن ، وكان ابناً صغيراً لأحد الملاك اتجه إلى العمل والتجارة لأن الابن الأكبر ورث الضيعة طبقاً للقانون . ودخل صمويل كمبردج على منحة ، وحصل على درجتى الايسانس والاستاذية ، ولم يسجل له أية عقوبة . إلا تأييب على « لأنه شوهد يوماً يحتسى الخمر

بشكل غمز ، ، وصرة أخرى لأنه كتب قصة « الحب خداع » التي أعدها فيما بعد . وفي سن الثانية والعشرين (١٦٥٥) تزوج من إليزابيث سلاف ميشيل ابنة أحد الهيجونوت . وفي ١٦٥٨ أجريت له عملية « الحصىة في الكلى » ، ونجحت العملية وظل يحتفل بذكرى نجاحها سنويا بعد ذلك ، تعبيراً عن الحمد والشكر ، كما يظهر من السنوات المسجلة في مذكراته .

وكانت هناك صلة قرابة بعيدة تربطه بسيرادوارد مونتاجو ، فعين بيبز سكرتيراً له ، (١٦٦٠) ورافقه صمويل في الأسطول الذي قاده لإحضار شارل الثاني من المنفى . وقبل أن ينصرم هذا العام عين بيبز كاتباً للعمليات في إدارة البحرية . فثار على دراسة الشؤون البحرية بالقدر الذي سمح له به مطارذته للنساء . ومذ كان رؤساؤه منسكبين أيضاً على هذه الرياضة القديمة ، فإنه سرعان ما أصبح أكثر دراية بتفاصيل البحرية من أميرى البحر كليهما (مونتاجو ودوق يورك) ، إلى حد أنهما اعتمدا على معلوماته . وفي أثناء الحرب مع هولنده (١٦٦٥ — ١٦٦٧) نجح نجاحاً مشهوداً في تموين الأسطول ، وعند تفشى الطاعون لزم عمله في الوقت الذي فر فيه معظم موظفي الحكومة . وفي ١٦٦٨ حين حمل البرلمان على إدارة الأسطول ، وكل إلى بيبز أمر الدفاع عنها ، وبفضل خطابه الذي استمر ثلاث ساعات في مجلس العموم برئت إدارة الأسطول تبرئة لاستحقاقها . وبعد ذلك كتب بيبز لدوق يورك ثلاث مذكرات عرض فيها وجوه النقص والتحلل في هيئة البحرية ، وقد لعبت هذه المذكرات الثلاث دوراً في إصلاح الأسطول . وبذل بيبز جهداً جباراً ، وكان يصحو من نومه عادة في الساعة صباحاً (٥٢) . ولكنه وجد أنه كان يستعين على راتبه الذي يبلغ ٣٥٠ جنيه في العام ، بالهدايا والعمولات والمنح التي يمكن أن يسمي بعضها رشوة ، ولكنها كانت في هاتيك الأيام اللطيفة تعتبر زيادات إضافية مشروعة . وكان رئيسه لورد مونتاجو نفسه قد أوضح له « أنه ليس مرتب أية وظيفة هو الذي يجعل شاغلها غنياً ، ولكن فرصة الحصول على

الأموال وهو يشغلها (٥٣) .

وكل ما ارتسكب يبرز من أخطاء مدون بصراحة خالصة تامة نسبيا .
وليس واضحا أمام أعيننا السبب الذي من أجله احتفظ بها بمثل هذه الأمانة .
إنه أخفها في حذر وعناية طوال حياته ، ودونها بطريقة الاحتزال الخاصة
به ، مستخدما ٣١٤ حرفا مختلفا ، ولم يضع ترتيبا خاصا لنشرها بعد وفاته .
وواضح أنه وجد لذة ومتعة فاستعرض أنشطته اليومية والاضطرابات في
أعضاء جسمه وشجاراته الزوجية ، ومغازلاته وعبه ، وعلاقاته النسائية
الشائنة . إنه - إذا أعاد قراءة هذا السجل - يذنبه وبين نفسه - لا بد أن يشعر
بما يشعر به نحن من رضا خفي إذا نظرنا لأنفسنا في المرآة . وهو يروى
لنا كيف أنه جعل زوجته تخلق له شعره « فوجدت في رأسي وجسمي .
نحو عشرين قملة » وهذا في إعتقادي ، أكثر مما وجدت في هذه السنوات
العشرين (٥٤) . وتعلم أن يحب زوجته ، ولكن بعد مشاجرات كثيرة ،
تميز في بغضها غيظا ، وكثيرا ، على حد قوله ، ما أساء معاملتها ، وفي إحدى
المرات « جذبها من أنفها (٥٥) » . وفي مرة أخرى « لطمتها على عينها
اليسرى لطمة جعلت البائسة المسكينة تصرخ من شدة الألم ، ولكنها
اكتفت وحاولت أن تعضني وتخدشني بأظفارها ، ولكنني تظاهرت بالجل
مما فعلت حتى أمسكت هي عن العويل (٥٦) » ووضع على عينيها ضمادة ،
وانصرف للقاء إحدى خليلاته . وعاد إلى البيت لتناول العشاء ، ثم غادره ،
حيث لقي « زوجة باجول ، فصحبته إلى إحدى حانات الجمعة ، وهناك
لافتها كثيرا ، ثم افترقت عنها إلى امرأة أخرى حاولت أن أطاقتها وأقبلها ،
ولكنها لم ترغب في شيء من هذا ، مما ضايقني كثيرا » .

وقد يبعث على العجب والدهشة أن يكون للرجل مثل هذه الطاقة
الحوية . فاستبدل العشيقه كل بضعة شهر ، وطارده النساء حتى صددنه
عنهن بالدبابيس (٥٧) . واعترف بأنه « وقع في أسراجمال إلى حد غريب (٥٨) » .
وقال « كنت اهتمع في كنيسة وستفستر إلى عظة ، وقضيت الوقت (مباغني

« الله » محمداً النظر في مسز بتلر (٥٩) « وكان يتطلع في شغف خاص ولهف جارف مما يكاد يكون خيانة عظمى - إلى ليدي كاسلين (عشيقة الملك) ، ومنذ وقع نظره عليها في قصر هويتبول « استغرق في النظر إليها (٦٠) » . ولكنّه قنع بشيائها المخصوصة في صف واحد ، وفي هذا يقول « وكان من الخير لي أن أتطلع إلى هذه الثياب (٦١) » ، فلما « عدت إلى البيت وتناولت العشاء وآويت إلى الفراش ، تخيلت أنني أغازل مسزستيوارت (ليدي كاسلين وأعبت معها ، في نشوة قاسرة من السرور (٦٢) » . ولكن نفسه لم تهف إلى فائنات البلاط فحسب . فقد مرت ببابه يوماً مسزديانا ، إحدى جاراته ، فجذبها « إلى البيت وصعدت بها الطابق الأعلى ، وبقيت ألهو وأعبت معها فترة طويلة (٦٣) » . وأخذ مسز لين إلى لامبت (أحد أقسام لندن) « وبعد أن سلّمت رفقتها « صممت » على ألا أعود لمثل هذا ماحييت (٦٤) » وضبطته زوجته ذات مرة يعانق فتاة ، فهددت بالانفصال عنه ، فبدأ من روعها بالوعود والأيمان . وإنطلق إلى آخر عشيقاته . ذلك أنه أغوى وصيفة زوجته - ديبورا ويلكت - وكان يجب أن تمشط ديبورا له شعره ، ولكن زوجته انقضت عليه أثناء مغامرته مع ديبورا . فعاد يقسم ويعدّ يتعهد من جديد ، وطردت الوصيفة ، وأخذ يبرز يتردد عليها وكأن زيارتها جزء من عمله اليومي .

وظلت رغبته الجنسية على حدتها حتى حين ضعف بصره . إن عادة القراءة والكتابة في ضوء الشمعة بدأت تضعف بصره في ١٦٦٤ . ولكن في سنوات العسرة التي تلت ذلك ، بذل في العمل جهداً شافاً بصفة خاصة ، على الرغم من تقاعده . وفي ٣١ مايو دون آخر ما سجل في مذكراته :

« وهكذا ينتهي ما أشك في قدرتي على المضى فيه إطلافاً بنور عيني ، ألا وهو تدوين مذكراتي . ومهما تسكن النتيجة فليس لي ألا أن أنجلد وأحتمل . ومن ثم اعتزمت أن يدونه من حولي بطريقتهم في الكتابة العادية ، ولذلك ينبغي أن أقنع بالألا يسجل إلا ما هو صالح لأن يعرفوه

ويعرفه العالم أجمع . وإذا كان هناك شيء - وهو ليس بالكثير ، بعد أن
ولت كل خليقاتي مع ديبورا ، وقعد في ضعف بصري عن الاستمتاع بأية
ملذات أو مسرات - فلا بد أن أحاول أن احتفظ في كتابي بهامش ، أضيف
فيه ، هنا وهناك ، بعض الملاحظات بخط يدي ، بطريقة الاختزال . وهكذا
أروض نفسي على هذه الطريقة التي لا تقل مرارة عن أن أراي محولا إلى
القبر الذي يتولى الله العلي العظيم إعدادي له ، ولكل المتاعب والمشاق التي
لا بد أن تفتابني عندما أفقد نور عيني . صمويل بييز . »

وتبقى له من عمره بعد ذلك أربعة وثلاثون عاما . وظل يتمهد في عناية
بالغة ما بقي له من نور عينيه ، ولم يعم بصره تماما قط ومنحه الدوق والملك
أجازة طويلة انقطع فيها عن العمل ، عاد بعدها إليه . وفي ١٦٧٣ عين
سكرتيرا لإمارة البحر ، وفي نفس الوقت تحولت زوجته إلى الكاثوليكية .
ولما وقعت مؤامرة البابا على انجلترا اعتقل بييز وأودع سجن لندن
(٢٢ مايو ١٦٧٩) للاشتباه في أن له ضلعا في مقتل جودفري . ثم دحض
الإنهام وأخلى سبيله بعد تسعة أشهر قضاها بين جدران المعتقل . وبقي
بميذا عن الوظيفة حتى ١٦٨٤ ، حيث أعيد سكرتيرا لإمارة البحر كما كان ،
واستأنف العمل على إصلاح البحرية . ولما أصبح رئيسه (دوق بورك)
ملكاً على انجلترا - جيمس الثاني - كان بييز في واقع الأمر على رأس إدارة
القوات البحرية ، ولكن عندما هرب الملك جيمس إلى فرنسا ، أعيد بييز
إلى السجن ثم أفرج عنه وطاش أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره ،
متقاعدا عن العمل وكأنه « مرشد البحرية العجوز » . ووافته المنية في ٢٦
مايو ١٧٠٣ ، وقد بلغ السبعين ، مكللا بالاجلال والاحترام ، مطهرا من
الذنوب والآثام .

وكم كان في هذا الرجل من خلال عموده . لقد عرفنا حبه للموسيقى ،
كما أنه تابع الحركة العلمية ، وكان ضليعا في الفيزياء . وأصبح عضوا في « الجمعية
الملكية » وانتخب رئيسا لها في ١٦٨٤ وكان منزهوا برجولته ، وكان يقبل

الرشوة ، وضرب خادمه حتى جرح ذراعه (٦٥) وقسا في معاملته لزوجته ، وكان فاسقا بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، ولكن كم كان له في الملوك والأدواق من أسوة أخزى وأقبح في مجال الدطارة والفجور ، ومن منا يمكن أن يتمتع بسمعة طيبة لا تشوبها شائبة إذا ترك مثل هذه المذكرات الآمينة ؟ .

٦ — دانيال ديفو : ١٦٥٩ - ١٧٣١

هناك امرأة أفلتت من يد يييز ، تستحق منا هنا انحناءة احترام في شيء من الخدر ، بوصفها « أم القصة الطويلة » في فترة عودة الملكية ، وأول امرأة انجليزية تعيش على قلمها ، إن افراين Aphra Behn جديرة بالذكر من عدة نواح : ولدت في إنجلترا ، وترعرعت في أمريكا الجنوبية . وطادت إلى إنجلترا في سن الثامنة عشرة (١٦٥٨) ، وتزوجت تاجرا لندنيا من أصل هولندي . وتركت انطبعا قويا في نفس شارل لدهائها وذكاها . وأوفدت في مهمة سرية إلى الأراضي الوطيئة ، فقامت بها خير قيام ، واسكنها تلقت أجرا زهيدا إلى حد أنها انصرفت إلى السكتابة ، وسيلة لكسب العيش . وكتبت مسرحيات هزلية فاجرة لاقت نجاحا ملحوظا . وفي ١٦٧٨ نشرت « أوروونوكو » وهي قصة « رقيق ملكي » زنجي ، وحبيبته امواندا . وكانت مزيجا أصيلا من الواقعية والرومانسية أو الخيال . وكان الطريق ممهدا أمام قصة روبنسن كروزو ، وللقصة الرومانسية .

كذلك عاش ديفو على قلمه . وكان من أكثر الأقلام تعددا للجواب والبراعات : وكان أبوه جيمس ديفو قصابا في لندن ، شديد التمسك بذهب البرسبيترين . وكان من المتوقع أن يكون دانيال واعظا ، ولكنه آثر الزواج والعمل والسياسة . وأصبح سبعة أطفال ، وأصبح تاجر جوارب بالجملة . والتحق بجيش دوق مونموت في الثورة (١٦٨٥) ، ثم انضم إلى جيش وليم في الإطاحة بمرش جيمس الثاني وفي ١٦٩٢ أفلاس وبلغت ديوانه

١٧ ألفاً من الجنيهات ، ثم دفع لدائنيه استحقاقهم كاملة تقريباً فيما بعد . وفيما هو يكسب ويخسر . أصدر كتيبات في طائفة من اللوضومات زاهرة بكبر مدهش من الأفكار الأصيلة . في مؤلفه « بحث في للمشروعات » عرض مقترحات عملية متقدمة كثيراً عن زمانه ، في اللصارف ، والتأمين ، والطرق ، ومستشفيات الأمراض العقلية ، والسكيات الحربية ، والتعليم العالي للبنات . وانتقل إلى Tilbary حيث أصبح سكرتيراً لمصنع للقرميد ثم مديراً ، وفي النهاية مالكا له . ولما قدموه إلى وليم الثالث عينه في وظيفة حكومية صغيرة ، وأيد سياسة الملك تأييداً كبيراً إلى حد أنهامه بأنه هولندي أكثر منه انجليزي ، فدافع عنه نفسه في قصيدة رائعة ، عنوانها « الإنجليزي الصميم الأصيل » (١٧٠١) ذكر فيها الإنجليزي بأن الأمة كلها مختلطة الدماء والأعراق ، ولما كان هو نفسه من المنشقين فإنه في ١٧٠٢ نشر كراسة غفلا من اسم للمؤلف ، تحت عنوان « أقصر طريق مع المنشقين » استبق فيها أسلوب سوينف في التسفيه والتسخيف عن طريق اللبالغة ، وهاجم فيها اضطهاد الإنجليكانيين للمنشقين ، باستحسانه اعدام كل منشق يقوم بالوعظ ، وطرده المنشقين الذين يستمعون إليه من المجلترة . وقبض عليه في فبراير ١٧٠٣ ، وحكم عليه بالعرامة والسجن وعذب في للشهر . وأفرج عنه في نوفمبر ، ولكن في نفس الوقت كان مصنع القرميد قد تخرب وتوقف العمل فيه .

وكان الرجل الذي ساعد في الإفراج عنه هو الوزير روبرت هارلى الذي تحقق من مقدرة ديفو الصحفية ، ومن الواضح أنه عقد معه اتفاقاً لاستغلال قلمه ، ومن ثم إتفق ديفو بخدمة الحكومة طيلة بقية حكم الملكة آن . وبدأ فور إطلاق سراحه في إصدار صحيفة ذات أربع صفحات ثلاث مرات في الأسبوع . اسمها « ريفيو » التي ظلت تظهر حتى ١٧١٣ . وكان معظمها بقلم ديفو .

وفي عام ١٧٠٤ / ١٧٠٥ طاف ديفو بأرجاء المجلترة على ظهر جواد .

يدهو للمستر هارلى فى الانتخابات . وفى تلك الأثناء جمع مادة كتابه « جولة فى انجلترا وويلز » . وفى ١٧٠٦ — ١٧٠٧ عمل لحساب هارلى وجودولفين جاسوسا فى اسكتلنده ، وحظيت كراساتة القوية بكثير من القراء كما جلبت إليه الكثير من الأعداء . واعتقل ثانية فى ١٧١٣ وفى ١٧١٥ ، ومرة أخرى أطلق سراحه بناء على وعد بتسخير قلمه فى خدمة الحكومة .

وكان له قدرة على ابتكار كثير من الموضوعات الأدبية . وفى ١٧١٥ نشر بعض مقتطفات يفترض أن كاتبها من السكويكرز . وفى نفس السنة نشر « حروب شارل الثانى عشر » كما يروها « استكلندى فى خدمة السويد » . وأصدر فى ١٧١٧ رسائل بظن أن كاتبها تركى ، يندد بالتعصب للمسيحى . وأسهم فى تحرير مجلة اسمها بحق الضباب « Mist » بتوقيع مراسلين وهميين . وقلما وقع ديفو كتاباته باسمه . وإلى جانب هذه البراعة فى تمثيل شخصيات مختلفة ، جمع ديفو سعة الاطلاع فى الجغرافيا ، وبخاصة جغرافية افريقية والأمريكيتين . وظاهر أنه افتتن بكتاب وايم دامبيير « رحلة جديدة حول العالم » (١٦٩٧) ، وفى إحدى رحلات دامبيير ألفت سفينته للسماة « الثغور الخمسة » مراسيها فى جزر جوان فرنانديز على بعد نحو أربعائة ميل إلى الغرب من شيلى . وكان أحد البحارة الاسكتلنديين يدهمى اسكتندر سلكيرك قد تشاجر مع القبطان ، فطلب إليه أن يتركه فى إحدى الجزر الثلاث ، على أن يزوده ببعض الحاجيات الضرورية . وبقي البحار هناك وحيدا لمدة أربعة أعوام ، حيث أعيد إلى انجلترا ، وهناك قص قصته على ريتشارد ستيل الذى كتبها فى عدد « الرجل الإنجليزى The Englishman » الصادر فى ٣ ديسمبر ١٧١٣ ، كما رواها كذلك لديفو ، وزعم أنه أعطاه بيانا مكتوبا عن مغامرته فى الغربة والوحدة (٦٦) . وحول ديفو هذه الخلاصة إلى قطعة من الأدب . وفى ١٧١٩ نشر أشهر قصة فى القصص الإنجليزى .

وأطبت « حياة روبنسن كروزو ومغامراته العجيبة للدهشة » خيال
اتجملترا . وظهرت منها أربع طبعات في أربع شهور . وهناك مفهوم جديد
للمغامرة والصراع - الصراع الإنسان ضد الإنسان ، ولا صراع الإنسان
للمتعصر ضد الإنسان للتوحش . بل كفاح الإنسان ضد الطبيعة ، صراع
رجل وحيد ، يتملكه خوف حقيقى ، لا يجد أى عون أو مساعدة ، حتى
جاء « التابع المخلص الأمين » ، وبنى حياة من اللواد الخام فى الطبيعة . وتلك
كانت تاريخ حضارة رجل واحد فى مجلد واحد . واعتبرها كثير من القراء
تاريخاً ، حيث لم تروقط فى الأدب من قبل قصة جمعت بين مثل هذه الأشياء
التي تحتل الصدق والكذب فى مثل هذه التفاصيل التي أخذ بعضها بخناق بعض
بشكل طارش . إن تدرس دينو فى المداع الأدبى رفعه من الصحافة إلى الفن .
وعاش دينو فى شئ من بحبوحة العيش فى لندن ، ولكنه لم يتدخل عن
انتاجه الذى لا يبارى . فبما ظل يصدر الكراسات ، أخرج كتباً فى الحجم
الطبيعى ، تضم قصص صغيرة . فنشر فى ١٧٢٠ « تأملات جادة فى حياة
روبنسن كروزو ومغامراته المدهشة » ، « حياة ومغامرات مسز دنسكان
كامبل » (وهى ساهرة مشمودة صماء بكاء) . وبعد ذلك بشهر واحد
« مذاكرات فارس » « وبن تروقاتو » وقد حسبه بت الأكبر تاريخاً وبعد شهر
آخر أخرج « حياة القبطان المهور سنجلتون ومغامراته وقرصناته » وهو
كتاب حوى توقعات مدهشة عن كشف أفريقية . وفى ١٧٢٢ أصدر « هناء
وشقاء مول فلاندرز » و « صحيفة عام الطاعون » ، و « تاريخاً كولونيل
جاك » ، و « الغزل الدينى » ، و « التاريخ التزيه لبيتر الكسوفتش » قيصر
المسكوف الحالى — وهذه هى المرة الثانية التي يستبق فيها فولتير فى
كتابه سير الحياة . وقصد بهذه المجلدات الضخمة أن توفر سبل العيش
لأسرته ، ولكنها بفضل قوة خيال الكاتب وأسلوبه الفياض ، أصبحت
أدباً . وفى « مول فلاندرز » اندس دينو إلى عقل بنى وقلبا ، حتى أفضت
إليه يقعتها بشكل يتضح معه صراحتها وإخلاصها ويدهو إلى تصديقها

ولو ظاهرياً ، حتى تركها في النهاية راضيه « آمنه مطمئنه في خير طافية » وهي في السبعين (٦٧) . أما « صحيفه عام الطاعون » فكانت مدممه بأدق الوقائع والحقائق والاحصاءات ، حتى اعتبرها المؤرخون تاريخاً .

أما عام ١٧٢٤ فلا يشير دهشة كبيرة : ذلك أن ديفو نشر إحدى أمهات قصصه « السيدة السعيدة الحظ » للمعروفة باسم « روكسانا » وهي المجلد الأول من مجلدين يتناولان جولته في ربوع جزيرة بريطانيا العظمى ، و « حياة جون شبرد » وهو يومه بأنه مخطوطة سلمها شبرد إلى صديق له قبل إعدامه . وكانت هذه إحدى السير القصيرة المديدة التي كتبها ديفو عن حياة المجرمين ، ومهدت إحدى سير الحياة واسمها « وغد المرتفعات » (١٧٢٤) الطريق لكتاب سكوت « روب روى » كما مهدت سيرة أخرى هي « حياة جونان ويلد » الطريق أمام فيلدنج . والحق أن أي موضوع شعبي أسأل قلم ديفو ، وأفاض عليه الجنيهاً من خزائن ناشري كتبه ، من ذلك « التاريخ السياسي للشيطان » (١٧٢٦) ، و « خفايا السحر » (١٧٢٠) ، و « السكشاف عن أسرار الدنيا الخفية » ، أو تاريخ حقيقة الأشباح (١٧٢٧) . أضف إلى هذا كله قصيدة في اثني عشر جزءاً « المدل الإلهي » يدافع فيها عن الحقوق الطبيعية لسكل إنسان في الحياة وفي الحرية وفي الناس السعادة . ووسط هبوط ديفو كثيراً إلى مستوى ذوق الشعب وأخيلته ، نرى أنه أسهم اسهاماً مخلصاً في أفسكار جادة : مثل « التاجر الإنجليزي السكامل » (١٧٢٥ — ١٧٢٧) ، و « خطة التجارة الإنجليزية » (١٧٢٨) ، والكتاب الذي لم ينته منه « الرجل الإنجليزي السكامل » ، فإنه في هذه الكتب جميعها قدم معلومات مفيدة ونصائح عملية ، لم تتلاءم في كل الأحوال مع أخلاقيات الانجيل .

وقد لانحبد أخلاقيات ديفو أو سلوكه الأدبي ، ولكننا نملك الاعجاب بمثابرته وجده ، وربما لم يشهد التاريخ قط منذ انجباب رمسيس الثاني ١٥٠ ولداً مثل وفرة ديفو في الانتاج . والشئ الوحيد الذي يسكاد لا يصدق

في ديفو هو أنه القدي كتب كل ما كتب ، لأننا كذلك يتولانا العجب كل العجب من فيه عقل ديفو الذي سخرت فيه قوة الخيال وقوه الذاكرة لهذا العمل الشاق أو الجهد الجهد ، والذي أخرج هذه الأشياء الوهمية للقبولة شكلا إلى أبعد حد في الأدب . وأنا لنعترف بعقريه وشجاعة رجل استطاع مع ضخامة العمل والمجته في انجازه ، أن يحتفظ بهذا المستوى الرفيع في المادة والأسلوب . ففي المائتين والعشرة مجلدات التي أخرجها (إذا صدقنا ما قيل) لا يسكاد للمرء يقع على صحيفة واحدة ملة باهتة ، وإذا اتفق أن كان ديفو أحيانا بليدا غيبيا فإنه كان يفعل ذلك عن عمد ليضيف إلى حكايته شيئا من احتمال الصدق والكذب . ولم يزه أحد في بساطة السرد ووضوحه ، وفي كونه طبيعيا بعيدا عن التكليف إلى حد الاقناع . وهذا كانت عجولته ضربا من ضروب الحظ السعيد له ، حيث لم يسكن لديه فسحة من الوقت للتنميق والزخرف . وأرغمه تدريبه الصحفي ونزعتة الصحفية على الإيجاز والوضوح . وكان أكبر محني في زمانه بكل معاني الكلمة ، ولو أن هذا الوصف ينطبق على ستيل وأديسون وسويقت . فإن صحيفته « ريفيو » مهدت الأرض التي أبتت فيها صحيفة « سبكتاتور » بدوراً منتقاة بشكل أفضل . والحق أن هذا شرف أي شرف ، ولكن أضيف إليه الشهرة العالمية الباقية على مر الدهور لقصة روبنصن كروزو ، وأثرها على قصص المغامرات ، حتى على قصة تختلف اتجاهاتها كل الاختلاف مثل « رحلات جاليفر » . وإذا استثنينا مؤلف ذلك الإتهام الذكي لبني الإنسان (سوبقت في رحلات جاليفر) ، فإن ديفو كان أعظم عقريه في رجال الأدب الانجليزي في عصر زخر بهم .

٧ - ستيل وأديسون

يحدد ريتشارد ستيل أكثر من أي إنسان غيره بداية عصر الانتقال في الأدب ، من عودة لللاكية إلى حكم الملكة آن . واتصف في شبابه

بكل صفات العريضة والمصخب والفجور التي سادت فترة عودة للسكينة .
وله في دبلن ، وكان أبوه موثقا طاما (كاتب عدل) ، وتعلم في مدرسة .
تفارتروهاوس وأكسفورد . وكان حساسا سريع الاحتياج كريما ، وبدلا
من الحصول على درجته الجامعية انضم إلى جيش الحكومة في أيرلنده .
وكان يسف في شرب الخمر اسفا ، ويبارز حتى يقارب أن يصرع خصمه .
وأكسبته التجربة رصانة طابرة ، فبدأ يحمل على المبارزة ، وكتب مقالا
عن « البطل المسيحي » (١٧٠١) جادل في امكان أن يكون المرء سيدا
ماجسدا مهنيا « جنتلمان » مع بقاءه مسيحيا . ووصف الفساد الذي
ساد العصر ، وعاد بذكرة قرائه إلى الكتاب للقدس بوصفه منبع الإيمان
الصادق والخلق القويم ، وناشد الرجال أن يحترموا جمال النساء وعفتن .

وكان في التاسعة والعشرين ، حين وجد أنه حتى الطبقة الوسطى التي
ينتمي إليها ، تتبرم به على أنه واعظ مل ، فعقد العزم على النهوض برسالته
عن طريق الروايات ، وامتدح تنديد جرمي كوايير بالخلاعة والفحش في
المسرح ، فابرى في سلسلة من الملهيات يدافع عن الفضيلة يشن حملات صادقة
على الأوغاد . ولكن هذا الإنتاج لم يبق نجاحا . فالحق أن المسرحيات حوت
مشاهد حية ودلت على ذكاء وموهبة ، ولكن جمهور النظارة أشكسكوا
في حل عقدة الرواية أو في نتيجتها ، وطالبوا بالاهو والتسلية على حساب
الوصايا المشر مهما كان الثمن غالبا ، على حين أن اللندنيين الحصفاء الذين
قد يتعاطفون مع مشاعره ، قلما كانوا يظهرون في المسرح . كيف الوصول
إلى هؤلاء الناس ؟

وقرر ستيل أن يجرب وسيلة يواجههم بها في المقاهي . وفي ١٢ أبريل
١٧٠٩ أخذ ورقة من صحيفة ديفو « ريفيو » وأصدر العدد الأول من
صحيفة تصدر ثلاث مرات في الأسبوع ، أطلق عليها « The Tatlor »
وحررها وكتب معظم مادتها تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » .
ووجهها إلى المقاهي ، حيث أعلن : —

« كل ضروب البسالة والسكرياسة ، وللسرات والتساية ، تلمتقون بها في « مقهى هوايت للسكاكو » والشعر في « مقهى ول Will » والعلم والمعرفة تحت عنوان « جريشيان » . والأنباء الخارجية والداخلية من « مقهى سان جيمس » . أما سائر الموضوعات التي ساقدمها فن عندى أنا .

وكان مشروعا بارعا ، أثار اهتمام رواد المقاهى ، واستقى الأنباء والموضوعات من مناقشاتهم هناك ، وأتاح لريتشارد ستيل أن يعبر عن آرائه دون مقاطعة أو نزاع ، وفي العدد ٢٥ الصادر بتاريخ ٧ يونيه ١٧٠٩ ذكر أنه تلقى رسالة من « سيدة شابة ... ترى فيها لسوء حظ . . حبيبها الذى أصيب مؤخرا بجرح أثناء المباراة » واستطرد ستيل ليبين سخف عادة تحتم أن يدعو الشخص الذى أودى الشخص المسمى ليضيف ضغنا إلى ابالة أو القتل إلى الإساءة ، فإذا تعنى . المباراة أو التحدى إلا هذا !!

سيدى ، أن سلوكك الشاذ فى الليلة الماضية ، وتطاو لك على فى جرأة وحرية طابت لهما نفسك ، كل هذا يدفعنى إلى أن أوجه إليك هذا الإنذار ، لأنك مغرور أحق غير مهذب .. سألتقى بك فى هايدبارك فى ظرف ساعة ، حاملا مسدسا ، وحاول أن تصوبه إلى رأسى ، حتى ألقنك درسا فى آداب السلوك » .

وهنا كان صوت الطبقة الوسطى يسخر من الأرستقراطية . والحق أن الطبقة الوسطى أساسا هى التى زحمت المقاهى .

وفى مقالات أخرى سخر ستيل من بذخ الأرستقراطية ولغوها ومظاهرها الكاذبة وزينتها وزخارفها وملابسها ، وتوسل إلى النساء أن يرتدين الثياب البسيطة ، ويتمتعن عن الحلى والمجوهرات . فإن عقد الاؤلؤ فوق الصدر لا يضيف شيئا إلى الصدر العاجى الجليل الذى يحمله (٦٨) . إن رفته مع النساء كانت تقبلى مع ولعه بالخر . وألح على القول بأنهن بحق يتمتعن بالدكاء وسلامة البنية . ولكنهن إمتدح الكثير من تواضعن وطهرهن — وتلك صفات لم تعترف بها ملهاة فترة عودة الملكية . وقال عن ١٧ — قصة الحضارة

إحدى النسوة « إن حبك لها يعني أنك تنسم بالتححرر في تعليمك »
واعترت تاركى « أن هذه العبارة ربما كانت أرق تحية قدمت لامرأة (٦١) » .
ووصف ستيل ، في إحساس عميق ، مباحث الحياة الأسرية ، والوقع الجميل
لأقدام الأطفال ، وإقرار الزوج بفضل زوجته المسنة وعرفاته الجميلها :

« إنها في كل يوم تدخل على قلبى سرورا أكثر بكثير مما عرفت فيها
أيام كنت أستمتع بجمالها وأنا في نضارة الشباب ، إن كل لحظة في حياتها
تقدم لى أمثلة جديدة على تجاوزها مع ميولى ورغبائى ، وحسن تدبيرها
بالنسبة لمواردى في أوقات اليسر والعسر . إن وجهها أجمل بكثير مما رأيته
لأول مرة . وليس نمة ذبول في تقاطيعه إلا إستطعت أن ألحظه منذ اللحظة
التي حدث فيها نتيجة إهتمام شديد قلق بمصالحى ربما يعود على بالغير . . إن
حب الزوجه أسمى بكثير من ذلك الهوى التافه الذى يسمونه عادة بهذا
الاسم (الحب) ، بقدر هبوط مستوى ضحكات المرحجين العاليه الماحنه
عن مستوى المرح الهادى » الرشيق عند الأماجد المهذبين (٧٠) » .

وكان ستيل قد تزوج مرتين عندما كتب هذا ، وإن رسائله إلى زوجته
لمى نماذج للاخلاص والحب ، ولو أنها سرعان ما تشتمل على اعتذارات
عن عدم الحضور لتناول الطعام فى البيت . إنه أخفق فى أن يكون الرجل
البرجوازي الفاضل الذى كان فى نظره نموذجا للحياة ، فإنه سكر كثيرا
وأنفق كثيرا وإستدان كثيرا ، وإجتاز الشوارع الجانبية ليتحاشى لقاء
أصدقائه الذين أقرضوه المال . وإختفى عن الأنظار ملصا من دائنيه ومراوغة
لهم ، ولكنه فى نهاية الأمر أودع السجن بسبب الدين ، وقارن قارئو
صحيفته « Tallor » بين عذاته وتصرفاته . وأصدر جون دنيس نقدا لاذعا
لآراء ستيل ، وثناقص عدد المشتركين فى الصحيفة واحتجبت عن الظهور
فى ٢ يناير ١٧١١ ، ولكنها تحتفظ بمكاتها فى تاريخ الأدب الإنجليزى ،
لان بين جنباتها بدأت الأخلاقيه الجديدة تعبر عن نفسها ، وبدأت القصة

«لقصيرة تأخذ شكلها الحديث ، كما طور أديسون المقالة الحديثه ، حيث بلغ بها حدا الاتقان والكمال في صحيفه « سبكتانور » .

وولد أديسون وستيل كلاهما في ١٦٧٢ ، وكانا صديقين منذ كانا يدرسان معا في مدرسه تشارترهاوس . وكان والدجوزيف أديسون قسيسا أنجليكانيا ، أشرب ابنه من التقوى والورع ما قوم به كل مساوي ومفاسد فترة عودة الملكية . وكسبت له براعته في اللاتينية منحه دراسيه . وفي سن الثانية والعشرين أعجب إرل هاليفا كس بمواهبه ، إلى حد أنه أفتع رئيس كليته ماجدلن بتحويل الشاب من سلك السكينة إلى خدمة الحكومة . وقال هاليفا كس « يقولون عني أنني عدو لكنيسة ، أولكني لن أعود للإساءة إليها قط ، بعد أن أحتفظ بمستر أديسون بعيدا عنها (٧١) » ولما كانت المقدرة في اللاتينية غير مقرونة بمعرفة اللغة الفرنسية ، وكانت الحاجة إلى معرفة اللغة الفرنسية أساسية عند الدبلوماسيين فإن هاليفا كس خصص لأديسون ثلثمائة جنيه سنويا لينعق منها أثناء إقامته في القلعة . ولمدة عامين تجول أديسون على مهل في أرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا .

وبينا هو في جنيف إرتقت الملكية آن عرش إنجلترا فأبعد أصدقاءه عن مناصبهم ، وانقطع عنه راتبه . ولما لم يبق له إلا دخله الضئيل ، فإنه اشتغل معلما وشرشدا خاصا لسائح إنجليزي شاب ، وطاف معه بأنحاء سويسرا وألمانيا والمقاطعات المتحدة . ولما انتهت هذه المهمة عاد إلى لندن ١٧٠٣ ، وعاش لبعض الوقت في فقريسته التعفف وحسن المظهر . ولكنه كان « مغناطيسا » بجذب الثراء والحظ السعيد . ذلك أنه عندما انتصر دوق مالبورو في معركة بلنهييم في ١٣ أغسطس ١٧٠٤ فتش جودولفين وزير الخزانة عن شخص يخلد ذكر هذا النصر شعرا . وأوصى هاليفا كس بأديسون للقيام بهذا العمل ، واستجاب الشاب الموهوب بقصيدة رنانة « الحلة » ونشرت في نفس اليوم الذي دخل فيه مالبورو العاصمة دخول المنتصر الظافر ، وساعد نجاح القصيدة على أن توطن إنجلترا نفسها على

مواصلة القتال . إن جورج وشنجنطن آثر الشعر المخلق طاليا للنهي كتبه أديسون على سائر القصائد . وإليك أبيانا مشهورة منها :

« ايه ياربة القريض ، أى شعر ترين أن أنشده القوات التى أشتملت فى نفوسها بيران الغضب ، للترامة فى ميدان المعركة ! إنى ليخيل إلى أى أسمع دقات الطبول الصاخبة وصيحات النصر وأتات الموتى يختلط بعضها ببعض وطلقات المدافع المربعة تشق أجواز الفضاء ، وصيحات الحرب تدوى مثل الرعد . وهنا أثبت مالبورو العظيم بروحه العالية أنه راسخ كالطود ، لا يهتز لالتحامات الجيوش المهاجمة ، وفى غمرة الضجة والفرع واليأس ، يشهد كل مناظر الحرب المروعة ، ويشرف على ساحة الموت ثابت الجنان ، يفكر فى هدوء . ويرسل للدفع الوقت المناسب للفرق المتخاذلة ، وينفخ فى المحاربين للتردد من روحه فيدفعهم إلى الالتحام مع العدو ، ويحشد للمعركة المتأرجحة أين تشتد وتحتدم . كما لو أن ملكا من السماء ، بأمر من عند الله يؤول أرض الأعداء بريح طافية (كما حدث مؤخرا لبريطانيا الواهنة) . وفى هدوء ورسالة يسوق مالبورو الماصقة العاتية ، ويطيّب نفسا بتنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى ، فيمتطى صهوة جواده وسط الرياح الهوجاء ويقود الماصقة ويوجهها كيف يشاء . »

وحقق البيت الأخير والتشبيه الملائكى لأديسون العودة سالما إلى وظيفة حكومية تدر عليه راتبا ، بقى فيها طيلة السنوات العشر التالية . وفى ١٧٠٥ عين عضوا فى لجنة الاستئناف ، خلفا لجون لوك . وفى ١٧٠٦ وكيلا لوزارة . وفى ١٧٠٧ أُلحق ببعثة هالينفاكس إلى هانوفر ، التى هيأت لأسرة هانوفر السبيل لارتقاء عرش إنجلترا . وفى ١٧٠٨ اتخذ مقعده فى البرلمان ، ويفضل خدماته الجليلة احتفظ به حتى الممات . وفى ١٧٠٩ أصبح السكرتير الأول لنائب الملكة فى أيرلنده . وفى ١٧١١ أُرِى إلى حد استطاع معه أن يشتري ضيعة فى رجبى بعشرة آلاف جنيه . إن أديسون فى أيام الرخاء لم ينس ستيل . فأنبه على أخطائه ولسكنه

هياً له منصباً حكومياً ، وأقرضه مبالغ كبيرة من المال ، وطالبه مرة واحدة أن يسددها (٧٢) . وعندما صدرت صحيفة «The Tatler» غفلاً من الاسم ، لاحظ إشارة إلى فرجيل كان قد لمح بها إلى ستيل ، وفي «إيزاك بيكرستاف» عرف ثمانية صديقه المتعرف المفلس وسرطان ما اشترك في الصحيفة . وفي ١٧١٠ سقطت حكومة الأحرار ، وفقد ستيل وظيفته الحكومية ، وفقد أديسون كل مناصبه باستثناء عضوية لجنة الاستئناف . واحتفلت صحيفة تاتلر بهذا العام بالاحتجاج عن الظهور . وشارك أديسون وستيل الواحد منهما الآخر آلامه وآماله ، وفي أول مارس ١٧١١ أخرجاً أول عدد من أشهر الدوريات في تاريخ الأدب الإنجليزي .

وظهرت صحيفة «سبكتاتور» يومية - ماعداً يوم الأحد ، في فرخ مطوى ذي أربع أوست صفحات . وبدلاً من تحديد المقالات من مراكز مختلفة . ابتدع المحرر المجهول الاسم ناديا وهما يمثل أعضاؤه قطاعات مختلفة من دنيا الانجليز : سير روجردي كوفرلي سيد من الريف ، سير أندرو فريبورت يمثل طبقة التجار ، ويتحدث السكاكين سنترى باسم الجيش ، أما ول هنيكوم فهو الرجل العصري المتألق ، أما المحامي في دار العدل فيمثل العلم والمعرفة ، ويجمع مستر «سبكتاتور» نفسه بين وجهات نظرم في إطار من المرح اللطيف والسكياسة والدكاء ، مما نفدت معه الصحيفة إلى بيوت الانجليز وقلوبهم جميعاً . وفي العدد الأول وصف مستر سبكتاتور نفسه ، حتى جعل النوادي والمقاهي تحاول الكشف عن شخصيته بالحدس والتخمين :

« قضيت سنوأتى الأخيرة في هذه المدينة حيث يرانى الناس كثيراً في معظم الأماكن العامة ، ولو أن عدد الصفوة المختارة من الأصدقاء الذين يعرفوننى لا يجاوز الستة ، وسألتحدث عنهم في العدد القادم بشكل أدق . ولا يسكان يوجد مكان يأوى إليه الناس بصفة عامة إلا وظهرت فيه ، غافاً حيانا يرونى أوس أننى في حلقة من رجال السياسة في «مقهى ول» ،

مصنفاً بأ كبر إهتمام إلى ما يدور في هذه الاجتماعات الدورية • وأحياناً
أدخن غليونى ، وعلى حين يبدو أنى غير منصت لشيء إلا ساعى البريد ،
فإنى أسترى السمع إلى النقاش الذى يدور على كل مائدة فى الغرفة • وفى
أمسيات الأحد أقصد إلى مقهى سان جيمس ، وانضم أحياناً إلى جماعة
السياسيين الصغيرة فى الحجرة الداخلية ، بوصنى رجلاً يذهب إلى هناك
ليسمع ويستفيد • ووجهى كذلك معروف تمام المعرفة فى « جريفيان »
وفى مقهى « شجرة السكاكو » وفى مسارح « درورى لين » و « هاى
ماركت » على حد سواء • وكانوا يحسبوننى تاجراً فى « البورصة » طيلة
هذه السنوات العشر أو أكثر • وأحياناً حسبوا أنى يهودى من جماعة
السامرة الذين لا يوثق بهم فى « جوناثان » وجملة المقول إنى لأرى حشداً
من الناس إلا حشرت نفسى فى زسرتهم ، ولو أنى لا أبس بننت شفة إلا فى
النادى الخاص بى •

وهكذا أعيش فى هذه الدنيا متفرجاً ، لا واحداً من الجنس البشرى ،
وبهذه الطريقة جعلت من نفسى رجل دولة وسياسة يطيل التأمل والتفكير ،
وجندياً وتاجراً ، وصانعاً ماهراً ، دون أن أمارس العمل فى أى قطاع من
قطاعات الحياة • كما أنى على دراية تامة بشئون الزواج والأبوة ، وأستطيع
تبين وجوه الخطأ فى الإقتصاد وفى الأعمال وفى الإنحراف ، أفضل بكثير
عن يتولون هذه الأمور بأنفسهم ، لأن المتفرجين يسكتشفون أخطاء
يمكن ألا تقع عليها أعين المشتركين فى اللعبة • إنى لم أناصر قط حزباً
فى اندفاع أو عنف • وإنى طافد العزم على أن أقف موقف الحياد الدقيق
بين الأحرار والمحافظين ، إلا إذا اضطرت إلى إعلان الإنحياز إلى أى من
الفرقتين بسبب تصرفات غير ودية من الفريق الآخر • وصفوة القول إنى
كنت طوال حياتى « متفرجاً » وتلك هى الشخصية التى أقصد ألا أحميد
عنها فى هذه الصحيفة •

ويتقدم للمشروع ، جمعت « سيكتاتور » بين الموضوعات الاجتماعية

ودراسات الماديات والسلوك والأخلاق والنقد الأدبي واستعراض أحوال المسرح . وكتب أديسون سلسلة من المقالات عن ملتون أدهش بها انجلترا حين مما بقصيدة « الفردوس المفقود » فوق مرتبة « اليانة » هو ميروس ، « وانية » فرجيل . وتجنبت للنقاشات الخوض في السياسة التي تثير العداوات والتقلبات ، ولكن ألح — واشترك في هذا أديسوق عن طيب خاطر — على دعوه ستيل إلى الإصلاح الاجتماعي . وظهر من جديد شيء من الروح البيوريتانية هذبته المحنة ، كرد فعل للنسكسة التي اجتاحت فترة عودة الملكية ، ولكنها لم تعد الآن انهماكا لاهوتيا كشييا مفزعا في التخويف من الشيطان ومن الخطيئة المهلكة ، بل دعوة إلى الاعتدال والاحتشام موسومة بالتفاؤل مختلفة بالدهاء والظرف . وعلى هذا النسق بدأ عدد ١٠ نوفمبر :

« إنه لما يبعث على الرضا والارتياح أن أرى المدينة العظيمة تلج يوما بعد يوم على طلب ضحيقتي هذه . وتستقبل مقالاتي الصباحية في جدية واهتمام مناسيين . ويقول الناصر أن ثلاثة آلاف نسخة منها توزع يوميا بالفعل . فإذا حسبت أن النسخة الواحدة يتداولها عشرون قارئاً ، وهو تقدير متواضع ، لأحصيت من المریدين ستين ألفاً في لندن ووستمنستر ، أمل أن يلحظوا الفرق بينهم وبين القطيع الطائش من أخوانهم الجبهة الغافلين ، ومذ حظيت بمثل هذا العدد الكبير من القراء فإني لن أدخر وسعاً في أن يكون ما أزوّدكم به من علم ومعرفة مقبولا ، ومن تسلية نافعا مفيداً . ولهذا أحاول أن أحيي الأخلاق بالدعاية وألطف الدعاية بالفضيلة ، لعل قرأني يشقون إذا أمكن ، عن هذا السبيل أو ذاك ، طريقهم إلى التأمل فيما يجري حولهم كل يوم ، رغبة مني في ألا يكون حظهم من الفضيلة قليلا عابرا ، أو مجرد ومضات متقطعة من التفكير ، صبح عزى على أن أتعش ذاكرتهم وعقولهم بين الحين والحين ، حتى أخرجهم من ظلمات اليأس والرهبة والحماقة التي تردي فيها هذا العصر . فإن العقل الذي يخلد إلى الدعة والراحة ولو يوما

واحداً ، يشب على الحماقات والسخافات التي لا يمكن اقتلاعها إلا بالمداومة على تثقيفه تثقيفاً جاداً مباشراً . ولقد قالوا عن سقراط أنه أنزل الفلسفة من السماء لتسكن بين الناس على الأرض ، وكم تهفو نفسه أن يقال عنى أنى أقيمت بالفلسفة من الخافى والمسكنيات والمدارس والجامعات ، لتستقر في النوادي والجمعيات ، وعلى موائد الشاي ، وفي المقاهي .

من أجل ذلك أوصى ، بالنسبة لتأملاتي هذه ، وبصفة خاصة ، الأمرات التي ترى النظام والدقة في حياتها ، أن تخصص في كل صباح ساعة محددة لتناول الشاي والخبز والزبد ، وأنصحها جدياً ، ولغيرها هي ، أن تنابر على تراء هذه الصحيفة ، وتعتبرها جزءاً من تجهيزات الشاي .

واتجهت صحيفة « سبكتاتور » إلى النساء والرجال سواء بسواء ، فعرضت أن تعالج موضوع الحب والجنس ، وتصور « الحب الزائف أقبح وأشد قتلماً من . . . الخيانة في الصداقة أو النذالة والخسة في التجارة وسائر الأعمال (٧٣) . وكتب أديسون يقول : « سيكون من أعظم مفاخر هذه المهمة التي أنهض بها أن تهىء هذه الصحيفة بعض الموضوعات التي يخوض فيها بعض السيدات العاقلات المفكرات على موائد الشاي (٧٤) » . وشجعت الرسائل وطبعت ، وكتب ستيفل نفسه سلسلة من الرسائل التي تشكو الحرمان من الحب والأحباب ، كان بعضها موجهاً إلى خليلاته ، وبعضها دمج المحررون في أسلوب حديث جداً . وجمعت الصحيفة بين الدين والحب . وزودت باللاهوت المعتدل جيلاً بدأ يتسائل عن أثر تخلخل إيمان الطبقات العليا على الأخلاق . وأهابت بالعلم أن يتابع طريقه ، ويدع الكنيسة وحدها حارساً حكيماً يحسكاً على الأخلاق ، فإن حقوق الوجدان ومتطلبات النظام تدل على إدراك الفرد وعقله ، فهو دوماً في دور المراهقة . وخسیر للأخلاق ولسمعادة الإنسان تقبل العقيدة القديمة في خشوع ، وحضور صلواتها وخدماتها والالتزام بمطالمتها ، والمساعدة على خلق الجو المناسب ليوم العبادة الهادئة في كل أبرشية .

« إنى لأجد السرور كل السرور فى يوم الأحد فى الريف ، وكم أتمنى لو أن تقديس اليوم السابع والتعطيل فيه كان مجرد نظام إنسانى ، إذن لأصبح أفضل وسيلة فكر فيها الإنسان لتهديب الجنس البشرى وصقله وتمدينه ، ومن المؤكد أن أهل الريف سيخطون سريعا إلى نوع من المتوحشين والمتبريرين إذا لم يعودوا دوما إلى زمن محدد تجتمع فيه القرية كلها بوجود باسمة فى أبهى حلة ليتدارس أهلها فيما بينهم مختلف الموضوعات ، وليوضح لهم ما ينبغى عليهم أدائه من واجبات ، وليجتمعوا معا لعبادة الله » الكائن الأسمى .

إن يوم الأحد يزبل صدا الأسبوع كله ، لأنه يحمي الأفكار الدينية فى العقول . بل لأنه يجمع بين الرجال والنساء . والكل يبدو فى أحسن صورة (٧٥) .

أما الأدب الذى كان مطية الأباكية والخلاعة طوال الأربعين عاما الماضية ، فقد انحاز الآن إلى جانب الأخلاق والإيمان . وأسهمت صحيفة سيكتاتور فى انقلاب السلوك والأسلوب الذى استبق فى عهد الملكة آن ، بقرن من الزمان ، روح أواسط العصر الفكتورى ، التى قضت بالألا يحترم إلا من هم حقا جديرون بالإحترام ، وغيّرت مفهوم الانجليز عن السيد الماجد « جنتمان » من الرجل ذى اللقب الذى يحسن مغازلة النساء ، إلى المواطن المذهب الكريم النشأة . وفى « سيكتاتور » وجدت فضائل الطبقة الوسطى من يدافع عنها دفاعا مهابا مصقولا . وكان التعقل وحسن التدبير وعدم التبذير أجدى على المجتمع وأثمن لديه من أناقة الثياب وسرعة الحطاطر وكان التجار سفراء الحضارة إلى الشعوب المختلفة . وكانت عائدات التجارة والصناعة عصب الحياة للدولة .

وأحرزت صحيفة سيكتاتور نجاحا ومنزلة رفيعة ليس لهما مثيل فى الصحافة الانجليزية . وكان توزيعها ضئيلا ، لا يكاد يجاوز أربعة آلاف ، ولكن تأثيرها كان عظيما إلى حد بعيد . وكان يباع من مجموعاتها المجلدة

نحو تسعة آلاف نسخة سنويا (٧٦)، وكأنا أدركت انجلترا فعلا أنها لوزن من الأدب . ولكن بمرور الزمن بليت جدتها وخبا بريقها ، وبدأت شخصيات « النادى » تكرر نفسها ، وفقرت حيوية الكتاب المتهوكن ونشاطهم ، وأصبحت عظائهم تبث السأم فى نفوس القراء . وهبط توزيع الصحيفة ، وزادت المصروفات على الإيرادات نتيجة ضريبة التبعة التى فرضت ١٧١٢ . وفى ١٦ ديسمبر ١٧١٢ احتجبت الصحيفة عن الظهور . وواصل ستيل الكفاح فى صحيفة « جارديان » . وأحيا أديسون صحيفة سبكتاتور ١٧١٤ . ولم يطل عمر الصحيفتين كلتيهما ، لأن أديسون كان قد أصبح آنذاك كاتباً مسرحياً ناجحاً ، وأعيدت إليه وظائفه ورواتبه الحكومية .

وفى ١٤ أبريل ١٧١٣ أخرج مسرح « درورى لين » مسرحية « كاتو » لأديسون كتب لها صديقه بوب مقدمة زاهرة بالحكم والأفكار التى عرفت عنه ، مثقلة بالوطنية الشائرة للتفائلة مما ، وأخذ ستيل على طاقه أن يحشد لمشاهدة للمسرحية كل « الأحرار » الفيورين المتحمسين ، فلم يوفق فى ذلك كل التوفيق ، ولكن « المحافظين » انضموا إلى الأحرار فى استحصان وقعة « كاتو » الأخيرة دفعا عن « الحرية الرومانية » (٤٦ ق. م.) وتبارزت صحيفة المحافظين « اجزامنر » مع صحيفة ستيل « جارديان » فى نشوة الابتهاج والاستحسان . واستمر العرض لمدة شهر كامل مع تزايد عدد للترددين على المسرح لمشاهدتها ، حتى قال بوب « لم يكن كاتو محل إعجاب ودهشة رومه فى زمانه قدوما هو موضع إعجاب ودهشة بريطانيا فى أيامنا هذه (٧٧) . واعتبرت كاتو فى القارة أجمل مسرحية « تراجيدية » فى اللغة الانجليزية . وأعجب فولتير بالتزامها بالوحدات ، وعجب كيف أن انجلترا تطبق صبرا على شكسبير بعد مشاهدة رواية أديسون (٧٨) . وهبزا النقد اليوم بها على أنها خطابة ناغمة مضجرة . ولكن أحد القراء وجد أن انتباهه مهدود حتى النهاية بفضل الحكمة المسكة البناء وقصة الحب المدعجة بشكل بارع فى الصراع الأكبر .

وازدادت الآن شعبية أديسون إلى حد قال معه سويفت « أعتقد أنه لو فكر في أن يختار للجلوس على العرش لكان من العسير أن يأبى عليه أحد هذه الرغبة (٧٩) ». ولكن أديسون الذي كان دوماً نموذجاً للاعتدال ، قنع بتعيينه وزيراً في الحكومة ، لثئون أيرلنده آنذاك ، ثم كبير مفوضي التجارة . وكان شخصية محبوبة جداً في النوادي ، لأن إدمانه على الشراب منعه من أن يكون « الرجل الشاذ البشع غاية البشاعة والشذوذ القبي لا يحبه الناس أبداً » . ورغبة منه في تنويع مجده وعظمته ، تزوج (١٧١٦) من كوثيسة ، ولم يكن سعيداً في حياته مع السيدة المتجربة في « هولندهاوس » في لندن . وفي ١٧١٧ عين ثانية وزيراً ، ولكن مقدرته كانت محل نزاع وشك . وسرطان ما استقال بعماش قدره ١٥٠٠ جنيه في العام . وعلى الرغم من تجلده وأدبه الجلم انزلق في عراق مع أصدقائه - ومنهم ستيل وهوب - الذي هجاه بأنه متزمت اعتاد « أن يلعن الناس بالاطراء الباهت الحقير ، فهو : مثل كانوا يقدم لسناتو الهزيل القوانين ، ثم يتخذ مقعده لينمت إلى ما يكال له مد مديح (٨٠) .

وكانت خاتمة حياة ستيل أقل عظمة وجلالا من أديسون . أنه انتخب للبرلمان في ١٧١٣ ، ولكن الغالبية التي تلتحق إلى حزب المحافظين أخرجته بتهمة أن لغته محرقة مثيرة للفتنة . وفاز حزب الأحرار في السنة التالية ، فخطى ستيل بعدة مناصب إدارية تدر عليه مالا ، ولما دلت لفترة من الزمن موارده مع نفقاته ، ولكن ديونه طغت ، وطارده دائنوه ، وآوى إلى ضيعة زوجته في ويلز ، وهناك وافته المنية في أول سبتمبر ١٧٢٩ ، بعد شريكه بعشر سنين . أنهما معا : ستيل بأصائله وحيويته ونشاطه ، وأديسون بذوقه الفني المصقول ارتقيا بالقمة القصيرة والمقال إلى آفاق جديدة من الجودة والالتقان ، وأمهما في ابتعاث الأخلاق من جديد في ذاك العصر ، وحددا طابع الأدب الانجليزي وشكله لمدة قرن من الزمان باستثناء المبقرية البالغة القوة والنف في هذا العصر .

جوناثان سويفت : ١٦٦٧ - ١٧٤٥

كان سويفت يكبر ستيل وأديسون بخمس سنين . ولسكنه صغر بمقد
أحد هاست عشرة سنة ، وبعد الآخر ستا وعشرين . وكان بمثابة شحلة
متأججة سرت من قرن إلى قرن ، من دريدن إلى بوب . ولم يستطع قط
أن يغتفر مولده في دبلن الذي كان طائفاً مثيراً للغضب في إنجلترا . وكـم كان
قاسياً عليه أن يقضى أبوه نحبه قبل ولادته ، وكان الوالد قهرمان قصر
الملك في دبلن . وعهد بالطفل إلى مرضعة حملته منها إلى إنجلترا ، ولم تعد به
إلى أمه إلا عندما بلغ الثالثة من العمر ، وربعا ولدت هذه اللعازات
والمخاطر في نفس الصبي شيئاً من قلق اليتيم . ولا بد أن هذا الشعور ازداد
عمقا في نفسه ، بانتقاله إلى عم له . سرعان ما تخلص منه ، وهو في السادسة
بالحاقه بمدرسة داخلية في كاسكني . وفي سن الخامسة عشرة التحق بترني
كولدج في دبلن ، حيث ظل بها سبع سنين . وشق طريقه في الكلية بصعوبة
لأنه كان مهملًا في اللاهوت بصفة خاصة . وكثيرا ما قصر وعوقب ، وذاق صرامة
الفقر والحُرمان عندما تمرر حظمه الذي تولى الاتفاق عليه ، وأصيب
بانهيار عصبي (١٦٨٨) . وعند موت عمه ١٦٨٩ ، وفي ضربة ثورة أيرلنده
لنصرة جيمس الثاني ، هرب جوناثان إلى إنجلترا ، وإلى أمه التي كانت
تعيش في ليستر على عشرين جنيتها في العام . وعلى الرغم من طول الفراق
بينهما ، انسجبا معا إلى حد معقول ، وتعلم كيف يحبها ، وزارها من حين
إلى حين ، حتى وفاتها (١٧١٠) .

وفي أواخر عام ١٦٨٩ وجد سويفت عملا براتب قدره عشرون جنيتها في
العام مع الإقامة والطعام ، سكرتيرا لسير ولیم تمبل في موربارك . وكان تمبل
حينذاك في أوج عظيمته ، صديقا ومستشارا للملك . ويجدر بنا ألا نقسو
في لومه لاخفاقه في التعرف على العبقرية في الشاب ذي الاثنين والعشرين
ربيعا الذي جاءه ببعض اللاتينية واليونانية ، وبعض الالهجة الايرلندية منع
جهل ما كر باستخدام الشوكة والملعقة وعلاقة الواحدة منهما بالأخرى

على المائدة (٨١) وكان سويغت يجلس مع كبار العاملين في خدمه نمبل ، إلى مائدة سيدم (٨٢) ، الذى لحظ دوما الفرق بينه وبينهم . ولكن نمبل كان فأرسل سويغت ١٦٩٢ إلى أكسفورد ليحصل على درجة الأستاذية . وأوصى به عطوفا ، ولیم الثالث خيرا ، ولكن دون جدوى .

وفى نفس الوقت كان سويغت يكتب مقطوعات شعرية من ذات البيتین . عرض بعضها على دريدن الذى قال له « ياسويغت ، يابن العم ، إنك لن تكون شاعرا أبدا » — وهى نبؤة كانت دقتها تجل عن إحراك الشاب وتقديره . وفى ١٦٩٤ ترك سويغت خدمة نمبل ، مع توصية منه . فعاد إلى إيرلنده ، ورسم قسيسا أنجليكانيا (١٦٦٥) وعين فى وظيفة كنسية صغيرة صغيرة ذات راتب فى كلروت بالقرب من بلفاست . وهناك وقع فى غرام جين دارنج التى سماها « فانيا » ، وعرض عليها الزواج ، ولكنها أمهلته حتى تتحسن صحتها ويزداد دخله . ولما لم يطق صبرا على هذه العزلة القاتلة فى أبرشية ريفية ، هرب من كلروت ١٦٦٩ وعاد أدراجه إلى نمبل وظل فى خدمته حتى مات هذا الأخير .

وكان سويغت فى عامه الأول فى موربارك ، قد التقى بأسترجونسون . التى قدر لها أن تصبح « Stella » . وتناثرت بعض الشائعات بأنها نتاج شيء من طيش سيروليم نمبل ، الذى كان نادرا . والأرجح أنها ابنة تاجر من لندن . التحقت أرملة بخدمة ليدى نمبل . وعندما رآها سويغت لأول مرة كانت فى سن الثامنة ، تبعث على السرور والابتهاج مثل سائر البنات فى هذه السن ، ولكنها كانت أصغر من أن تثير فيه لواعج الغرام والهيام . أما الآن وهى فى الخامسة عشرة ، فقد اكتشف سويغت ، معلمها الذى ناهز التاسعة والمشرين ، أن مفاتنها تثير للشاعر البدائية لدى السكاهن المحروم ، لها عينان سوداوتان يرافقتان ، وشعر أسحم ، وصدر منتفخ ، « رشيقه رشاقة غير معهودة فى البشر . فى كل حركة وفى كل كلمة وفى

كل عمل « (هكذا وصفها سويقت فيما بعد) ، « ركب كل تقاطيع وجهها في أحسن صورة (٨٣) » فكيف لاتقتن هلاوز هذه معلها أبيلاذ (*) .

وعندما توفي تمبل ١٦٩٩ ترك لأستر ألف جنيه واسويقت مثلها . وبعد آمال خائبة في الالتحاق بوظائف الحكومة ، قبل سويقت الدعوة ليكون قسيسا وسكرتيرا لدى أرل بركلى الذى كان قد عين لغوره قاضى القضاة فى أيرلنده . وصل سكرتيرا للرحلة إلى دبلن ، ولكنه هناك فصل عن عمله . فطلب أن يعين رئيسا لكتبة « درف » وهو منصب كان على وشك أن يشغره . ولكن السكرتير الجديد ، لقاء رشوة قدرها ألف جنيه ، خص بالوظيفة مرشحا آخر . واتهم سويقت إرل بيركلى والسكرتير كليهما ، وجها لوجه ، بأنهما « وغدان حقيران » . فعمل على تهدئته بتعيينه قسيسا فى « لاراكور » ، وهى قرية على بعد نحو عشرين ميلا من دبلن ، لايزيد شعبها على خمسة عشر شخصا . والآن فى ١٧٠٠ بلغ دخل سويقت ٢٣٠ جنيها ، وهو دخل حسبه جين وارنج كافيا لإتمام الزواج . ومهما يكن من أمر ، فقد مضت أربع سنوات على مغابته لها فى أمر الزواج ، وفى نفس الوقت كان قد وقعت عينه على أستر . فكتب إلى جين يقول أنها إذا تزودت بقسط من التعليم يؤهلها لتكون شريكة سالحة لحياته ، وتعد بأن ترضى عن كل ما يحب ويسكره ، وتحفف من متاعبه ودراسته ، فإنه يتزوجها دون نظر إلى وسامتها وجمالها أو إلى دخلها (٨٤) .

ومذ كان سويقت وحيدا فى لاراكور ، فإنه كثيرا ما تردد على دبلن . وهناك فى ١٧٠١ حصل على درجة الدكتوراه فى اللاهوت ، وبعد ذلك فى نفس العام « دما أستر جولسون وصديقتها مسز روبرت دنجى ليحضرا وبقيا معه فى لاراكور ، فقدمتا واتخذتا مسكنا بالقرب منه . وفى أثناء تغيبه فى انجلترا شغلتا مسكنه الذى كان قد استأجره فى دبلن وكانت أستر

(*) فيلسوف ولاهوتى فرنسى فى القرن الحدى عشر ، تزوج ثلثته وعشيقته هلاوز .

«ستيللا» تتوقع منه أن يتزوجها ، ولكنه تركها تنتظر طيلة خمسة عشر عاما ، واحتملت هي هذا الموقف الذي وضعها فيه على مضض ، وانتابها الاضطراب والكتابة . ولكن قوة شخصيته وحدة تفكيره ، أخذتا جذوتها وكأنا وقعت تحت تأثير تنويمه المغناطيس حتى النهاية .

وتألفت حدة ذهنه بشكل مباغت حين نشر في ١٠٧٤ في مجلد واحد « معركة الكتب » و « حكاية حوض الاستحمام » . والأول اسهامه وجز لا يستحق الذكر في الجدل حول للزايا النسبية للأدب قديمة وحديثة . أما الثاني فهو عرض هام لفلسفة سويغت الدينية أو غير الدينية . وقال سويغت عندما أعاد قراءه كتابه هذا في أخريات أيامه : « يا إلهي : أية عبقرية أملت على هذا الكتاب ؟ » (٨٥) . وأحبه كثيرا إلى حد أنه في الطبعات التالية أنحفه بمخمسين صحيفة أخرى من الهراء ، على شكل مقدمات واعتذارات . وكان يفاخر ويزهو بأن الكتاب ينم عن أصالة بالغة . ومع أن الكفيسة كانت منذ أمد بعيد قد أكدت أن المسيحية هي « رداء المسيح السليم الذي لاشية فيه » ولكن الإصلاح البروتستانتي مزقه أربا كان أحدا - خصوصا كارليل في Sartor Resortus - لم يطمئن في القوة التي لم يسبق لها مثيل التي رديها سويغت كل الفلسفات والديانات إلى مجرد أردية تستخدم لستر جهلنا المرتجف أو اخفاء رغباتنا الجامحة للفضوحة :

« هل الإنسان نفسه لإرداء بالغ الصغر أو على الأصح مجموعة كاملة من اللباس بكل زخارفها وزركشتها ؟ . أليست الديانة عبادة ، والأمانه حذاء إلى بالوحل ، وحب الذات معطفا ضيقا غاية الضيق ، والغرور قيصا ، أليس الضمير إلا سروالا (بنطلونا) يستر الخلاعة والقذارة ، ولكن من السهل نزعه لخدمه الخلاعه والقذارة كليهما ؟ فإذا وضعت بعض قطع القراء الرخيص أو الثمين في موقع معين من الرداء فإننا بذلك نصنع قاضيا وحكما . ومن ثم فإن وضع بعض الشاش والأطلس الأسود بعضهما إلى بعض يشكل مناسب يصنع لنا أسقفا » (٨٦) .

وجرت استعمارة الرداء هنا بدقة ورقة . أن بيتر (الكاثوليكية) ، ومارتنز (اللاوتوية والانجليكانية) وباك (الكلفنية) تسلموا ، ثلاثهم ، من أبيهم وهو يحتضر ، ثلاثة أردية جديدة متائلة (كتبامقدسة) إلى جانب وصية توجهم كيف يلبسونها ، وتحرم عليهم إبدائها ، أو إضافة خيط واحد إليها أو انتقاص خيط واحد منها ووقع الأبناء الثلاثة في غرام سيدات ثلاث : «دوقة للمال» . «أى الثراء» ، و «آنسة الألقاب الفخمة» «أى الطمع» ، و «كونتيسة السكبرياء» «أى الغرور» . ولكن الأخوة الثلاثة ، رغبة منهم في إرضاء هؤلاء السيدات ، يعتمدون إلى إحداث بعض التغيير في أرديتهم الموروثة . ولما بدا لهم أن التغييرات تتعارض مع وصية أبيهم ، أعادوا تفسير الوصية بتأويلات صادرة عن علماء ومثقفين . أما بيتر فقد أراد أن يضيف حواشي وأهدابا من الفضة (البذخ البايوى) . وسرطان ما اتضح للعلماء الثقة أن لفظة «الهدب أو الحاشية» فى الوصية تعنى عصا الكنيسة الطويلة . وهكذا اختار بيتر الحواشي الفضية ، ولكنه حرم على نفسه عصا الكنيسة الطويلة «السحر» ، وفرح البروتستانت (المحتجون) حين وجدوا أقصى الهجاء والنقد يوجه إلى بيتر : إلى شرائه قارة كبيرة (للمطهر) مكان تطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بمذاب محدود الأجل) ثم يبعه (أى المطهر) فى أجزاء متفاوتة (مكوك الغفران) للمرة بعد الأخرى ، وإلى علاجاته الناجحة الحالية من الآلام طادة (الكفارات) للديدان (أى وخزات الضمير) — وعلى سبيل المثال : «الامتناع عن أكل شئ» بعد العشاء لمدة ثلاث ليال . «وألا يخرج على الإطلاق ريحا من الجانبين دون سبب واضح» (٨٧) ، وكذلك وجه النقد إلى بيتر لا ابتداء «وظيفة الهمس» (أى الاعتراف) «لغير وراحة المصايين بوسواس المرض أو الذين أرهقهم المنفس» و «وظيفة التأمين» (أى مزبد من الغفران) ، «الخلل البالى المشهور (الكاثوليكي) ويعنى به «الماء المقدس» ، على أنه وقاية من الضعف والانحلال . وحيث تزود بيتر بهذه الوسائل والحيل الحكيمة فإنه ينصب نفسه ممثلا للرب ، ويصف

فوق رأسه ثلاث قبعات ذات تاج عال . ويمسك في يده بمصا يختال بها ،
 وإذا رغب الناس في مصافحته ، قدم لهم « كأن كلب مدرب تدريبا جيدا »
 قدمه (٨٨) . ويدعو بيتر إخوته إلى الغذاء ، ولا يقدم لهم غير الخبز ،
 ويؤكد لهم أنه ليس خبزا بل لحما ، ويدحض اعتراضاتهم ويقول « لا فتاعكما
 بأسما لستما إلا شخصين أحتمين جاهلين عنيدين أعميين حقا » ، لن
 استخدم إلا حجة واحدة : والله إنه لحم ضأن طيب طبعى مثل أى لحم
 ضأن فى « ليدنهول ماركت » ، صب الله عليكم اللعنة الأبدية إذا
 صدقتم غير ما أقول (٨٩) . ويثور الأخوان ، ويستخرجان « نسخا
 حقيقية » من الوصية (ترجمة الكتاب المقدس باللغة الوطنية) ، ويشجبان
 بيتر على أنه دجال محتال . وبناء على هذا طرد بيتر أخويه من داره ، ولم
 يستظلا بسقفه منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا (٩٠) . وسرعان ما دب النزاع
 بعد ذلك بين الأخوة : إلى أى حد ينبغي أن يغيرون من أنوابهم الموروثة .
 ويعتزم مارتن ، بعد ثورة غضبه الأولى ، أن يلتزم جادة الاعتدال .
 ويتذكر أن بيتر أخوه . أما بيتر ، فإنه على أية حال يمزق ثوبه أربا (شيع
 كلفنية) . ويصاب بمساة من الجنون والغيرة . ويستطرد سوينف ليصف
 عمليات الريح (ويقصد بها الوحي والالهام) عند العولاسيين - نسبة إلى
 عولس إله الرياح « ويعنى ٣٣ » الوعاظ الكلفنيين . ويسخر كثيرا -
 مسخرية لا يجوز نقلها هنا - من ألفاظهم الأنفية الحادة ومن نظرياتهم فى
 القضاء والقدر ، وتقديسهم الأعمى للنصوص المقدسة (٩١) .
 وإلى هنا ، لم يصب مذهب الكاتب - المذهب الأنجليكانى إلا اليسير
 من الجراح . ولكن سوينف يسترسل فى القصة ، ويغير الأنواب إلى رياح ،
 ومن الواضح أنه ينتمى إلى أن كل الديانات والفلسفات - لا لاهوتيات
 المنشقين فحسب - ليست إلا أضاليل وأوهاما كاذبة سريعة الزوال .
 « إذا استعرضنا الانجازات العظيمة التى تمت فى العالم . . . مثل تسكوين
 الامبراطوريات الجديدة عن طريق الغزو والفتح ، وابتداع ونشر مذاهب
 ١٨ - قصة الحضارة

جديدة في الفلسفة ، واستنباط أديان جديدة ونشرها ، فلسوف نجد أن الذين قاموا بهذا كله ، ليسوا إلا أشخاصا هيأت لهم عقولهم الطبيعية أن يقوموا بانقلابات كبيرة ، بفضل فذائهم وتعليمهم ، ومزاج معين سائد ، بالإضافة إلى تأثير خاص للهواء والمناخ .. لأن عقل الإنسان المستقر في محله ، لا بد أن ترهقه وتغمره أبخرة ورياح صاعدة من القوى والوظائف الجسدية الدنيا لتسقى المخترعات وتجعلها مثمرة (٩٢) .

ويسترسل سويقت في تفصيل فسيولوجي لا يمكن ذكره ، لما بداله أنه مثال رائع لا فراغات داخلية تولد أفكاراً قويه ، من ذلك « المشروع الكبير » لهنري الرابع : ذلك أن ملك فرنسا لم يوح إليه بشن الحرب ضد آل هابسبرج ويستحثه عليها ألا تفكيره في الإستحواذ في طريقه على امرأة (هي شارلوت مونمورنس) التي حرك جهالها في الملك عصارات مختلفة « صعدت إلى مخه (٩٣) » وهذا هو بالمثل ما حدث بسكبار الفلاسفه الذين حكم عليهم معاصروهم بحق بأنهم « فقدوا عقولهم » :

« ومن هذا الطراز كان أبيقور ، ديوجين ، ، أبوللوينيوس ، لوكريشس ، ياراسلسوس ، ديسكارت ، وغيرهم ، ممن لو كانوا على قيد الحياة الآن ، ٠٠ لتعرضوا في هذا العصر المتميز بالفهم ، لخطر واضح ، خطر فصد الدم ، والسياس ، والأغلال ، والحجرات المظلمة واتقش (في السجون) أما الآن فقد يسرنى أن أعرف كيف أنه من الميسور أن نعمل لهذه التصورات والأفكار ، ٠٠ دون إشارة إلى الأبخرة التي تتصاعد من القوى والوظائف الجسديه الدنيا ، حيث تلتقي ظلالاً معتمه على المخ ، فتتقطر أو تتساقط متاهيم لم تضع لها لغتنا الضيقه بعد أسماء غير الجنون أو الخبل (٩٤) . »

ولمثل « هذا الخلل أو التحول في المخ بفعل الأبخرة المتصاعدة والقوى والوظائف الجسديه الدنيا » يمزو سويقت كل الانقلابات أو الثورات التي حدثت في الإمبراطوريه والفلسفه والدين (٩٥) ويخلص إلى أن كل مذاهب الفكر عبارة عن رياح من الألفاظ ، وأن الرجل العاقل لا ينبغي له أن ينفذ

إلى الحقيقة الباطنة للأشياء ، بل يقنع نفسه بالسطح أى بظواهر الأشياء ،
هو بناء على هذا يستخدم أحد التشبيهات اللطيفة التى ينمطف إليها دائماً :
« رأيت فى الأسبوع الماضى امرأة سلخ جلدها ، ولن تصدق أنت بسهولة
إلى أى حد تغير شكلها إلى أسوأ مما كانت (٩٦) » .

إن هذا الكتاب الصغير المخزى الذى وقع فى ١٣٠ صحيفة ، جعل من
سويغت فى الحال « سيد الهجاء » - أو كما سماه فولتير : رابليه آخر فى
صورة متقنة . إن القصص الرمزى أو المجازات إنستت إتساقاً حرفياً مع
معتقد الأنجليكانى التقليدى . ولكن كثيراً من القراء أحسوا بأن
الكاتب متشكك ، إن لم يكن ملحدآ . أما رئيس الأساقفة شارب فإنه
أبلغ الملكة آن أن سويغت لم يفضل الكافر بشئ كثير (٩٧) . وكان من
رأى دوقه مالبورو الصديقة الحميمة للملكة ، أن سويغت :

« حول ، منذ زمن طويل ، كل الديانة إلى « قصة حوض الاستحمام »
على أنها وابعها دطابة . ولكنه كان قد إستاء من أن « الأحرار » لم يكافئوه
بالترقية فى الكنيسة على ما أظهر من غيرة شديدة على الدين بهزله الدنس ،
ولذلك سخر الحادّه ومزاحه ومرحه فى خدمة أعدائهم (٩٨) » .

كذلك نعتة ستيل بأنه كافر ؛ ووصفه فونتنجهام فى مجلس العموم بأنه
« عالم لاهوتى » من العسير أن يشك فى أنه مسيحى (٩٩) . وكان سويغت قد
قرأ هوبز ، وهى تجربة ليس من اليسير نسيانها . ذلك أن هوبز كان قد بدأ
بالخوف ، وانتقل إلى المذهب للمادى ، وانتهى بأن يكون « محافظاً » يناصر
الكنيسة الرسمية .

وكان لرجال الدين قليل من العزاء فى أن سويغت أخرج مؤلفاً فى
الفلسفة :

« إن مختلف الآراء الفلسفية انتشرت فى أنحاء العالم ، وكأنها أمراض
طاعون أصابت العقل » كما نشر صندوق بندوق (١٠٠) الأوبئة التى تعيب
(*) Pandora - فى الأساطير اليونانية - أول امرأة طالية مملكة أرسلتها الآلهة =

الجسم ، مع طارق واحد ، هو أن الطاهون لم يترك شيئاً من الأمل في القاع إن الحقيقة خافية على الناس ، قدر خفاء منابع النيل ، ولا يمكن وجودها إلا في « بوتويا » (المدينة للثالية) (١٠٠) .

ومن الجائز أن سويقت ، لأنه أحس بأن الحقيقة لم تقصد للبشر ، بهذا إصرار شديد كل الفرق الدينية التي ادعت أن مذهبها « هو للذهب الصحيح » . وازدري الرجال الذين زعموا — مثل بايان وبعض الكويكرز — أنهم رأوا الله أو كلوه . وانهى ، مع هوبز ، إلى أنه ضرب من الانتحار الاجتماعي أن تترك لكل انسان الحرية في أن يصنع عقيدته أو مذهبه بنفسه ، حيث لن تكون نتيجة ذلك إلا عاصفة هوجاء من السفافات يصبح معها « بيارستانا » أو مستشفى الأمراض العقلية . ومن ثم طارض سويقت حرية الفكر ، على أساس أن « جمهور البشر مؤهل لطيران قدر ما هو مؤهل للتفكير » (١٠١) . واستنكر التسامح الديني ، وظل لآخر حياته يؤيد « قانون الاختبار » الذي قضى باقضاء غير أتباع الكنيسة الرسمية عن كل الوظائف السياسية والعسكرية (١٠٢) . واتفق مع الحكام الكاثوليك واللوثرين على أنه يجب أن يكون الأمة عقيدة دينية واحدة . وحيث أنه ولد في إنجلترا ، ومذهبها الرمبي هو الأنجليكاني ، فإنه رأى أن الاتفاق العام الكامل على اعتناق هذا المذهب أمر لا غنى له عنه لعملية تمدين الإنجليز ونشر سويقت في ١٧٠٨ بعض القطع : « أحاسيس رجل يتبع كنيسة إنجلترا » ، « والدليل على أن إلغاء المسيحية في إنجلترا قد يستتبع بعض المتاعب والمشاكل وللزعجات » وكان آنذاك في طريقه من الأحرار إلى المحافظين .

وكان أول ارتباط سياسي له — بعد ترك ثمبل — مع الأحرار ، حيث

== زبوس ، هقاه ، ليعر على مرقه بروه يايوس النار . أعطاها زبوس صندوقاً فتحته فانطلقت منه إلى الدنيا كل الملل والأمراض التي تصيب الجسم ، (وفي رواية حديثة أطلقت منه كل نعم الحياة فتبددت وضاعت هباء منثوراً ، ولم يبق إلا مجرد الأمل .

بداله أنهم حزب أكثر تقدمية ، ومن الأرجح أن يجدوا عملا لرجل أكبر عقلا وأقل ثراء . وفي ١٧٠١ نشر كتيباً يناصر فيه حزب الأحرار وكله أمل في الظفر بشيء . ورحب هاليفا كس وسندر لند وغيرهما من زعماء الأحرار ، بالضمامه إلى حزبهم ، ووعدوه خيراً إذا تولوا الحكم . ولكنهم لم ينجزوا ما وعدوا ، ويحتمل أنهم خشوا من أن سويغت رجل لا يسهل قيادته ، وأن قلعه سلاح ذو حدين ، وفي رحلة موسعة من أيرلنده إلى لندن في ١٧٠٥ كسب سويغت صداقة كونجريف وأديسون وستيل . وأهداه أديسون نسخة من « رحلات إلى إيطاليا » وكتب في عبارة الاهداء « إلى جوناثان سويغت ، أحسن رفيق وخير صديق ، أعظم عبقرية في زمانه يقدم خادمه الدليل ، المؤلف ، هذا الكتاب (١٠٣) » ، ولكن هذه الصداقة ، مثل صداقة جوناثان مع ستيل وبوب ، لم تدم ، وأتت عليها بيران سويغت للمتقدمة أو ثورته للتصاعدة .

وفي زيارة أخرى لمدينة لندن ، تسلى سويغت بتدمير منجم دمي . ذلك أن جون بارتريدج ، الاسكافي ، أخرج كل عام تقويماً زاخراً بالنبوءات للؤسسة على حركات النجوم . وفي ١٧٠٨ نشر سويغت تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » تقويماً منافساً . وكان من بين تنبوءات ايزاك ، أنه في الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ٢٩ مارس سيقضى بارتريدج نجه . وفي ٣٠ مارس نشر بيكرستاف في نشوة الانتصار رسالة أعلن فيها أن بارتريدج مات في ظرف بضع ساعات من اللوعده المحدد في النبوءة ، وذكر في تفصيل مقنع ترتيبات الجنازة . وأكد بارتريدج لمدينة لندن بأسرها أنه لا يزال حياً يرزق ، ولكن ايزاك رد بأن هذا محض افتراء . وأدرك طرفاء المدينة المصدعة . ورفع مكتب التسجيلات اسم بارتريدج من سجلاته أما ستيل فإنه اختار ايزاك بيكرستاف امما لمحرر وهمي في صحيفة « تاتلر » عند افتتاحها في السنة التالية .

وفي ١٧١٠ غادر سويغت لارا كور مرة أخرى ، موفداً من الأساقفة

الإيرلنديين ليطلب إلى الملكة آن أن تمديد معونتها إلى رجال الدين الأنجليكانيين في أيرلنده : ورفض جودلفين وسومرز ، وهما عضوان من حزب الأحرار في مجلس الملكة ، للوفاق على هذا إلا إذا وافق رجال الدين هؤلاء ، على التخفيف من حدة « قانون الاختبار » والارضاء من قبضته . وعارض سويقت بشدة التخفيف المطلوب . واكتشف الأحرار أنه كان « محافظا » بالنسبة للمقيدة الدينية . واعترف سويقت عمليا بأنه « محافظ » بالنسبة للسياسة أيضا ، حين كتب : « انى كنت أمقت دوما هذا النهج السياسى . . ألا وهو وضع مصالح ذوى المال في مواجهة مصالح مالكي الأرض (١٠٤) » . ولجأ الى زعيمى المحافظين ، هارلى وبولنجبروك ولقى ترحيبا حارا ، وأصبح بين عشية وضحاها « محافظا » راسخا . وعين محررا لمصحيفة المحافظين « إجازامر » . وأبرز أسلوبه بوضوح عندما وصف نائب حاكم أيرلنده — وهو من حزب الأحرار ، وكان أديسون صديق سويقت ، سكرتيراه :

« ان توماس إرل وارتون . . . بحكم دستور غريب ، قضى بضعة أعوام من سنى اليأس التى تقدم بها عمره ، دون آثار بارزة للشيوخوخة فى جسمه أو فى عقله . وعلى الرغم من مقارفته المستمرة لكل الموبقات التى تلتصق بالجسم والعقل كليهما . . فإنه يذهب دوما إلى الصلاة . ويتحدث حديث الفسق والفجور والتجديف على باب الكنيسة ، فهو مشيخى فى السياسة ملحد فى المقيدة . ولكنه يؤثر الآن أن يفجر مع البابوية (١٠٥) »

وسر الوزراء « المحافظون بهذا الهجاء اللاذع الذى يشبه القتل ، فمهدوا إلى سويقت بكتابة فذلكة « سلوك الحلفاء » (نوفمبر ١٧١١) ، كجزء من حملتهم لاسقاط ما لبورو وانهاى حرب الوراثة الأسبانية ، واحتج سويقت بأن الضرائب الاستثنائية التى فرضت لتمويل الحروب الطويلة ضد لويس الرابع عشر يمكن خفضها بتقصير اسهام انجلترا فى الحروب على البحر ، وأوضح بأجلى بيان هكوى مالكي الأرض من أن عبء نفقات الحرب

وقع على طاقهم أكثر مما على طاق للتجار وأصحاب المصانع الذين كانوا يستفيدون من الحرب . أما بالنسبة لدوق مالبورو فقد قال سويغت « هل كان من حسن الرأي شن الحرب ، أو لم يكن ؟ » . واضح أن الدافع إلى الحرب ، هو الرفع من شأن أسيرة بعينها ، وبعبارة موجزة أنها حرب لحساب القائد ووزارة الأحرار ، وليست حربا لحساب الملك والشعب (١٠٦) وقدر الكاتب رواتب مالبورو وتعويضاته بنحو ٥٢٠ ألف جنيه « وهذا الرقم دقيق (١٠٧) » . وبعد شهر واحد سقط مالبورو وصورت الدوقة زوجته الجريمة الصريحة وهي الوحيدة في إنجلترا التي كان لسانها حادا لا ذما ، مثل لسان سويغت — صورت في مذكراتها المسألة من وجهة نظر الأحرار ، فقالت :

« أن السيدين المحترمين مستر سويغت ومستر برور أمر طافرضا تقسيمهما لبيع ٠٠٠ وكلاهما من اللوهويين القادرين ، وهما مستعدان لتسخير كل مالهيهما لخدمة أية فرية مخزية طالما كانت المكافأة مجزية . لأن كليهما لا يبالي بحمرة الخجل ولا بالسقوط أو الانزلاق من أجل مصلحة سادتهم الجدد (١٠٨) »

وكافأ المحافظون تابعيهما الجديدين . فعينوا ماتيو برور في منصب دبلوماسي في فرنسا حيث أبلى بلاء حسنا . ولم يحصل سويغت على أي منصب ولكنه كان صديقا حميما وثيق الصلة بوزراء المحافظين ، فاستطاع بذلك أن يحصل لكثير من أصدقائه على وظائف تدر مالا وفيرا ولا تقتضي عملا كثيرا . وكان مثال الكرم والعطف على من لم يعارضوه أو يهاجموه . وزعم فيما بعد أنه أهدى لحسين شخصا أكثر خمسين مرة مما أهداه إليه سير ولیم نبل (١٠٩) . واقنع بولنجبروك بمساعدة الشاعر جاي Gay وألح على وجوب استمرار الوزارة في دفع الراتب الذي كان الأحرار يدفعونه لكوننجريف . ولما طلب بوب جمع بعض التبرعات لمعاونته على ترجمة هوميروس ، أمر سويغت كل أصدقائه وكل طلاب الوظائف بالتبرع ،

وأقسم « أن المؤلف لن يشرع في الطبع قبل أن يجمع له ألف جنيه (١١٠) » وغطت شخصيته على مكانة أديسون في الأندية ، وكان في كل ليلة تقريبا يتناول العشاء مع العظماء . ولم يكن يطبق من أحدم أية ممة من ميمات التعالى عليه . وكتب يوما إلى ستيللا « إننى مزهو متكبر إلى حد أنى أجعل اللوردات يأتون إلى ٠٠٠ كان مفروضا أن أتناول العشاء في قصر أشبيرنهام ، ولكن هذه السيدة المنحطة القذرة لم تعرج علينا لنصحبها في عربتها ، ولكنها أرسلت في طلبنا فحسب ، ولذلك أرسلت إليها اعتذارا (١١١) » .

وفي السنوات الثلاث (١٧١٠ — ١٧١٣) في إنجلترا كتب سويغت الرسائل المعجبية التى نشرت فيما بين ١٧٦٦ — ١٧٦٨ تحت عنوان « يوميات إلى ستيللا » . إنه كان في حاجة إلى صديقة حميمة إلى جانبه في العشاء لدى الأدواق والدوقات ، وفي انتصاراته السياسية . أضاف إلى ذلك أنه أحب للمرأة الصابرة ، التى ناهزت الثلاثين آنذاك ، ولكنها ظلت تنتظره حتى يحزم أمره . ولا بد أنه أغرم بها ، لأنه كتب لها أحيانا مرتين في اليوم الواحد ، وأظهر اهتمامه وتعلقه بكل ما يعنىها ، اللهم إلا الزواج . وما كان ينبغى لنا أن نتوقع من مثل هذا الرجل للمستبد للتغطرس ، هذا للزاح الرقيق ، وهذه الألقاب والكنيات الغربية ، والشكات والتوريات ، والحديث للصبيانى ، مما حبه سويغت في رسائله التى لم يتوقع نشرها . أنها وسائل زاخرة بالملاطفة والتدليل ، ولكنها خلو من أى عرض أو اقتراح ، اللهم إلا إذا كانت ستيللا قد قرأت وعدا بالزواج في رسالته للورخة ٢٣ مايو ١٧١١ : « لن أطيل الحديث ، ولكنى أتوسل إليك أن تهدينى حتى يقضى الله أمرا كان مقعولا ، وأن تنق بأن سمادتلك هى غاية ما أصبو وأسمى إليه في كل ما أحمل (١١٢) » ومع ذلك فإنه في هذه الرسالة يطلق عليها « الطفلة للزعجة ، الساذجة الفتاة للمفاج ، البغى ، للمرأة القذرة ، السكبة المحبوبة » ، وغير ذلك من ألقاب التدليل وللملاطفة . وانا لنلمس روح الرجل

حين يقول لها :

« كنت هذا المساء مع الوزير في مكتبه . وحلت بينه وبين المفوع رجل اتهم باغتصاب امرأة . وكان الوزير راغبا في انقاذه ، على أساس فكرة قديعة تقول بأن المرأة لا يمكن أن تغتصب . ولكنني أبلغت الوزير أنه لا يمكن المفوع عن الرجل إلا بناء على تقرير مناسب من القاضي . هذا بالإضافة إلى أنه عازف كان طابث ، ومن ثم فهو وغد ، ويستحق الشنق لتصرفات أخرى . ومن ثم لا بد أن يموت شنقا . ماذا ؟ إنى لا بد أن أدافع عن شرف الجنس اللطيف ، حقا أن الرجل قد ضاعفها مائة مرة من قبل ، ولكن ماذا يعينني في هذا ؟ . هل يجب أن تغتصب المرأة لأنها بنى (١١٣) ؟ » .

وقد تعيننا هلل سويقت الجسيمة على فهم السر في رداة طبعه وسرعة غضبه ، أنه منذ ١٦٩٤ ، وهو في السابعة والعشرين من العمر ، بدأ يعاني من دوام في الأذن الداخلية ومن حين لآخر ، وبشكل لا يمكن التنبؤ به ، أصابته نوبات من الدوار وتشويش الذهن والصمم . ونصح طبيب مشهور هو دكتور رادكليف بأن يوضع سائل مركب داخل كيس في لمة (الشعر الذي يجاور شحمة الأذن) سويقت ، واشتدت به العلة على مر السنين ، وكان من الجائز أن تسبب له الجنون . ويحتمل أنه في ١٧١٧ قال للشاعر ادوار بنج ، مشيراً إلى شجرة ذابلة « إنى سأموت مثل هذه الشجرة سأموت في القمة (١١٤) . » وكان هذا وحده كانيا لينشكك في قيمة الحياة ، وليرتاب قطعاً في وجه الحكمة في الزواج . ومن الجائز أنه كان حينها ، ولكننا لا نستطيع الجزم بهذا . واعتاد على كثرة للشئ اتقاء لهرال جسمه ، فشئ مرة من فارنام إلى لندن : ٣٨ ميلا .

وزاد من شدة مرضه حدة حواسه حدة مؤلمة ، وهي عادة تلازم حدة الذهن وفرط الذكاء . وكان بشكل خاص شديد الحساسية للروائح في شوارع المدن وفي الناس . فاستطاع أن ينبذ ، بمجرد الشم ، من صحة من يتقابل من

الرجال والنساء ، وخلص من هذا إلى أن الجنس البشرى أصابه الذن (١١٥) .
ولذلك كان مفهوم المرأة الجديرة بالحب والإعجاب منسده ينحصر إلى
حد ما في :

« أنها لا يخرج من جسمها الذق هبات كريهة الرائحة تنير الاشمزاز ،
لا من خلف ولا من قدام ، ولا من فوق ، ولا من تحت ، ولا يتصبب منها
العرق البغيض (١١٦) » .

أنه يصف « فادة جميلة في طريقها إلى القراش » ، ونفس المرأة
حين تفيق .

« إن من يرى كورينا في الصباح يتقياً ، ومن يشم رائحتها يصاب بالتسمم » .

إن مفهومه عن المرأة الشابة الجميلة مرتبط بحاسة الشم :

« إن أعز رفيقاتها لم يرينها يوماً تجلس القرفصاء لتتبول ، والك أن نكسهم
بأن هذه المخلوقة الملائكية لم تحس يوماً بضرورات الطبيعة ، فإذا مشت
في شوارع المدينة في الصيف لم يلوث ابطاها ثوبها . وفي حلبة الرقص في
القرية أيام القيظ لن يستطيع أنف أن يشم رائحة أصابع قدميها (١١٧) » .

وكان سويغت نفسه نظيفاً إلى حد التزمت . ومع ذلك فإن كتابات

هذا السكاهن الأنجليكاني تعد من أغش ما كتب في الأدب الانجليزي .
أن تبرمه بالحياة جعله يقذف بأخطائه في وجه زمانه . ولم يبذل أى جهد
في إرضاء الناس ، ولكنه بذل كل الجهد في أن يسيطر ويتحكم ، لأن
الهيطرة خفت من شعوره الخفي بعدم الثقة في نفسه . وقال أنه يكره
(أو يرهب) كل من لا يستطيع أن يأمره (١١٨) ، على أن هذا لم يصدق
على حبه هارلى . وكان غضوباً عند الشدة ، مشغطرساً فظاً وقت الرخاء
والنجاح . وأحب السلطة أكثر مما أحب المال . وعندما أرسل إليه هارلى
بخمسين جنيه كآجر لمقالاته ، رد الحوالة وطالب بالاعتذار ، وكان له
ما أراد ، فسكتب إلى ستيللا « لقد استرضيت مستر هارلى ثانياً (١١٩) » .
وكان يكره الرسميات ويحتقر النفاق . وبداه أن الدنيا تميل إلى قهره ،

وقابل هو المداة بمثله صراحة ، وكتب إلى القاهر بوب :

« إن غاية ما أصبو إليه في كل أعمالي أن أزعج العالم وأضيقه ، لأن أسليه ، فإذا استطعت أن أحقق هذا الغرض دون أن ألحق الأذى بشخصي أو بثروتي ، لكنت أعظم كاتب لا بكل ولا يمل رأيت أنه أنت في حياتك . . إذا فكرت في الدنيا فأرجو أن تجلدها بالسوط بناء على طلبي . لقد كنت أبدا أكره الأمم والوظائف والمجتمعات . وكان كل حيي الأفراد ، إنني أكره طائفة رجال القانون ، ولكنني أحب مستشاراً بعينه أو قاضياً بعينه ، وهكذا الحال مع الأطباء . (ولن أتحدث عن صناعتي) ، والجنود ، والانجليز والاسكتلنديين والفرنسيين ، وغيرهم ، ولكنني أساساً أكره وأمقت هذا الحيوان الذي يسمى إنساناً ، ولو أني من كل قلبي أحب جون وبيتر وتوماس وهكذا (١٢٠) » .

عند هذا الحد يبدو أن سوينت أقل الرجال جدارة بالحب ، ولو أن امرأتين أحبته إلى أن فارقتا الحياة . وأقام في هذه السنوات في لندن قريبا من أرملة غنية تدعى فانو مراي ، وكان لها ابنتان وابنتان ، فإذا لم تيسر له الدعوة إلى موائد العظماء ، كان يتناول المشاء مع « آل فان » . ووقعت الابنة الكبرى « هستر » في حبه وكانت آنذاك في الرابعة والعشرين (١٧١١) ، وهو في الثالثة والأربعين ، وأفصح له عن حبها . فحاول أن يصرف النظر عن هذا باعتباره مرحاً أو مزاحاً طابراً ، وأوضح لها أنه قد كبرت سنه بحيث لم يعد يصلح لها . فأجابت ، يحدوها كل الأمل ، بأنها تعلمت منه في كتبه أن تحب عظماء الرجال قرأت (مونتاني في المرحاض) ، فلماذا لا تحب رجلاً عظيماً إذا وجدته مائلاً أمامها ؟ فرق قلبه ولات قناته بعض الشيء فنظم قصيدة من أجل عينيها فقط « كادينوس وفانيسا » قصيدة تجمع بين المرح والمأساة . وكان « فانيسا » اسمه هو عندها ، أما « كادينوس » فكان تصحيحاً للفظ « ديكائوس » أي الكاهن الكبير .

ذلك أنه في أبريل ١٧١٣ عينته للملكة كارهة رئيسا لكتاتدرائية سان باتريك في دبلن . وسافر إلى هناك في يوبه ليتسلم العمل ، ورأى ستيلا وكتب إلى فانيسا بأنه كاد يموت كتابة وكدا وإستياء (١٢١) وفي أكتوبر ١٧١٣ عاد إلى لندن وشارك في كارثة حزب المحافظين المفاجئة ١٧١٤ . ومنذ فقد السلطان السياسى بعودة الأحرار الذين كان قدها جميعهم ، إلى الحكم في ظل الملك جورج الأول ، فإنه قتل راجعا إلى إيرلنده الكريهة ، وإلى كاتدرائيته . ولم يكن محبوبا في دبلن لأن الأحرار الذين تولوا الآن الحكم كرهوه لنقده الساخر العنيف وخطبه اللاذعة ، كما كرهه المنشقون لإصراره على استبعادهم من الوظائف العامة . واطلقت من الناس أصوات الاستهجان والإزدراء به في الشوارع ، ورجوه بقاذورات البالوعات (١٢٢) ووصف أحد رجال الدين الأنجليسكايين منظر رداثة في قصيدة ثبتها بالمسامير على باب الكاتدرائية :

«يستقبل هذا المعبود اليوم رئيسا ذامذاهب وشهرة غير عادية استخدمها جميعا في الصلاة وفي الدنس ، خدمة للرب والشیطان كليهما ... وهو مكان حصل عليه بالدهاء والقصيد وبوسائل أخرى من أعجب الوسائل . وربما أصبح يروى من أسقفا ، لو أنه آمن بالله (١٢٣) » :

وصمد سوينف للمحنة في شجاعة واستمر يناصر المحافظين ، وعرض أن يشارك هارلى سجنه في برج لندن . وقام بواجباته الدينية ، وألقى المواعظ بانتظام ، ومنح الأسرار المقدسة ، وعاش عيشة بسيطة ، وتصدق بثلاث دخله . وفي أيام الأحد فتحت أبواب مسكنه للقاصدين ، وجاءت سقيللا لخدمة الضيوف ، وسرعان ما خفت كراهية الناس له ، وبدأوا يقبلون عليه . وفي ١٧٢٤ نشر تحت اسم مستعار « م . ب . درايبية » ست رسائل يندد فيها بمحاولة وليم وود جمع أرباح طائلة من إمداد إيرلنده بعملة نحاسية . واستنكر الأيرلنديون هذه المحاولة . وعندما اكتشفوا أن درايبية لم يكن إلا سوينف ، كاد الكاهن المكتئب أن يصبح شعبيا محبوبا تماما .

وربما استطاع سوينف أن يحظى بلحظات من السعادة لو أنه كان في مقدوره أن يحتفظ بالبحر الأيرلندي بين السيدتين اللتين أحبتاه . ولما سكن في ١٧١٤ ماتت مسز فانو سراى ، وانتقلت ابنتها فانيسا إلى أيرلنده لتستغل بعض الممتلكات التي تركها لها والدها في سلبردج ، على بعد أحد عشر ميلا إلى الغرب من العاصمة . ولتكون بالقرب من رئيس الكاتدرائية ، استأجرت مسكنا في زقاق تيرنستيل في دبلن ، على مسافة قصيرة من مسكن ستيللا ، وكتبت إلى سوينف ترجوه أن يزورها ، وإلا ماتت كدأ . ولم يستطع أن يقاوم توسلاتها ، وفيما بين ١٧١٤ — ١٧٢٣ تردد عليها خفية سراى وتكرارآ . ولما ختمت زيارته لها أصبحت رسائلها إليه أشد حرارة وإلتها بآ . وقالت له في إحداها أنها ولدت بهذه « المواطف الجارفة » التي تنتهى كلها إلى شىء واحد : هو حبى لك الذى لا يمكن وصفه أو التعبير عنه . وأبلغته أنه قد يكون من العبث أن يحاول تحويل حبها إلى حب الله ، « فلو أنى غيرة متحمسة فستظل أنت المعبود الذى يجب أن أعبد » (١٢٤) .

وربما فسكر سوينف فى الزواح للخروج من هذا المأزق الذى تورط فيه بين المرأتين اللتين أحبتاه ، وربما طالبت ستيللا ، وهى تعلم أن لها منافسة ، بالزواج على أنه عدالة مطلقة وأبلغ دليل على ذلك أنه تزوجها فعلا فى ١٧١٦ (١٢٥) وواضح أنه طلب إليها كتمان أمر زواجه . واستمرت نعيم بعيدا عنه . ويحتمل أنه لم يباشرها قط . واستأنف سوينف زيارته لفانيسا ، لا مغازلا ، ولا وحشا بهيميا ، بل المفهوم أن قلبه لم يطاوعه على أن يتركها يائسة بلا أمل ، أو أنه خشى أن تقدم على الإبتحار . وأكدت رسائله لفانيسا أنه أحبها وقدرها فوق كل شىء ، وأنه سيكون لها هذا الحب والتقدير حتى آخر لحظة من حياته . وسارت الأمور على هذا المنوال حتى ١٧٢٣ ، حين كتبت فانيسا إلى ستيللا تسألها فى صراحة تامة عن العلاقة بينها وبين رئيس الكاتدرائية . فأخذت ستيللا الخطاب إلى سوينف الذى ركب لفوره

إلى فانيسا ورعى بالخطاب على مائدتها . وروعها بنظراته الغاضبه . وتركها إلى غير رجعة دون أن ينبس ببنت شفة .

وعندما أفاقت فانيسا من غشيتها، تحققت آخر الأمر من أنه كان يخذلها . واجتمعت خيبه الرءاء عندها إلى نزعه جامع في إفناء ما بقى لها من أسباب الصحه والحياة ، وقضت نحبها في بحر شهرين من هذا اللقاء الأخير (٢ يونيه ١٧٢٣) وهى فى الرابعه والثلاثين . وثارت لنفسها فى وصيتها . غألفت وثيقه قديمه كانت قد جعلت فيها سويغت وريثا لها ، ثم أوصت بكل متاعها لروبرت مارشال والفيلسوف جورج بيركللى ، وأمرت بما أن ينشرا دون تعليق رسائل سويغت إليها ، وقصيدة « كادينوس وفانيسا » . وهرب سويغت فى « رحلة إلى الجنوب » فى أيرلنده ، ولم يظهر فى الكاتدرائيه إلا بعد مضى أربعة شهور على وفاة فانيسا .

وعند عودته أنصرف إلى كتابه أشهر وأقصى هجاء وجه إلى الجنس البشرى . وكتب إلى شارلى فورد أنه مشغول بوضع كتاب « يعزق العالم ويهرزه هزاعنيفا بشكل عجيب » (١٢٦) . وانتهى سويغت منه بعد سنه ، وحمل المخطوط بنفسه إلى لندن ، ورتب أمر نشره تحت اسم مستعار ، ورضى بمائتى جنيه تمثاله ، ثم قصد إلى دار الشاعر بوب فى توبكنهام ليستمتع بالعاصفه المرتقبه . وهكذا استقبلت إنجلترا فى أكتوبر ١٧٢٦ « رحلات إلى عدة شعوب بعيدة فى العالم » بقلم لمويل جليلفر . وكان أول رد فعل عام هو الابتهاج بالواقعيه المفصلة فى سرد الأحداث . وإعتبره كثير من القراء تاريخا ، ولو أن أسقف أيرلنديا (كما يقول سويغت) ذهب إلى أنه علمه بأشياء بعيدة الاحتمال : أما معظم القراء فإنهم لم يذهبوا إلى أبعد من الرحلات إلى أرض الأقزام Lilliput وأرض العمالقه Brobdingnag ، وهذا سرد جميل يوضح بطريقه مفيدة النسبيه فى الحكم على الأشياء أو التمييز بينها ، ولم يزد طول الأقزام عن ست بوصات ، ولذلك نفخوا فى جليلفر روحا حترأيدة . من التسمى . وكان الذى يميز بين الأحزاب السياميه لديهم هو

الكموب العالية أو المنخفضة لأحذيتهم . أما الفرق الدينية فهي فريق الذين يؤمنون بسكس البيضة من طرفها الكبير ، وفريق الذين يؤمنون بسكس البيضة من طرفها الصغير . وكان طول العالقة ستين قدما ، وقد هياوا جليلفر مشهدا آخر جديدا من مشاهد البشرية . وحسبه ملكهم حشرة ، واعتبر أوربا بيتا للنمل . ومن وصف جليلفر لأصاليب الحياة ، خاص للملك إلى أن « كل مواطنكم أخصب جنس من الحشرات الطفيلية الصغيرة البغيضة التي تركتها الطبيعة تزحف على سطح الأرض (١٢٧) » . وكانت صدور خادات العالقة ، وهي صدور ضخمة ، تنفر جليلفر (ويشير الكاتب هنا إلى الذسبية في الجمال) .

وتضعف القصة في رحلة جليلفر الثالثة . إنه يشد بالسلاسل والأغلال في دلو إلى « لا بوتا » وهي جزيرة ساجحة في الهواء . يقطنها ويحكمها رجال العلم وللقفون والمخترعون والأساتذة والفلاسفة ، فان التفاصيل التي جاءت في أما كن أخرى لتزود القصة باحتمالات كثيرة ، كانت هنا (في المرحلة الثالثة) سخيفة بعض الشيء ، من ذلك أ كياس الهواء للصغيرة التي يسدها الخدم آذان وأفواه المفكرين العميق التفكير ليفيقوا من شرود الدهن الخطير أثناء تأملاتهم . وأكاديمية لاجادو ، بمخترعاتها وقراراتها الوهمية ، ليست إلا نقدا هزليا لقصة بيكون « قارة الأطلنطس الجديدة » ، وللجمعية الملكية في لندن . ولم يكن سوفيت يثق في جدوى اصلاح الدول أو حكمها بواسطة رجال العلم ، وكان يسخر من نظرياتهم . وفنائها السريع لها . وتنبأ بسقوط كوزمولوجيا نيوتن (آرائه في الكون) « إن الأنظمة الجديدة في الطبيعة ليست إلا أزياء أو أنماطا جديدة قد تختلف من عصر إلى عصر ، وحتى هؤلاء الذين يدعون أنهم يوضحونها على أسس رياضية (تمرضا بكتاب للمبادئ الرياضية ١٩٨٧) لن يكتب لهم النجاح إلا لفترة قصيرة من الزمن (١٢٨) » .

ثم ينتقل جليلفر إلى أرض " اللجناجيين Luggnaggians " الذين

لا يحكمون على أكابر مجرميهم بالموت بل بالخلود .

« فإذا بلغ هؤلاء المجرمون سن الثمانين وهى السن للمعتبرة نهاية الحياة فى بلدهم ، لاتكون فيهم كل الحماقات والسقام والعلل التى فى سائر المسنين فحسب ، بل أكثر منها بكثير ، مما نشأ من توقعاتهم الرهيبة بأنهم ان يموتوا قط ، ولم يكونوا عنيدين شكسين طامعين فيها فى أيدي غيرهم ، مكتبتين طابئين ثرثارين فحسب ، بل كانوا كذلك غير أهل للصداقة ، لا يستجيبون لأية عاطفة أو حب طبيعى ، لم يهبط قط عن حضرتهم . وكان الحسد والرغبات العاجزة هى الشعور السائد بينهم ٠٠٠ وإذا رأوا جنازة ولولوا وتذسروا من أن الآخرين ذاهبون إلى دار الراحة التى لا يأمرون هم أنفسهم فى الوصول إليها ... أبداً وكان هذا أفظع منظر عجز ميت للشهوات رأيت فى حياته . وكانت النساء أشد ازعاجا من الرجال ... ومن هذا الذى سمعت ورأيت ، خفت كثيرا شهوتى الحادة فى البقاء على قيد الحياة (١٢٩) » .

وفى القسم الرابع ببد سويغت الهزل والمزاح إلى شجب قوى ساخر للإنسانية . فان أرض « الهويين » يحكمها جياذ نظيفة وسيمة بهيجة ، تنطق بالحكمة وتتحدى بكل مظاهر المدنية ، على حين أن الخدم الحقراء فيها ، وهم « الياهو المتوحشون » ، هم رجال أفذار كريهو الرائحة ، جشعون نخبورون ، غير متعقلين مشوهون . ومن بين هؤلاء المنحالمين المنحطلين (هكذا كتب سويغت فى أيام جورج الأول) :

« كان هناك رجل حاكم من « الياهو » (ملك) ، أبشع شكلا وأكثر نزوعا إلى الشر والأذى من الآخرين ٠٠٠ وكان لهذا الزعيم عادة شخص مثله محسوب عليه أثير لديه ، صله الوحيد هو أن يلحق قدمي سيده ٠٠٠ ويأتى بنفسه الياهو إلى حظيرته ، ومن أجل هذا كان يسكافاً من حين إلى حين بقطعة من لحم الحمار (علامة على النبالة ؟) ٠٠٠ وكان يبتى عادة فى صله هذا ، حتى يمكن الشور على من هو أسوأ منه (١٣٠) » .

وبالمقارنة ، فان « الهويمين » ، لأنهم متعلقون ، كانوا سفهاء فضلاء ، ولذلك لم يكونوا في حاجة إلى أطباء أو محامين أو رجال دين أو قواد جيوش ، وصعدت تلك الجياد الملهذبة « الماحنة » ببيان جليليفر عن الحروب في أوربا . كما ذهلت أكثر فأكثر لسماعها بالخلاقات التي أدت إلى الحروب — « هل يكون الجسد خبزا أو يكون الخبز جسدا في القربان المقدس ، وهل يكون عصير ثمار معينة دما أم نبيذا (١٣١) » ، وكانوا يقاطعون جليليفر حين يقاخر بالعدد الكبير عن البشر الذي يمكن نفسه بالآلات المعجبية التي اخترعها قومه .

وعندما يعود جليليفر أدراجه إلى أوربا ، نراه لا يسكاد يضيق براحة الشوارع والناس الذين يبدو في نظره الآن أنهم من « الياهو » .

« استقبلتني زوجتي وأسرتني بكثير من الدهشة لأنهم كانوا قد قدروا بماتى . ولكن ينبغى على أن أعترف بصراحة أن منظرهم ملأني بالبغضاء والاستياء والازدراء . . . وما أن دخلت البيت حتى احتضنتني زوجتي بين ذراعيها وقبلتني ، من أجل ذلك رحت في اغشاة لما يقرب من ساعة ، لولا أنني ممتاد على لمس هذا الحيوان البغيض (الإنسان) لأعوام طويلة . وطيلة السنة الأولى لم أكن أطيق وجود زوجتي وأطفالي معي ، حيث كانت راحتهم لا تحتل ٠٠٠ وأول مال أنفقته كان في شراء جوادين صخبرين احتفظت بهما في أسطبل مناسب . وكان السائس أعز ما عندى بعدهما ، لأن الراحة التي تنبث منه في الاسطبل كانت ترد إلى روحي (١٣٢) » .

وفاق نجاح « جليليفر » كل توقعات المؤلف وأحلامه وربما خفف من بغضه للجنس البشري بسبب حاسة الشم . واستمتع القراء باللغة الإنجائزية الواضحة في غير أطناب ، وبالتفاصيل المريضة ، وبالفحش المرح . وتنبأ آربوثنوت للكتاب « رواجاً عظيماً مثل كتاب جون بايان — يقصد كتاب « تقدم الحبيح » . ولا ريب أن سوفت يدين ببعض الفصل لهذا الكتاب ، وبفضل أكبر لكتاب « روبنسون كروزو » ، وربما بشيء من ١٩ - قصة الحضارة

الفضل لكتاب سيرابودي برجراك « التاريخ الهزلى لدولة امبراطورية القمر ». أما الشيء الجديد حقا فهو « الكلبية » أو السخرية الرهيبة في الأجزاء المتأخرة من الكتاب . وحتى هذه وجدت من يعجب بها ، فأن دوقه مالبورو ، وقد بلغت آنذاك أزدل العمر ، غفرت لسويقت هجماتة على زوجها ، إلى جانب حملاته على الجنس البشرى بأسرة . وصرحت بأن سويقت أتى « بأدق وصف يمكن أن يكتب للوك والوزراء والأساقفة والمحاكم . وروى جاي أنها « فى نشوة فاسدة من الابتهاج بالكتاب ، ولا يمكن أن تحمل بشيء آخر » (١٣٣) .

وتكدر انتصار سويقت بنشر قصيدة كادينوس وفانيسا ، فان منفذى وصية هستر فانو صراى أذعنوا لأمرها بنشرها ، ولم يطلبوا من الكاتب ترخيصاً بذلك ، وظهرت فى طبعات مستقلة فى لندن ودبلن وادبره ، وكانت ضربة قاسية للزوجة ستيللا لأنها رأت أن عبارات الحب والهيام التى كانت قد وجهت يوما إليها ، تكررت لفانيسا ، ولم يمس كبير زمن على افتتاح هذا الأمر حتى مرضت ، وقصد سويقت إلى ايرلنده لعيادتها والتخفيف عنها ، وتحسنت صحتها ، وعاد هو إلى انجلترا (١٧٢٧) ، وسرعان ما ترامت إليه الأنباء بأنها تحتضر ، فأرسل تعليقات عاجلة إلى مساعديه فى الكاندرائية بأن ستيللا يجب ألا تلفظ أنفاسها الأخيرة فى مقر رئاسة الكاندرائية (١٣٤) ، وعاد ادراجيه إلى دبلن ، ومرة أخرى أبلت ستيللا بعض الشيء ، ولكنها طارقت الحياة فى ٢٨ يناير ١٧٢٨ ، وهى فى السابعة بعد الأربعين ، وانهارت قوى سويقت ، واشتد عليه المرض فلم يستطع تشييع الجنازة .

وبعدها أقام فى دبلن « مثل فأر مسموم فى جحر (١٣٥) » (كما كتب إلى بولنجبروك) . وكان يقوم بأعمال البر والصدقات ، وأجرى رانيا على مزر دنجلى ، ومد يد المودة إلى ريتشارد شريدان فى محنة شبابه ، وكان فى ظاهره رجلا قاسيا ، ولكنه تأثر تأثراً بالغا بفقر الشعب الايرلندى ، وصمم لكثرة عدد للتسولين من الأطفال فى شوارع دبلن ، وفى ١٧٢٩

أصدر أشد مقالاته التهكمية الساخرة ضراوة ولظهما تحت عنوان « اقتراح متواضع لمنع أطفال الفقراء من أن يكونوا عالة على آبائهم وعلى لدمهم » :

« لقد تأكد لدى كل التأكد ٠٠٠٠ أن الطفل الصغير الصحيح الجسم الذى بلغ من العمر سنة ، يصلح لأن يكون طعاماً شهياً مغذياً صحياً ، إلى أبعد حد ، مطهواً بالغلى البطيء أو مشوياً أو مجمداً أو مسلوقاً ، كما يصلح بالمثل لأن يكون « مفروماً محمراً ، أو يخفنة كثيرة التوابل » . ومن ثم فأنى بكل تواضع ، أعرض على الرأى العام ، أنه من بين اللسان والعشرين ألف طفل للوجودين الآن ، يمكن الاحتفاظ بعشرين ألفاً فقط لتربيتهم وتنشئتهم ، على أن يكون ربعهم من الذكور ، أما المائة ألف طفل الباقون فيمكن عرضهم للبيع إلى ذوى الكسالة والتراخي طول للملكة وعرضها ، مع نصيبهم دوماً إلى الأمهات بالإكثار من ارضاعهم فى الشهر الأخير ، حتى تمتلئ أجسامهم ويكونوا ممحاناً زدان بهم للوائد الفخمة ، إن الطفل الواحد يمكن أن يكون طعام يقدم للأصدقاء ، أما إذا كانت الأميرة تتناول غذاءها وحدها فإن الربع الأمامى أو الخلفى من الذبيحة يكون طبقاً كافياً ، وإذا تبل ببعض الفلفل أو للملح لكان طيب للساق ٠٠٠

أما الذين هم أكثر تدبيراً واقتصاداً فيمكنهم أن يسلخوا الجنة ، وبما جلاها بطلها بطريقة خاصة ليصنعوا منه قفازات لطيفة للسيدات ، وأحذية صيفية للرجال الأيقين ٠٠٠٠

إن بعض الذين جزعوا لهذه الظاهرة اهتموا اهتماماً كبيراً بهذا العدد الضخم من المستين أو للمرضى أو للمقعدين وللموهين ، ورضبوا إلى أن أعمل التفكير فى الوسائل التى يمكن أن تتخذ لتخليص الأمة من هذا العبء الثقيل المحزون ، ولكنى لا أتألم كثيراً لهذه المسألة لأن للمعروف جيداً أنهم يموتون وتبلى أجسامهم فى كل يوم من البرد والجوع والقذارة والهوام ، بالسرعة المتوقعة بداهة . .

وأظن أن مزايا الاقتراح الذى عرضته واضحة متعددة ٠٠٠

وأولى للزاياء ، أن هذا يخلصنا إلى حد كبير من عسدد البابويين (اليسوعيين) الذين يجتاحوننا كل عام ، لأنهم للريون الأساسيون للأمة ، قدر مام ألد أعدائنا وأخطرهم ٠٠٠ ونالها أنه من حيث أن تربية مائة ألف طفل من سن الثانية فما فوق ، لا يمكن أن يتكلف الواحد أقل من عشر شلنات في العام ، فهذا الاقتراح سيتوفر للأمة خمسون ألف جنيه سنوياً ، هذا بالإضافة إلى فائدة اللون الجديد من الطعام الذي يقدم إلى موأند ذوى الثراء والوجاهة ٠٠٠٠ الذين يتعاملون بالدوق الرفيع » ٠٠

إن نتاج يراع سويقت ، ذلك النتاج الغريب ، والثائر أحياناً ، وبخاصة بعد وفاة ستيللا ، يوحى بأنه قد أصابه مس من الجنون ، « إن شخصاً من ذوى المسكنة في إيرلنده (كان يسره أن ينحني كثيراً لميدقق النظر في عةلى) اعتاد أن يقول لى أن عقلى مثل روح مسحورة ، قد يؤذى ويسىء إذا لم أشغله بشيء (١٣٦) » .

وتساءل أحد الأصدقاء : إن مبغض البشرية الكثيب هذا ، والذي تركته الأخطاء الصارخة في بيت من زجاج ، بينها هو يسلقى البشرية بألمنة حداد من الهجاء ، ألا يغنى فساد الناس ومساوئهم جسدك ويستنزف روحك ؟ « « إن غضبه على العالم كان امتداداً لغضبه على نفسه ، فقد أدرك أنه على الرغم من عبقريته ، معتل الجسم مريض النفس ، ولم يكن يفتقر للحياة حرمانه من الصحة والأعضاء السليمة وهدوء البال ، والتقدم الذى يتناسب مع قوة عقله .

وكان آخر مظهر لقسوة الحياة على سويقت ، هو اختلال قواه العقلية يوماً بعد يوم . وازداد بخلة وجشمه ، حتى وسط أصدقائه وقيامه بأعمال البر . فكان يضمن بالطعام على ضيوفه ، وبالنبيل على أصدقائه (١٣٧) . وازدادت نوبات الدوار عنده سوءاً ، فإكان يدرى في أية لحظة منحوسة ينتابه هذا الدوار ليجمعه يتربح ويتلوى من الألم في هيكله أو فى الشارع .

وكان قد رفض أن يضع النظارات على عينيه فضعف بصره وترك القراءة .
ومات بعض أصدقائه ، ونأى بعضهم بنفسه عنه ، اجتناباً لحدة طبيعته
واكتسابه ، وكتب إلى بولنجبروك : « كثيراً ما فكرت في الموت ،
ولكنه الآن لا يغيب عن ذهني أبداً (١٣٩) » وبدأ يتلهف عليه . واحتفل
بיום ميلاده يوم حداد وحزن . وقال « ليس هناك رجل عاقل يرغب في
استعادة شبابه (١٤٠) » . وفي أعوامه الأخيرة كان يودع زأريه دوماً بقوله
« سمعتم مساء ، أرجو ألا أراكم ثانية (١٤١) » .

وظهرت أعراض الجنون التام عليه في ١٧٣٨ . وفي ١٧٤١ عين بعض
الأوصياء ليتولوا شؤونه ، ويراقبوه حتى لا يلحق بنفسه أى أذى في نوبة
من نوبات العنف والجنون التي تصيبه . وفي ١٧٤٢ عانى ألماً شديداً من
التهاب في عينه اليسرى التي تورمت حتى صارت في حجم البيضة . وأحاط به
خمسة من الأتباع ليحولوا يمينه وبين قفء عينه يمينه . وقضى عاماً لا ينطق
ببنت شفة . وأذنت محنته بالإنهاء في ١٩ أكتوبر ١٧٤٥ ، وقد بلغ الثامنة
بعد السبعين . وأوصى بكل ثروته البالغة اثني عشر ألف جنيه لبناء
مستشفى للأمراض العقلية . وورى القراب في كاتدرائيته ، ونقش على ضريحه
عبارة اختارها بنفسه :

« حيث لا يمود السخط المرير يمزق قلبه » .

فهرس

الفصل السابع

كرومول ١٦٤٩ - ١٦٦٠

- ٠ ١ - الثورة الإشتراكية .
- ١٠ ٢ - ثورة أيرلندة .
- ١٣ ٣ - ثورة اسكتلندة .
- ١٦ ٤ - أوليفر حاكماً مطلقاً .
- ٢٣ ٥ - ذروة البيوريتانية .
- ٢٧ ٦ - الكويمكرز .
- ٣٣ ٧ - الموت والضرائب .
- ٣٧ ٨ - طريق المودة : ١٦٥٨ - ١٦٦٠ .
- ٤١ ٩ - ويعود الملك ١٦٦٠ .

الفصل الثامن ملتون ١٦٠٨ - ١٦٧٤

- ٤٥ ١ - جون بنيان ١٦٢٨ - ١٦٨٨ .
- ٥٣ ٢ - الشاعر الغاب ١٦٠٨ - ١٦٤٠ .
- ٦٠ ٣ - المصلح ١٦٤٠ - ١٦٤٢ .
- ٦٧ ٤ - زواج وطلاق ١٦٤٣ - ١٦٤٨ .
- ٧١ ٥ - حرية الصحافة ١٦٤٣ - ١٦٤٩ .
- ٧٥ ٦ - سكرتير اللغة اللاتينية ١٦٤٩ - ١٦٥٩ .
- ٨٦ ٧ - الشاعر المعجوز ١٦٦٠ - ١٦٦٧ .
- ٩٤ ٨ - السنوات الأخيرة ١٦٦٧ - ١٦٧٤ .

الفصل التاسع عودة لللكيه ١٦٦٠ - ١٦٨٥

- ١٠١ ١ - الملك السعيد .

(ب)

- ١١٢ — ٢ — مرجل الدين .
١٢٣ — ٣ — الإقتصاد الإنجليزى ١٦٦٠ - ١٧٠٢
١٣٣ — ٤ — الفن والموسيقى ١٦٦٠ - ١٧٠٢ .
١٤٢ — ٥ — الأخلاق .
١٥٠ — ٦ — العادات .
١٥٦ — ٧ — الدين والسياسة .
١٦١ — ٨ — المؤامرة البابوية .
١٦٨ — ٩ — خاتمة الملهاة .

الفصل العاشر

الثورة الجليلة ١٦٨٥ - ١٧١٤

- ١٧٥ — ١ — الملك الكاثوليكي ١٦٨٥ - ١٦٨٨ .
١٨٦ — ٢ — الاطاحة بالعرش ولللك فى للهد .
١٩٣ — ٣ — إنجلترا تحت حكم وليم الثالث ١٦٧٩ - ١٧٠٢ .
٢٠٣ — ٤ — إنجلترا فى عهد الملكة آن - ١٧٠٢ - ١٧١٤ .

الفصل الحادى عشر

من دريدن إلى سوفت ١٦٦٠ - ١٧١٤

- ٢١٢ — ١ — صحافه حرة .
٢١٥ — ٢ — المسرحيه فى فترة عودة الملكيه .
٢٢٩ — ٣ — جون دريدن - ١٦٣١ - ١٧٠٠
٢٣٩ — ٤ — فى ثبت واحد .
٢٤٤ — ٥ — إيفلين وبيز .
٢٥٠ — ٦ — دانيال ديفو ١٦٥٩ - ١٧٣١
٢٥٥ — ٧ — ستيل وأديسون .
٢٦٨ — ٨ — جوناتان سوفت .

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى. واستمتعنا أيضاً استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم. لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمون بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاضم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة.

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

